

ميجيل لخل استوريلان
 ميجيل لخل استوريلان
 ميجيل لخل استوريلان
 ميجيل لخل استوريلان
 ميجيل لخل استوريلان
 ميجيل لخل استوريلان

السيد الرئيس منديل مكيثية الميسك تدرية



السيد الرئيس

روايه

تأليف : ميغيل أنخل آشورياس
الحائز على جائزة نوبل للآداب
ترجمتها عن الإسبانية : مساهم البطوطي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

- * ميغيل أنخل أستورياس : السيد الرئيس
- * الطبعة العربية الأولى ١٩٨٥ .
- * جميع الحقوق محفوظة
- المؤسسة العربية للدراسات والنشر
- ص. ب. ٥٤٦٠ - بيروت - لبنان
- هاتف ٩٠٠/١ ، تليكس ٤٠٠٦٧ ديركي لبنان
- برقيا موكايت .
- * الناشران : مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م.
- ص. ب. ٥٠٥٧ - ١٣ (شوران) بيروت - لبنان
- هاتف ٨١٠٠٥٥/٦ تليكس ٢٠٦٣٩ دلنا لبنان

منشورات وتوزيع المكتبة العالمية

العراق - بغداد
هاتف 8889352
ص.ب. 6177

الجزء الأول

٢ و ٢٢ و ٢٣ أبريل

في «رواق الرب»

دنع دانغ دونغ، دنغ دانغ دونغ!

ترددت رنات أجراس الكندراتية كالآزير في الآذن، تدعو الناس إلى الصلاة، كالارتداد البقلق من الضياء إلى الظلمة ومن الظلمة إلى الضياء. دنغ دانغ دونغ، دنغ دانغ دونغ دانونغ؛ دانونغ دونغ دانغ دانغ. دنغ دانغ دانغ... دنغ دانغ دانغ... دانونغ...

وجر الشحاذون أرجلهم وسط المطاعم الشعبية الصغيرة في السوق، ضائعين في ظلال الكندراتية المتجمدة، في طريقهم إلى «ميدان السلاح»، على طول شوارع رحيبة كأنها البحار، تاركين وراءهم المدينة منعزلة وحيدة.

كان الليل يجمع بينهم كما هي الحال مع نجوم السماء، فيتلاقون ليَناموا معا في «رواق الرب» القريب من الكندراتية، من غير ثمة رابط بينهم سوى الشقاء؛ يتبادلون الشتائم، وينهالون بألوان اسباب بعضهم على بعض؛ ينشون خصومات قديمة، ويتشاجرون باللقاء الأثرية وبالفضق والمعض أحيانا في سورة الغضب. ولم تعرف الوسائد ولا الثقة طريقها أبداً نحو تلك الأسرة من أقارب الدرك الأسفل. كانوا يرقدون بعيداً بعضهم عن بعض، دون أن يبدلوا ملابسهم. وينامون كاللصوص، رأسهم فوق كل رأس ما لهم: قطع من اللحم، أحذية بالية، أعقاب شموع، حضات من الأرز المطبوخ ملفوفة في أوراق صحف قديمة، حبات برتقال عطنة وأصابع موز معطوبة. تراهم على السلم المفضي إلى الرواق، وجوههم نحو الحائط، يحصون نقودهم، بعضهم بنواجدهم على العملات المعدنية لير واما إذا كانت مزيفة؛ يحدثون أنفسهم، ويتعرضون خزائهم من الطعام ومن السلاح، فهم يتلحجون في نحو الأهم اليومية فقط. من الحجارة وصور من التعاويذ، ويلتزمون في الخفاء قطعاً من الخبز المقدس. ولم يعرف

عن أحدهم أنه أغاث رفيقاه في عنة واجهها ، يعطيهم البخل فيما لديهم من فئات ، وهم في ذلك مثل غيرهم من الشحاذين ، يفضلون اللقاء إلى الكلاب على أن يقدموه إلى أحد الرفاق من بشاطرهم الشقاء .

وبعد أن يشبعوا بهم بطونهم ، يضعوا نفودهم في متدبل يعقدونه سبع مرات ويربطونه على سُرورهم ، يلقون بأجسادهم على الأرض ويستقرقون في أحلام مضطربة حزينة ، وكوايس يرون فيها قطعان الخنازير الجائعة تمر أمام أعينهم ، ونسوة عجاف ، وكلابا بمزقة ، وعجلات مركبات ، وجنازة تتكون من أطراف قس يدلقون إلى الكنتراية تتقدمهم شظية من القمر مصلوبة على عظمة سنان منجملة . وأحيانا ما يستيقظون من نومهم فزعين على صرخة مجنون ضل طريقه في « ميدان السلاح » ، أو على نشيج عمياء تحلم بأن الذباب يغطيها بينما هي معلقة من مسمار كبير كاللحم في حوانيت الجزارين ، أو على خطوات دورية شرطة تخرج من مسجوننا سياسيا وتضربه ، ووراء الموكب نسوة يمسخن آثار اللعاب التي تخلفها الجريح بمناديلهن المغموسة بالعويل ، أو على شخير مريض ينخر فيه الجرب ، أو زفير شحاذة صلبة يكها جبل تبكي من الخوف لأنها تشعر بطفل يتحرك داخل أحشائها . ولكن صرخة الأبله كانت أكثر الأشياء إثارة للحزن . إنها صرخة تشن عنان السماء . صرخة طويلة تكشف الأسرار وتخلو من أي نبرة إنسانية .

وفي أيام الأحاد ، كان يبط على هذه الجماعة الغريبة مكبر داب في منامه على أن ينادي أمه وهو يبكي كالطفل الصغير . وكان الأبله ، عندما يسمع كلمة « أمه » التي تصدر عن شفهي المكبر على هيئة نواح وسباب ، يتصب في مكانه ويلتفت متطلعا إلى جميع الأنحاء أمامه في الرواق ؛ وبعد أن يكتمل استيقاظه ويوقظ رفاقه بصيحاته ، يبكي من الخوف ويشارك المكبر نواحه .

الكلاب تنبح ، وأصوات غريبة تسمع . وينهض المشاكسون من نومهم يزدودا من الضجيج إذ هم يطالبون بالصمت ، فإذا لم يسد الصمت فسوف تأتي الشرطة . ولكن الشرطة لم تكن لتهتم أي اهتمام بالشحاذين ، فلم يكن أي منهم بقادر على دفع قيمة الغرامة . ويهتف « ذو القدم المسطوحة » : « نجيا فرسا » ، وسط ضجيج الأبله وحركاته المضحكة ، الذي أصبح في نهاية الأمر مثار سخيرة للشحاذين ؛ لأن ذلك الأعرج الوعد ذا الألفاظ النابية كان يقلد المكبر في

بعض الليالي أسبوعاً وراء أسبوع . وهكذا كان ذو القدم المسطوحة يقلد الكبير بينما كان الأبله ، الذي يحاكي الاموات في نومه ، يتفرض على كل صرخة دون أن يلتفت إلى الأجسام الملقاة على الأرض ملتفة في دثارات ممزقة . فإذا ما رآه رفاقه على تلك الحال من الجنون وشقوه بكلمات السباب والسخرية الحادة . وكان ينقلب نائماً إذا ما هذه النواح ، مشيحاً بعينه عن وجوه رفاقه الفظيعة ، دون أن يرى شيئاً ، ودون أن يسمع شيئاً ، ودون أن يشعر بأي شيء . ولكنها كانت حكاية كل ليلة ، فبا يكاد يغلفه النوم حتى يوقظه صياح ذي القدم المسطوحة مرة أخرى : « أماء ! » .

وفتح الأبله عينيه مرة واحدة ، كما يفعل من يحلم بأنه يدور ويلف في الفضاء ، ويسط حدقيه أكثر وأكثر وانكمش على نفسه كما لو كان قد أصابه جرح مميت ، وأخذت الدموع تهطل من عينيه . وبعد ذلك ، تسلل إليه النوم وريداً رويداً بعد أن هزمه النعاس وتحول جسده إلى عجينة من النشاء ، وتترددت في ذهنه المكثود مخاوف غامضة . ولكنه ما كاد يخلد إلى نومه حتى أوقفه صوت آخر مختلف بصيح : « أماء » .

كان صوت الشحاذ « فيودا » وهو خلاصي منحنط أخذ يردد بين الضحكة والأخرى في عويل كالعجوز : « يا أم الرحمة ، يا أملنا ، ليحكمك الله ، إننا نضرع إليك نحن المحرومين الضعفاء ... » .

واستيقظ الأبله ضاحكاً ، وبدأ كما لو أنه يضحك هو الآخر من بؤسه وجوعه حتى تطفئ الدموع من عينيه ، بينما الشحاذون يقرعون الهواء بضحكاتهم وقهقهاتهم ، ضحكاتهم ... وقه ... قها ... تم . وفقد رجل سمين ، ينضح شارباه بمرق الخضار ، أنفاسه من كثرة الضحك ، بينما لم يستطع واحد منهم ذو عين واحدة أن يمحصر بوله وأخذ يضرب رأسه في الحائط كالتيس ، أما العميان فأخذوا يشكون بأنهم لا يستطيعون النوم وسط هذه الجلبة ، وكذلك الشحاذ الذي يكنى « بالذبابه » ، الذي قال إن اللواطيين فقط هم الذين يستريحون إلى مثل ذلك الجو .

ولم يلتفت أحد إلى احتجاجات العميان . أما ملاحظة « الذبابه » فلم يكدها سمعها أحد . ومن ذا الذي يسمعه الترهات التي يرددونها ... وأنا الذي قضيت

طفولي في معسكر المدفعية ، وقد صنعت أقدام البغال ورفسات الضباط مني رجلاً . رجلاً يستطيع أن يعمل كالحصان ، وهذا ما نفعتني حين اضطرتت إلى أن أجزّ آلة الموسيقى في الشوارع ؛ أنا الذي فقدت بصري في إحدى الحانات ، ولا أعلم كيف ، وساقى اليمنى في حانة أخرى ، ولا أعلم متى ، وساقى الأخرى في حانة ثالثة ، ضحية سيارة ، ولا أعلم أين .

وذاع بين سكان الحي على لسان الشحاذين أن الأبله يفقد صوابه إذا ذكر أحد أمه أمامه . وكان هذا التعس يطوف الشوارع والميادين والساحات والأسواق محاولاً الحرب من الإدماء الذين يصبحون به هنا وهناك بكلمة « أماء » ، كأنما هي لعنة من لعنات السماء . وكان يذلف إلى المنازل محاولاً الاختباء فيها ، ولكنه يعود إلى الطريق حين يطرده منها الكلاب نارة والخدم نارة أخرى . كانوا يطردونه من الكنائس ، ومن الحيوانات ، ومن كل الأنحاء ، دون اعتبار للتعجب الذي يأخذ بخناقهم ، ولا لحيثه اللتين كانتا تتضرعان دوماً شعور طلباً للمغفرة .

وأخذت المدينة الكبيرة ، التي كانت تزداد كبراً بالنسبة إلى شدة تعبها ، تتضائل وتتضائل أمام ما يشعر به من يأس . كانت ليالٍ من الفزع تتتابع بعد أيام من الاضطهاد ، حيث كان يطارده أناس لا يكتفون بالصياح في وجهه : « سوف تزوج أمك يوم الأحد القادم أيها الأبله الصغير . . . أمك العجوز . . . ها . . . ها . . . ها » ، ولكنهم كانوا يضربونه أيضاً ويمزقون ملابسه . وحين يطارده الأطفال كان يلنحى إلى الأحياء الفقيرة . . . ولكن مصيره فيها لم يكن أفضل سوءاً . كان الناس هناك يعيشون في هذه من الفقر المدقع ، ولم يكتفوا بقذفه بالإهانات ، ولكنهم كانوا يرمونه أيضاً بالحجارة وبالفران المينة ويعلب الصفيح الفارغة ، بينما هو يجري أمامهم في رعب وفزع .

وفي يوم من الأيام ، عاد من تجواله في الضواحي إلى « رواق الرب » حين كان جرس صلاة الظهر يذيق ، وكان عاري الرأس جريح الجبهة ، يمر خلفه ذبل قطة يبطوه إلى قدمه للسخرية منه . كان كل شيء يثير فيه الفزع : ظلال الهدران ، الكلاب التي تجري ، الأوراق التي تتساقط من الأشجار ، ضجيج عجلات السيارات . وحين وصل إلى الرواق ، كان الظلام قد انسدل ، وكان الشحاذون يجلسون ووجوههم إلى الحائط يحصون مكاسبهم . كان « ذو القدم المسطوحة » يتشاجر مع « الذبابة » ، بينما الصباة البكاهة تتحسب بطنها المتكور ،

والعمياء معلقة في أحلامها من الخطاف يغطيها الذباب كأنها قطعة من اللحم في حانوت الجزار . وسقط الأبله على الأرض كأنه قد مات . لم يكن قد أغلق عينيه منذ عدة ليال ، ولا أراح قدميه أياماً . كان الشحاذون يهرشون مكان لدغات القمل في صمته ، ولكن لم يكن في استطاعتهم النوم . كانوا ينصتون إلى خطوات رجال الشرطة يذهبون هنا وهناك في الميدان الذي تشوبه الظلمة ، وأصوات رجال الدوريات وهم يتبادلون السلاح ويقفون وقفة انتباه كأنهم الأشباح في عباةاتهم المخططة أمام نوافذ الثكنات المجاورة ، وهم يقومون بنوبة حراستهم الليلية في خدمة رئيس الجمهورية . لم يكن أحد يعرف أين هو ، فقد كان يشغل عدة منازل خارج المدينة في نفس الوقت ؛ ولم يكن أحد يعرف كيف ينام ، فقد قال البعض إنه ينام إلى جوار الهاتف يحمل سوطاً في يده ؛ كما لم يكن أحد يعرف متى ينام ، فقد كان أصدقائه يزعمون أنه لا ينام على الإطلاق .

وتقدم شيخ شخص إلى « رواق الرب » . وألقى الشحاذون على أنفسهم مثل الديدان ، وأجاب عن صرير الأحذية العسكرية تعيق طائر مشؤوم في ظلام الليل الساري العميق .

وفتح ذو القدم المسطوحة عينيه . كان ثمة خطر مائل عند نهاية العالم . وقال للبومة : « ها ... ها ... إفعلي ما تشائين . إني لا أريد بك خيراً ولا شراً . ولكن فلنذهبي إلى الشيطان رغم هذا » .

وتعسّس « الذبابة » وجهه بيديه . كان الهواء ثقيلًا كأنما ثمة زلزال على وشك أن يقع . ورسم « فيودا » علامة الصليب وهو يجلس وسط العميان . وكان الأبله هو الوحيد الذي يغط في نوم عميق .

وتوقف الشيخ ، وارتسمت ابتسامة على وجهه . وسار نحو الأبله على أطراف أصابعه ، ثم صاح فيه بترنّة مزاح : « أماء » . ولم ينس بينت شفة بعد ذلك ، فقد نهض الأبله من على الأرض بفعل ذلك النداء ووثب فوق الشيخ دون أن يعطيه أي فرصة يستخدم فيها سلاحه ، ودفع أصابعه في عينيه وهشم أنفه بعضاته ، ورفسه أسفل بطنه بركبته إلى أن تركه جثة هامدة بلا حراك .

وأغلق الشحاذون أعينهم في رعب . وعبرت البومة المكان مرة أخرى . وهرب الأبله عبر الطرقات التي يلفها الضباب وقد أعماه الخوف والجنون . كانت

قوة عمياء قد انتزعت لنورها الحياة من الكولونيل «خوسيه بيراليس سونريتي»
الذي يُكنى «الرجل ذا البغل الصغير». وكان هو الرجل الذي قتله الأبله في سورة
غضبه وجنونه.

وكان العجور يقترب.

موت « الذبابة »

كانت الشمس تجلج الأطراف البارزة من مبنى مركز الشرطة بأشعتها الذهبية ، حيث يمر بعض الناس عبر طريق الكنيسة البروتستانتية ، وهنا وهناك باب مفتوح ، وبناء من الطوب الأحمر يقوم البناءون بتشيدته . وفي المركز ، كانت مجموعات من النسوة الحافيات يجلسن في انتظار المسجونين ، قابعات في الغناء حيث يهطل المطر على الدوام ، وكذلك في مضاطب الردهات المظلمة ، يجلسن سلال الفطور في حجورهن ، وحوطن عديد من الأطفال الصغار يتعلقون بأثدائهن ، والكبار منهم يهددون بالتهام أرغفة العيش التي تطل من السلال بأفواههم الفاعرة النهمة . وكانت النسوة يقضين بمناعهن بعضهن إلى بعض في صوت خفيض ، باكيات على الدوام ، ومسحن عيونهن بأطراف عباءاتهن . وكانت هناك عجوز ذات عينين غائرتين ، هدتها الملاريا ، تبكي في حرقفة وفي صمت ، كأنها تريد أن تبدي أنها تعاني أكثر ممن بوصفها أما . هنا كانت ضرور الحياة تبدو لا علاج لها ، في مكان الانتظار الكئيب ذاك ، حيث لا يوجد ما تستقر عليه العين سوى شجيرتين أو ثلاث ، ونافورة جفت المياه منها ، ورجال الشرطة عجاف الوجوه ينظفون ياقات قمصانهم بريق شفاهم . ولم يكن أمام النسوة إلا أن يسلمن أمرهن إلى الله القادر العليم .

وظهر شرطي خلاصي* يجير وراءه « الذبابة » . كان قد قبض عليه إلى جوار « مدرسة المشاة » . وكان الشرطي يشده من يده ويژه من جانب لآخر كأنها هو قرد . ولكن النسوة لم يجدن في ذلك شيئا مضحكا ، فقد كن مشغولات بمراقبة

* أي خليط من المرد من السكان الأصليين والبيض ، ويكيل الخلاصيون حوالي نصف السكان في بعض
من أمريكا اللاتينية

حركات السجنائين وهم يحملون سلال الفطور ثم يعودون اليهن بأخبار السجناء :
« يقول : لا تقلقوا عليه ، فالأمور قد تحسنت فعلاً ! » يقول : « إن عليكم أن تشعروا
له ما قيمته أربعة قروش من مرهم الزئبق حالما يفتح الصيدلي » يقول : لا
تصدقوا ما قاله لكم ابن عمه » يقول : إبحثوا له عن حمام ، أو عن طالب في
كلية الحقوق حتى لا يكلفكم كثيراً ! » يقول : الأمر لا يستحق كل ذلك ،
فليست هناك نسوة معهم ثبرر الشعور بهذه الغيرة . لقد أحضروا واحدة ذلك
اليوم ، فبحث لنفسه عن صديق على الفور ! » يقول : أرسلوا إليه مسهلاً حتى
يستطيع أن يفرغ بطنه ! » يقول : إنه غاضب منكم لأنكم قد بعتم الصوان .
واحتج » الذبابة « على المعاملة التي يلقاها من الشرطي وقال له : « إنه ...
أنت ... ماذا تظن أنك فاعل ؟ ألا تشعر بأية شفقة ؟ ألاي فقير ؟ أنا فقير ولكني
شريف . إسمع : إني لست ابنك أو لعينك أو حيوانك الأليف ولا أي شيء حتى
تعاملني هكذا ! إنها لعبة ظريفة أن تعاملونا هذه المعاملة ونجربونا بهذه الطريقة كيما
تخطوا برضاء الأمريكان . يا لها من لعبة قذرة ! كما لو كنا ديوكا على مائدة عيد
الميلاد . ولكن ... حتى المعاملة الحسنة لا نلقاها منكم ! وحين جاء السيد
فلان ، حبسوا عنا الطعام ثلاثة أيام ونحن نشطلع عبر السافذة وقد التحقنا
بالبطاطين كالمجانين ... »

وكانوا يقدرون الشحاذين المقبوض عليهم إلى زنزانة ضيقة مظلمة تدعى
« الثلاث ماريات » . وارتفعت جلبة المفاتيح وهي تدور في الأبواب ولعنات
السجنائين الذين نفوح منهم نثانة العرق والنيغ ، ثم ترددت صيحات « الذبابة »
العالية مرة أخرى في هذه الأنفاق التحتية : « أه ، يا له من شرطي ! أيتها العذراء
المقدسة ، يا له من رعد ! فليحمني منه يسوع المسيح ! » .

وكان رفاقه ينشجون كالحیوانات ، تسيل أنوفهم وقد غمزهم العذاب من
فرط الظلمة التي تحيط بهم من كل جانب ، ويشعرون بأنهم لن يكون في مقدورهم
الخلاص أبداً من وهدة السجن هذه التي سقطوا فيها ، وغمرهم الخوف ، فقد
انتهى الأمر بكثير من الناس هنا إلى الموت جوعاً وعطشاً . وكان يتناهم إحساس
بأنهم سيضجونهم في القذور ويغلوهم على النار ويصنعون منهم طلاء للسيارات ،
كالكلاب ، أو يذبحونهم ويقدمونهم طعاماً لرجال الشرطة . ولاحث لهم الوجوه
رؤسهم كأنها وجوه أكل لحوم البشر . مضينة كالفونيس . يتقدم أصحابها عبر

الظلال ، وجنائهم كالآرداف ، وشواربهم كأوراق الشيكولاتة المفضضة

وكان ثمة طالب ومساعد قس في نفس الزنزانة .

- سيدي ، اعتقد لو لم أكن نغطنا أنك قد جئت إلى هنا أولاً . أنت وأنا ،
ليس كذلك ؟

تكلم الطالب لكي يقطع حبل الصمت ، لكي يتخلص من بعض ما يشعر
به من حزن في حلقه . ورد مساعد القس وهو يبحث في الظلمة عن وجه عدته :

- اعتقد هذا .

- و . . . حنا . كنت سأسألك عن سبب القبض عليك .

- بسبب السياسة . هكذا يقولون .

وارتجف الطالب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وقال بصعوبة شديدة :

- وأنا أيضاً .

وفتش الشحاذون حول وسطهم بحثاً عن كبس زؤادهم الذي لا يفارقهم ،
غير أن الحراس كانوا قد جردوهم من كل شيء في مكتب مدير الشرطة ، حتى عما
يحملونه في جيوبهم ، بحيث لم يعد معهم أي شيء حتى أعواد الثقاب . كانت
الأوامر صريحة ! ومضى الطالب في حديثه : وما هي قضيتك ؟

- ليست لي قضية . إنني هنا بأمر من أعلى .

وارتد مساعد القس ، وهو يقول هذا ، إلى الخلف دافعاً كتفه في الحائط كيما
يسحق حشرات البق التي علقته به .

- هل كنت . . .

فرد مساعد القس بطريقة جافة : لا شيء ! لم أكن شيئاً البتة !

وفي هذه اللحظة سُمع صرير الباب الذي انفتح على مصراعيه يدخل منه

شحاذا آخر .

وصاح « ذو القدم المسطوحة ، وهو يدخل : » نحيا فرنسا ! »

وقال مساعد القس : لقد سجنتم . . . نحيا فرنسا !

... بسبب جريمة ارتكبتها بمحض الخطأ . فبدلاً من أن أزيل إعلاننا عن السيدة العذراء من على باب الكنيسة التي أعمل بها ، ذهبت وأزلت إعلاننا عن الاحتفال بالذكرى السنوية لولادة السيد الرئيس .

« ثم الطاب بينا كان مساعد القس يمسح دموعه بأصابعه :

- ولكن ، كيف علموا بالأمر ؟

- لا أعرف . لقد أصابني غيابي . وعلى كل حال فقد قبضوا عليّ وساقوني إلى مدير الشرطة الذي قام بإعطائي ما تيسر من اللكمات ثم أمر بأن أوضع في هذه الزنزانة ، معزولاً ، باعتباري ثورياً ، كما قال .

ويكى الشحاذاون المنجمعون في الظلمة من فرط الخوف والبرد والجوع . ولم يكن أحد منهم يرى حتى يديه ذاتها . وأحياناً كانوا يلجؤون إلى السبات ، ويسمع آنذاك زفير الصماء البكاء الحبل يرق من بينهم كأنما يبحث لنفسه عن مخرج .

ولم يدرك أحد منهم متى أخرجوهم من هذا القبو ، وربما كان ذلك في منتصف الليل ، فالتحقيق بتناول جريمة سياسية كما قال لهم أحد الرجال ربعة القامة معرورق الوجه زعفراني اللون ، ذو شارب ينسدل على شفثيه الغليظتين في إهمال ، أقطس الأنف قليلاً ، وذو عينين مفتحتين . وقد انتهى هذا الرجل بسؤالهم جميعاً فرداً فرداً عن مدى علمهم بالمسؤول أو المسؤولين عن جريمة « رواق الرب » التي ارتكبت في الليلة الفائتة في شخص أحد كبار رجال الجيش .

وكان ثمة مصباح يتصاعد منه الدخان يضيء الحجارة التي نقلوهم إليها ، فبدأ ضوؤه الباهت كأنما يمر من خلال عدسات مملوءة بالمياه . ما هذا الذي يجري هنا ؟ ما هذا الجدار ؟ وما هذا الرف المليء بالأسلحة والذي يبدو أشد شراسة من أنياب النمر ! وزنار الشرطي المليء بالدخيرة ؟

وأثارت إجابات الشحاذين أعصاب المحقق ، المدعي العسكري العام ،
فقفز من مقعده وصاح قائلا وهو يفتح عينيه الحجريتين من وراء نظارته الطبية
السميكة ويضرب المائدة التي يستخدمها كمكتب بقبضة يده : سأستخلص منكم
الحقيقة ! وردد الواحد منهم بعد الآخر أن مقترب الجريمة هو الأبله ، زميلهم
الشحاذ ، ووصفوا بدقة تفاصيل الجريمة التي شاهدوها وقاموا بأعينهم .

وأشار المحقق من طرف خفي ، فهجم رجال الشرطة ، الذين كانوا يرهقون
سمعهم من وراء الباب ، على الشحاذين يوسعونهم الجريبا فيكفونهم نحو إحدى
الردهات المارة من كل شيء ، إلا من جبل غليظ يتدلى من سقفها .

وصرخ أول للمعذبين في محاولة محمومة للهرب من التعذيب بذكر الحقيقة : إنه
الأبله ! إنه الأبله يا سيدي ! إنه الأبله ! إنه الأبله ! إنه الأبله بحق الإله !
الأبله ! الأبله ! الأبله ! ذلك الأبله . الأبله . ذاك ، ذاك ، ذاك !

- لقد نصحوكم أن تقولوا لي ذلك . ولكن هذه الأكاذيب لا تجدي معي !
الحقيقة أو الموت ! هل أنت عارف ، أسمع ، اعرف ، إن لم تكن تعرف .

وانساب صوت المحقق كالدم السيل في سمع الشقي الذي لم ينفطع عن
الصراخ إذ هو معلق من أصابعه دون أن يستطيع وضع قدميه على الأرض : إنه
الأبله ، الأبله هو . إنه الأبله بحق الإله ! إنه الأبله ! إنه الأبله ، إنه الأبله ، إنه
الأبله .

وأعلن المحقق : « كذب » . ثم قال بعد فترة صمت : « هذا كذب ، وأنت
كاذب . سوف أذكر لك من قتل الكولونيل «خوسيه باراليس سوزينتي» ، ولبر إذا
كنت تحجر على إنكار ذلك . سوف أذكر لك اسمها ، إنها الجنرال «يوسيبو
كاناليس» والمحامي «قاييل كارفانخال» !

وتلى كلامه صمت جليدي ، ويعده ، ويعده ، أين ، وأين آخر بعد ذلك ،
ثم أخيرا كلمة « أجل » . وحين أطلقوا الحبل إرتمى «فيودا» على الأرض دون
حراك . ويدت وجنتا هذا الشحاذ الخلاصي غارقتين في العرق والأين ، كالفحم
الذي بللته مياه الأمطار . وتتسلى بعده استجابات رفاقه الذين كانوا يرتجفون

كالكلاب الضالة التي تقتلها الشرطة بالسهم في الشوارع ، وكلهم آمنوا على كلام المحقق ، كلهم . عدا « الذبابة » . كان وجهه ينم عن مزيج من الخوف والإحتقار . وعلقوه من أصابه لأنه كان يؤكد وهو على الأرض ، نصف مدفون - مدفون حتى وسطه كحال كل من لا ساقين له - أن زملاءه يكذبون حين يلقون تبعة الجريمة على شخصين غريبين عنها في حين أن المسؤول الوحيد عنها هو الأبله .

والنقط المحقق الكلمة : مسؤول ! كيف تجسر على أن تقول إن إبلها مسؤول ؟ أتري كذلك ؟ مسؤول غير مسؤول ؟
- فليرد هو على نقلا الكلام .

فاقترح شرطي له صوت نسائي أن يضربوه ، بينما ساطه شرطي آخر على وجهه .

وصاح المحقق في الوقت الذي انهار السوط على وجه الرجل الكهل : قل الحق ! الحق ولا تستظل معلقا هكذا طوال الليل !

- ألا ترى أنني أعمى ؟

- فلتنكر إذن أن يكون القاتل هو الأبله .

- كلا ، فهذه هي الحقيقة ولدي الشجاعة أن أقولها .

وفجرت ضربتان من السوط الدماء من شفثيه . . .

- إنك أعمى ولكن . . . اسمع ، فلتنقل الحقيقة ، اعترف كزملاتك !

- « وهو كذلك » .

وافق « الذبابة » بصوت منطفيء . واعتقد المحقق أنه كسب الجولة .

- وهو كذلك أيها الآخرق .

- إنه الأبله . . . - أيها الآخرق !

بيد أن شتيمة المحقق لم تجد صدن في آذان هذا النصف غلوق الذي لن يسمع

شينا بعد ذلك . وحين أطلقوا الحبال ، سقطت جنة « الذبابة » - أي الجذع ، فقد كان جسده دوغما سابقين - على الأرض كالبنءول المكسور .

وصاح المحقق وهو يمر بجانب الجثة : « أيا الكذوب المعجوز ، لم يكن إءترافك بنافع لنا ، فقد كنت أعمى »!

وجرى ليطلع السيد الرئيس على الخطوات الأولى للءتحقيق ، واستقل عربة يغودها جوادان هزيلان ، ونضيء فوانيسها عيون الموت ذاته . والقت الشرطة بجثة « الذبابة » في عربة للقمامة إبتعدت به ناحية المقابر . وبدأت الديكة في الصياح . وعاد الشحاذون الذين أطلق سراحهم إلى الشوارع ، فكانت السماء البكماء تبكي من الخوف لأنها تشعر بطفل يتحرك في أحشائها .

فرار الأبله

فر الأبله عبر الطرق الملتوية الضيقة التي تؤدي إلى ضواحي المدينة ، بيد أن صرخاته المجهومة لم تفلح في إشاعة الاضطراب لا في هدوء السماء ولا في سبات السكان ، الذين كانوا يتشابهون فيما بينهم في نومهم الشبه بالموت ، كاختلافهم مع مطلع الشمس حين يستأنفون الكفاح من أجل الحياة . كان البعض منهم يفتقر إلى أشد مطالب الحياة أساسية ، ويضطر إلى اللجوء إلى الأعمال الشاقة كي يكسب عيشه اليومي ، بينما البعض الآخر يحصل على ما يفيض عن حاجته عن طريق موارد الكسل المحفوظ : باعتباره من أصدقاء السيد الرئيس ؛ أو من ملاك العقارات (أربعون أو خمسون منزلاً) ؛ أو المرابين الذين يقرضون الأموال بفائدة ستة وستة ونصف وعشرة في المائة ؛ أو الموظفين الذين يشغلون سبعة أو ثمانية مناصب حكومية مختلفة في آن واحد ؛ أو مستغلي الامتيازات ، والمعاشات ، والشهادات المهنية ، ونوادي القمار ، وحلبات مصارعة الدبكة ، وقراء الخنود ، ومصانع الخمور ، وبيوت الدعارة ، والبارات ، والصحف المعانة من الدولة .

وكانت عصارة الفجر الدموية تجلجل قسم الجبال التي تحيط بالمدينة التي كانت تترقد وسط الوادي كأنها أديم القصور . كانت الشوارع تبدو أنفاقاً من الظلال ، ينبجس منها العمال الباكرون كأنهم أشباح في فراغ عالم يجلجل من جديد كل صباح ، يتبعهم بعد ساعات قليلة الموظفون والكتبة والطلاب ؛ وفي الحادية عشرة ، حين تلعو الشمس كبد السماء ، يظهر أكابر القوم بعد أن فرغوا من تناول إفطارهم ، تفتح شهيتهم لتناول الغداء ، أو يتوجهون لزيارة صديق من ذوي النفوذ لإقناعه بالاشتراك معهم في شراء متأخرات رواتب المدرسين المدفوعين بنصف قيمتها . كانت الشوارع ما زالت تقعي غارقة في الظلال ، حين قطع صمتها

صليل تنورات بعض النسوة عن يعملن بلا كلل في رعي الخنازير أو بيع الحليب أو التجول بالبضائع أو بيع فضلات الذبيحة كما يقمن أود أسرهن ، أو يبيكن لأداء أعمالهن اليومية . وبعد ذلك ، حين يذبل الضوء وتحول إلى نور أبيض وردي كلون زهرة البيفونيا ، تردد أصداء قدمي عاملة صغيرة نحيلة ، تزدهر السيدات الفضليات اللاتي لا يغادرن مخدعهن قبل توسط الشمس كبد السماء ، فيسطن حينذاك سيقانهم في أهباء البيت ، ويمكن أحلامهن للخدم ، ويتنقذن المارة ، ويداعبن القطعة ، ثم بطلعن الصحيفة ، أو يتهن خيلاء أمام المرأة . وبين الواقع والحلم ، تابع الأبله جريه تنظاره الكلاب ويلبسه رذاذ المطر الحاد . كان يجري بلا هدف ، فاعثر الغم وقد تدلى لسانه ، بجبال اللعب ، لا هنا ، ملوحاً بذراعيه في الهواء . وكانت تسرى وراء أبواب وأبواب وأبواب ونوافذ وأبواب ونوافذ . وكان يقف فجأة ويغطي وجهه يديه ليحمي نفسه من عمود من أعمدة البرق ، ثم يتبين له أن لا ضرر منه على نفسه فينمجر ضاحكاً ويستمر في جريه ، كأنما هو إنسان يهرب من سجن صنعت جدرانها من الضباب ، بحيث أنه كلما زاد جرياً ، ابتعدت عنه هذه الجدران .

وحين وصل إلى الضواحي ، حيث تستلم المدينة إلى الريف المحيط بها ، إرغم على كومة من النفايات كأنه شخص بلغ غمده آخر الأمر ، واستغرق في النوم . وكان يعلو كومة النفايات شبكة عنكبوتية من فروع الأشجار الميتة ، تغطيها كوكبة من النسور . وحين لمحت تلك الطيور الجارحة السوداء الأبله برقد هناك بلا حراك ، حذقت إليه بعيونها الزرقاء ، وحطت على الأرض بجانبه وهي تنقاز إلى جواره . قفزة هنا وقفزة هناك - في رقصة جنائزية . وكانت النسور تتطلع حولها دونما انقطاع ، وهي متاهة لأن نظير عند أقل حركة تصدر عن ورقة شجر أو عن الرياح التي تصططق في القمامة - قفزة هنا وقفزة هناك - ثم أطبقت على الأبله شكل دائرة إلى أن أصبح في متناول مناقيرها . وأعطى نعب وحشي إشارة البدء بالهجوم . ونفض الأبله على قدميه إذ أفاق ، مستعداً للدفاع عن نفسه . وكان واحد من تلك الطيور قد تشجع والصق منقاره بالشفة العليا للأبله وأخذ ينقرها وينفذ منها إلى أسنانه كأنما هو سهم حاد ، بينما أخذت الجوارح الأخرى تتنازع أهباء ينقر عينيها وأهباء قلبه . وجاهد الطير الذي أنشأ منقاره في شفته كيما ينتزع لحمها ، لا يعمه في شيء أن فريسته إنسان حي ، وكان سيفلح في ذلك لو لم

- « يا أبله يا أبله » .

وشحذ شاحذ السكاكين أسنانه قبل أن يتسم ! شاحذو البسة . أسنان
شاحذ السكاكين .

- « أماء » .

وأبفظه صيحة السكر التي سمعها في هذيانه .

- « أماء » .

وكان القمر يسطع متألقاً بين السحب الاسفنجية ، وسقط نوره الأبيض على
الأوراق الرطبة فخلع عليها بريق الخرز وجوده .

- « إنهم يحملون »

- « إنهم يحملون »

- « إنهم يحملون القديسين من الكنيسة كيما يدفنونهم ! أه ، يا لها من متعة !
سوف يدفنونهم ، سوف يدفنونهم ، أه ، يا لها من متعة !

المقابر أكثر نهجة من المدينة وأكثر نظافة منها ! أه ، يا لها من متعة ، سوف
يدفنونهم ! - « تارارا ، تارارا ، يوم ! » .

ومضى قدماً في هذيانه فرأى نفسه يشق طريقه وسط الصعاب ، متقافراً من
بركان إلى آخر ، ومن نجمة إلى أخرى ، ومن ساء إلى ساء ، نصف مستقيظ
ونصف نائم ، وسط أفواه ضخمة وأفواه صغيرة ، بأسنان وبدون أسنان ، بشفاه
وبلا شفاه ، بشفاء مزدوجة ، بشوارب ، بالسنة مزدوجة ، بالسنة ثلاثية ،
صائحاً : « أماء ، أماء ، أماء ! » .

توت ، توت ! واستقل الفطار المحلي كي يتعد عن المدينة إلى الجبال بأسرع
ما يستطيع ، فالجبال ستمنحه دفعة إلى أعلى نحو البراكين ، فيها وراء الأبراج
اللاسلكية ، فيها وراء الجزر ، فيها وراء حصن المدفعية ، تلك القطيرة المحشوة
بالجنود .

بيد أن الغطار عاد إلى المكان الذي انطلق منه ، كأنما هو لعبة معلقة بحبل ؛
وحين وصل : « تُشوف ، تُشوف ، تُشوف » ، كانت هناك بائعة حضروات لاهئة
ذات شعر يضاهي بأعواد الصفصاف المصنوعة منه سلتها ، تنتظر في المحطة ،
وصاحت به : « بعض الخبز للأبله ، أيها النبياء الصغير ؟ ماء للأبله ، ماء
للأبله ؟ » . وجرى ناحية « رواق الرب » وبائعة الخضروات تطارده وتهذهه بقرعة
ملينة بالماء : « بيت أنه حين وصل إلى هناك ، دوت صيحة « أماء ! » : قفزة ،
رجل ، ليل ، صراخ ، موت ، ذماء ، هروب ، الأبله . . . ماء للأبله ،
النبياء الصغير ، ماء للأبله ! » .

وأيقظة ما كان يشعر به من ألم في ساقه ، وأحس أن هناك مشاة في داخل
عظامه . وإنسمت عيناه بالحزن في ضوء النهار . وكانت نمة تعريشات نغطيها
ازهار جميلة دعتة كيبا بنام تحت ظلها إلى جوار غدير بارد يحرك ذيله المغطى بالزبد
كأنما هناك سنجاب فضي يجتبيء وسط طحالبه وأعشابه .

لا أحد . لا أحد .

ومرة أخرى ، التحا الأبله إلى ليل عينيه المغمضتين وجاهد ضد الألم ، محاولاً
وضع ساقه المكسورة وضعا مريحاً وهو يسند يديه شفته الممزقة . ولكنه كان كلما
فتح جفنيه المحارفين عبرت فوقه سماوات حمراء كالدم . وبين ومضات البرق ،
كانت أشباح يرفقات غرق هاربة من أمامه كأنها القراشات .

وأدار ظهره لجرس إنذار الهذيان . تلج للمحتضرين ! بائع الثلج يبيع قربان
الوفاة المقدس ! القيس يبيع الثلج ! تلج للمحتضرين ! تلبين ، تلبين ! تلج
للمحتضرين ! قربان الوفاة المقدس يمر ! بائع الثلج يمر ! إخلع قبعتك احتراماً ،
أيها الآخرس ذو الألعاب السائل ! تلج للمحتضرين !

ذو الوجه الملائكي

ومضى الأبله مجلماً ، في مستودع القمامة الذي استقر فيه ، تغطيه أوراق
الأشجار ، وقطع من الجلد ، ومزق ، وهاكل مظلات ، وإطواق قبعات من
القش ، وبقايا الحديد الحردة ، وقطع خزف مكسورة ، وصناديق من الكرتون
وعجائن الكتب ، وحطام زجاج ، وأحذية قديمة لفحتها الشمس ، ورسقات ،
وقشر بيض ، وندف من القطن ، وفضلات الطعام . ورأى نفسه الآن في فناء
كبير ، يحيط به عدد من الأتعة ، سرعان ما تبين أنها وجوه أناس منهمكين في
متابعة صراع الديكة . واضطربت المعركة بين الديكين كالأوراق التي تضطرم
وسط النيران . وقضى ديك منها دوغاً ألم تحت أنظار المتفرجين الجامدة ، سعداء
برؤية المهماز المعقوف يخرج مضرجاً بالدماء . جو يعبق برائحة الخمر . بصاق بلون
التيغ . أحشاء الديك الصريع . إنهاك وحشي . سبات . خور . ظهيرة مدارية .
وطاف به في سباته شخص ما ، يمشي على أطراف أصابعه كي لا يوقظه . . .

كانت أم الأبله قد أصبحت محظية لأحد الأفاقين من أصحاب ديكة
المصارعة ، يلعب على الجيتار بأصابع كأنها من الحجارة . وسقطت الأم ضحية
لشعور هذا الرجل بالغيرة عليها ولكرذائله العديدة الأخرى . وكان شقاؤها قصة لا
نهاية لها : محظية لهذا النكرة ، وشهيدة للطفل الذي أنجبته تحت التأثير المباشر و
للقمر المتحول ، كما تقول القابلات مدعيات العلم بكل شيء ؛ ففي غمرة الأم
مخاضها ، امتزج رأس طفلها الهائل الحجم - رأس كبير ذو قرنين كالقمر -
بالأوجه المعروفة لجميع المرضى الآخرين في المستشفى ، وتعبيرات الخوف
والسخط ، والفواق ، والجزع ، وفيه صاحب الديكة المخمور ، ونسج عن ذلك
كله مولودها الأبله .

وأحس الأبله بصوت تنزونها المنشاة - وسط الرياح وأوراق الشجر ، وجري
خلفها والدموع تملأ مقلتيه ، ووجد راحة على صدر أمه . وامتنعت أحضان تلك
التي منحت الوجود آلام جراحه كأنها أوراق النشاف . يا له من ملجأ عميق لا
يعكر صفوه شيء ! يا له من حب جارف ! يا زهرتي ! يا زهرناه ! يا زهرتي
الحبيبة ! يا زهرتي الحبيبة !

وكان صاحب الذبكة يصل إلى أعماق أذنه وهو يغني برفق :

لم لا ... لم لا ...

لم لا ... يا حبيبي الصغير

أنا الذبك الصغير ...

ولما أرفع قدمي يا صغيري

أجرجر جناحي يا صغيري !

ورفع الأبله رأسه وقال دون أن يتكلم :

- إني أسف يا أمي ، إني أسف !

ورد الطيف الذي مسح ببلده على وجهه في حنان على شكواه قائلاً : إني أسفة
يا بني ، إني أسفة !

وترامى صوت أبيه من بعيد آتياً عبر كأس من الخمر :

لقد شبكتني ...

لقد شبكتني ...

لقد شبكتني امرأه بيضاء .

وحين تكون الشبكة طيبة

تنساقط خيوطها وحدها ... ونتمم الإبله :

- أماء ، إن آلامي تصل إلى أعماق روحي !

ورد العليف الذي مسح بيده على وجهه في حنان على شكواه قائلاً في ود : أي بني ، إن آلامي تصل إلى أعماق روحي !

إن السعادة لا تعرف طعم الجسد . وإلى جوارهما كان ثمة ظل شجرة صنوبر ينحني ليقبل الأرض ، غضة كالنهر . وكان طائر يغني على الشجرة ، هو طائر وجرس من الذهب في نفس الوقت :

- إنني أنا الوردة - التفاحة لعصفور الجنة . إنني أنا الحياة ، نصف جسدي أكذوبة ، والنصف الآخر حقيقة ؛ إنني وردة وتفاحة . أعطي الجميع عينا من زجاج وعينا حقيقة ، فأما الذين يرون بعيني الزجاجية فإياهم يرون لأنهم يملكون ، وأما الذين يرون بعيني الحقيقة فهم يرون لأنهم ينتظرون ! إنني أنا الوردة - التفاحة لعصفور الجنة ، إنني الأكذوبة في كل شيء ، والحقيقة في كل شيء ، كاذب !

وفجأة ، ترك الأبله حضن أمه وجرى ليشاهد موكب السيرك . جياد ذات أذن طويلة كأنها أغصان اللبلاب ، نقودها نسوة يرتدين ملابس متألثة بالترتر . عربات مزودة بالزهور ، ولافتات من الورق الصيني معلقة على أفاريز الشوارع تترجّع مبعثراً ويساراً كالسكارى . فرقة من دهما الموسيقيين وعازفي البوق والكمان وقارعي الطبول . والمهرجون ذوو الوجوه المدهونة بالدقيق يوزعون البرنامج في ورق ملون ، معلناً عن الحفل الافتتاحي المخصص لرئيس الجمهورية ، حامي الحي الوطن ورئيس حزب الأحرار المجيد وراعي الشباب المجتهد .

وانتقلت عينا الأبله الآن تطوف في نومه الهادي حول سطح بالغ العلو . كان أهل السيرك قد خلفوه وحيداً ضائعاً في بناية تقوم على شفا هوة سحيقة خضراء داكنة . وكانت المقاعد تشدلى من ستائر جانبية كأنها جسور معلقة ، وقسم الاعتراف بصعدون ويهبطون من الأرض إلى السماء كأنهم مصاعد للأرواح يقوم عليها الملوك ذو الكرة الذهبية والسيطان ذو الأحد عشر ألف قرن . وخرجت عذراء الكرم من جذعها ، كالضوء الذي يمر من خلال الزجاج ، كيما تسأله عما يريد . وعمن يبحث . وتوقف يتجاذب أطراف الحديث في انشراح معها ، صاحبة هذا البيت ، أكثر الملائكة عدوية ، وجوهر وجود القديسين ، وحلوى الفقراء البائسين . وكانت هذه السيدة العظيمة لا تكاد تبلغ المتر الواحد طولاً ، بيد أنها

حين تتكلم تعطي انطباعاً بأنها تفهم في كل شيء كالناس الكبار . وحكى لها الأبله بالإشارات كيف أنه يجب أن يمضغ الشمع ، فقالت له بين جد وهزل إنه يستطيع أن يأخذ إحدى الشموع المضاءة في مذيبح كنيسة . وبعد ذلك الملت أطراف عباءتها الفضية الفضفاضة وفادته من يده إلى حوض للأسماك الملوثة وأعطته فوس قزح يمتصه كأنما هو حلوى سكر النبات . إنها السعادة الكاملة ! كان يشعر بالسعادة تغمره من طرف لسانه إلى طرف قدمه . لقد كان شيئاً لم ينله طوال حياته : قطعة شمع يمضغها كاللذاتن ، وسكر نبات نعناعي ، وحوض سمك ملون ، وأم كذلك منافع الجريجة . وتغني له : « إشف سريعاً ، إشف سريعاً يا صغيري » . كان كل ذلك ملك يمينه إذ هو ينام على أكرام القمامة .

بيد أن السعادة لا تدوم إلا كما تدوم زخه المطر مع طلوع الشمس . فمن خلال أرض بلون اللبن ، ظهر خطاب يتبعه كلبه بعد أن ضل طريقه إلى مستودع القمامة ذلك . كان يحمل حزمة من الحطب على ظهره ، ورداؤه ملفوف على الحزمة ، بينما يحمل منجله بين ذراعيه كما يحمل الأب طفله . ولم تكن الوحدة سحيقة ، بيد أن الغروب المنسدل جعلها تبدو عميقة مليئة بالظلال التي احاطت بالقمامة المكممة في قاعها من الفضلات التي تثير الخوف إذا ما حل الليل . والتفت الخطاب وراءه : كان يوسعه أن يقسم أن ثمة شخصاً يتبعه . وبعد هنيهة أخرى ، توقف مرة ثانية . كان يشعر بوجود امرئ ما يختفي هناك . ونبع الكلب وانتصب شعره كأنما يرى الشيطان أمامه . وأطارت دوامة ربح أوراقاً قدرة ملطخة إما بدماء امرأة أو بماء البنجر . وكانت الساء تنبدي على البعد ، زرقاء ناصعة ، كأنها قبة قبر عالم ، مرصعة بنسور حوامة غافية . وبعد برهة ، جرى الكلب ناحية المكان الذي كان الأبله يرقد فيه . وارتجف الخطاب من قشعريرة الخوف ، واقترب خطوة خطوة وراء الكلب ليرى من هو الميت . كان يتهدهده خطر إصابة قدميه بالجراح من قطع الزجاج أو أكعاب الزجاجات أو علب السردين الصفيحة ، وكان عليه أن يقفز فوق الروث التتن وعبر الوهاد المظلمة . وكانت ثمة فجوات مليئة بالمياه تبذت كالموائء وسط أكرام القمامة .

ودون أن يطرح عنه حملة - إذ كان خوفه أشد نقلاً عليه - أمسك بإحدى قدمي اللجنة المزعومة ، وشد ما كانت دهشته أن وجد أنه إنسان لا تزال الحياة تدب فيه ، وامتزجت أنفاسه اللاهثة بصراخه بعواء الكلب ، ليخلق كل ذلك صورة حية

لمحتته ، كالرياح التي تختلط أحياناً بوابل المطر . وزاد من اضطراب الخطاب صوت خطوات شخص يمشي خلال أجمة صغيرة قريبة من شجر الصنوبر وأشجار الجوافة العتيقة . فماذا يحدث لو أنها خطوات رجل شرطة ! آه حقاً ، إن ذلك سيكون الغشة التي تقصم ظهر البعير ! وهتف بالكلب : « صمتاً ! » ولما استمر في نباحه ، وجه إليه رفسةً قائلاً : « اسكت ايها البهيم ، اسكت ! » .

وفكر في الهرب . . . بيد أن الهرب هو اعتراف بالجرم . . . وسيزيد الطين بلةً لو كان القادم من رجال الشرطة . وتحول إلى الرجل الجريح وهتف به :

- « هيا ، اسرع ، سأساعدك على النهوض ! يا إلهي ، لقد كادوا أن يقتلوك ! هيا لا تخف ، لا تصرخ فإنني لا أريد بك سوءاً . . . لقد كنت مارداً من هنا فأريتك رافداً . . . » .

وقاطعه صوت من خلفه : « لقد رأيتك تنفض عنه أكوام القمامة ، فعدت إليك لأنني فكرت أنه قد يكون شخصاً أعرفه » فلنخرجه من هنا .

وأدار الخطاب رأسه ليرد وقد كاد أن يغمى عليه من الخوف . وانقطعت أنفاسه ، ولم يهرب إلا لأنه كان يمسك بالجريح الذي لا يكاد يقوى على الوقوف . وجال في خاطره أن من تحدث إليه لا بد أن يكون ملاكاً : بشرة من مرمر ذهبي ، وشعر أشقر ، وفم دقيق ، وطلعة أنثوية تتناقض مع سواد عينيهِ الرجولي . كانت ملابسه رمادية اللون ، وكان يبدو في ضوئه الغسق كالسحاب . وكان يحمل في يديه الرقيقتين عصا نحيلة من الخيزران وقبعة ذات جافة عريضة بدت كالحمالة .

ورد الخطاب الذي لم يستطع أن يُبعد عينيهِ عنه : « ملاك ، إنه ملاك . ملاك ! » .

وقال الغريب : « يبدو من ملابسه أنه من الفقراء . لشد ما هو عجز أن يكون المرء فقيراً ! » . . .

- الأمر متوقف على الظروف . كل شيء في هذه الدنيا يتوقف على شيء آخر . انظري مثلاً ، إني فقير جداً ، ولكن عندي عملي ، وزوجتي ، وكروخي ، ولا أظن أن وضعي مشير للشفقة . قال الخطاب ذلك متلعثماً كرجل يتحدث في منامه . وكان بأمل في أن يفوز بحظوة لدى هذا الملاك الذي قد يكافئه على قناعته

المسيحية بأن يحوله من خطاب إلى ملك بمجرد رغبته في ذلك . ورأى نفسه لحظات
مشتتاً بالذهب وعليه عياء حمراء ، وعلى رأسه تاج وفي يده صولجان مرصع
بالجواهر . وتراءى له مستودع القمامة بعيداً بعيداً . . .

وقال الغريب ملاحظاً وهو يرفع صوته فوق نواح الأبله : « هذا غريب ! » .
- غريب ؟ لماذا ؟ على أية حال ، إننا معشر الفقراء أكثر قناعة من الآخرين .
وما بوسعنا أن نفعل ، على كل حال ، الحقيقة أنه مع وجود المدارس فإن من يتعلم
الفراءة يقع تحت تأثير أشياء يستحيل عليه تنفيذها . وحتى زوجتي يتناها الحزن
أحياناً . ونقول إنها تمنى لو كان لها أجنحة أيام الأحاد » .

وأغمي على الجريح مرتين أو ثلاث مرات حين كانا يهبطان به أشد الجهات
انحداراً . وكانت الأشجار ترتفع وتنخفض أمام عينيه المحتضرتين كأنهما هي أصابع
الراقصين في الرقصات الصينية . وتماوج في أذنيه حديث الرجلين اللذين يكادان
يحملانه كلية كأنهما هما رجلان سكرانان فوق أرض زلقة . كانت لمة بقعة سوداء
كبيرة تمسك بخناقها ، وارتعاشات باردة مفاجئة تمر عبر جسده فتشعل من جديد
رماد خيالاته المحترقة .

وقال الغريب : « إذن فزوجتك تريد أجنحة أيام الأحاد ؟ أجنحة ! حتى لو
كان لها أجنحة فلن تكون بذات فائدة لها » .

« هذا صحيح ، إنها تقول إنها تريد الأجنحة حتى تخرج للنزهة بها . وحين
تشاجر معي تطلب دائماً الأجنحة من الرياح .

وتوقف الخطاب كما يحسح العرق الذي تنثر على جبهته بطرف كفه ، وقال
متعجباً : « إنه ليس بالخفيف الوزن ! » .

وقال الوافد الغريب : يكفيها ساقاها إن هي ارادت الذهاب ؟ حتى لو
كانت لديها أجنحة فإنها لن ترحل .

« كلا إنها لن ترحل ، ولكن ليس كرمأ منها ، بل لأن النساء طيور لا
تستطيع العيش دون أفقاصها ، ولأنني لا أحمل معي إلى البيت سوى قطع قليلة من
الخطب لا أستطيع أن أكسرها فوق ظهرها » . وتذكر عند ذلك أنه يتحدث إلى
ملاك فاستدرك سريعاً قائلاً : « وذلك لصالحها ، طبعاً » . ومضى الخطاب يقول

منغراً الحديث لشعوره بالحرج مما قاله نوا : « من يا ترى ضرب هذا الشاب المسكين؟ »

- هناك الكثيرون ...

- وأجل ، كثير من الناس يوسعهم عمل أي شيء ، ولكن هذا الشاب يبدو كما لو ... كما لو أنهم لم يشعروا بأي رحمة نحوه . طعنة بالسكين في شفتيه ... ثم الفاؤه هكذا في مستودع القمامة !

- ربما كانت به جراح أخرى كذلك .

- يبدو لي أن جرح شفتيه من جراء طعنة موسى . ثم إنهم حملوه هنا بعيداً حتى لا يكتشف جريمتهم أحد ، هه !

- وباله من مكان بائس ! - هذا ما كنت على وشك أن أقوله .

وكانت الأشجار تنفّس بالنسور التي توشك على مغادرة مستودع القمامة . وكان خوف الأبله بطنى على الآله ، فيقي صامتاً ، وانكمش على نفسه كالغنغذ في سكون ميمت .

وسرت الريح في خفة وسط السهل ، تهب من المدينة تجاه الحقول ، خفيفة ، لطيفة ، أنيسة ...

وتطلع الغريب إلى ساعته ، ثم سار بعيداً بعد أن وضع بعض النقود في جيب الرجل الجريح وودع الخطاب بتحية ودية .

كانت السماء صافية رائعة . وكانت البيوت التي تقع في طرف المدينة تطل على الحقول ، وأنوارها الكهربائية تتوهج كأعواد الثقاب في سرح مظلم . وبدأت تظهر وسط الظلمة طرقات متعرجة ، تقوم الأشجار على جانبيها ، بالقرب من أول صف من البيوت : أكواخ طينية تفوح منها رائحة الفس ، وأعشاش خشبية تفوح منها رائحة المنود ، بيوت ضخمة ذات فناء أملهي ننتة الرائحة كالاسطبلات ، وخانات فيها المعتاد من العلف الذي يباع للحيوانات والخادمة التي تطارح حبيها الغرام في الشكنات ، وجماعة من البغالين يتحداثون في الظلمة .

وترك الخطاب الرجل الجريح عند وصولها إلى أول البيوت ، بعد أن شرح له كيف يتوجه إلى المستشفى . وفتح الأبله جفنيه باحثاً عن الراحة ، وعن شيء يخلصه من الفواق ، بيد أن نظراته المحتضرة ، الثابتة كالشوكة ، دقت رجاءه على الأبواب الموصدة في الشارع المهجور . وترامى على البعد صوت أبواق تنادي القوم الرحل ، وأجراس تدق ثلاثاً على أرواح الموقنين المسيحين : ال... رح... مة ، ال... رح... مة ، ال... رح... مة .

وشعر بالعرب من نسيم يحمر نفسه وسط الظلال . كان جناحه مكسوراً ، ورن نواحه في أذن الأبله كالرعيد . وتحرك بعيداً في بطاء ، خطوة خطوة ، مستنداً إلى الجدران ، إلى ارتعاشات الجدران الثابتة ، مطلقاً أنه وراء أخرى ، دون أن يدري أياها يذهب ، والرياح تصك وجهه ، الرياح التي بدت كما لو كانت قد امتصت ثلجاً قبل أن تهب في الليل . وكان الفواق يهد كيانه . . .

والقى الخطاب رزمة الحطب في فناء كوخه كالعادة . وكان كلبه قد وصل قبله إلى البيت واستقبله في حضارة بالغة . وأزاحه بعيداً عنه ، وقبل أن يجتمع عنه قبعته ، فك أزرار ستروته فتدلت على كتفيه كأنها جناحا وطواط ، ثم ترجه إلى النيران الموقدة في ركن الحجيرة ، حيث كانت زوجته تظهر بغض الكعك ، وقص عليها ما حدث .

- « لقد قابلت ملاكاً عند مستودع القمامة » .

وخفق ضوء النيران على جدران الخيزران وعلى السقف المصنوع من الفس ، كأنه أجنحة ملائكة آخرين .

وصدر عن الكوخ خيط مرتعش من الدخان الأبيض النباتي .

ذلك الحيوان !

كان سكرتير الرئيس يصغي إلى الدكتور « بارينيو » .

- أقول لك يا سيدي السكرتير ، إنني أعمل منذ عشر سنوات جراحاً عسكرياً في ثكنات الجيش ؛ وأقول لك إنني وقعت ضحية مؤامرة كبرى ؛ لقد اعتقلت ، وكان اعتقالي بسبب . . . ولكن يجب أن أخبرك بكل شيء . هذا ما حدث تماماً : لقد انتشر أحد الأمراض فجأة في المستشفى العسكري ، ففي كل يوم يموت عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً في الصباح ، ومثلهم في الأصيل ، ومثلهم في الليل . وقام مدير الصحة العسكرية بتكليفني أنا وبعض زملائي من الأطباء الآخرين ببحث الحالة واكتشاف سبب وفاة هؤلاء الأشخاص الذين يدخلون المستشفى قبل وفاتهم بيوم في صحة جيدة ، أو ما يقارب ذلك . حسناً ، وبعد إجرائي خمس حالات تشريح ، نجحت في إثبات أن هؤلاء الرجال التعساء قد ماتوا نتيجة حدوث تمزق في المعدة ، ثقب بحجم العملة المعدنية الصغيرة ، ناتج عن عامل خارجي لم أتعرف عليه ، والذي ثبت فيما بعد أنه سلفات الصوديوم التي تناولوها كمطهر للأعماق ، وهو صوديوم يُشترى من مصنع المياه الغازية ، ولذلك فهو من نوع رديء . حسناً ، إن زملائي لم يشاطروني رأيي هذا ، ولذلك لم يُقبض عليهم فيما يبدو ، فهم يرون أنه مرض جديد يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي . أقول لك إن مائة وأربعين جندياً قد ماتوا ، ولا يزال هناك صندوقان من سلفات الصوديوم تلك . أقول لك إن مدير الصحة العسكرية ، كيمي يربح حفنة من الجنيهات ، قد ضحى بمائة وأربعين رجلاً ، بالإضافة إلى من سوف يلقون نفس مصيرهم . أقول لك . . .

وصاح أركان حرب رئيس الجمهورية من باب مكتب السكرتير : « الدكتور

لويس بارينيو ! » .

- سوف أحكي لك ما سيقوله لي أيها السيد السكرتير .

وسار السكرتير بضع خطوات مع الدكتور بارينيو تجاه الباب . وباستثناء
الاعتبارات الإنسانية ، شعر السكرتير بالاهتمام تجاه أسلوب قصة الدكتور
المتدرجة ، الرتيبة ، الكئيبة ، التي تتمشى مع رأسه الذي وخطه الشيب ومع
الوجه اللحيم الجاف الذي يتسم به رجال العلم .

واستقبله رئيس الجمهورية واقفاً ، مرفوع الرأس ، وإحدى ذراعيه متدلّية
على جنبه في وضع طبيعي ، والأخرى خلف ظهره ، وهتف به دون أن يترك له
فرصة تقديم التحية :

- « أرجو أن تدرك هذا جيداً يا سيد لويس ، إنني لن أقبل أن تعمل شائعات
يطلقها الدجالون من الأطباء على الخط من قدر حكومتي حتى في أقل القليل .
وينبغي لأعدائي أن يضعوا هذا في اعتبارهم دائماً ، وسوف أقطع رقبة أول شخص
ينسى ذلك . الآن ، تفضل ، أخرج وقل لذلك الحيوان أن يحضر ! » .

وانسحب الدكتور بارينيو خارجاً بمظهره ، وقد تغضنت جبهته على نحو
مؤلم ، وشحب وجهه كأنما هو يوم دفنه .

- « لقد انتهيت يا سيدي السكرتير ، لقد انتهيت . لقد كان الشيء الوحيد
الذي سمعته يقول لي هو : تفضل ، أخرج ، وقل لذلك الحيوان أن يحضر » .

- إنني ذلك الحيوان .

قال ذلك واحد من الكتبة كان جالساً إلى مكتب في ركن الغرفة ، وقام ثم
دلف إلى حجرة الرئيس من نفس الباب الذي أغلقه الدكتور بارينيو لتوه .

وغمغم الدكتور بارينيو وهو يحسح العرق الذي يتصبب على وجهه :

- « لقد ظننت أنه سيفضربني ! لو أنك رأيته ، آه لو كنت قد رأيته ! بيد أنني
أضيق وفنك يا سيدي السكرتير ، وأنت مشغول جداً . إنني ذاهب الآن ،
وأشكرك شكراً جزيلاً » .

- « مع السلامة يا عزيزي الدكتور ، عفواً ، وأتمنى لك حظاً سعيداً » .

وانتهى السكرتير من كتابة الرسائل التي سيوقعها السيد الرئيس في بضع دقائق . وكانت المدينة تتشرب الفسق البرتقالي ، والسواء ترتدي حلة موسلين قشبية من السحاب وترصع بنجوم كأنه ملائكة التسبيح . وصدحت نوافيس الكنائس نغمة « مباركة أنت أيتها العذراء » فملات الطرقات كأنها طوق نجاة للبشر .

ودهب يارنيو الى بيته وعاله ينهار من حوله . كيف كان يمكن أن يتقاضي هذه الضربة الخوؤن ؟ وأغلق الباب وهو يتطلع إلى السقف حيث يمكن أن غبط أياد قاتلة لتخنقه ، وتوجه إلى خزانة ملابس كبيرة في حجرة نومه واختبأ فيها .

كانت معاطفه معلقة في الخزانة في صف مهيب كأنها جثث رجال مشنوقين محفوظة في النفثالين ، وذكره منظرهم الجنائزي باغتيال والده منذ سنوات عديدة حين كان يسير بمفرده ليلاً . وكان على أسرته أن تقنع بتحقيق قضائي لا جدوى منه . وبعد تلك الجريمة ، حلت به مأساة ، إذ تسلم خطاباً غفلاً من التوقيع كان منطوقه ما يلي على وجه التقريب : « كنت وزوج אחتي عاتدين يوماً من طريق « فولتا غراندي » إلى حي « لاکائوا » في حوالى الحادية عشرة مساءً ، حين سمعنا طلقاً نارياً عن بُعد ، وطلقاً آخر ، وآخر ، وآخر ، حتى عددنا خمس طلقات ، فانخبتنا وراء أجرة أشجار قريبة . وسمعنا صوت جياد تقترب منا تحب بأقصى سرعه ، حتى كادت الجياد وراكبوها أن يمتكوا بنا في انطلاقتهم السريع . وبعد برهة ، عدنا نسير في طريقنا مرة أخرى ؛ وساد الصمت ثانية ، بيد أن جوادينا أخذنا يصهلان بشدة . ونزلنا من على ظهرهما وهما يزاران ومسهلان ، كل منا يحمل مسدسه في يده لنرى ما الأمر ، فوجدنا جثة رجل ميت مقلوب على وجهه ، وعلى مقربة منه بغلاً جريحاً أراحه زوج אחتي من آلامه بطلقة من مسدسه . وأسرعنا بالعودة إلى « فولتا غراندي » للإبلاغ عن الواقعة . وفي مقر الشرطة الرئيسي وجدنا الكولونيل « خوسيه بيراليس مونريني » الملقب بـ « الرجل ذي البغل الصغير » ، وثلة من أصدقائه يجلسون إلى مائدة عامرة بزجاجات النبيذ . وانتحبنا به جانباً وحكىنا له ما رأينا : أولا الطلقات النارية ، ثم . . . وأصغى إلينا ، ثم هز كتفيه ، وحول بصره إلى ضوء الشمعة التي سالت على جوانبها ورد في بطنه : « إذهبوا إلى منزلكما مباشرة - إني أعرف عما أحدث - ولا تذكرنا هذا الأمر مرة أخرى ! » .

- لويس ! لويس !

وسقط أحد معاطفه من شماغه كأنه طير كاسر .

- لويس !

وبحركة سريعة ، خرج « لويس بارينيو » من خزانة الملابس وتوجه إلى غرفة المكتبة ونظاير بتقليب صفحات كتاب . لشد ما يكون فزع زوجته لو أنها اكتشفت أنه كان غائباً في خزانة الملابس !

- « لقد تعدى الأمر كل حدود ! سوف تقتل نفسك أو تفقد عقلك من جراء كل هذه القراءة . لقد قلت لك ذلك منذ البداية ! ألا تدرك أن ما ينقصك هو الكياسة وليست المعرفة إذا أردت أن تتقدم في حياتك ؟ ماذا ستفقد كل هذه القراءات ؟ ماذا ستستفيد منها ؟ لا شيء بالمرة ! إنها لن تمكنك من شراء زوج من الجوارب ! إن الأمر سيء جداً ، سيء جداً !

وأعاد ضوء النهار وصوت زوجته الهدوء إلى نفس الدكتور بارينيو .

- « لا ينقصنا إلا هذا ! القراءة ، القراءة ... لماذا ؟ كي يقولوا بعد أن تموت أنك كنت عالماً ؟ إنهم يقولون هذا عن كل شخص بعد أن يموت ... ها ! فليقرأ الدجالون ، أما أنت فلا حاجة بك إلى ذلك ، فقد حصلت على درجتك العلمية : وانتهينا ولديك المعرفة بلا حاجة إلى الاستذكار . ثم ... لا تطلع إلي بحدة هكذا ! إن ما تحتاج إليه هو الزبائن ، وليس الكتب . لو كان لديك مرضى بعدد ما لديك من كتب لكان هذا البيت قد أصبح جنّة . أنا أنا ، فانا أرد أن أرى عيادتك ملاءة وأسمع الهاتف يرن على الدوام وأراهم يستدعونك للاستشارة ، وأراك تصل إلى شيء ما ... » .

- ماذا تعنين بأن أصل إلى شيء ما ... » .

- حسناً ، أن تكون ناجحاً . ولا تقل لي إن عليك أن تستهلك عينيك في القراءة حتى تكون ناجحاً . إن غيرك من الأطباء ينجحون بنصف ما لديك من دراية ومعرفة . إنهم يسعدون بشرق طريقهم بالسواعد إلى المقدمة ، ويصنعون اسماً لأنفسهم . لقد جاء طبيب السيد الرئيس ، لقد ذهب طبيب السيد الرئيس ... هذا هو ما يعنيه النجاح .

فقال بارينيو وهو يبط الكلمات كأنها ليغطي فجوة في ذاكرته :

- ح س نا ، حسناً يا عزيزي . من الأفضل أن تتخلي عن
أمالك هذه ، فأظن أنك ستقعين أرضاً حين أخبرك أنني قد جئت توأً من
مقابلة مع الرئيس ، أجل ، مع الرئيس .

- آه ، يا إلهي ! وماذا قال لك ؟ كيف قابلتك ؟

- بمنتهى السوء . الشيء الوحيد الذي سمعته بقوله هو عن قطع رقبتي . لقد
شعرت بالخوف . والأسوأ من ذلك أنني لم أعتد إلى باب الخروج بسهولة .

- هل وبخك؟ حسناً ، لن تكون الأول أو الأخير في هذا الأمر . إنه يضرب
الأخرين . وأضافت بعد صمت طويل : « إن ما بضيعك دائماً هو
الخوف »

- ولكن يا امرأة ، أي شخص يكون شجاعاً في مواجهة وحش كاسر .

- كلا يا رجل ، ليس هذا ما أعني . إنما أتحدث عن الجراحة ، ما دام في غير
طائفتك أن تصبح طبيب الرئيس . إن ما ينقصك هو ألا تخاف . يحتاج المرء كي
يصبح جراحاً ماهراً إلى الشجاعة . صدقي . الشجاعة والحسم في ضرب
المشرط . إن الحائكة التي لا تحمر قطعاً من الثياب للتجربة فيها في البداية لن
تتمكن أبداً من حياكة ثوب . والثوب شيء غالي ، أنعرف ذلك ، أما الأطباء
فبوسعهم أن يتمرنوا في المستشفى على الهنود . أما بشأن ما حدث لك من
الرئيس ، فلا تهتم بالأمر . هيا لتأكل ! لا بد أن الرئيس كان في حالة سيئة بسبب
تلك الجريمة البشعة التي وقعت في « رواق الرب » .

- اسكتي ، وإلا فعلت بك ما لم أفعل أبداً ، وهو أن أصفحك . ليست هناك
جريمة ولا بشاعة في الأمر الذي أنهى حياة ذلك السفاح الكريه ، الذي قتل والذي
في طريق مهجور ، أي ذلك الشيخ المسالم الأعزل . . . !
- وفقاً لحظاب غفل من التوقيع فحسب ! يا لك من رجل غريب . من ذا
الذي يهتم بالخطابات الغفل من التوقيع . . .

- لو أنني اهتمت بالخطابات التي لا توقيع . . .

- إن ذلك لا يليق بك . . .

- « دعيني أكمل كلامي . لو أنني اهتممت بالخطابات التي بلا توقيع لما كنت معي الآن في هذا البيت » . وقتش بارينيو محموراً في جيبه وعلى وجهه تعبير حاد وأضاف : « لما كنت معي الآن في هذا البيت ، خذي ، اقربي هذا » .

وتناولت الزوجة الورقة التي دفعها إليها زوجها وقد شحب وجهها ولم يعد يبين فيه من لون سوى صبغة شفيتها الحمراء ، وجرت بعينها سريعاً عبر سطورها المليئة بالأخطاء اللغوية :

« يا دكتور ، عليك أن تواسي زوجتك الآن وقد انتقل » الرجل ذو البغل الصغير « إلى الرفيق الأعلى . نصيحة أصدقاء مجنونك » .

وبضحكة ملتاعة ، ضحكة تناثرت وملأت أنابيب الاختبار والقوارير التي يتلى بها معمل الدكتور بارينيو ، كأنها سم زعاف مطلوب للتحليل ، أعادت الزوجة الورقة إلى زوجها . وعلى الفور ، ظهرت خادمة عند الباب وأعلنت :

- الغداء جاهز .

*

وفي القصر ، كان الرئيس يوقع أوراقاً بمساعدة الرجل الهرم الضئيل الهزيل الذي دخل الغرفة حين غادرها الدكتور بارينيو ، والذي سبق أن أطلق عليه لقب « ذلك الحيوان » .

وكان « ذلك الحيوان » رجلاً ث الهمة ، ذا بشرة وردية تشبه جلد الجرذان ، وشعر يشبه الذهب الرخيص ، وعينين زرقاوين فلقيتين ضائعتين وراء نظارة صفراء فاقعة اللون .

وضع الرئيس اسمه للمرة الأخيرة ، وسارع الرجل الهرم الضئيل الهزيل بمحاول تخفيف التوقيع ، فسكب دواة الحبر فوق الورقة التي انتهى الرئيس تَوْاً من توقيعها .

- يا حيوان !

- سيدي !

٨ - يا حيوان !

دقة جرس ، وأخرى ، وأخرى ... خطوات مسرعة ، ويظهر أحد الضباط عند الباب .

وزار الرئيس : « أيها الجنرال ، يُضرب هذا الرجل مائتي جلدة فوراً ، فوراً » . ثم انتقل من فوره إلى جناحه في القصر حيث كان الغداء جاهزاً .

وامتلأت عيناه ذلك الحيوان « بالدموع » . ولم يقل شيئاً ، لأنه كان عاجزاً عن النطق ، ولأنه كان يعلم أنه لا فائدة من طلب المغفرة : ذلك أن اغتيال الكولونيل « سونريتي » قد أفقد الرئيس صوابه . ولاحت أمام ضيابه عيني زوجته وأولاده يلتمسون الرأفة به : سيدة مكافحة وستة من الأطفال الناحلين . وبحث في جيب معطفه بيد كالخلب عن منديل ، آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه باليكاء ! لم يكن يرى ، كما هو مفروض ، أن العقوبة جائرة ، بل إنه كان على العكس ، يعتقد أن من الضروري أن يضربوه كي يتعلم أن يكون أقل رعونة - آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه باليكاء ! - وأن يكون أكثر كفاءة وألا يسكب الخبر على الوثائق - آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه باليكاء !

وبدت أسنانه بارزة بين شفتيه المضمومتين كأنها اسنان المشط ، وتضافرت مع وجنتيه الغائرتين وسمائه المتناعة كيما تخلع عليه مظهر رجل محكوم عليه بالاعدام . وكان قميصه ملتصقاً بفعل الحرق ، مما زاد في حزنه وضيقه . إنه لم يعرق من قبل بهذه الكثرة . آه لو كان بإمكانه فحسب أن يخفف عن نفسه باليكاء ! وشعر بعثيان الخوف يدفع بالقشعريرة في أوصاله .

ومسك به أركان حرب الرئيس من ذراعه ، وكان ذاهلاً ، فاقداً للحس والحركة ، جاحظ العينين ، مقوس القامة ، يغمره إحساس هائل بالفراغ ، ويشعر بجلده ثقيلاً ، ثقيلاً جداً ، ويمس بالخور ، الخور ...

وبعد ذلك بدقائقي ، في حجرة طعام الرئيس :

- عن إذنك ، سيدي الرئيس .

- تفضل يا جنرال .

- سيدي ، لقد جئت أخبركم أن « ذلك الحيوان » لم يستطع أن يتحمل المائتي جلدة .

وكان الرئيس عند ذلك يتناول شيئاً من البطاطس المقلية ، ولم تستطع الخادمة التي تقدم له الطبق أن تمنع نفسها عن الارتجاف ، فصاح بها سيدها : « واثب ، لماذا ترتعدين ؟ » ثم وجه كلامه إلى الجنرال الذي كان يقف وقفة انتباه وقبته العسكرية في يده دون أن تطرف عيناه ، قائلاً : « حسن جداً ، يمكنك أن تنصرف » .

وجرت الخادمة وبيدها الطبق ولحقت بالجنرال وسألته لماذا لم يستطع الرجل أن يتحمل المائتي جلدة .

- لماذا ؟ لأنه قد مات !

وعادت الخادمة إلى حجرة الطعام وما زال الطبق بيدها . وقالت ، وهي تكاد تبكي ، للرئيس الذي كان يأكل في هدوء :

- إنه يقول إنه لم يتحمل لأنه قد مات !

- وماذا في هذا ؟ ! أحضري الطبق التالي .

جاء ميغيل ذو الوجه الملائكي ، مستشار الرئيس وصفية الحميم ، لزيارته
بعد أن فرغ من تناول الطعام .

وقال عند دخوله غرفة الطعام (كان جميلاً وشريراً كالشيطان) :

- ألف معذرة سيدي الرئيس ، ألف معذرة سيدي الرئيس لتأخري . . .
ولكن كان عليّ أن أساعد خطاباً يحمل جريحاً وجده وسط القمامة ، ولم أستطع
الحضور قبل الآن . ولكنني أحيط سيادة الرئيس علماً بأن ذلك الجريح ليس من
الشخصيات المعروفة ، بل كان من عامة الشعب !

وكان الرئيس مرتدياً كعادته ملابس حداد كاملة : حذاء أسود ، وحلة
سوداء ، وربطة عنق سوداء ، وقبعة سوداء لا يخلعها أبداً . وكان يخفي لثته
الخشالية من الأسنان تحت شارب أشهب كث ممشط على جانبي فمه ؛ وكان ذا
وجنتين نحيلتين متهدلتين وجفنين صغيرين .

وسأله باسطقاً حاجيه : وهل أخذته إلى المستشفى ؟

- سيدي . .

بعد إذن سيدي الرئيس . . .

هل هم جاهزون يا جنرال ؟

- أجل يا سيدي الرئيس . . .

- اذهب أنت بنفسك معهم ، قدّم تمازي إلى أرملة وسلم لها هذه التلثانة
ببزو باسم رئيس الجمهورية ، لمساعدتها في نفقات الجنازة .

وقام الجنرال الذي كان يقف بانتباه وقبته العسكرية في يده ، دون أن تطرف
عيناه ويكاد لا يتنفس ، بالانحناء إلى الأمام وتناول النقود من على المائدة ، وأدار
كعبيه ، ثم روي بعد ذلك بدقائق يرحل في عربة تحمل النعش الذي يضم جثمان
« ذلك الحيوان » .

وسارع ذو الوجه اللاتكي يشرح موقفه :

- لقد فكرت أن اذهب إلى المستشفى مع الرجل الجريح ، ولكني قلت
لنفسي : إنهم سيعتصرون به على نحو أفضل إذا أنا أحضرت أمراً من السيد
الرئيس . ولما كنت متوجهاً لمقابلتكم ، ولكي انتقل إليكم أيضاً مرة أخرى هول
ما أحس به من جراء المصراع الغادر لضابطنا « باراليس سونريتي » . .

- سأصدر أوامري . . .

- إن هذا هو ما ينتظره المرء من رجل يقولون إنه ينبغي ألا يحكم هذا البلد .
- من يقول هذا ؟

- أنا يا سيدي الرئيس . فانا أول من يؤمن أن رجلاً مثلكم ينبغي أن يحكم
بلداً مثل فرنسا ، أو سويسرا الحرة ، أو بلجيكا المجيدة ، أو الدانمرك الرائعة ؛
وإنما فرنسا ، فرنسا فوق كل شيء . إنكم الشخص المثالي لقيادة أقدار مثل هذا
الشعب العريق الذي أنجب « غامبينا » و« فيكتور هيجو » !

ولاحت ابتسامة شبه خفية تحت شارب الرئيس ، بينما كان ينظف نظارته
بمعدّل حريري أبيض دون أن يحول عينيه عن وجه صديقه . وبعد فترة صمت
قصيرة ، أخذ يتحدث في موضوع جديد .

- لقد طلبت منك الحضور يا ميغيل من أجل مسألة أريد أن انهيها الليلة .

لقد أصدرت السلطات المختصة أمرا بإلقاء القبض على ذلك الوغد الجنرال «أوسيبو كاناليس» ، وسوف يتم ذلك في منزله مع إشرافه شمس الغد . ولأسباب خاصة ، ورغم أنه واحد من قتلة «باراليس سونريني» ، فإن الحكومة ترى من غير اللائق بها أن تضعه في السجن ، ولذلك يلزم أن يقوم بالهرب فوراً . فاذهب وقابله ، وقل له ما تعرف من معلومات ، وانصحه بأن يهرب الليلة ، كأنما هي فكرة من بنات أفكارك . وقد يتعين عليك أن تساعد على الهرب ، لأنه ، كأي جندي محترف ، يؤمن بالشرف ويفضل أن يموت على أن يهرب . وإذا قبضوا عليه غدا فإنه سيعدم . ويجب ألا يعرف شيئا عن حديثنا هذا ، فهذا يبني وينك فحسب . وحاذر أن تعلم الشرطة شيئا عن قيامك بزيارته . رتب الأمر بحيث لا تثير الشبهة وحتى يتمكن ذلك الوغد من الهرب . بإمكانك أن تنصرف الآن .

وإنصرف محبوب الرئيس وقد أخفى وجهه خلف لقاعه (لقد كان جبلا وشريرا كإيليس) . وحياه الضباط القائمون على حراسة غرفة طعام سيدهم تحية عسكرية بدافع السليقة ، أو ربما بدافع علمهم أنه يحمل مصير جنرال في يديه . وكان ثمة سبعون شخصا جالسين في حجرة الانتظار يتناهبون ، ينتظرون أن يفرغ الرئيس من مهامه حتى يقابلوه . وكانت الطرق المحيطة بالقصر وبمنزل الرئيس مغطاة بالزهور ، و ثمة عدد من الجنود يقومون بتزيين واجهة الشكبات المجاورة بالمصابيح وبالأعلام الصغيرة وبالشرائط الزرقاء والبيضاء ، بتعليمات من رؤسائهم .

ولم يكد ذو الوجه الملائكي ليلحظ أياً من تلك الزينات ، فقد كان عليه أن يقابل الجنرال ويدبر أمر فراره . وبدا كل شيء يسيراً ، إلى أن بدأت الكلاب تنبح في الغابة المائلة التي تفصل الرئيس عن أعدائه ، وهي غابة قوامها أشجار ذات أذان تستجيب لأذن صوت فتعصف أوراقها كأنما تنب عليها عاصفة مدمرة . ولم يكن أقل ضجيج على بعد أميال ليهرب من نهم تلك الملايين من الأغشية النباتية . ومضت الكلاب في نجاحها . كانت ثمة شبكة ذات خيوط فضية ، أكثر خفاء من أسلاك البرق ، تصل ما بين كل ورقة وبين الرئيس ، مما يمكنه من مراقبة أشد أفكار أهل الشغب سرية وخفاء!

وفكر ذو الوجه الملائكي : آه لو أمكن عقد اتفاق مع الشيطان ، يبيعه فيه روحه على شرط أن تنخدع الشرطة ويتمكن الجنرال من الهرب ! بيد أن الشيطان

لا يدخل في أي صفة وراءها خير ، رغم أن كل شيء تقريبا يتهدده الخطر في هذه العملية الخريبة . رأس الجنرال ، وشيء آخر . ونطق بالعبارة كأنما هو حقيقة يحمل بين يديه رأس الجنرال ، وشيئا آخر .

ووصل إلى بيت الجنرال كاناليس في حي « لامرسيد » . كان بيتا كبيرا يقع على ناصبة الطريق ، عمره حوالي المائة عام ، وكانت شرفاته الثماني الواقعة في واجهته ، ومدخل العربات الكبير الواقع خلفه ، يجعلان عليه شيئا من المظهر الفخم ، كأنه عملة نقدية قديمة . وقرر المحبوب أن يصغي خارج الباب ثم يطرق للاستئذان في الدخول إذا سمع أي حركة في الداخل . بيد أن وجود رجال الشرطة يملكون على الأفرز المقابل أجبره على أن يتنخل عن هذه الخطة . وبدلاً من ذلك ، سار بسرعة عبر واجهة المنزل وهو يتطلع إلى الشرفات ليرى ما إذا كان هناك من شخص يستطيع أن يؤمّ اليه . ولكنه لم ير أحداً . وكان من المستحيل أن يقف على الأفرز دون أن يثير الشكوك . وكان في ناصية الطريق المواجه للمنزل حانة صغيرة سيئة السمعة ، فرأى أن أسلم طريقة للبقاء في الجحى هو الذهاب إليها وتناول مشروب هناك . زجاجة من البيرة . وتبادل بضع كلمات مع المرأة التي قدمت له الشراب ، ثم حوّل رأسه وكوب البيرة في يده ليرى من يجلس على المقعد المواجه للمحافظ . وكان عند دخوله الحانة قد لمح رجلاً هناك من طرف عينه . كان الرجل قد أسدل قبعته على جبهته حتى كادت تلامس عينيه ، وربط منديلاً حول عنقه ، ورفع ياقة معطفه ؛ وكان يرتدي بنطالاً واسعاً وحذاء بساق عالية واشترطته غير معقوفة ، مصنوعة من المطاط والجلد الأصفر وقماش بلون القهوة . ورفع المحبوب عينه شارد الذهن وتطلع إلى الزجاجات المصفوفة على الرفوف ، وحرف « س » المكتوب على مصابيح النور الكهربائي ، وإعلان عن الأنبياء الإسبانية (باخوس إله الخمر يجلس فوق برميل وسط رهبان متفخي البطون ونسوة عاريات) ، وصورة للرئيس أعيد إليه فيها شبابه على نحو بشع ، وعمل كتفيه شرائط بالقصب كأنها أشرطة السلك الحديدية ، وملائكة صفار تتوج هامته بأكاليل الغار . صورة ذات ذوق رائع ! وبين الفينة والفينة ، كان المحبوب يلتفت وتطلع إلى منزل الجنرال . سيكون الأمر خطيراً إذا كانت نمة علاقة تربط الرجل الجالس على المقعد وصاحبة الحانة أكثر من علاقة الصداقة إذ سيثيران المشاكل له . ولك أن زرر سترته ووضع في نفس الوقت ساقاً فوق أخرى ، مرتكزاً بمرفقه

على حافة البار كما لو لم يكن في عجلة من أمره . ولنفرض أنه طلب كوباً أخرى من البيرة ؟ وطلبها وتناول صاحبة الحانة ورقة مالية بمائة بيزو حتى يكسب الوقت ، فربما لا يكون لديها فكرة . وفتحت المرأة درج الخوان في ضيق ظاهري ، وفتشت بين أوراق النقد التي فيه ثم أغلقتها بعنف . لم يكن لديها أي فكرة . نفس الشيء دائماً ! عليها أن تخرج وتبحث عن فكرة . وألقت بميدعتها فوق ذراعيها العاريين وخرجت إلى الطريق ، بعد أن ألقت نظرة على الرجل الجالس على المقعد ، كأنما تحذره بأن عليه أن يراقب زبونها الآخر : أن يتأكد أنه لن يسرق شيئاً . وكان ذلك ترتيلاً ؟ نفع يرجى منه ، لأنه في نفس تلك اللحظة ، خرجت فتاة من منزل الجنرال كأنها قد سقطت من السماء ، وقفز ذو الوجه الملائكي إلى الخارج في لمح البصر .

قال وهو يسير إلى جوار الفتاة : يا أنسة ، هل لك أن تخبري سيد المنزل أنني خرجت منه ترواً أن لدي شيئاً عاجلاً للغاية أود أن أقوله له ؟

- والدي ؟

- هل أنت ابنة الجنرال ؟

- أجل .

- إذن ، لا تتوقفي ، كلا ، كلا ، استمري في السير ، لا بد أن نواصل المسير . هاك بطاقتي . أرجوك أن تخبريه أنني سوف أنتظره في منزلي في أقرب وقت ممكن ؛ وأنني ذاهب إلى هناك مباشرة وسوف أنتظره ، وأن حياته في خطر . أجل ، أجل ، في منزلي في أسرع وقت ممكن .

وأطاح الريح ببقعته فكان عليه أن يجري ليمسك بها . طارت من أمامه مرتين أو ثلاث مرات ، وأخيراً ، أمسك بها بحركة عنيفة كمن يمسك دجاجة في حظيرة للدواجن .

وعاد إلى الحانة بحجة أخذ باقي نقوده ، ولكنه كان يريد في الحقيقة أن يرى الانطباع الذي خلفه خروجه المفاجئ ، على الرجل الجالس على المقعد ، ووجهه يجاهد مع صاحبة الحانة : كان ظهرها إلى الحائط ، بينما شفتاه المشتتاقتان تنشدان قبلة من شفتيهما . وصاحت به حين تركها أخيراً ، مذعورة من وقع خطوات ذي الوجه الملائكي المقتربة : « أيها الشرطي البائس ، أنت أيها الحفيظ ، هذا هو الاسم الجدير بك !

ورأى ذو الوجه الملائكي أن من المناسب لخطته أن يتدخل بلطف في الأمر ،
فتناول الزجاجاة التي كانت صاحبة الحانة تلوح بها متوعدة ، وتطلع إلى الرجل
بإمعان .

.. « مهلا مهلا يا سيدي ! يا للساء ، يا لها من حكاية ! هيا ، خذي باقي
التقود لك عوضاً عن ذلك . لن تكسبي شيئاً من الشجار ، وربما تحضر الشرطة ،
فضلاً عن أن صديقنا هذا... » .

- لوميو فاسكيز ، في خدمتك .

وصاحت المرأة : لوميو فاسكيز ! بالأحرى « سوسيو باسكاس » !
الشرطة ، دائماً الشرطة . فليجربوا ، فليجربوا ويأتوا هنا . إنني لا أخاف أحداً ،
كما أنني لست من الهنود ، أسمعني ؟ ، حتى يجفني بسجن « كاسا نويفا » !

فتمتم فاسكيز وهو ييصق شيئاً ابتلعه عن طريق الخطأ :

- إن بإمكانك أن أضعك في دار للدعارة إن أنا أحببت !

- وهو كذلك يا سيدي ، فلم أكن أقول أي شيء .

وكان صوت فاسكيز كريها ، فقد كان يتحدث بطريقة اثتوية ، بعبارات
قصيرة متكلفة . وكان واقفاً في غرام صاحبة الحانة لقمة رأسه ، ويجاهد معها ليلاً
ونهاراً حتى تعطيه قبلة واحدة عن طيب خاطر ، فقد كان هذا هو كل ما يطلبه .
بيد أنها كانت ترفض دائماً ، على أساس أنها إذا قبلت أن تمنحه قبلة فإن ذلك يعني
منحه كل شيء . ولم يفلح مع صاحبة الحانة أي شيء : الرجاءات ، التهديدات ،
الهدايا الصغيرة ، الدموع الحقيقية أو الزائفة ، الأغاني الغرامية بالليل ،
الأكاذيب ، فقد كانت عنيدة في رفضها ، ولم تستسلم أبداً ، ولم تسمح لنفسها أن
تتأثر بهذا التزلف . وكانت تقول دائماً : « فليعرف تماماً أي شخص يحاول أن
بطارحني الحب أنه سيخوض في سبيل ذلك أهوالاً » .

ومضى ذو الوجه الملائكي يقول كأنما يجادل نفسه ، وهو يحك بسبابته قرشاً
معدنياً فوق على الحائط : « بما أننا قد سوينا أمرنا ، فسوف أحكي لكما قصتي »
الفتاة التي تسكن في المنزل المواجه » .

• هي الحاتلة الغدرة بالإسبانية .

وبدا يحكي لهما أن صديقاً له طلب منه أن يرى ما إذا كانت تلك الفتاة قد تسلمت خطاياها أرسله لها ، حين قاطعته صاحبة الحانة قائلة :

- إن أي شخص يرى صراحة أنك أنت الذي تسمى وراءها أيها الوغد المحظوظ !

وطرات فكرة مفاجئة في ذهن المحبوب . وهو يسمى وراءها . . . ولكن اسرتها تقف ضدها . . . بتظاهر بأنه سيخطفها .

واستمر يحك سببته في القرش المعدني المدفوق على الحائط ، ولكن بقوة اشد هذه المرة .

قال ذو الوجه الملائكي : « هذا صحيح ، ولكن المشكلة هي أن والدها لا يوافق على زواجنا » .

فصاح فاسكيز : « نبال ذلك الرجل العجوز . لشد ما يعيس حين يراي ، كأنما هي غلطتي أن أتبعه في كل مكان يذهب إليه حسب الأوامر ! »

فقالت صاحبة الحانة بخبث : هكذا حال الأغنياء على الدوام !

وشرح ذو الوجه الملائكي قائلاً : ولهذا فاني أخطط للهرب مع الفتاة . وقد وافقت هي . لقد كنا نبحث ذلك الأمر منذ هنيهة وسوف ننفذ خطة الهرب الليلة .

وابنسمت صاحبة الحانة وفاسكيز .

قال فاسكيز : « لتتناول شراباً . هذا أفضل » ثم التفت وقدم سيجارة إلى ذي الوجه الملائكي : « أتدخن ؟ » .

- كلا شكراً . حسناً ، سأتناول واحدة حتى ندشن صداقتنا .

وملات المرأة ثلاثة أفداح بينما كانا يشعلان سيجارتيهما .

وبعد برهة قال ذو الوجه الملائكي بعد أن سرى المشروب السحري في جسده :

- إذن يمكنني أن اعتمد عليكما ؟ مهما حدث ، سأحتاج إلى معرفتكما . ولكن

يجب أن يكون ذلك اليوم ! .

قال فاسكيز : لا يمكنني المشاركة بعد الحادية عشرة ماء ، فعملي يبدأ آنذاك . ولكن هذه المرأة هنا

- هذه المرأة أفضل منك ! حسن لسانك !

فعاد يقول وهو ينظر إلى صاحبة الحانة : هي ، « لا مسكوتانا » ، سوف نحل محلي . إنها تساوي رجلين . إلا إذا رغبت أن أرسل لك أحداً مكاني ، إن أحد أصدقائي سيقابلني الليلة في الحلي الصيني .

فقالت المرأة : لماذا بالله عليك تهر داثها « خينارو روداس » وراءك في كل شيء ، ذلك الأثيبه بماء جوز الهند ؟

فتساءل ذو الوجه الملائكي : ما معنى ماء جوز الهند ذلك ؟

- ذلك لأنه يبدو كاللوت ، إنه مخطوف . . . اللون !

- وما صلة هذا بمهمتنا ؟

فقال فاسكيز : لا أدري فيه ما يعيب

قالت المرأة : بل هناك ما يعيبه ، وأسفة لأن أقطع كلامكما يا سيدي . لم أحب أن أخبرك بذلك ، ولكن « فيدينا » زوجة « خينارو روداس » قد حكمت للجميع أن ابنة الجنرال ستكون إشيينة طفلها عند ولادته ، ومن هنا ترى أن صديقك « خينارو » ليس هو الشخص المناسب للعمل الذي يعتزم هذا السيد أن يقوم به .

- كلام فارغ .

- كل شيء عندك كلام فارغ .

وشكر ذو الوجه الملائكي فاسكيز على لطفه ، وأخبره أن من الأفضل ألا يشرك صديقه « ماء جوز الهند » في الموضوع ، لأنه - كما قالت المرأة - لا يمكن اعتباره محايداً . وأضاف :

- « خسارة يا صديقي فاسكيز ألا تتمكن من مساعدتي هذه المرة » .

- إني آسف أيضاً لعدم مشاركتي في الأمر ، لو علمت لكنت قد طلبت إجازة هذه الليلة .

- هل يمكن نسوية الأمر بدفع شيء من النقد . . .

- « كلا ، لست معتاداً على ذلك ، لا فائدة » . ورفع يديه وغطى بهما أذنيه .

- حسناً ، لا مناص من ذلك . سوف أعود إلى هنا قبل الفجر ، حوالى الثانية إلا ربعاً أو الواحدة والنصف صباحاً ، لأنني أمور الغرام ، لا بد من طرق الحديد وهو ساخن .

وودعها وسار إلى الباب وهو يرفع ساعة يده إلى أذنه ليرى ما إذا كانت تعمل - وكان لا يتجاف دقائقها المتواترة ما يتذر بالشر - ثم أسرع خارجاً ولفاعه الأسود ملفوف على وجهه الشاحب . كان يحمل في يديه رأس الجرّال ، وشيئاً آخر .

- ٧ -

غفران كبير الأساقفة

توقف « خينارو روداس » إلى جوار الحائط كىما يشعل سيجارة . وحين حلك عود الثقاب جانب العلبة ، ظهر « لوميسو فاسكيز » . وكان ثمة كلب يتقيا إلى جوار سور أحد الأضرحة الحديدية .

ومهمم « روداس » عند مرأى صديقه : « ظهر الشيطان ! » وحياء « فاسكيز » قائلا : « كيف حالك » . واستمرا يسيران .

- كيف حالك أيها العجوز ؟

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- ما هذا السؤال ؟ أنت تمزح ؟ ألم تنفق على أن تنقابل هنا ؟

- آه ، آه . لقد ظننت أنك نسيت . سوف أقص عليك آخر تطورات موضوعك ، ولكن هيا بنا تناول شرابا . هيا ، فلنذهب عن طريق « رواق الرب » لنرى ما إذا كان ثمة شيء هناك .

- لا أظن أن ثمة شيئا هناك ، ولكن فلنذهب إذا شئت . منذ أن منعوا الشحاذين من النوم هناك ، لم يعد يرى في تلك المنطقة أي قطة بالليل .

- هذا أفضل . فلنعب عن طريق فناء الكتدرائية ، إذا رأيت ذلك . يا لشدة الرياح !

ومنذ مصرع الكولونيل « باراليس سونريني » ، لم يفارق رجال الشرطة السرية منطقة « رواق الرب » لحظة واحدة . وكان يختار للحراسة في ذلك المكان أفسى الرجال وأشداهم خشونة .

وعبر « فاسكيز » وصديقه الرواق من أوله إلى آخره ، وصعدا السلم الذي يقضي إلى ناصية قصر رئيس الأساقفة ، وخرجوا من جانب منطقة « المته باب » . وكانت أعمدة الكندرية تلقي بظلالها في المكان الذي اعتاد الشحاذون أن يناموا فيه . وكان ثمة سلم خشبي ، وآخر ، وآخر ، مما يشهد بأن النقاشين سوف يقومون بإعادة الشباب لأبواب المبنى ونوافذه . والواقع أن البلدية كانت لديها خطط لإظهار تأييدها المطلق لرئيس الجمهورية ، وعلى رأس هذه الخطط طلاء وإصلاح المبنى الذي كان مسرحا للاغتيال المشين لأحد ضباطه ، على أن يتكفل بالنفقات الأتراك الذين يمتلكون « بازارا » في المنطقة نفوح منه دائما رواثع نفايات تحترق ! وكان الفرار الحازم الذي اتخذهُ أعضاء مجلس البلدية حين طُرح عليهم موضوع النقود : « فليدع الأتراك ، فهم مسؤولون على نحو ما عن مصرع الكولونيل « باراليس » سونريني » ، لأنهم يقيمون في المكان الذي وقعت فيه الحادثة . ونتيجة لهذا الإجراء الانتقامي ، كان الأمر سيتهي بالأتراك إلى أن يصبحوا أشد فقرا من الشحاذين الذين اعتادوا أن يناموا على أعتاب أبوابهم ، لو لم يجد لهم بعض الأصدقاء من ذوي النفوذ يد المعونة فدفعوا ثمن الطلاء والتنظيف . وإصلاح إضاءة الكندرية ، بأذن دفع مالية من وزارة الخزانة مشتراة بتصف قيمتها .

بيد أن وجود الشرطة السرية كان مدعاة لقلق هؤلاء التجار الأتراك . وكانوا يتساءلون فيما بينهم عن سبب وجود هذه الحراسة المشددة : ألم تتحول أذون الدفع إلى دلاء من العلاء الأبيض ؟ ألم يشتروا على حسابهم فرشا للطلاء في طول لحي أنبياء بني إسرائيل ؟ وقد دفعهم حرصهم إلى زيادة عدد القضبان الحديدية والمزالج والأقفال على أبواب حوانيتهم .

وغادر « فاسكيز » و« روداس » الرواق من الناحية القريبة من « المائة باب » . وابتلع الصمت صوت خطواتها الثقيلة . وبعد أن قطعوا شوطا من الطريق ، دلفا إلى بار يدعى « صحوة الأسد » . وحيا « فاسكيز » البارمان وطلب زجاجة نبيذ وكأسين ، وجلس مع « روداس » إلى مائدة صغيرة وراء سنار .

سأله « روداس » : حسنا ، أي أخبار عنلك عني ؟

فرغ فاسكيز كأسه قائلا : في صحتك .

- في صحتك .

وأضاف البارمان الذي كان قد حضر إلى مائدتها لتقديم الطلبات ، بصورة ألبية : « في صحتكما أيها السيدان » .

وأفرغ كلاهما كأسيهما دفعة واحدة .
- لم يحدث تقدم بالنسبة لذلك الموضوع ...

بصق « فاسكينز » تلك العبارة مع آخر جرعة من كأسه ممتزجة بالرضاب الذي بعثه فيه ، وأضاف : « لقد وضع مساعد المدير اسم أحد أقربائه بدلا منك ، وحين تدخلت من أجلك ، كانوا قد أعطوا الوظيفة بالفعل لذلك القدر .

- يا للحظ السيء !

- ولكن : حين يأمر الربان بشيء ، فعلى البحار أن يطيع وهو صامت . لقد جعلته يشعر أنك مشتاق للالتحاق بالشرطة السرية ، وأنت رجل يعتمد عليه . إنك تعرف من هو فاسكينز !

- وماذا قال لك ؟

- ما سبق أن قلته لك : إن هناك شخصا من أقاربك للوظيفة ، وهذا فقد افهمني . إن ما أقوله لك الآن ان الالتحاق بالشرطة السرية أصعب الآن مما كان عليه سابقا حين التحقت أنا بها . إن الكل يتسابق عليها باعتبارها ذات مستقبل عظيم .

ورد « روداس » على كلمات صديقه بهزة من كنفه وتعليق غير مفهوم . لقد حضر وكله أمل في أن يحظى بالوظيفة .

- لا تكن منشائها هكذا . حالما أسمع عن وظيفة أخرى شاغبة ، فهي لك . أحلف بالله ، بأمي ، أنها لك ، الآن بصفة خاصة بعد أن نازمت الأمور لا بد أن يجتازوا إلى المزيد من الرجال . ألم أحلك لك ... ؟

وحين قال « فاسكينز » ذلك ، تلفت حوله في عصبية ثم أضاف :

- كلا ، لست ثرثاراً ، من الأفضل لي أن أسكت .

- حسناً ، لا تحك لي شيئاً ، إنني لا أهتم بذلك .

- إنه موضوع خطير ...

- إسمع أيها العجوز ، لا تحك لي شيئا ، اسكت من فضلك . إنك لا تتق بي ، ها ، إنك لا تتق بي . . .

- بل أثق بك يا صديقي . . يا نك من شخص حساس !

- إسمع ؛ اسكت ، فانا لا أحب هذه الشكوك . إنك كالنساء ! إنني لم اطلب منك أن تقول لي أي شيء حتى تتصرف على هذا النحو !

ووقف « فاسكيز » ليرى ما إذا كان ثمة أحد على مرمى السمع منهما ، ثم تحدث في تبرة خفيفة وهو يقترب من « روداس » ، الذي أخذ ينصت إليه عابسا ولما يزل مسنأ من تكتمه في الأمر .

- لا أدري إذا ما كنت قد قلت لك إن الشحاذين الذين كانوا ينامون في « رواق الرب » ليلة مقتل الكولونيل « سونريتي » قد اعترفوا أخيرا ، ومن ثم فلا يوجد مخلوق لا يعلم من الذي قتل الكولونيل . . وأضاف رافعا صوته : « من هو في ظنك ؟ » ثم قال خافضا صوته إلى حد يتلامم مع رجل من الشرطة السرية : « ليس غير الجنرال « إيوسيو كاتاليس » والمحامي « قابيل كرفنخال » . . .

- أحقيقي ما تقول لي الآن ؟

- لقد صدر الأمر باعتقالها اليوم . ها أنت تعرف كل شيء الآن .

قال « روداس » وقد هدأت نفسه : « إذن فالأمر كذلك ! ذلك الكولونيل الذي يحكون أن باستطاعته قتل ذبابة بطلقة من مسدسه على بعد مائة خطوة ، وكان مكروها من الجميع ، لم يقض عليه مسدس ولا سيف ، بل انقصت رقبته كالذجاجة بالمرء فعل أي شيء في هذا العالم إذا هو صمم على ذلك . ذلك المختزير القاتل !

واقترح فاسكيز دورة أخرى من الشراب ، ونادى :

- كأسان آخران يا سيد « لوتشو » .

وملا « لوتشو » النادل كأسيهما مرة أخرى . وكان يخدم اثربائين مرتدياً ميدعة من الحرير الأسود .

وصاح فاسكيز : « عليك بالكأس ! » وأضاف من بين أسنانه بعد أن بصق :

« إنني أكره أن أرى كأساً ملان ، فلتعلم ذلك إن كنت لا تعرف . في صحتك ! » .

كان القلق قد بدا على روداس ، بيد أنه أفرغ كأسه في عجلة ، وقال وهو يزيحه عن فمه :

- إن من أرسل الكولونيل إلى العالم الآخر ليس من البلاء به حيث يعود إلى مكان فعلته مرة أخرى ، في أي وقت .

- ومن قال إنه سيعود ؟

- ماذا ؟

- اسمع ... يمكن أن يحدث أي شيء بينها هم يبحثون ... هاها ها ... لقد جعلني أضحك !

- إن ما تقول هو ما يبحث على الضحك . ولكني أقول إنهم ما داموا يعرفون من قتل الكولونيل ، فلا قيمة لأن ينفقوا في « رواق الرب » في انتظار عودته كيما يسكبوا به ... أو لا تقل في انكم هنا من أجل عيون الأتراك ؟

- لا تقل مثل هذا الهذر !

- وأنت لا تقل لي هذه القصص العجيبة في مثل هذا الوقت من الليل !

- إن ما تفعله الشرطة السرية في « رواق الرب » لا شأن له بمحنة الكولونيل « باراليس » ولا يملك معرفته ...

- كما لو كنت تعرف كل شيء .

- اني أعرف ما يعني معرفته .

- وأنا بتعين أن أعرف !

- كف عن هذا الهذر . الواقع أن وجود الشرطة السرية في الرواق لا علاقة له بالجريمة . حقيقة ، كلا . لن تتخيل ما تفعل هنا ... إننا في انتظار رجل مصاب بسعار الكلاب .

- بالله عليك !

- أتذكر ذلك الأخرس الذي يصيحون به « أماء » في الطرقات ؟ ذلك الرجل

الطويل الأعرج ، الملتوي الساقين ، الذي يجري في الطرقات كالمجنون . . .
أتذكره ؟ أجل بالطبع أتذكره . حسناً ، إننا نترقب وصول هذا الشخص إلى رواق
الكنائس ، حيث اختفى من هناك منذ ثلاثة أيام . سوف نرشق جسده
بالرصاصة . . .

ووضع فاسكيز يده على مسدسه حين نطق بالعبارة الأخيرة .

- والله لقد أخففتني يا شيخ !

- كلا يا رجل . لم أقل ذلك لأخيفك . إنها الحقيقة ، صدقتي ، إنها
الحقيقة . لقد عضّ عددا من الناس وأوصى الأطباء بإعطائه جرعة من
الرضاص . ما رأيك ؟

- إنك تسخر مني ، ولكن لم يولد بعد من يستطيع خداعي . إن رجال
الشرطة ينتظرون في « رواق الرب » من قتل الكولونيل . . .

- يا إلهي ، كلا ! يا لك من عنيد صلب الرأي ! إنهم ينتظرون الآخرس ،
كما قلت لك ، الآخرس ، الآخرس المصاب بالسعار والذي عضّ كثيرا من
الناس ! هل تريد أن أعيد ذلك على مسامعك ؟

*

أخذ الأبله يجر جسده في الطريق ، متأوهاً من جراحه ، يسير أحيانا على
أربع ، ملتويا ، دافعا جسده بأطراف قدميه ، يحك بطنه في الصخور ، وأحيانا
يعتمد على ساقه السليمة وأحد مرفقيه ، بينا الألم يعتصر جانبه . وأخيرا ، لاح
الميدان أمامه . وكانت الريح تعصف بأشجار الحديقة فتتردد كأنها صرخات
النور . واحتاج الأبله الرعب حتى أنه بقي برهة غائبا عن الوعي ، وتبدى له في
لسانه الذي أصبح جافا متفخفا كالسمكة الملقاة في الرماد ، والعرق الذي غطى
فخذه . وصعد إلى « رواق الرب » خطوة خطوة ، ساحبا جسده كأنه قطعة
تموت ، ثم أقام في جانب ظليل ، فاغر الفم ، جاحظ العينين ، وقد تجمدت
على أسنانه بقع الدماء والطين . واختلط الصمت بوقع أقدام العابرين في هذا
الوقت المتأخر ، وطقطقة بنادق الحراس ، وصوت الكلاب الضالة تمشي بخطوات
بطيئة ، وأنفها تحياه الأرض ، تبحث عن عظام وسط مزق الورق وأوراق الشجر
التي أطارها الريح إلى « رواق الرب » .

وأعاد «لوتشو» ملء كأسه النبيذ الكبيرين ، من النوع الذي يعرف بالكاس ذي اللورين . وقال «فاسكيز» في نبرة أحد من المعتاد ، في عبارات قطعها البصاق مرتين : «لماذا لا تصدقني بحق الجحيم ؟ ألم أقل لك انه في حوالي التاسعة من هذا المساء - أو ربما الساعة التاسعة والنصف - وقبل أن الاتيك هنا ، كنت أغازل «لامسكواتا» ، صاحبة حانة «الخطوطان» حين دخل إلى حانتها شاب طلب كأسا من البيرة . وبعد أن أحضرت له الكاس ، طلب آخر ودفع لها ورقة بمائة بيزو . ولم يكن معها فكة ، وخرجت تبحث عن فكة . بيد اني تيقظت له تماما ، لأنه حالما دخل ، شممت فيه رائحة الخطرين . وكأنما كنت أعرف الأمر مسبقا ! فقد خرجت فتاة من المنزل المقابل ، وما كادت تحطو خارجة حتى ذهب ذلك الشاب ولحق بها . ولكني لم أر غير هذا ، لأن «لامسكواتا» عادت من الخارج في تلك اللحظة ، فكان عليّ - كما تعلم - أن أعاد مغازلتها ثانية . . .

- وماذا عن المائة بيزو . . . ؟

- إنتظر وسأحكى لك كل شيء : كنا نتصارع ، أنا وهي ، حين عاد ذلك الشاب للحصول على باقي نقوده ، ووجدني أحتمضها ، وعندها أفضى بسره وأخبرنا أنه متيم بحب ابنة الجنرال «كاناليس» وأنه يفكر في الحرب معها في هذه الليلة ذاتها إذا أمكن ذلك . وكانت الفتاة التي خرجت من المنزل لمقابلته هي ابنة الجنرال «كاناليس» نفسها . ولا يمكن أن تتصور كم ألح عليّ من أجل أن أساعده في خطته ، ولكني لم أكن أستطيع عمل شيء وأنا مكلف تلك المهمة في «رواق الرب» .
- يا لها من حكاية !

والحق «روداس» ملاحظته تلك ببقعة من لعبه .

- والشيء الغريب هو أنني شاهدت ذلك الشاب مرارا عند قصر رئيس الجمهورية .

- إذن لا بد أن يكون أحد أفراد عائلته .

- كلا ، لا يمكن أن يكون من نفس الأسرة . إن ما أريد أن أصرفه هو ، لماذا هذه اللهفة لخطف الفتاة هذه الليلة بالذات ؟ لا بد انه يعلم شيئا عن اللقاء القبض على الجنرال ويعمل على أن يهرب بها حين يكون الجنود مشغولين بالقبض

على العجوز .

- لقد أصبت كبد الحقيقة ، لاشك في ذلك .

- كأس صغير آخر ، ثم تنهض إلى العمل .

وملا « لوتشو » كأس الصديقين ، فأفرغاهما على الفور . وبعثا تجاه دوائر البصاق وأعقاب السجائر التي تغطي أرض المكان .

- كم حسابك يا سيد « لوتشو » ؟

- ستة عشر قرشا ونصف . . .

فسأل « روداس » : الواحد . . . ؟

فرد النادل : « كلا ، الاثنان » بينما كان فاسكيز يحصي النقود .

- سلاما يا سيد « لوتشو » .

- نراك على خير يا سيد « لونشيتو »

وإمتزج صوتهما بصوت النادل الذي اصطحبها إلى الباب مودعا .

وصاح « روداس » وهو يندس يديه في جيبه بظالمة حين خرجا إلى

الطريق : « يا لله ، إن البرد شديد » .

ومشيا في بطاء حتى بلغا الحوانيت القريبة من السجن ، من الناحية التي تطل على « رواق الرب » ، وتوقفا هناك بناء على اقتراح من فاسكيز . كان يشعر بالسعادة ، ومد ذراعيه إلى الأمام كأنما ليخلص نفسه من حمل من الحمل . وقال وهو يمتطى : « هذه هي صحوة الأسد حقا ، بشعره الأمامي المغنوص ! لا بد أن الأسد يتحمل كثيرا من المشاق في سبيل أن يكون أمدا . إنهج قليلا يا رجل ، هه ؟ لالان الليلة هي ليلتي . الليلة ليلتي ، أقول لك ، الليلة ليلتي ! » .

وبفضل تردينه لهذه الكلمات برنة ثابتة تزداد حدة في كل مرة ، بدا وكأنه يحيل الليل دفا أسود مزدانا بأجراس ذهبية ، وكأنه يصافح أصدقاء خفيين في وسط الريح ، وكأنه يدعو الأراجوز الذي يسكن بيتا في الرواق كي يمشل أمامه هو وعرائسه الخشبية ليدغدغوا حلقه حتى يكاد ينفجر من الضحك . وضحك . . . وضحك . . . وحاول القيام بعدة خطوات راقصة وبداء في جيب صدره ، ثم ماتت ضحكته فجأة وتحولت إلى أنين ، واستحالت سعادته ألما . وقوس جسمه

ليحتمي فمه من غشيان أمعائه . وصمت فجأة ، وتصلبت ضحكته في فمه كأنها
الجلس الذي يستخدمه أطباء الأسنان لقياس حجم الأسنان . لقد لمح الأبله .
ودوى وقع أقدامه خلال الرواق الساكن ، وضاعف المبنى العتيق منها ، مرتين ،
ثماني مرات ، اثنتي عشرة مرة . كان الأبله يثن ، مرة برفق ، ومرة بصوت عالٍ ،
كالكلب الجريح . ودوت صرخة في سواد الليل ؛ فقد اقترب « فاسكينز » من
الأبله ومسده في يده ، ليجره من ساقه الجريحة إلى رأس السلم الذي يفضي إلى
ناصية قصر كبير الأساقفة . وشهد « روداس » الموقف دون أن يتحرك ، لاهث
النفس غارقاً في عرقه . وعند أول طلقة من المسدس ، تدحرج الأبله على درجات
السلم . وقضت الطلقة الثانية عليه . وانكمش الأتراك على أنفسهم فيما بين
الطفلتين . ولم ير أحد أي شيء . بيد أن ثمة فديسا كان يطل من إحدى شرفات
قصر كبير الأساقفة ، يساعد الرجل سيء الحظ ساعة احتضاره . وفي اللحظة التي
تدحرج فيها جسده على درجات السلم ، امتدت إليه يد ترندي خائفاً من الأحجار
الكريمة ومنحته الغفران ، وفتحت له باب مملكة السماء .

أراجوز الرواق

فبور أن دوت طلقتا الرصاص ، وعلت صرخات الأبله ومرب فاسكيز
وصديقه ، بدت الطرقات وكأنها تجري وراء بعضها بعضاً ، وقد تشتت بخفيف
التياب تحت ضوء القمر ، وذلك دون أن تدري ماذا حدث ؛ بينما نبضت أشجار
الميدان أصابعها في يأس لأنها لا تستطيع البوح بما حدث لا عن طريق الريح
التي تسري خلال أوراقها ولا أعمدة الهاتف التي تنتصب وسطها . وأطلت
الطرقات على المفارق تتساءل فيما بينها عن المكان الذي وقعت فيه الجريمة ، ثم
هرع بعضها إلى وسط المدينة والبعض الآخر إلى الضواحي ، وكأنها قد ضلت
الطريق . كلا ، لم تقع الجريمة في «حارة اليهود» الملتفة المتوية كأنها خطنها يد
رسام مخمور ؛ ولا في «حارة اسكونتيا» التي اشتهرت يوماً ما حين قام بعض أبناء
النبلاء من الشباب بإحياء أيام الفروسية فيها بإعمال مسووفهم في أجساد رجال
الشرطة المرتشين ، ولا في «حارة الملك» التي يغشاها المقامرون ، والتي يقال إنه لا
يمكن لأحد أن يمر بها دون أن يحس الملك ؛ ولا في «حارة القديسة نيريزا» ، وهي
تل منحدر يمر في حي موخش ؛ ولا في «حارة الأرنب» ؛ ولا بالقرب من نافورة
«هافانا» ، ولا عند «الشوارع الخمسة» ؛ ولا في حي «المارتينيك» .

بل وقعت الجريمة في «الميدان الرئيسي» ، حيث تسيل المياه على الدوام من
المراوح العمومية كأنها دموع البائسين ، وحيث رجال الحرس لا يكفون عن
استعراض سلاحهم ، والليل يلف ويدور حول الكندراتية تحت قبة السماء
الثلجية . وكانت الرياح تخفق كأنها اضطرام دماء تنزف من صدغ انخسته طلقات
رصاص بالجراح . ولكنها لم تغلق في انتزاع الأوراق المثبتة في تسلط على رؤوس
الأشجار .

وانفتح فجأة باب في أحد مساكن « رواق الرب » ، وأطل منه الأراجوز كالقار . ودفعته زوجته ، بحب استطلاع فتاة صغيرة في الخمسين من عمرها ، إلى الشارع كي يرى ما يجري فيه ويصف لها ما يراه . ماذا حدث ؟ ما معنى تينك الطلقتين ، الواحدة في ذيل الأخرى ؟ ولم يهتم الأراجوز بأن يظهر على الباب في ملابسه الداخلية ليرضي نزوات السيدة بنجاميون ، كما أصبحت زوجته تدعي (ربما لأن اسمه بنيامين) ، ورأى أن زوجته قد جانيها الصواب حين طغت عليها الرغبة في معرفة ما إذا كان أحد الأتراك قد قتل ، إلى درجة أن غرست أظفارها في ضلوعه كأنها عشرة مهميزات كيها تدفعه إلى أن يبرز رأسه إلى الخارج بأقصى ما يستطيع .

- ولكني لا أرى شيئا يا امرأة ! ماذا تتوقعين مني أن أقول لك ؟ علام كل هذا الإلحاح ؟

- ماذا تقول ؟ هل وقع ذلك في حي الأتراك ؟
- أقول لك أنني لا أرى شيئا ، وإن كل هذا الإلحاح ...
- أوضح كلامك بحق الله !

يكان الأراجوز ، حين يخلع أسنانه الصناعية ليتكلم ، يحرك فمه جيئة وذهابا كأنه فقاعة هواء .

- آه ، أجل ، إنني أرى الآن ! انتظري لحظة . إنني أرى ما الأمر . فقالت المرأة في شبه همس : ولكن يا بنيامين ، لا أستطيع أن أفهم كلمة واحدة مما تقول . ألا تدرك ذلك . لا أستطيع فهم كلمة مما تقول !

- إنني أرى الآن ، إنني أرى الآن . هناك جمع من الناس يجتشد هناك عند ناصية قصر كبير الأساقفة .

- ابتعد عن الباب إذا كنت لا ترى شيئا . لا نفع فيك البتة ! لا أفهم شيئا مما تقول .

وأفسح السيد بنيامين مكانا لزوجته ، التي تبدت عند الباب في حالة شعناء ، وأحد تدييها يتدل من قميص نومها القطني الأصفر ، والآخر مشبك في صورة العذراء المعلقة على الباب .

وكان آخر ما قاله السيد بنيامين الأراجوز إنهم يحضرون نقالة !

- آه ، حسنًا ، إن الحادث هناك وليس في حي الأتراك كما كنت أعتقد . لماذا لم تقل هذا من البداية يا بنيامين ؟ حسنًا ، لهذا كان صوت الطلقات قريبا بطبيعة الحال .

وقال الأراجوز : انظري ، ألا ترينهم يحضرون نقالة ؟ ، وبدأ صوته إذ هو يتحدث خلف زوجته وكأنه أت من أعماق الأرض .

- إسكت ! لا أعرف عم تتحدث . أفضل لك أن تذهب وتضع أسنانك الصناعية ، فيدونها تبدو وكأنك تتحدث لغة أجنبية !
- قلت إنني رأيتهم يحضرون نقالة .
- كلا ، إنهم يحضرونها الآن فقط ؟
- كلا يا فتاتي العزيزة ، لقد كانت هناك من قبل !
- أقول لك إنهم يحضرونها الآن ، إنني لست عمياء .
- لا أدري ، ولكنني رأيتهم . . .
- ماذا رأيت ؟ النقالة ؟

كان السيد بنيامين لا يكاد يبلغ المتر الواحد طولا ، نحيلًا ، غزير الشعر كالطوايط ، وتعدلر عليه أن يرى ماذا يفعل حشد من الناس والشرطة من وراء كتف السيدة بنجاميون زوجته ، وهي امرأة هائلة البنية ، تحتاج إلى مقعدين في الترام : مقعد لكل فخذ ، وما يربو على سبعة أمتار من القماش للرداء الواحد .

وقال السيد بنيامين محاولاً الهرب من هذه الحالة من الحسوف الكامل :
« ولكنك تفرجين وحدك الآن » .

وكأنما كان قد قال : « افتح يا سمسم ! » فقد استدارت السيدة بنجاميون جانبا كالجليل وأمسكت به في قبضتها . وصاحت : « بحق العذراء ، ها أنا أرفعك لنرى ! » وحملته بين ذراعيها كطفل وجذبت به إلى الباب .

ويصق الأراجوز بصاقا أخضر وأرجوانيا ويرتاليا ومن كل لون . وبينما كان يرفس صدر زوجته ويطنها ، كان ثمة أربعة رجال خمورين يعبرون الطرف الأقصى من الميدان حاملين جثة الأبله على نقالة . ورسمت السيدة بنجاميون

علامة الصليب . لهذا كانت المراحيض العمومية تبنى على الميت ، والرياح تعصف كأنها صوت التنوير بين أشجار الحديقة ذات اللون الشاحب الترابي .

وهتف الأراجوز حين عادت قدماء تلمسان الأرض : كان على القسيس الذي عقد زواجنا أن يقول لي انه يعطيني ممرضة وليس خادمة ، عليه اللعنة ! .

وتركته نصفه الحلو يتكلم : وليست عبارة « نصفه الحلو » بالعبارة المناسبة هنا ، فهي كالبطیخة إذا كان هو نصف البرنقالة التي تبحث عن نصفها الآخر . وتركته يتكلم ، بدافع صادر من جزء منه عن عدم فهمها كلمة مما يقول حين يخلع أسنانه الاصطناعية ، وفي الجزء الآخر عن احترامها له .

وبعد مضي ربع ساعة ، كانت السيدة بنجاميون تغط في نومها كأنها أجهزتها التنفسية تكافح من أجل الحياة داخل برميل اللحم هذا ، بينما كان زوجها لا يزال يلعن اليوم الذي تزوج فيه منها وعيناه تقدحان شررا .

بيد أن ذلك الحادث غير العادي عاد بالخير على مسرح العرائس الذي يقيم أوده . ذلك أن العرائس قد اتخذت من تلك المسألة موضوعاً لها ، وكانت تذرف الدموع قطرة قطرة من عيونها الورقية ، بفضل شبكة من أنابيب صغيرة تغذيها بحقنة وحوض ماء . ولم تكن العرائس حتى ذلك الوقت قد عرفت سوى الضحكات ، وكانت إن بكت تفعل ذلك بتقطيب باسم خالٍ من البلاغة التي تضفيها الدموع التي تنساب الآن على خدودها وتسيل على خشبة المسرح التي كانت في السابق محل الكثير من الهزليات الضاحكة .

وكان السيد بنيامين يعتقد أن العنصر التراجيدي في تلك الدراما سيجعل الأطفال يبكون ، ولذلك كانت دهشة عظيمة حين رآهم يضحكون من أعماق قلوبهم أكثر من أي وقت مضى ، مقهقهين تترسم علامات السعادة على وجوههم . كان منظر الدموع يثير ضحك الأطفال . وكان منظر الضربات يثير ضحكهم كذلك .

وخرج السيد بنيامين باستنتاج من ذلك :

- هذا غير منطقي . غير منطقي بالمرّة !

وعارضته السيدة بنجاميون : هذا منطقي . منطقي جداً .

- غير منطقي . غير منطقي . غير منطقي !

- منطقي جدا . منطقي جدا . منطقي جدا .
 والملح السيد بنامين : لا تدعينا نتشاجر .
 ووافقت قائلة : لا تدعنا نتشاجر .
 - ولكن هذا غير منطقي .
- إنه منطقي ، أؤكد لك ذلك ، منطقي جدا ، منطقي للغاية ! كانت
 السيدة بنجاميون حين تتشاجر مع زوجها تضيف إلى كلماتها صيغة المبالغة ، كأنها
 صمامات الأمان التي تقي من الانفجار .
 - وصاح الأراجوز وهو يكاد يشد شعره من غيظه :
 - غير منطقي !
 - منطقي ، منطقي ، منطقي للغاية . منطقي للغاية .
- ومع ذلك ، مضى الأراجوز الصغير الحجم يستخدم لمدة طويلة حيلة دموع
 المحفنة لجعل العرائس تبكي كيما تسلي الأطفال .

عين زجاجية

كانت الحوانيت الصغيرة في المدينة تغلق أبوابها عند الساعات الأولى من الليل ، بعد أن تراجع حساباتها ، وتتسلم الصحف ، وتصرف آخر زبائنها . وكان ثمة مجموعات من الفتيان يتسللون عند نواصي الطرقات بمطاردة الحشرات الطائرة التي تهوم حول المصابيح الكهربائية . وكانت كل حشرة يسكون بها تتعرض لسلسلة من التعذيب ، يطيل منه الأشرار فيهم نتيجة لعدم وجود شخص رحيم بينهم يضع قدمه على هذه المخلوقات وينهي حياتها بسرعة . وكان يُرى من التوافد فتيات يتبادلن الشكوى من تباريح الهوى مع أحيائهن الواقفين في الطريق ؛ بينما تسير دوريات مسلحة بحراب السونكي أو بالعصي في الشوارع الهادئة في صف مفرد ، يشون على خطى قائدهم . ومع ذلك كانت هناك أمسيات يكون فيها كل شيء مختلفا : فكان معذب الحشرات الطائرة المبالون يلعبون ألعابا ينتظمون فيها في معارك يعتمد طوعا على وجود المؤن من «النصاريخ» ، فقد كان هؤلاء المحاربون يرفضون التوقف عن اللعب ما دام هناك مدد من الحجارة في الطريق . أما المحبون ، فقد تظهر أم الفتاة فجأة فتنبئ هذا الاستعراض الغرامي وترسل بالحبيب المفتون جاريا في الشارع يحمل قبعة وكأنا الشيطان يطارده . وأحيانا تقع دورية الحرس على أحد المارة فتفتشه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وترسل به إلى السجن ، حتى لو لم يكن يحمل سلاحا ، بوصفه شخصية مشبوهة ، متشردا ، متأمرا ، أو كما يقول قائد الدورية « لأن منظره لا يعجبني » .

وفي تلك الساعة من الليل ، كانت الأحياء الفقيرة بالمدينة تعطي انطباعاً بالجزلة المطلقة ، والفاقة الجهلاء ، ومظاهر الإهمال ، وتظلل كل هذا قدرية دينية تنترك كل شيء لإرادة الله . وكانت ميازيب الأمطار تعكس صورة القمر على

الأرض ، والمياه تتقاطر من صنبير مياه الشرب فتغيس الساعات اللامتناهية لشعب يؤمن بأنه قد حُكِم عليه بالعبودية والرديلة .

وكان «لوسيفاسكيز» يودع صديقه في أحد هذه الأحياء الفقيرة . قال وهو يغمز بعينه علامة كتمان السر : مع السلامة يا خينارو .. سأذهب لأرى ما إذا كان في الوقت شسع للمساعدة في خطف ابنة الجنرال .

ووقف خينارو برهة جامدا يتبدى على سيماه ذلك التعبير الحائر لشخص يتردد في قول عبارة أخيرة لصديق يودعه ! ثم توجه إلى أحد البيوت في ذلك الحي ، حيث كان يقطن في مسكن أعدّه في أحد الحوانيت ، وطرق الباب .

وقال صوت من الداخل : من هناك ؟ من الطارق ؟

رد خينارو وهو يحني رأسه كأنما يتحدث إلى شخص قصير جدا :
- إنه أنا .

فقال المرأة التي فتحت الباب : أنا من ؟

ورفعت زوجته ، «فيدينا دي روداس» ، الشمعة إلى مستوى رأسه لترى وجهه . كان شعرها منكوشا ، وترتدي ثياب النوم .

وحين دلف خينارو إلى الداخل ، خفضت الشمعة ، وأعادت مزلاج الباب الحديدي إلى مكانه بصوت عالٍ وتوجهت إلى غرفة النوم دون أن تنطق بكلمة . ثم وضعت الشمعة أمام الساعة حتى يرى ذلك الفاجر الساعة المتأخرة التي عاد فيها إلى يته . وتوقف لكي يداعب القطة النائمة على المصطبة وحاول أن يصفر بغمه أغنية مريحة .

صاحت «فيدينا» وهي تحك فمها قبل أن تدلف إلى الفراش :

- أي شيء يجعلك تبدو سعيدا هكذا ؟

فرد خينارو بسرعة من جانب الحانوت المظلم ، وهو يخشى أن تكشف زوجته رنة القلق في صوته : لا شيء .

- إنك تقابل رجل الشرطة ذاك ذا الصوت النسائي أكثر من ذي قبل الآن .

فقاطعها خينارو وهو يتجه إلى الغرفة الخلفية حيث بنامان ، وقبعته الجروح

متدلية على عينيّه : كلا .

- كاذب! لقد تركته منذ لحظة ! آه، إنني أعترف عمن أتحدث ، إن رجلاً يتحدث بصوت مائع - لا هو ديك ولا دجاجة - مثل صديقك ذاك لا يمكن أن يأتي الخبر على يديه . إنك تصاحبه لأنك تريد أن تلتحق بالشرطة السرية . تلك الجماعة من المتوحشين الكسالى ! الذين يجب أن ينجلوا من أنفسهم!

وتساءل خينارو ليغير موضوع الحديث وهو يخرج رداءً صغيراً من صندوق :

ما هذا ؟

وأخذت « فيدينا » الرداء من زوجها كأنها هوراية من رايات السلام ، وبدأت تحكي بحماسة ، وهي جالسة على الفراش ، أنه هدية من ابنة الجنرال كاناليس ، التي طلبت الأم منها أن تكون إشيينة طفلها الأول عند تعميده . وأخفى « خينارو » وجهه في الظلال المحيطة بمهد ابنه الوليد ، وبدون أن يسمع ما كانت تقول له زوجته عن تربيته التعميد ، رفع يده في ضيق ليبعد ضوء الشمعة عن عينيّه ، ثم جذبها بسرعة بعيداً ، وهو يهزها لينظفها من آثار لون الدماء الذي علق بأصابعه . وارتفع شيخ الموت من المهد الذي ينام فيه طفله كأنما هو نعش . إن الموت أيضاً في حاجة إلى الهدنة كالأطفال . كان الشيخ يحكي بياض البيضة في لونه ، ذو عينيّن ضبابيتين ، أصلع الرأس ، بلا حواجب ولا أسنان ، يثني نفسه في دورات حلزونية كتقلصات البخور داخل المجامر التي تستخدم في المراسم الجنائزية . وكان خينارو يسمع صوت زوجته يسعى إلى أذنيه كأنما يأتي من مكان سحيق . كانت تتكلم عن ابنها ، وعن التعميد ، وعن ابنة الجنرال ، وعن دعوة جاريتها الملاصقة لهم ، والرجل السمين المواجه لهم وجاريتها التي على بعد خطوتين ، والجار الذي يقطن في ناصية الشارع ، وصاحب الحان ، والجزار ، والحجاز .

- « ألا يكون ذلك رائعاً؟ » ثم أضافت بجدّة :

- ماذا دهالك يا خينارو ؟

وجفل من وقع صوتها الحاد ، وقال : لا شيء .

لقد غمرت صبيحة زوجته شيخ الموت في بقع سوداء صغيرة ، بقع سوداء أبرزت الشيخ منتصباً أمام ركن الغرفة المظلم . كان هيكلها عظيماً لامرأة لم يبق

فيه من الصفات الأنثوية سوى الثديين الغائرين ، رخوين مشعرين كالقشران
التدلّية فوق إطار الضلوع .

- ماذا دهاك يا خينارو ؟

- لا شيء .

- هذه هي نتيجة سهرك في الخارج . إنك تعود إلى المنزل كالسائرين في نومهم ،
مطاطيء الرأس خذلان . لماذا لا تبقى في بيتك أيها الرجل البائس ؟

ويدد صوت زوجته وجود الميكمل العظمي .

- كلا . لا شيء هناك .

كانت ثمة عين تسبح فوق أصابع يده اليمنى كأنها دائرة ضوء منبعث من
مصباح كهربائي ، تنتقل من الأصبع الصغير إلى الأوسط ، ومنه إلى إصبع خاتم
العرس ، ومن إصبع الخاتم إلى السبابة ، ومن السبابة إلى الإبهام . عين . . .
عين واحدة . كان يشعر بها تنبض . وحاول أن يسحقها بأن قبض يده بشدة إلى
أن انفجرت أظافره في راحة يده . بيد أن ذلك كان مستحيلا ، فحين فتح يده
ثانية ، كانت لا تزال هناك مرة أخرى على أصابعه ، لا تزيد في حجمها عن قلب
عصفور ، ولكنها غيفة كنار جهنم . وانجست من جبهته حبات عرق ساخنة ،
كمرق اللحم . من ذلك الذي يتطلع إليه خلال هذه العين التي استكاثت على
أصابعه ثم تقافزت كأنها كرة عجلة الروليت على وقع الأجراس الخنازيرية ؟

وانتزعت «فيدينا» من المهذ الذي كان ينام فيه طفله .

- ماذا دهاك يا خينارو ؟

- لا شيء .

وبعد برهة ، تنهد مراراً عديدة ثم قال :

- « لا شيء . إن هناك عينا تطاردني ! إن هناك عينا تتبعني ، عينا وراثي أينما

ذهبت ! إنني أرى يدي - كلا ! هذا مستحيل ! إنها عيني ، إنها عين . . . » .

وقالت له زوجته من بين أسنانها دون أن تفهم شيئاً عما يقول :

- سلم أمرك إلى الله !

- إنها عين . . أجل ، عين مستديرة سوداء ذات أهذاب ، كأنها عين

زجاجة!

- إنك تمل . هذا هو ما دهاك .
- كيف أكون تملًا وأنا لا أجد ما أشرب ؟
- كيف لا تجد ؟ إن فمك يعيق براءة الخمر .

ورغم أنه كان يقف في وسط الحجرة التي ينامون فيها ، فقد كان الحانوت يشغل نصفها الآخر ، شعر « خينارو » أنه قد تاه في غياهب قبر مليء بالوطواط والعناكب والشعابين والسحالي ، بعيدا عن تناول أي عيون أو راحة .

وواصلت « فيدينا » كلامها قائلة وهي تتأهب : « لا بد أنك مقدم على شيء . إنها عين الله تراقبك ! » .

وقفز خينارو مرة واحدة إلى الفراش ودلف تحت الشراشف وهو في كامل ملابسه بما فيها الخذاء . كانت العين لا تزال هناك ، تتراقص إلى جانب جسد زوجته ، ذلك الجسد البض الفتي . وأطفأت « فيدينا » النور ، بيد أن ذلك زاد الطين بلة ، ذلك أن العين تماظم حجمها شيئا فشيئا في الظلمة ، إلى أن غطت الجدران والأرض والسقف والسطح والبيوت المجاورة ، غطت حياته كلها ، وطفله . . .

وأجاب ردا على ملاحظة زوجته التي أعادت إشعال الشمعة حين سمعت صيحانه المذعورة وراحت تمسح العرق البارد عن جبهته بإحدى مناشف الطفل : « كلا ! إنها ليست عين الله ، إنها عين الشيطان ! » .

ورسمت « فيدينا » علامة الصليب . وطلب منها خينارو أن تطفىء الشمعة ثانية . وتحولت العين إلى شكل حرف ثمانية إذ هي تنتقل من النور إلى الظلمة ، ثم صدر عنها صوت مدوّ ، كان يبدو أنها ستكسر على شيء ما . وما لبثت أن تكسرت على الفور على صوت وقع أقدام تتردد في الشارع .

وصاح خينارو : الرواق ! الرواق ! أجل ! أجل ! النور ، أعواد الثقاب ! النور بحق الإله !

ومدت زوجته يدها من فوقه لتمسك بعلبة الثقاب . وكانت تتردد أصوات عجلات قسيّة . كان خينارو يمسك فمه بأصابعه ويصيح كأنما هو مختنق . لم يكن

يريد أن يبقى وحيدا ، ونادى على زوجته ، التي كانت قد دمت جسدها في
قميص النوم وذهبت تسخن له بعض القهوة .

وحين سمعت صرخات زوجها ، عادت إلى الفراش منزوعة . وقالت
لنفسها وهي ترقب شعلة الشمعة الخافقة بعينها السوداوين الجميلتين : « هل هو
مريض يا ترى أم ماذا ؟ » . وجال بخاطرهما الدرد الذي أخرجه من معدة
« هنريتا » - الفتاة التي تعمل في الحضان المجاور للمسرح - والفطريات التي
وجدوها مكان الخ في رأس أحد الهنود في المستشفى ، وذلك المخلوق البشع
المسمى « كاديتو » الذي يحول بين الإنسان والنوم . وكالدجاجة التي ترفرف
بجناحيها وتصبح على فراخها حين ترى الطيور الكاسرة تنهددها ، نهضت وعلقت
ميدالية القديس « بلاس » حول رقبة طفلها الوليد الصغيرة وهي تتلو الصلوات
بصوت عال .

بيد أن الصلوات هزت « خينارو » كأنما أحد يقوم بضربة . ونهض من
الفراش وقد أغلق عينيه بشدة ، فوجد زوجته الى جوار مهد الطفل فتعرووقع على
ركبته معانقا ساقها ومعترفا لها بما شاهده في هذه الليلة :

« لقد تدحرج على السلم ، أجل ، إلى نهاية السلم ، نازفا الدماء من أول
طلقة ، ولم يغلّق عينيه بعد ذلك أبدا ، منفرج الساقين ، وعلى عينيه نظرة جامدة
باردة زجاجية لم أر في حياتي مثيلا لها أبدا ! وبدت إحدى عينيه كأنما تحيط بكسل
شيء أمامها مثل لمح البصر ، ولشد ما كانت تحقد إلينا ! عين ذات اهداب
طويلة ، لا تريد أن تفارقني ، لا تريد أن تفارق أصابعي ، ها هي ، آه يا إلهي ،
ها هي ! » .

وأسكنته صرخة من الطفل . وتناولت « فيدينا » الطفل من مهده ، ولفته في
بعض الثياب ، ثم ألصقته نديها ، دون أن تتمكن من الافلات من قبضة زوجها ،
رغم أنها شعرت بالاشمئزاز منه وهو يحنو هناك ، ممسكا بساقها يثن ويذني .

- واسوأ ما في الأمر أنه « لوسيو » ..

- أهو « لوسيو » ذلك الذي يشبه صوته صوت النساء ؟

- أجل ، لوسيو فاسكيز .

- الرجل الذي بدعونه « القطيفة » ؟

- أجل .

- ولماذا قتله بحق السماء ؟

- لقد صدرت اليه الأوامر بذلك ، فقد أصيب بداء السعار . بيد أن ذلك ليس أسوأ ما في الأمر ، فالأدهى من ذلك أن لوسيو قد أخبرني أن أمراً قد صدر باعتقال الجنرال كاناليس ، وأن هناك شاباً يعرفه ينوي اختطاف ابنة الجنرال الليلة . . .

- الأنسة كميلة ، إشيينة طفلي ؟

- أجل .

وحين سمعت « فيدينا » هذه الأنباء التي لا يصدقها عقل ، طفقت تبكي بالسهولة والغزارة اللتين تبكي بهما عامة النساء حزناً على مصائب الآخرين . وسقطت دموعها على رأس طفلها الصغيرة إذ هي تهدده ، سخية كالمياه التي تحملها الجداول إلى الكنيسة لإضافتها إلى المياه المقدسة الباردة في حوض التعميد . وراح الطفل في النوم . وانقضى الليل وخينارو وزوجته لا يزالان جالسين كأن على رأسيهما الطير ، حين خط الفجر خيطاً ذهبياً تحت الباب وكسرت ابنة الخباز صمت الدار وهي تدق على الباب وتصبح :

- الخبز ! الخبز ! الخبز !

أمراء الجيش

غادر الجنرال «إيوسيبو كاتاليس»، الملقب «تشاماريتا»، منزل ذي الوجه الملائكي في كل أبهة العسكرية، كأنما هو ذاهب على رأس جيشه، ولكن عندما أغلق الباب وأصبح وحيدا في الطريق، استحالت مشيته العسكرية إلى خيب هندي فقير ذاهب إلى السوق لبيع دجاجة. وكان يشعر بالجواسيس الذين يتعقبونه في أعقاب قدميه، وظل يضغط بأصابعه على فئاق يشعر به في حقويه، فقد كانت ألامه تصيبه بالخور. وكان يزفر كلمات منقطعة وشكايًا محطومة، في حين يحس بقلبه يخفق في اضطراب ويتقلص، وتفوته بعض الدفات، لدرجة اضطر معها - زائغ العينين مشلول الفكر - أن يضغط بيده على صدره ويقبض عليه رغما عن الضلوع التي تفصله عنه، كأنما هو عضو كسير بإمكانه إرغامه على العمل. شكراً لله. لقد عبر الآن تلك الناصية التي بدت له جد بعيدة من قبل، والآن، إلى الناصية التالية. ولكن: لشد ما تبدو له بعيدة مع كل هذا التعب الذي يشعر به! وبصق. وكادت ساقاه تحذلانه. قشرة برتقالة. وعربة تمزق عند نهاية الطريق. إنه هو الذي سيمرق. ولكنه لم يعد يرى سوى العربة والمنازل والأنوار. وغد السير، إذ لم يعد أمامه من شيء سوى ذلك. شكراً لله. لقد عبر توا ذلك الركن الذي بدا له بعيدا جدا منذ دقائق. والآن، إلى الركن التالي، ولكن: لشد ما يبدو له بعيدا مع كل هذا التعب الذي يشعر به! وصغر على أستانه حتى يتمكن من شد أزر ركبته. إنه لم يعد يكاد يسير. كانت ركبته متيبستين، وثمة ألم ينذر بالسوء يشعر به أسفل عموده الفقري وفي حلقه. ركبته، عليه أن يمر نفسه نحو منزله زاحفا على أربع، دافعا جسده بيديه ومرفقيه وبكل غريزة فيه تصارع من أجل الهروب من الموت. وتخفف من مشيته. وتتابعت نواصي الطريق التي لا توفر أية حماية له. بل وأكثر من ذلك، فإنها بدت

وكانها تتكلم في ذلك الليل البهيم مثل الأسواب الزجاجية الشفافة . لقد كان ينصرف عن نحو مصحك أمام نفسه وأمام الآخرين ، سواء كانوا يرونه أم لا . وهو شيء متناقض يعزى إلى كونه شخصية هامة عامة على الدوام ، حتى في هذه الليلة ، محط أنظار مواطنيه . وهميم - فليحدث ما يحدث ، إن التواجب يحتم عليّ البقاء في المنزل . ويصبح هذا أكثر لزوماً إذا ما صبح ما قاله لي نوا ذلك الوغد « ذو الوجه الملائكي ! » . ثم مضى بعد برهة يقول لنفسه :

« الحرب معناه أنني مذنب ! » . وكان الصدى يتردد مع وقع خطاه . . .
« الحرب معناه أنني مذنب . معناه . . . ! ولكن البقاء . . . ! » وكان الصدى يتردد مع وقع خطاه . . .
« الحرب معناه أنني مذنب ! » . ولكن البقاء . . . ! وكان الصدى يتردد مع وقع خطاه . . .

ومد يده إلى صدره كأنها ليستزع كمادات الخوف التي زرعتها فيه كلمات محبوب الرئيس ، ذي الوجه الملائكي . . . ولكن أوسمته العسكرية لم تكن هناك . « الحرب معناه أنني مذنب ، ولكن البقاء . . . » وكان إصبع ذي الوجه الملائكي يشير له إلى الطريق الوحيد الممكن للخلاص . . . المنفى : « لا بد من الهروب بجذدك يا جنرال ! ما زال في الوقت متسع ! » وكان كل ما يشعر نحوه بالاهتمام والتقدير ، وكل ما يحبه في حنان الأطفال : الوطن ، الأسرة ، الذكريات ، التقاليد ، وابنته « كميلا » . . . كل هذا كان بدور حول ذلك الإصبع المشؤوم ، كأنما الكون كله قد استحال شذرات كما استحال أفكاره .
ولكن ، بعد خطوات قليلة أخرى ، لم يبق شيء من هذه الرؤيا الهائلة سوى دموع الخيرة تتألق في مآقيه . . .

« لقد قلت مرة في إحدى خطبي إن الجنرالات هم « أمراء الجيش » . يا لي من أحمق ! لقد دفعت ثمننا باهظاً هذه العبارة الصغيرة ! لن يغفر لي الرئيس أبداً قولِي هذا عن أمراء الجيش . وما دمت قد سقطت في نظره ، فهو الآن سيحتملني وذر موت كولونيل كان دائماً يظهر احتراماً وحياً لشبتي » .

ولاح شبه ابتسامة صغيرة ساخرة تحت شارب الرماذي . كانت ثمة صورة مختلفة أخرى للجنرال كاناليس تشكل في أعماقه ، جنرال كاناليس آخر ، يشي

بخطى السلخانة ، يجر ساقيه كأنها هو أحد الخطاة السائرين في موكب أسبوع
الآلام ، صامتاً ، كئيباً ، حزينا ، تفوح منه رائحة الصواريخ النارية المحترقة .
أما « تشامارنا » الحقيقي كاناليس الذي سبق أن خرج من منزل ذي الوجه
الملائكي ، عزيزاً ، في عزوة منصبه العسكري ، ووراء ظهره العريض معارك
عجيدة خاضها الاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون وبوليفار ، فقد أخذ يحل
عله فجأة صورة جنرال كاريكاتورية ، جنرال كاناليس آخر يسير دون أي زخارف
ذهبية ، دون أحذية بساتق ولا مهمازات ذهبية ، دون امتيازات أو صولجان . وبدأ
التناقض واصحاً بين النهاية التي يلقاها هذا الجنرال الغريب الكتيب الملبس ،
الوث ، الذليل ، كجنازة فقير مسكين ، وبين نهاية « تشامارنا » الحقيقي الآخر ،
كجنازة من الدرجة الأولى ، كاملة بالشرائط وأكاسيل الغار والرياش والتحايا
العسكرية . لقد كان جنرال كاناليس مجللاً بالعار ، يتقدم إلى ساحة هزيمة لن
يسجلها له التاريخ ، أمام الجنرال الحقيقي الذي بقي في الخلفية كالدمية غارقاً في
أضواء ذهبية وزرقاء ، وقبعته المثلثة الأطراف تغطي عينيه ، وسيفه مكسور ،
وذراعه متدليان ، والصليبان والأوسمة على صدره قد علاها الصدا .

وأشاح كاناليس بعينه ، دون أن يتخفف من خطاه ، من صورته الأخرى
المبهجة وهو يشعر أنه قد هزم هزيمة معنوية . وتحيل نفسه ، والكأبة تسيطر
عليه ، في المنفى يرتدي بنطال الجمالين ، على سرة إما طويلة نجداً أو قصيرة
جداً ، واسعة جداً أو ضيقة جداً ، وإنما ليست على مقاسه إطلاقاً . لقد كان يسير
وسط أطلال حياته المحطومة ، بدوس ريشه الذهبية بأقدامه .

- « ولكني بريء » ! » .

وردد هذه العبارة بكل اقتناع .

- « ولكني بريء » ، فلماذا أخاف ... ؟ »

وأجابه ضميره ، بالكلمات التي سمعها من ذي الوجه الملائكي : « وهذا هو
السبب بالذات ! ذلك ان الأمر سيكون مختلفاً تماماً لو كنت مذنباً . إن الجريمة
مهمة جداً لأنها تضمن للحكومة ولاء المواطن ؟ والوطن ؟ اهرب بجذلك يا
جنرال ، إني أعرف جيداً ما أقوله لك . لا الوطن ولا الثروة سينقذانك .
والقانون ؟ إبحث عن شيء آخر . لا بد أن تهرب يا جنرال ، إن الموت
بانتظارك ! » .

- ولكني بريء .

- «سواء كنت مذنباً أو بريئاً لا أهمية له يا جنرال . إن ما يهم هو ما إذا كنت محل رضى الرئيس أم لا . من الأفضل أن تكون مذنباً عن أن تكون بريئاً لا ترضى عنك الحكومة ! » .

رصد أذنيه حتى لا يسمع صوت ذي الوجه الملائكي ، وغمغم ببعض عبارات الانقزام ، فقد كانت ضربات قلبه تكاد تكتم أنفاسه . وبعد ذلك ، بدأ يفكر في ابنته . لا بد أنها تنتظره الآن على أحر من الجمر . ودقت ساعة كتيبة «لامرسيد» . كانت السماء صافية ترصعها النجوم دونما سحابة واحدة . وحين أشرف على ناصية شارع ، رأى النور مضاءً في السواقف ويلقي أشعته القلقة إلى قلب الطريق .

- « سوف أترك ابنتي كميّلة في رعاية أخي » خسوان « إلى أن أتأكد من إحضارها معي . لقد عرض ذو الوجه الملائكي أن يأخذها الليلة أو صباح غد إلى مسكن أخي » .

ولم يكن في حاجة إلى مفتاح البيت الذي يحمله في يده ، لأن الباب انفتح على الفور .
- حبيبي بابا .

- «هس ! تعالي ، سوف أشرح لك كل شيء» . ليس هناك من وقت تضييعه . سوف أشرح لك . قولي لمساعدتي أن يجهز لي جوادا . . . وبعض النقود . ومستدساً . . . وبعد ذلك سأرسل في طلب ملاسبي . . . لن أحتاج إلا للضروري فقط في حقيبة . لا أدري ماذا أقول وأنت لا تفهميني . أصدرني الأوامر بأن يجهزوا لي البغل الكستنائي اللون ، وجهزي أنت حاجاتي بينما أذهب أنا لتغيير ملاسبي وكتابة خطاب لأخوتي . وسوف نبقى مع خوان بعض الوقت » .

ولو كانت الابنة قد شاهدت أمامها مجنوناً هائجاً لما كانت قد شعرت بالفرح الذي شعرت به حين رأت أباه ، وهو الهاديء الرصين ، يدخل في تلك الحالة من الحياج . كان مخنوق العبارات مخطوف اللون . لم تكن قد رآته هكذا أبداً من قبل . ودفعها الإلحاح والمججلة - يعذبها القلق ولا تستطيع أن تسمع ما يقول أبوها

ولا أن تقول سوى : آه يا إلهي ، آه يا إلهي - إلى التوجه إلى مساعد أبيها لتخبره أن يجهز البغل ، وهو بغل عظيم ذو عينين تتوهجان بالنيران ، ثم عادت لتجهز حقبة الملايس : مناشف ، جوارب ، خبز ، شحم بالزبد ، بيد أنها نيت أن تضيف الملح - ثم توجهت إلى المطبخ لتوقظ مربيتها ، التي كانت تجلس فوق السلة الحشوية غافية كعادتها أمام النيران الذابلة إلى جوار القطة التي كانت تحرك أذنيها لدى سماع أي ضوضاء غير مألوفة .

وكان الجنرال يسطر خطابا في عجلة شديدة عندما مرت الخادمة بالغرفة لتغلق النوافذ بالمزلاج .

واستولى الصمت على البيت ، بيد أنه لم يكن ذلك الصمت الحريري ، الليالي العذبة الهادئة ، التي تطيع ظلمتها الليلية نسخا متطابقة من الأحلام الجميلة ، أخف من غير الزهور وأقل لمعة من المياه . إن ذلك الصمت الذي استولى على البيت ، والذي لم يقطعه سوى سعال الجنرال وحركات ابنته المسرعة هنا وهناك ، ونشيج الخادمة ، وأصوات فتح وإغلاق الصوانات والخزائن والأدراج في فرع ، كان صمنا مشدودا ثقيلًا مؤلما كالملايس الغربية .



وفي تلك الأثناء ، كان ثمة شخص ضئيل ، مكرر الوجه ، ذو جسد أشبه براقصي البالية ، يكتب خطابا دون أن يرفع القلم من فوق الورق ودون أن يصدر عنه أي صوت ، كأنما هو يحيط نسيجا عنكبوتيا :

« إلى صاحب السعادة رئيس الجمهورية الدستوري ، الحاضر دائما :
سيادة الرئيس .

« وفقا لما تلقينته من تعليمات ، فُرِضَتْ حراسة مشددة على الجنرال «ابوسيبو كاناليس» . وأتشف الآن أن أبلغ سيادة الرئيس أنه قد شوهد في منزل أحد أصدقاء فخامتكم ، منزل السيد ميغيل ذي الوجه الملائكي . وقد أبلغتني الطباخة التي تعمل في منزل ذي الوجه الملائكي (وهي تتجسس على سيدها وعلى الخادمة) والخادمة (التي تتجسس على سيدها وعلى الطباخة) أن ذا الوجه الملائكي قد انفرد بالجنرال كاناليس في حجرته ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة . وقد قالت إن

الجنرال كاناليس قد خرج بعدها في حالة من الاضطراب الشديد . وبناء على التعليمات ، ضوعفت الحراسة على منزل كاناليس ، وصدرت الأوامر مرة أخرى بأن أي محاولة للهروب من جانبه لا بد وأن تنتهي بقتله .

« وقد قدمت الخادمة - دون علم الطباخة - تفاصيل أخرى ؛ فقد أخبرني على الهاتف أن سيدها قد أفهمها أن كاناليس قد حضر اليه يعرض عليه ابنته مقابل تدخله التعال في صالحه لدى الرئيس .

« أما الطباخة فكانت - دون علم الخادمة - أكثر وضوحا في ذلك الموضوع ؛ فقد قالت إنه بعد مغادرة الجنرال للمنزل كان سيدها في حالة سرور عظيم ، وأمرها بأن تخرج حالما تفتح الحوائث لشراء بعض المربى والشراب والقطاير والحلوى لأن فتاة من أسرة عريقة ستحضر لتعيش معه .

« هذه هي فحوى المعلومات التي أتشرف بإبلاغها إلى السيد رئيس الجمهورية . . . »

وكتب التاريخ ومهر الخطاب بتوقيعه المتمعن الذي يشبه رمية السهم ، وقبل أن يرفع القلم من على الورق ليحك به أنفه ، أضاف خاطرة أخرى :

« إضافة للمذكرة المقدمة هذا الصباح :

- الدكتور لويس بارينيو : قام ثلاثة أشخاص بزيارة عيادته هذا الاصيل ، اثنان منهم من الفقراء المدقعين ؛ وفي المساء خرج للنزهة مع زوجته في الحديقة .

- قابيل كرفخال المحامي : ذهب هذا الاصيل إلى البنك الأمريكي ، وإلى الصيدلية المواجهة لدير الكابوتشين وإلى النادي الألماني ؛ وهناك تحدث فترة طويلة مع السيد « رومز » الموضوع تحت مراقبة الشرطة ، ثم عاد إلى منزله في الساعة والنصف . ولم يشاهد مرة أخرى خارجا ، وقد ضوعفت الحراسة حول منزله .

وفقا للتعليمات الواردة » . ختام

الموقع أعلاه . التاريخ أعلاه .

الاختطاف

توجه لومبيو فاسكيز ، بعد افتراقه عن روداس ، إلى الحانة التي توجد فيها « لامسكوتا » بأسرع ما تستطيع قدماء أن يحملوه ، كيها يرى ما إذا كان الوقت قد حان للمساعدة في اختطاف الفتاة . وأسرع في مروه بنيع « لامرسيد » وهو مكان يمتلئ بالأشباح والجريمة طبقا للإشاعات والأكاذيب التي تطلقها النسوة اللاتي يخلطن إير ثرثرتهن مع المياه القذرة التي يملآن بها صفائحهن من النبع .

وقال جلاد الأبله في نفسه دون أن يخفف من خطاه :

- « إن الاشراك في عملية اختطاف شيء عظيم . ونظرا لأن مهمتي في « روافي الرب » قد أنجزت بسرعة فائقة ، حمدا لله ، فإن في وسعي أن أستمع بتنفيذ تلك العملية . يا الهي ، إذا كان الفرح لا يعني حين أعثر على شيء أو حين أسرق دجاجة ، فكيف ستكون معني إذ تنجح في الفرصة كي أخطف فتاة ! »

وبدت الحانة التي تملكها « لامسكوتا » على مشارف البصر ، بيد أنه أخذ يتصيب عرقا حين لمح ساعة كنيسة « لامرسيد » . كان الوقت قد أؤف ، ما لم تكن عيناه تخدعانه . وألقى النحية على رجل شرطة أو إثنين ممن كانوا يحرسان منزل الجنرال كاناليس ، ثم دلف إلى باب الحانة كأنه أرنب يدلف إلى جحره .

وكانت « لامسكوتا » قد أوت إلى الفراش في انتظار الساعة المحددة ، وهي الثانية صباحا ، وأعصابها على أحر من الجمر ، وضغطت إحدى ساقيها بالأخرى ، وسحقت ذراعيها تحت جسدها في أوضاع غير مريحة ، وطوت رأسها على مدار الوسادة ، والعرق يتصب منها مع كل حركة ، ولكن دون أن تفلح في إغلاق عينيها .

وحين طرق فاسكيز الباب قفزت من الفراش وأسعدت إلى الباب وهي تشهق
من فرط الاضطراب .

- « من هناك ؟ »

- أنا ، فاسكيز ، إفتحي .

- لم أكن أنتظرك !

وقال وهو يدخل : كم الساعة الآن ؟

- الواحدة والرربع صباحاً .

قالت ذلك على الفور دون أن تنظر إلى الساعة ، ولكن بقناعة من كان يحصي
كل دقيقة تمر ، وكل خمس دقائق ، وعشر دقائق ، ورربع ساعة ، وعشرين دقيقة ،
إذ هي في إنتظار أن تحمل الساعة الثانية .

- إذن كيف تشير ساعة الكنيسة إلى الساعة الثانية إلا ربعا ؟

- غير معقول . لا بد أنها غير مضبوطة .

- ثم ... أخبريني ، هل عاد ذلك الشاب ؟

- كلا .

وأخذ فاسكيز صاحبة الحانة بين ذراعيه وهو يتوقع تماماً أن يكون جزاؤه صفة
منها . ولكن لم يحدث شيء من هذا ، فقد أصبحت « لامسكوانا » ودبعة
كالحمامة ، فتركته يحتضنها ويقلبها في شفتيها ، ماهرة بذلك إمضاءها على اتفاق
بالا ترفض له شيئاً أبداً كان الليلة . وكان الضوء الوحيد في الغرفة يتوهج أمام
صورة للعذراء ، إلى جوار باقة من الورد المصنوع من الورق . وأطفأ فاسكيز
الشمعة ثم أوقع صاحبة الحانة أرضاً . واختفت صورة العذراء في الظلمة إذ
تدحرج جسدهما على أرض الحجرة وقد التصقا ببعض كحزمة من الثوم .

*

وظهر ذو الوجه الملائكي من ناحية المسرح ، يمشي مسرعاً بصحبة مجموعة من
الأفاقين الأجلاف . وقال لهم :

- « حالاً تصبح الفناء في يدي ، بوسعكم أن تنهبوا المنزل لن تذهبوا أبداً
فارغي اليد ، أعدكم بذلك . ولكن ، الزموا الحيلة ، الآن وفيها بعد على حد

سواء ، ولا تفشوا السر ، وإلا فإنني أفضل أن أعمل بدونكم » .

وحين داروا إلى المتعطف أوقفتهم دورية للشرطة . وتحدث المحسوب مع ضابط الدورية في حين وقف الجنود حولهما .

- « إننا ذاهبون للغناء أمام نافذة إحدى السيدات* أيها الملازم » .

فقال الضابط وهو يدق على الأرض بسيفه : « هل نتفضل فتخبرني أين ذلك ؟

- هنا ، في حارة « المسيح » .

- رأين هي فيشارانكم وطبولكم ؟ يا لها من سيرينشادا غريبة بدون أية موسيقى !

فدس ذو الوجه الملائكي في خفة ورقة مالية من فئة المائة بيزو في يد الضابط ، وعندها سحب ذاك جميع اعتراضاته .

وكانت نهاية الشارع مدودة ببنية كنيسة « لامرسيد » ، وهي كنيسة بنيت على شكل سلحفاة ذات عيين ، هما نافذتان ، في قبتها . وأمر المحبوب رفاقه بالآلا بذهبوا إلى حانة « الخطوتان » كلهم مرة واحدة . وقال لهم بصوت عالٍ ، وهم يفترون : « تذكروا ، سنتقابل جميعا في حانة « الخطوتان » ، « الخطوتان » ، حذار إن تخططوا المكان ، « الخطوتان » ، إلى جوار حانوت الأثاث » .

وغاضت أصوات أقدامهم إذ تفرقوا كل إلى جهة . كانت خطة الهروب كما يلي : حين تدق ساعة الكنيسة الثانية صباحا ، يرتقى رجل أو اثنان من رجال ذي الوجه الملائكي مطبخ منزل الجنرال كاناليس ، وعندها تقوم ابنة الجنرال ، طبقا للاتفاق ، بفتح نافذة في واجهة المنزل وتصبح بأعلى صوتها طلبا للنجدة من اللصوص الذين اقتحموا المنزل ، وذلك لجذب انتباه رجال الشرطة الذين يراقبون المكان . وعند ذاك يتنهز الجنرال كاناليس فرصة الهرج والمرج للهرب من الباب الخلفي .

وما كان يضع مثل هذه الخطة السخيفة أحق أو مجنون أو طفل ، فهي خطة

* عادة كانت منتشرة في بلاد أمريكا اللاتينية وإسبانيا .

دون بداية ولا نهاية ، وإذا كان الجنرال وذو الوجه الملائكي قد وافقا عليها رغم سخفها فذلك لأن كلا منهما كان يرى فيها - على حدة - هدفا آخر مختلفا تماما .
فبالنسبة للجنرال كاناليس ، كانت الحماية التي خلعها عليه ذو الوجه الملائكي تعطيه فرصة أفضل للهرب ؛ وبالنسبة لذو الوجه الملائكي ، كان نجاح الخطة لا يعتمد على اتفاقه مع كاناليس بل مع السيد الرئيس ، الذي كان قد ابلغه هاتفيا بزمان الخطة وتفاصيلها حالما غادر الجنرال منزله .

✽

نبدو ليالي أبريل في المناطق الاستوائية كأنها أيام مارس الحارة ، مظلمة ، باردة ، شتاء ، حزين . ووقف ذو الوجه الملائكي في المنعطف الذي يقع بين الحانة وبين منزل كاناليس ، وأخذ يحصي أشباح رجال الشرطة ذات اللون الأخضر الداكن ، المتناثرين هنا وهناك ، ثم سار ببطء خلف ذلك الصف من المنازل ، وفي عودته ، دلف إلى باب حانة « الخطوتان » الصغير . كان ثمة رجل شرطة في زيه الرسمي على باب كل منزل من المنازل المجاورة ، عدا عدد لا يحصى من رجال الشرطة السرية ، يسرون في عصبية جيئة وذهابا على الطوار . وشعر بنذر شؤم . قال في نفسه : « إنني أشارك في اقتراف جريمة . إنهم سوف يقتلون هذا الرجل حين يغادر منزله » . وكلما أمعن فكره في تلك الخطة ، كلما بدت له أشد هولاً . وبدت له فكرة اختطاف ابنة رجل يحكم عليه بالموت بشعة وكريهة ، على نحو ما كان يمكن أن يكون الأمر ساراً ومناسباً لو أنه ساعد الجنرال على الهرب حقاً . ولم تكن طيبة القلب هي التي دفعت هذا الرجل ، وهو عديم الإحساس بطبعه ، إلى الشعور بالكراهة لفكرة نصب كمين في قلب المدينة لمواطن أعز سأل له ثقته إلى حد أنه يهرب من منزله معتقدا أن صديق السيد الرئيس يسطح حمايته عليه . لا ، ولاكون أن تلك الحماية لا بد أن تنكشف في نهاية الأمر وتكشف عن خدعة بالغة النسوة تملأ اللحظات الأخيرة للضحية بالمرارة إذ تجعله يتحقق أنهم قد خدعوه وحانوه وداسوه بالأقدام ، وأنهم قد أعدوا طريقة بارعة لخلع مظهر قانوني على الجريمة بالقول إنها كانت الملجأ الأخير للسلطات تحول بها بين المجرم المزعوم وبين الفرار في اليوم السابق لاعتقاله . كلا . لقد كانت الدوافع التي حملت ذو الوجه الملائكي على عرض شفتيه إنكاراً لتلك الخطة الجهنمية اليائسة مختلفة تماما . لقد كان يعتقد بكل حسن نية أنه قد اكتسب - بوصفه حاميا للجنرال -

حقوقاً على ابنته ، بيد أنه يرى الآن أن تلك الحقوق قد راحت ضحية قيامه بدوره المعتاد في كل مرة ، كأداة عمياء ، كتابع وفيّ يقوم بدور جلال السيد الرئيس .

كانت ثمة رياح غربية تهب عبر وادي الصمت الذي يلفه ، حيث أخذت تنمو نباتات برية عطشى عطش الأهداف التي لا تعرف الدموع ، عطش الصبار المليء بالأنشواء ، عطش الأشجار التي لا تسقيها الأمطار . ما معنى هذه الرغبة الحارقة ؟ ولماذا يتعين على الأشجار أن تكون عطشى حين تنهمر الأمطار ؟ !

وأومضت فكرة في ذهنه كالبرق ، أن يعود أدراجه ويدق جرس الباب في منزل كاتاليس ويخذه من المصبر الذي يتظره . (وتحميل ابنته تبسم له في امتنان) . بيد أنه كان قد اجتاز بالفعل مدخل الحانة الصغيرة ، وشعر بشجاعته تعود إليه مع كلمات فاسكيكز الجريئة ووجود الرجال الآخرين .

- « جريبي ، هذا كل شيء . إنني من تبحث عنه . أجل ، انني مستعد أن أساعدك في أي شيء ، أسمع ذلك ؟ إنني لست بالمرء الذي يراجع . إنني كالقطة ، بسبعة أرواح ، سليل عربي شجاع ! » .

وكان فاسكيكز يحاول خفض نبرة صوته الأنثوي ليعطي كلماته صفة الرجولية . وأضاف في صوت خفيض :

- « لو أنك لم تجلب لي الحظ السعيد ، لما كنت أتحدث هنا الآن بمثل هذه الشجاعة . كلا . صدقني . إنك قد أصلحت وضعي مع « ماسكواتا » ، وهي تعاملني الآن كما يجب أن يكون » .

ورد ذو الوجه الملائكي وهو يصافح يد الجلاد الذي قتل الأبله : « إنني سعيد جداً أن أجندك هنا مليناً بتلك الروح الجسورة . إنك رجل قريب إلى قلبي . لقد أعدت لي معنوياتي التي سرقها رجال الشرطة مني يا عزيزي فاسكيكز ، إن ثمة رجلاً منهم أمام كل باب » .

- تعال واشرب شيئاً من الخمر الهولندية تدفع عنك الحوف » .

- أوه ! إنني لا أشعر بالخوف على نفسي ، فإن هذه ليست أول مرة أجند نفسي في مأزق عصيب ؛ إنني خائف على الفتاة . لا أحب أن يقبضوا علينا خارجين من منزلها ، أنفهم ذلك ؟

- «ولكن، ما هذا؟ من الذي سيقبض عليك؟ حالما سيجد رجال الشرطة شيئاً يثبتونه في المنزل لن ترى واحداً منهم في الطريق، ولا واحداً منهم، أراهن بحياتي على ذلك. إنني أعدك أنهم حين يرون ما يمكنهم أن يضعوا مثالبهم عليه، سينشغلون جميعاً في حمل ما خف وزنه وغلا ثمنه؛ لا تكن لديك ذرة من شك في هذا...».

- «أليس من الأفضل أن نذهب إليهم ونكلمهم، ما دمت قد تفضلت وجئت، ما داموا يعرفون أنك غير قادر...؟».

- «كلام فارغ. لا حاجة إلى قول أي شيء لهم. حين يرون الباب مفتوحاً على مصراعيه، سيقولون لأنفسهم: هيا، لا ضرر من ذلك. بل سيرون أنهم يحسبون صنعا. أما إذا رأوني، أنا الذي أصبحت شهيراً منذ اقتحمت مع «انطونيو لبيلولو» بيت ذلك القس الضئيل الحجم، الذي بلغ به الخوف مداه حين رأنا نهبط إلى حجرته من الطابق الأعلى ونضيء النور لدرجة القى إلينا بمفاتيح الخزنة التي يحتفظ فيها بمذخراته الملقوفة في منديل كبير حتى لا تصدر أصواتاً، ثم تظاهر بأنه نائم! أجل، في تلك المرة خرجت منتصراً. والأل، فإن الأولاد عاقدون العزم».

وأني فاسكيز كلامه مشيراً إلى مجموعة الرجال الصامتين القذرين المنكودي الحظ، الذين كانوا يعبّون كأساً وراء أخرى من البراندي، قاذفين بالحمر إلى سقف حلقهم دفعة واحدة ثم ييصقون باشمزاز حالماً يترك الكأس شفاههم:

- «أجل، أؤكد لك أنهم جاهزون للعمل».

ورفع ذو الوجه الملاتكي كأسه ودعا فاسكيز أن يشرب نخب الحب. وصبت «لامسكواتا» لنفسها كأساً من «الأنيس»، وشرب ثلاثتهم.

وعلى بصيص النور الخافي، إذ أنهم تخشوا أن يوقدوا النور الكهربائي فلم يبق من نور في الحجرة سوى الشمعة المضادة أمام صورة العذراء، ألقت أجساد هؤلاء الرجال البائسين ظلالاً غريبة، منطولة كأنها الفزلان على الجسدان المائلة إلى الاصفرار، كما بدت الزجاجات كأنها شعلات مختلفة الألوان على رفوفها. وكان الجميع يرقبون مسير الساعة. وكانت بصقاتهم على الأرض تدوي كطلقات الرصاص. وكان ذو الوجه الملاتكي ينتظر على مبعدة من الآخرين وظهره إلى

الخائض بجوار صورة العذراء وعيناه السوداران الواسعتان تجولان في الغرفة ، تطارد الفكرة التي ما فتئت تتابعه في تلك اللحظات الحاسمة : إنه بحاجة إلى زوجة وأولاد . وابتسم في نفسه إذ تذكر حكايية السجين السياسي المحكوم عليه بالإعدام ، الذي زاره المدعي العسكري العام قبل إعدامه باثنتي عشرة ساعة ، عارضا عليه باسم السلطات أن يهبه أي شيء يطلبه ، حتى لو كان حياته ، مقابل أن يغير شهادته . فرد عليه السجين بحزم : حسنا ، إنني أطلب أن أترك وراثي إننا . فقال المدعي العسكري العام : موافق . وأرسل يطلب له عاهرة وهو يظن نفسه قد أحسن صنعا . بيد أن السجين أطلق المرأة دون أن يمسه ، وحين عاد المدعي العسكري قال له : « يكفي ما هو موجود فعلاً من أبناء العاهرات ! » .

ولاحظ ابتسامة أخرى على شفتيه إذ قال لنفسه : « لقد عملت مديراً للمدرسة ، ورئيس تحرير صحيفة ، ودبلوماسياً ، وعضو برلمان ، وعمدة مدينة ، وهذا أنا الآن رئيس لمجموعة من الأفاقين ! هذه هي الحياة في المناطق المدارية ! » . ودقت ساعة الكنيسة مرتين .

فصاح ذو الوجه الملائكي : « إلى الخارج جميعاً » . وقال « الماساكوانا » وهو يخرج ومسده في يده : « سوف أعود مع غنيمي » . وصاح فاسكيز آمراً وهو يصعد كالعتلاء إلى إحدى نوافذ منزل الجنرال يتبعه اثنان من عصابته : هيا إلى العمل ، وتمعن الهذر ، أسامعون ؟ » .

وكذلك سمع من في المنزل دققي الساعة .

- هل أنت جاهزة يا كميله ؟

- أجل يا والدي العزيز .

كان كاناليس يرتدي بنطال ركوب الخيل وسترة عسكرية زرقاء خالية من الأوسمة الذهبية ، بدا شعره أعلاها أبيض لامعاً لا شيئاً فيه . وألقت كميله بنفسها بين ذراعيه يكاد يغشى عليها ، دون أن تنبس بكلمة أو تذرف دمعاً . إن معنى السعادة أو الشقاء لا يمكن أن يدركه إلا أولئك الذين جربوه في أذهانهم من قبل ، الذين عضوا بنواجذهم على مندبل مبلل بالدموع ومزقوه إرباً إرباً بأستانهم من فرط الحزن . أما بالنسبة لكميله فقد كان كل ذلك يبدو إما لعبة أو كابوساً ، كلا ، لا يمكن ، لا يمكن أن يكون حقيقة . إن ما يحدث ، ما يحدث لها ، وما

يحدث لوالدها ، لا يمكن أن يكون حقيقة . وأخذها الجنرال كاناليس بين ذراعيه وقال لها وداعا .

- « هكذا احتضنت والدتك حين ذهبت للقتال من أجل وطني في الحرب الأخيرة . وقد وضعت العزيرة المسكينة في فكرها أني لن أرجع ثانية ، ولكنها هي التي لم تنتظري » .

وإذ سمع ذلك المحارب القديم خطوات على السطح ، نحى كميلا جانباً ، وذهب عبر الغناء المليء بالأصص والأزاهير إلى الباب الخلفي . وقال له عطر كل زهرة وكل جبيرانيوم وكل وردة وداعا . وقالت له المياه التي تنفطر إلى الجرار وداعا ، وكذلك الضوء الذي يسري من الترافد . وفجأة ساد المنزل الظلام ، كأنما قد انفصل عن جبرانه بفعل ضربة قاضية . الحرب لا يلقى بالجندي . ومن ناحية أخرى ، فإن فكرة العودة لتحرير وطنه على رأس ثورة ...

ووفقاً للخطة التي اتفقوا عليها ، توجهت كميلا إلى النافذة لطلب النجدة :

- « اللصوص قد اقتحموا المنزل ! النجدة ! اللصوص ! » .

وقبل أن يتلاشي صوتها في وهدة الليل ، وصل أول جنود الشرطة - أولئك الذين كانوا يراقبون واجهة المنزل - ينفخون في صفاراتهم الطويلة الجفء . وعلت أصوات متنافرة من حديد وخشب ؛ وانهار الباب الخارجي من فوره . وظهر رجال شرطة آخرون في ملابس مدنية عند منعطف الطريق ، جاهلين ما كان يحدث ، ومن أجل ذلك خاصة كانوا يحملون خناجرهم الحادة جاهزة ، وقبعاتهم تحفي وجوههم بينما رفعوا ياقات معاطفهم إلى أعلى . وابتلعهم الباب المقشوح جيما - كالبحر الهائج . وكان فاسكينز قد قطع الأسلاك الكهربائية بعد أن صعد إلى السطح ، حتى استخالت الممرات والحجرات ظلاما واحدا هائلا . وأشعل بعض رفاته أعواد النشاب حتى يروا طريقهم إلى الخزائن والصناديق والأدراج ، ودون مزيد من الضوضاء ، عمدوا إلى نهبا من أعلاها إلى أسفلها بعد أن كسروا أقفالها ، وحطموا الأبواب الزجاجية وأحالوا الخشب الثمين مرقا ونثارا . وكان آخرون يعمثون فسادا في حجرة الجلوس ، يتلبون المقاعد والمناضد وخزانات الأركان المغطاة بالصور الفوتوغرافية التي بدت كأوراق اللعب الآسيانية في وسط الظلال ، أو يضربون على مفاتيح بيانو صغير ثمين كان قد ترك مفتوحا ، بين

كالحيوان الذي يتالم كلما دقوا عليه بأصابعهم .

وبعيدا كانت تُسمع أصوات الشوك والملاعق والسكاكين وهي تقع على الأرض ، ثم صرخة قطعتها ضربة حادة . وكانت المربية العجوز ، « نشابيلونا » ، قد خبات كميله في حجرة الطعام بين حائط وخزانة في الحجرة . وألقى المحبوب المربية أرضا واشتبك شعرها بمقبض خزانة الفضيّات فانتثرت على الأرض بصوت رنان . وأسكنها فاسكيز بضربة قضيب حديدي حيثما اتفق ، حتى أنه لم يكذ يرى يديها في الظلام .

الجزء الثاني
٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ أبريل

كميلة

كانت « كميلة » في سالف الأيام تقضي ساعات وساعات أمام المرآة في حجرتها . وكانت مربيتها العجوز تصرخ فيها : « إذا أنت نظرت في المرآة طويلا ، سيأتي الشيطان ويطل من وراء كتفيك ! » ، وترد كميلة : إنه لن يكون أكثر شيطنة مني ! . كان شعرها ثورة من الشعلات السوداء ، ووجهها الأسمر يلمع بمعجون البشرة المصنوع من زبدة جوز الهند ، وعيناها الخضراوان المائلتان تفرقان في عجريهما العميقين . وكانت زميلاتها في المدرسة يدعونها « كاناليس الصينية » حين تخرج متشحة بمعطفها المدرسي المعلق حتى الرقبة ، ولكنها الآن نضجت وازدادت جمالا وأصبحت فتاة بمعنى الكلمة .

وكانت تقول لنفسها أمام المرآة : خمسة عشر عاما ! ولكنني ما زلت كالبقرة الأليفة ، لا أذهب إلى مكان إلا وبمحطني الأعمام والعَمَّات وأبناء وبنات العم كأنهم الحشرات .

وكانت تعتمد أحيانا إلى جذب شعرها ، وإلى الصراخ ، وإلى السخرية من نفسها . كانت تكره أن تكون دائما رسط هذا الرهط من الأقارب ، وأن تكون الفتاة الصغيرة ، وأن تذهب معهم إلى كل مكان : إلى الاستعراض العسكري ، إلى قداس الثانية عشرة ، إلى ربوة « الكرمة » لركوب الخيل والنزهة عند مسرح « كولون » ، وصعود تلال « سارني » والمهبوط منها .

وكان أعمامها يشبهون فزاعات الطيور ، ذوي شوارب يقف عليها الصقر ، متصلصل خواتمهم في أصابعهم ، وأبناء عمها منكوشتي الشعر ، سمان ، ثقلاء

الظل . وعمانها - وهن أصلاً زوجات الأعمام - يثرن النفور . أو هكذا كانوا يبدوون جميعاً في عينيها . وكانت تشعر بالضيق حين يقدمون لها - خاصة أبناء العم - قراطيس مليئة بالخلوى ، كأنها هي طفلة صغيرة ، أو حين يقوم الأعمام بالتزيت عليها بأيديهم التي تعبق برائحة التبغ ، والامساك بوجهها بين اصبعي السبابة والابهام كيها يحركوه من جانب إلى آخر - وكانت كميلة تصلب رقبتها آنذاك عمداً ، أو حين يقبلها العمات دون أن يرفعن نقابهن ، فيخلفن لديها شعوراً بأن ثمة نسيج عنكبوت قد التصق بوجنتيها .

وفي أيام الأحاد ، كانت تنام ، أو تجلس في غرفة الاستقبال ينتابها السأم تتطلع إلى صور قديمة ملصقة في «البوم» العائلة، أو إلى الصور المعلقة على الجدران المغلفة بالقماش الأحمر ، أو الموضوعة على رفوف الصوانات في الأركان وعلى المناضد المفضضة والكونصولات المرصية ، بينما والدها يتطلع من النافذة إلى الطرق الخالية وهو يخترع كالقطة ويرد على تحيات الأصدقاء والجيران . كانوا يرفعون القبعة تحية واحتراماً له ، فهو الجنرال كاناليس . وكان الجنرال يرد عليهم في صوت جهوري : « مساء الخير ، إلى اللقاء ، إي سرور لرؤيتك ، مع السلامة ! »

وكانت هناك صورة لامها بعد الزواج بفترة قصيرة ، لا يظهر منها سوى أصابعها ووجهها ، مشتملة على رداء على أحدث طراز آنذاك يصل إلى قدميها ، وقفاز إلى مرفقيها، وفراء حول عنقها ، وقبعة يتدل منها شلال من الشرائط والرياش على ظلة من الدانتلا . وكانت هناك صور لعمانها ، ضخمت الصدور ، محشوات كطنافس الصالون ، وشعرهن متحجر ، وعلى جباههن تاج مرصع بجواهر دقيقة الحجم ، وصور أخرى لصديقات الأيام الخوالي ، امرأة ترتدي شالا من الدنتلا المطرزة وأمشاطاً ومراوح ، وأخرى ترتدي ملابس هندية وصندلا ورداء مطرزا وتحمل إبريقاً على كتفها ، وأخريات هن شامات حسن مجوهرات . وكانت كل هذه الصور تبعث في كميلة إحساساً بخدرا الشفق ، مقروناً بإحساس خرافي بما تحمل من إهداءات : « ستكون صورتي هذه معك كظلي » « بكل سرور ، وحظاً سعيداً لك » « وداعاً ، واعتني بنفسك » « إذا محاً

النبان هذه السطور فستتمحي ذكري « في خدمتكم ، وتحياي إلى السيدة
الوالدة » .

وأحياناً ، كان ثمة صديق يقفز من اليوم الصور ويحضر لينجاذب أطراف
الحديث مع الجنرال في الشرفة . وكانت كميلة تنلصص عليه من وراء الستار . إنه
ذلك الشخص الذي كانت عليه سياء «الدون جوان» في الصورة ، شاب في مقتبل
العمر ، رشيق ، فاحم الحاجبين ، يرتدي بنظالا مربعات ملوناً ، وسنترته مقفلة
بازرار حتى أعلاها ، وعلى رأسه قبعة متوسطة الحجم . . . وهي ملابس آخر طراز
في نهاية القرن الماضي . ويتبسم كميلة وتقول لنفسها : « كان من الأفضل أن نظل
كما كنت في الصورة . كنت ستبدو عتيق الطراز وسيضحك الناس على ملابسك
اللائقة بالمتاحف ، ولكنك على الأقل لن تكون متبعج البطن هكذا اصلع الرأس
غائر الوجنتين كما أنت الآن » .

وعبر ظلال الستارة المخملية التي تعبق بالغبار ، كانت كميلة تشرح عينها
الحضراوين عبر النافذة أصيل يوم الأحد ، ولم تخف حدة البرودة في عينها
الزجاجيتين المتجمدتين حين كانت غدهما خارج المنزل لتريا ما يحدث في الطريق .
كان والدها ، مرتدياً قميصاً وضّاءً من الكتان بلا سترة ، يعتمد بمرفقيه على وسادة
من الساتان ، يقفل الوقت بالثرثرة مع شخص بدا وكأنه صديق حميم ، عبر
قضبان الشرفة . كان رجلاً صفراوي المظهر ، معقوف الأنف ، ذا شارب صغير
وعصا ذهبية المقبض . يا لها من مصادفة سعيدة ! لقد كان يتمشى أمام المنزل حين
استوقفه الجنرال فائلاً : يا لها من سعادة أن نراك هنا في حي «لامرسيد» ! هذا
عظيم ! وقد وجدته كميلة في اليوم الصور . لم يكن من السهل التعرف عليه ،
وكان عليها أن تطيل التحديق إلى الصور . كان لهذا الرجل المسكين أنف مستقيم
ووجه مستدير جميل يوماً ما . كم صحيح هو القول بأن الزمن يسيء معاملة
الناس . لقد أصبح وجهه الآن نحيلاً بارز عظام الوجنتين ، نحيل الحاجبين ،
ناقى الفكين . وحين كان يتحدث إلى والدها بصوته البطيء الخفيض ، ظل يرفع
مقبض عصاه إلى أنفه كأنها هو يشم الذهب . إنها الرحابة في حركة دائمة . هي
نفسها في حركة دائمة . كل شيء فيها ، حتى الساكن بطبيعته ، كان في حركة
دائمة . وحين رأت البحر لأول مرة ، فارت الكلمات التي تعبر عن دهشتها على
شفتيها ، ولكن حين سألها أعمامها عن رأيها في مرأى البحر قالت بمظهر الأهمية

الكاذبة : « لقد عرفت البحر قبل ذلك من الصور ! » . وكان الهواء يبعث ببعثتها
الوردية العريضة الأطراف التي أمسكتها في يديها . كانت تشبه الطوق ، أو طائراً
مستديراً ضحياً .

وتطلع إليها أبناء عمها وقد اتسعت عيونهم من فرط الدهشة ، فاغري
الأفواه . وضطت أصوات الموجات الهادرة على ملاحظات العَمَّات : « يا جمال
البحر ! شيء لا يصدق عقل ! يا للحمياء الغزيرة ! يبدو هائجاً ! انظروا هناك ، إن
الشمس تغرب ! ألم نثن شيئاً في القطار عند تعجلنا النزول منه ؟ ألم تروا ما إذا
كان كل شيء على ما يرام ؟ يجب أن نحصى الخفائب ! » . . .

وكان أعمامها قد حملوا حقائب مليئة بالثياب الخفيفة للشاطئ ، (تلك
الملابس المغضنة كالزبيب التي يرتديها المصيفون) وعناقيد من جوز الهند اشترتها
السيدات في المحطات التي توقف القطار فيها على الطريق ، لمجرد أنها رخيصة
الشمس ، وبمجموعة من الرزم والسلال حملها عدد من الهنود إلى الفندق .

وقال أخيراً أنضج أبناء العم : « أجل ، إنني أعرف ما تفصدين » ،
(واصطبغت وجنتا كميلى الداكنتين باحمرار خفيف من جراء دفعة دفعة دماء حين
سمعتها يكلمهما) « ولكنني لا أشاركك رأيك . إنني أرى أن ما أردت أن تقول هو
أن البحر يشبه الصور المتحركة ، ولكنه أكبر حجماً » .

وكانت كميلى قد سمعت عن الصور المتحركة التي تعرض في حي « المائة
باب » ، إلى جوار « رواق الرب » ، ولكن لم تكن لديها أي فكرة عنها . ولكن
كان بإمكانها بعد ما قاله ابن عمها عنها أن تتصور ماهيتها وهي تتطلع إلى البحر .
كل شيء في حركة دائمة . لا شيء ثابت . صور تخرج بصور أخرى ، متبدلة ،
تتكسر خطاماً لتشكل صورة جديدة في كل ثانية ، في حالة لا هي بجامدة ولا سائلة
ولا غازية ، بل هي حالة حياة في البحر . حالة وضاعة . في البحر وفي الصور
المتحركة على حد سواء .

ومضت كميلى تتأمل المشهد في بهجة نهمة وهي تعقص أصابع قدميها داخل
حذاءها ، وعيناها ترمضان في كل اتجاه وشعرت في البداية أن عينيها تتخلجان
عن مكانها كي تحيط بهذه الرحابة ، وأحست بعد ذلك أن تلك الرحابة تملأها
كلية . لقد بلغ المد الزاخر عينيها .

وسارت ببطء إلى الشاطئ، يتبعها ابن عمها، وكان المسير على الرمال صعباً بعض الشيء. كانت تريد أن تزداد قرباً من الموجات، ولكن المحيط الهادئ، بدلاً من أن يمد لها بدءاً حنوناً، صوّب نحوها صفة سائلة من المياه الشفافة بللت قدميها. وقد فوجئت بذلك، ويجهدت تراجع في الوقت المناسب، تاركة وراءها رهينة، قبعتها الوردية اللون، التي لم تصبح بعد برهة إلا مجرد نقطة على صفحة الموجات، وأطلقت كميلة وعيداً صبيانياً بأن تذهب لتشكو البحر إلى أبيها :

١- أه أيتها البحر *

لَمْ تلاحظ هي ولا ابن عمها أنها نطقت كلمة « يجب » لأول مرة وهي تنوعد البحر وتنزله. وخلع لون السماء فوق الشمس الغاربة مزيداً من البرودة على المياه الخضراء الداكنة.

لماذا عمدت إلى تقبيل ذراعيها على الشاطئ، مستنقة عير جسدها الملحي الذي لوخسته الشمس بأشعتها؟ لماذا فعلت نفس الشيء بثمره الفاكهة التي حُرم عليها أكلها، إذ هي تلمسها بشفتيها؟ كانت عماها قد قلن: « الحمضيات ضارة بالفتيات الصغيرات، وكذلك الأقدام المبللة، والسير اللعوب ». ولم تكن كميلة تشم والدها ولا مربيتها حين تقبلهما. ولقد كتمت أنفاسها حين قبلت قدمي المسيح في الكتلتراثة الذي كان يشبه جذع الشجرة المحطوم. وإذا لم يشم المرء ما يقبل، لما أصبحت القبلة ذات طعم. وكان جسدها الملحي البني اللون كالرمال، ولباب الأناثا والسفرجل، يغرونها جميعاً بتقبيلهم راجفة الأنف مشتاقّة نعمة. ولكن جاءت الحقيقة ناصعة بعد الشك: فإنها لم تعد تعرف ما إذا كانت تشم أم تعض حين عمد ابن عمها نفسه الذي تحدث عن الصور المتحركة إلى تقبيلها في فمها في نهاية ذلك الصيف، وإلى عزف نغمة تانجو أرجنتيني بضمه.

وحين عادوا إلى العاصمة، ألحت كميلة على مربيتها كي تصحبها إلى الصور المتحركة. كانت تعرض في دار صغيرة في جانب من ميدان « رواق الرب » في حي « المائة باب ». وذهبا دون علم والدها، تقرضان أظافرهما في قلقى وعصية وتتلوان الصلوات. وبعد أن كادتا تعودان أدراجهما لدى رؤية الصالة غاصة

• هذه الصيغة تماثل بالإسبانية فعل Amas: يجب.

بالناس ، تشجعتا واتخذتا مقعدين أمام ستارة بيضاء ، يظهر عليها بين الفينة والفينة ضوء كأنه آتٍ من الشمس . كانوا يجربون آلة العرض وعدساتها ، التي كان يصدر عنها قرقرة مماثل قرقرة فوانيس الشارع الكهربائية . ثم أظلمت القاعة فجأة . وشعرت كميلة كأنما هي تلعب « عسكر وحرامية » . وأصبح كل شيء ، على الشاشة غير واضح . وكانت الشخصوس تتحرك عليها هنا وهناك كالجراد . أناس مبهمون بدوا كأنهم يعضفون شيئاً حين يتكلمون ، يمشون على شكل قفزات ويحركون أذرعهم كأنما هي مخلوعة عن أجسادهم . وتذكرت كميلة بوضوح حادثة ، حين اختبأت هي وصبياً من أقرانها في غرفة ذات سقف زجاجي مفتوح على السماء ، جعلتها تنسى للحظة الصور المتحركة . وكان ثمة شمعة دائية أمام صورة شفافة للمسيح في الركن المظلم من الغرفة . واختبأ تحت السرير وكان عليها أن يرفقا بالطول على الأرض . وأخذ السرير يقرقع بصوت عالٍ مستمر . كان قطعة أثاث عتيقة من عهد الجدود ولا يتحمل تلك المعاملة القاسية . وسمعت صيحة : « أنا قادم » من الغناء البعيد ، « أنا قادم » . وحين سمعت كميلة صوت أقدام من هو « قادم » ، فاجأتها رغبة في الضحك . ونظر إليها رقيقها في المخأ بحدة مئذراً إياها أن تصمت ؛ واطاعت في البداية واتخذت مظهراً جاداً ولكنها لم تستطع السيطرة على نفسها حين وصلت إلى أنفها رائحة مغنية من خزانة نصف مفتوحة ، وكانت ستنفجر ضاحكة على الفور لو لم تبدأ عينها تدمعان من جراء التراب الدقيق تحت السرير ، في حين تلقت ضربة مفاجئة في نفس الوقت على جبهتها .

وتما كما غادرت مكمنها تحت السرير منذ فترة بعيدة ، غادرت دار الصور المتحركة وعينها مغمعتان بالدموع ، وسط جبهة من الناس كانت تغادر مقاعها وتهرع إلى باب الخروج وسط الظلام . ولم تتوقف هي والمربية حتى بلغت « رواق النجار » وهناك علمت كميلة أن النظارة قد غادرت الدار كي تنجنب الحرمان الديني من الكنيسة : فقد ظهرت على الشاشة صورة امرأة في ثوب يلتصق بجسدها ترقص التانجو الأرجنتيني مع رجل طويل الشعر ذي شارب كث يرتدي ربطة عنق فنان .

•

وخرج « فاسكيز » إلى الطريق وهو لا يزال يحمل القضيب الحديدي الذي

أخرس به المربية . وأعطى إشارة بيده فظهر ذو الوجه الملائكي وراءه يحمل ابنة الجنرال بين ذراعيه . واختبأ داخل حانة « الخطونان » في نفس الوقت الذي بدأ رجال الشرطة يهربون بما يحملون من أسلأب . وكان أولئك الذين لم تقع أيديهم على سردج جياذ يحملون على ظهورهم ساعة حائط ، أو مرآة كبيرة ، أو تمثالاً ، متصددة ، تمثال للمسيح ، سلحفاة ، دجاجاً ، بطاً ، حماماً ، أو أباً من مخلوقات الله الأخرى : ملابس رجال ، أحذية حريم ، أدوات من الصيني ، زهوراً ، صور قديسين ، أحواضاً ، جرادل ، مصابيح ، نجف ، زجاجات دواء ، صوراً زينية ، كتباً ، مغطلات لمياه السماء ومبولات لمياه الانسان .

وكانت صاحبة الحانة تنتظر في الداخل وفي يدها قضيب حديدي ، جاهزة لتغلق به الباب خلفهم .

ولم تكن كميلة لتتصور وجود مثل هذه « الزرية » التي تفروح منها رائحة الفراش العفن ، لا تبعد سوى أمتار قليلة من البيت الذي عاشت فيه في سعادة غامرة ، يدللها ذلك الجندي المعجوز (وكان من المستحيل تصور أنه كان سعيداً بالأمس فقط) . وترعاها مربيتها (وكان من المستحيل تصور أنها ترقد الآن مصابة بجراح مميتة) . والزهور التي كانت بالأمس ناضرة أصبحت الآن على الأرض مداسة بالأقدام ، وقطعتها هربت ، وعصفورها الكناري مات بعد أن ديس بالأقدام مع قفصه . وحين أزاح المحبب الوشاح الأسود من على عيني كميلة ، خامرها شعور بأنها بعيدة جداً عن منزلها . ومرت بيدها على وجهها مرتين أو ثلاثاً وهي تنطلع فيها حولها لترى أين هي ، وتوقفت أصابعها عن الحركة كي تخفق صيحة استياء كادت تصدر عنها حين تحققت أن عمتها خفيفة واقعة وليست حلماً أو خيالاً .

وجاءها صوت الرجل الذي نفل إليها الأنباء المشؤومة ذلك المساء ، طاقياً نحو جسدها الثقيل الخدر : « آنتسي ، على الأقل ليس من خطريته هنا . ماذا نستطيع أن نفعل كي نهدى من مخاوفك ؟ »

فصاحت صاحبة الحانة : « ماء ونيران ! » وأسرعت نحو جدران في أعلى وعاء فخاري تستخدمه قوفاً ، في حين انتهز « فاسكيز » الفرصة لهاجمة قنينة من البراندي القوي ، وابتلع ما فيها دون أن يتذوقه ، كأنما هو يشرب سم قتران .

وانعشت صاحبة الحانة النيران عن طريق النفخ فيها ، وهي تتمتع طوال الوقت : « اشتعلي سريعاً ! اشتعلي سريعاً ! » . وتراءى خلفها ، على جدار الغرفة الخلفية التي كانت تتوهج الآن بالنور الأحمر المنبعث من جمرات النار ، ظل فاسكيز وهو ينسل في طريقه إلى الفناء .

واسقطت « لامسكواتا » جمرة مشتعلة في صحن منليء بالماء ، فقفقت وهسهست كالشخص المرتعب ، ثم طفت الفحمة المنطفئة على سطحها كنواة لثمرة جهنمية سوداء ، فالتقطتها المرأة باللقاط . وبعد أن احتست كميلة شيئاً من هذه المياه ، عاد إليها صوتها ثانياً .

وكان أول ما قالته : ماذا حدث لوالدي ؟
فرد ذو الوجه الملائكي : « اهذهني ، لا تقلقي ، إشرابي مزيداً من مياه الفحيم ، إن الجنرال بخير » .

- هل أنت متأكد ؟

- أعتقد ذلك .

- إن المصيبة .

- هس ! لا تجلبي الحظ السيء !

واستدارت كميلة ونظرت الى ذي الوجه الملائكي . إن تعبير الوجه كثيراً ما يكون أشد إيجاء من الكلمات . بيد أن عينيها تاهتا في عيني المحبوب السوداءوين الجامدتين .

وقالت لامسكواتا : « يجب أن تجلسي يا عزيزتي » .

وسحب لها المقعد الذي كان يجلس عليه « فاسكيز » حين دخل الغريب الذي دفع ثمن شرابه بورقة نقد كبيرة في الحانة لأول مرة .

أكان ذلك المساء منذ سنوات عدة ، أم منذ بضيع ساعات ليس إلا ؟ وحقق المحبوب إلى ابنة الجنرال أولاً ، ثم إلى نار الشمعة الموقدة أمام صورة العذراء . وتوهجت حدقاته حين جال بخاطرهم أن يطفىء الشمعة ويقضي وطره من الفناء . نفخة واحدة . . . وتصبح ملكه إما برغبتها أو رغبا عنها . ولكن عينيّه تحولتا عن

صورة العذراء لتسطعنا الى كميلة ، كانت تهاوت على المقعد وغاصت فيه ، وحين رأى وجهها مرمصاً بالدموع ، وشعرها الأشعث وجسدها الشبيه بجسد الملاك الفتي ، تغيرت سيماؤه وتناول القدح من يدها بمظهر أسوي ، قائلاً : يا فتاتي الصغيرة المسكينة ! .

وجاءه سعال صاحبة الحانة على نحو حفيف لتبهبها إلى أنها ستتركها وحدهما ، ثم شتاتهما اللاذعة حين وجدت فاسكيز يرقد غموراً تماماً في الفناء الصغير الذي يعقب برائحة الورود في أصصها المصفوفة وراء الغرفة الخلفية ، وتسب كل هذا في انفجار كميلة في موجة جديدة من الدموع .

قالت « لاسكواتا » تؤنب فاسكيز : لقد ملأت نفسك حتى النخمة أيها البائس . الشيء الوحيد الذي تجيده هو أن تجعلني أفقد أعصابي ! إن ما يقال صحيح تماماً ، لا يمكنني أن أغلق عيني إلا وتحطف شيئاً . ورغم ذلك تدعي أنك تحبني . آه ، أجل ، لا شك في هذا . ما أكاد أدير رأسي حتى تنقبض على الزجاجة . إنها لا تكلفك ملياً واحداً ، أليس كذلك ؟ كل ذلك لاني وثقت بك اخرج من هنا ، أيها اللص ، قبل أن ألقي بك إلى الخارج ! .

ورن صوت الرجل المخمور في نغمة شاكية ، بينما اصطك رأسه بالأرض حين بدأت المرأة تمجذبه من قدميه . وأغلق الهواء باب الفناء الصغير ، وساد الصمت بعد ذلك . وكان ذو الوجه الملائكي يردد في سمع كميلة وهي تبكي : « لقد انتهى كل شيء الآن . إن والدك لم يعد في خطر ، وإنك في أمان تام في هذا المخبأ ، إنني هنا لكي أحملك . لقد انتهى كل شيء ، لا تبكي ، فإن بكاءك سيزيد ما تشعرين به من قلق . توقف عن البكاء وانظري لي وسأشرح لك كل شيء » .

وخبت شهقات كميلة رويداً رويداً . كان ذو الوجه الملائكي يرتب على شعرها ، وتناول مندبلها من يدها وأخذ يجفف به عينيها . وبدأ ضوء الفجر يلون الأفق ويشع بين الأشياء في الحجرة وتحت الأبواب ، كأنه ماء الجير الأبيض ممزوجاً بطلاء وردي . إن البشر يحسون بوجود بعضهم بعضاً قبل أن يتمكنوا من رؤية بعضهم بعضاً . وهاجت الأشجار بفعل أول غناء للعصافير ولم تعد تستطيع أن تحك أوراقها . وتشاءت النوافير من وراء أخرى . واطرحت السماء جانباً خصللات الليل السوداء ، خصللات الموت ، وارتدت حلة مذهبة .

« ولكن يجب عليك أن تلزمي الهدوء ، وإلا ضعنا . سوف تضيعين نفسك ، وتضيعين والدك ، وتضيعيني . سوف أعود هذا المساء وأصطحبك إلى منزل عمك . أهم شيء هو كسب الوقت . لا بد أن نتفرع بالصبر . لا يمكن للمرء أن يرتب كل شيء في وقت واحد ، فبعض الأشياء أشد صعوبة من أشياء أخرى » .

« أنا لا أشعر بالقلق على نفسي ، فأنا أشعر بالأمان بعد ما قلته لي ، وإني ممتنة لذلك . أتدرك أن علي أن أبقى هنا . إنني قلقة على والدي . إنني تواقّة لأن أتأكد أنه لن يحدث مكروه لوالدي » .

« أعدك أن أحضر لك أنباء عنه .

« اليوم ؟

« اليوم . »

وقبل أن ينصرف ذو الوجه الملائكي ، التفت إلى كميلة ورثت على خدها في ود .

« أنت أحسن حالا الآن ؟

ونظرت إليه ابنة الجنرال كاتاليس بعينين قد امتلأتا ثانية بالدموع وقالت :

« إنني بالأنباء . . . »

اعتقالات

لم تنتظر زوجة « خينارودوداس » وصول الخبز قبل أن تهرع خارجة من بيتها . ولا يعلم إلا الله ما إذا كانت أرغفة الخبز ستوزع اليوم عليهم . تركت زوجها محمداً على السرير بملابسه الكاملة ، منهكاً كالخرقة البالية ، كما خلفت وليدها في السلة التي تقوم له مقام المهد . وكانت الساعة السادسة صباحاً .

ودقت ساعة كنيية « لامرسيد » في نفس الوقت الذي كانت هي تدق فيه على باب منزل الجنرال كاناليس . وقالت لنفسها وهي تمسك مطرقة الباب ، على وشك أن تدق بها ثانية : أرجو أن يغفروا لي ليقاظهم هكذا في هذه الساعة المبكرة . ولكن أما من أحد يفتح لي الباب ؟ لا بد أن يعلم الجنرال بأسرع ما يمكن ما قاله « لوسيو فاسكيز » لزوجي الأحمق في ذلك البار المسى « صحوة الأسد » .

وتوقفت عن الدق وانتظرت أن يفتح الباب . وجال في خاطرها : « لقد ألقى الشحاظون مسؤولية جرمية « رواق الرب » على الجنرال . سوف يحضرون ويقضون عليه هذا الصباح . وأسوأ ما في الأمر أنهم يتنون اختطاف ابنته . ورددت في نفسها وهي لا تكف عن دق الباب : « يا له من عُذر ! يا له من عُذر ! » . وتزايدت ضربات قلبها « إنهم إذا قبضوا على الجنرال ، حسناً ، إنه رجل على كل حال ويمكنه احتمال مصاعب السجن . ولكنهم إذا خطفوا السيدة الصغيرة ، فليساعداً الله ! لن يكون هناك علاج لهذه المصيبة . إني أراهم بكل شيء أن هناك واحداً من أولئك الأوغاد قليلي الحياء هو السبب في كل هذا الذي يحدث ، واحد ممن ينتقلون من الجبال إلى المدينة لممارسة مكائدهم البشعة المشينة » .

ودقت الباب مرة أخرى . وردد المنزل والطريق والهواء الطرقات كأنها دقات طويل . وامتلات بأسا حين لم يفتح لها أحد . وعمدت لقتل الوقت الى قراءة عنوان الحانة الواقعة عند الناصية : « الخطوتان » . كانت كلمة واحدة مكونة من حروف قليلة . ولكنها لاحظت عند ذلك صورتين لشخصين كل واحد منها على أحد جانبي باب الحانة : صورة رجل على اليمين ، وصورة امرأة على اليسار . ومن فم المرأة تخرج عبارة مكتوبة هي : « تعال ارقص في حانة « الخطوتان » ، ثم يأتي الرد عليها من الرجل الذي كان يمسك زجاجة في يده : « كلا شكرا ، إني أفضل رقصة الزجاجة ! » .

وحين كَلَّت يدها من دق الباب ، فهم إما ليسوا في الداخل أو أنهم لن يفتحوا لها الباب ، دفعت بيدها الباب فانفتح . كيف أنه لم يكن مغلقاً بالترتاج؟ وللممت شامها المطرّز حول كتفها ودخلت الردهة يغمزها إحساس عميق بشر متوقع ومضت نحو البهو وهي لا تكاد تعرف ما هي فاعلة . واخترق المنظر الذي رآته أمامها عينها كما تخترق طلقة رصاص جسد الطائر ، ونجمت الدم في عروقها ، وتروكها لاهثة الأنفاس ، غائرة العينين ، مشلولة الأطراف : كانت ثمة مزهريات محطومة وريش طيور متناثر على الأرض ، وستائر ممزقة ونوافذ ومرايات مكسورة ، وخزائن مبقورة ، وأقفال محطمة ، والأوراق والملابس والأثاث والسجاد كله قد عاث فيه الخراب ، كل شيء قد شاخ في ليلة واحدة ، كل شيء قد استحال خليطاً لا قيمة له من نقابة قدرة لا حياة فيها ولا روح .

وكانت المربية العجوز ، « لاتشابيلونا » ، تدور في أنحاء المنزل كالشيخ بحثا عن سيدتها الصغيرة ، ورأسها مفتوح بالجراح . كانت تقول وهي تضحك : ها ، ها ، ها ، هي ، هي ، هي ! أين تختبئين يا فتاتي كميبة ؟ انني قادمة ، لا تردين ؟ قادمة ! قادمة ! قادمة ! »

كانت تتخيل أنها تلعب « عسكر وحرامية » مع كميبة ، فظلت تبحث عنها مرات عديدة في نفس أركان الغرفة ، بين أصص الزهور ، تحت الأسرة ، وراء الأبواب ، وهي تقلب كل شيء ، عاليه سافله كأنها الزوبعة .

- ها ها ها ، هي هي هي ! أوه أوه أوه ، قادمة ، قادمة . أخرجني يا كميبة ، لقد سلّمت . أخرجني يا كميبيتي ، لقد تعبت من البحث عنك . ها ها

ها ! أخرجني . انني قادمة . هي هي هي . اوه اوه اوه !

وفي أثناء بحثها عن كميلة صادف أن توجهت إلى النافورة ، وحين رأت خيالها المتعكس على صفحة المياه الساكنة ، صرخت كالقرد الجريح ، وأخذت ضحكاتها ، تتحول إلى لغو خفيف ، وشعرها يغطي وجهها ويدها تمسكها بشعرها ، وطفقت تنهار رويداً رويداً إلى الأرض كما تهرب من هذه الرؤيا المخيفة . وغمغمت بعض أعذار متقطعة كأنما هي تطلب السماح من نفسها على كونها يمثل هذا القبح وهذه الشيوخة وهذه الضالة وهذه الهبة المشوشة . وفجأة ، بدأت تصرخ مرة أخرى . فمن خلال شلال شعرها المنقوش ، ومن بين أصابعها المتفرقة ، لمحت الشمس تقفز فوقها من أعلى ، وتلقي بظلالها على أرض الفناء . وأعماها الغضب فنبضت وهاجمت ظلها وصورتها المتعكسة ، وأخذت تضرب صفحة المياه بيديها والأرض بقدميها . كانت تريد أن تدمرها . وظلها يتلوى ويتثنى كأنه حيوان يجلد بالسياط . ولكنه ظل باقياً برغم ضربات قدمها المحمومة وركلاتها ، وتحطمت صورتها نثارة في خضم المياه التي ضربتها بيديها ، ولكنها عادت مرة أخرى حاملة سكون الماء . وأخذت تصرخ كالحيوان المتوحش غاضبة لعدم قدرتها على تدمير هذا الراسب السخامي المنتثر على الأحجار والذي يهرب من ركلات قدميها كأنما يفر حقيقة من الضربات ، وعلى تحطيم ذرات الغبار المضيء التي تطفو على سطح المياه وبها سمكة لها نفس صورتها .

وبدأت قدمها تدميان ، وذراعاهما ترتجيان إلى جنيها من فرط التعب ، ولكن ظلها وصورتها المتعكسة بقيا عصيين على التدمير . وتشنجت من سيرة الغضب ، فبذلت جهداً يائساً أخيراً وألقت بنفسها على جدار النافورة ... وسقطت وردتان في المياه ...

وانتزعت عينيها غصن شجرة ورد مليء بالأشواك ...

وبعد أن ارتقت تتلوى على الأرض كظلها ، رقدت أخيراً ساكنة تحت إحدى أشجار البرتقال لا يبدو فيها نفس حياة .

وكانت لمة فرقة موسيقية عسكرية تعبر الطريق . يا لها من موسيقى عسكرية قوية ، يا لها من رؤية مشوقة لأقواس النصر تلك التي تبعثها في النفوس ! ولكن برغم جهود نافخي^(١) في النفخ بقوة وفي تناغم ، فإن سكان الحيز^(٢) ...

يفتحوا عيونهم ذلك الصباح في نفاذ صبر لأنهم كأبطال تعبوا من مشاهدة السيف
بصدا في ظل أمان حقول النذرة الذهبية ، استيقظوا تملؤهم آمال يوم الأجازه
السارة ، عازمين في نواضع على الصلاة إلى العليّ القدير كي يخلصهم من الأفتكار
والأقوال والأفعال الشريرة الموجهة ضد رئيس الجمهورية .

وبعد فترة قصيرة من الاغناء ، بدأت « لاتشابيلونا » تحس بأصوات الفرقة
الموسيقية . كانت في عالم من ظلام . لا يد أن سيدتها الصغيرة قد تسلمت على
أطراف أصابعها وغطت عينيها من الخلف . وتمتعت في صوت متعثر وهي ترفع
يديها الى وجهها لتزيح عنها يدي الفتاة اللتين كانتا تسيبان لها الماء فظيماً : « يا
عزيزتي كميعة ، أعرف أنه أنت . دعيني أنظر إليك » .

وتلاشت موسيقى الفرقة في الهواء مع ابتعادها عن الحلي . وتضافرت
الموسيقى مع الظلمة التي طوّق بها العمى عينيها كأنها هي حقا تلب « عسكر
وحرامية » ، فبعثت فيها ذكرى المدرسة التي تعلمت فيها الهجاء ، هناك في « المدينة
القديمة » . ثم قفزت عبر السنين فرائت نفسها وقد غمت ، تجلس في ظلال شجرتي
مانجو ، وبعد ذلك ، قفزة أخرى في الزمن ، وهما هي جالسة في عربة تجرها
الثيران تدب على طريق منبسط يعقب براهنة الثين . وبدأ صرير العجلات كتناجر
مزدوج من الأشواك يسحب الدماء من صمت سائق العربة الأمرد الذي جعل منها
زوجته ، وكان الثوران الصبوران يمضغان طعامهما وهما يغذيان السير ويمجران خلفهما
عربة العرس .

وشحّر السهاء التي تظلل الحقول في الربيع . . . بيد أن ذكرياتها نشئت
فجأة ، ورائت حشدا من الرجال يندفعون الى منزل الجنرال كاليبيل ، يلهثون
كالحيوانات السوداء ، وسمعت صرخاتهم الشيطانية ، وضرباتهم ، وتغديفهم ،
وضحكاتهم الخسنة ، والبياسو بصرخ كأنما يتزعجون أسنانه بالقوة . واختفت
سيدتها الصغيرة كأنها عبر العطر ، وشعرت هي بضربة غنيمة في وسط جمجمتها
مقرونة بصرخة غريبة وظلمة سادت كل شيء .

ووجدت « نينيا فيدينا » ، زوجة « خينارو روداس » ، الخادمة المعجوزة ممددة في
الفناء وجنتاه غارقتان في الدماء ، وشعرها متفوش ، وملابسها ممزقة شر ممزق ،
وهي تناضل كي تطرد عنها الذباب الذي كانت ثمة يد خفية تقوده الى وجهها ،

فقرت في دعر الى داخل المنزل كأنما هي قد رأت عفريتاً .

وظلت تردد في سرها : « يا للمسكينة ! يا للمسكينة ! »

وتحت إحدى النوافذ ، عثرت « فيدينا » على الخطاب الذي كان الجنرال قد كتبه الى أخيه خوان يطلب منه أن يعتني بكريمة . بيد أن فيدينا لم تقرأ الخطاب كله ، فمن ناحية كانت ملهية بصرخات « لاتشابيلونا » التي كانت تتردد خلال المرات المحظمة وشظايا أفاريز النوافذ ، والكراسي الممزقة ، والخزائن المنهوبة والصور الساقطة - وهي من ناحية أخرى ملهية بحاجتها المسيسة الى الحرب من هذا المكان . ومسحت العرق عن وجهها بمندبل مطوي أربعة ، انسحق بين أصابعها المشنجة المزدانة بالخواتم الرخيصة ، ودست الخطاب في صدرها وأسرع خارجة إلى الطريق .

بيد أن ذلك جاء متأخراً . ذلك أن ضابطاً خشن المظهر ، استوقفها لدى الباب . كان المنزل محاطاً بالجنود . ومن الفناء انبعثت صيحات المربية المعذبة .

ووقف لوسيو فاسكينز وراء باب حانة « الخطوتان » ، وكانت « لامسكواتا » وكريمة قد دفعتاه الى مراقبة ما يحدث في الخارج من عند الباب ، حابساً أنفاسه وهو يرى الجنود يقبضون على زوجة صديقه « خينارو روداس » الذي كان قد كشف له ، في الليلة الماضية تحت تأثير الخمر في بار « صحرة الأسد » ، خطه القبض على الجنرال .

وتوجه جندي إلى حانة « الخطوتان » وجال في خاطر صاحبة الحانة وقد سقط قلبها إلى قدميها من الخوف : « لا بد أنهم يبحثون عن ابنة الجنرال » . وجعلت نفس هذه الفكرة شعر فاسكينز يقف ذعراً . بيد أن الجندي كان قد حضر ليقول لهم إن عليهم أن يغلقوا الحانة . فأغلقوا الباب ووقفوا يرقبان ما يحدث في الطريق من خلال الشقوق .

وفي الظلمة ، أخذ فاسكينز يستجمع قواه وبدأ يربت على « لامسكواتا » بحجة أنه خائف ، ولكنها أوقفته بدافع العادة ، وكانت على وشك أن تصفعه فقال لها فاسكينز :

- يا لك من عبيلة مغرورة ؟

اوه ، احقاً؟ انك مخطئ . . . اورد أن أعرف لماذا يجب علي أن أسكت على استهزاك بي .
الم أقل لك الليلة الماضية أن تلك البلهاء قالت لي إن ابنة الجنرال . . . فقاطعتها
فاسكيز قائلاً : إحدري وإلا سمعوك !

كانا يتحادثان وهما منحنيان ينظران الى الطريق من خلال شقوق الباب .
- «لا تكن أبله ، إنني أتكلم بصوت منخفض ! لو لم أقل لك إن تلك المرأة
ستخذ من ابنة الجنرال إشبيبة لطفلها ، لكنك قد أقحمت » خيتارو « في هذه المسألة
ولكان القتي قد ضاع الآن »

فرد عليها وهو يحاول أن يتزعزع بعض خيوط العنكبوت التي التصفت بين رقبته
وأنفه : « حقا حقا . . . »

- «أتهزأ مني أيها المتوحش؟ حقا إنك لجاهل» .

- آه ، يا لك من عائلة مرهقة الحس . . . !

- هس !!

كان المدعي العسكري العام يهبط في هذه اللحظة من إحدى العربات .

قال فاسكيز : إنه المدعي العام . . .

وتساءلت « لأمسكواتا » : ولماذا جاء الى هنا ؟

كيبا يقبض على الجنرال .

- لهذا قد ارتدى كل أوسمته وأصبح كالطاووس ؟ لماذا لا تقطف لك ريشة
تلك الرياش التي تتوج رأسه ؟ »

- كلا ، شكرا . يا لك من فضولية ثرثارة . إنه يرتدي حلته الرسمية لأنه في
يقه لمقابلة السيد الرئيس .

- يا لحسن حظي ، أكون عاهرة لو لم يكونوا قد قبضوا على الجنرال في الليلة
ناضية .

- لماذا لا تصمتين ؟

حين هبط المدعي العسكري العام من عربته ، صدرت الأوامر في صوت حافت ، ودخل أحد الضباط الى المنزل على رأس فرقة من الجنود ، شاهرا سيفه . يد وحاملاً مسدساً في يده الأخرى ، قبالاً أشبه بالضباط في التصاوير الملونة عن الحرب الروسية - اليابانية .

وبعد عدة دقائق ، حسبها فاسكيز قروناً إذ هو يراقب كل ما يحدث وقلبه عبق بين ضلوعه - عاد الضابط شاحب اللون شديد الاضطراب ، ليخبر المدعي العام بما حدث .

وصاح المدعي العام : « ماذا ؟ ماذا ؟ » وخرجت كلمات الضابط مندفعة نبرة من ثنايا طبقات أنفاسه المتهدجة .

وزأر المدعي العام : ماذا . . . ، ماذا ، أنقول انه قد هرب . . . ؟ . راحقن عرفان في جيته كأنها علامتا استفهام سوداوان هوانهم . . . أنهم . . . هم نهبوا المنزل ؟ » . . .

وبدون إضاعة مزيد من الوقت اختفى داخل المنزل يتبعه الضابط ، وألقى نظرة خاطفة ، ثم عاد بخفة الى الشارع ويده السميكة تقبض في غضب على مقبض سيفه ، ووجهه من الشحوب لدرجة يصعب معها التفريق بين شفتيه وشارب .

وقال متسائلاً حين خرج من المنزل : « كيف هرب . . . هذا ما أود . . . عرفة ؟ لقد اخترع الهاتف من أجل هذا ، لتنفيذ الأوامر . . . للقبض على أعد حكومة . أه أيها الثعلب العجوز ! سوف أشقه إذا وضعت يدي عليه . انه في مرفق لا يجسد عليه أبداً » .

وفجأة وقعت عين المدعي العسكري العام على « نينيا فيدينا » كالصاعقة .

وقال لها وهو لا يرفع عينيه عنها : أينها الكلبة . . . سنعرف كيف نجعلك عريقين ! أيها الضابط ، خذ عشرة جنود واحملوها الى حيث يجب أن تكون يدان . . . هه . . . ؟

وبعد عدة دقائق ، صاح المدعي العام : « ماذا ؟ ماذا ؟ »

وَأَنْ فاسكيز قائلًا : « آه يا إلهي ، ماذا يفعلون بهذا المسيح المصلوب
لسكين ؟ » ذلك أن صرخات « لاتشابيلونا » المتزايدة القاطعة جعلت الدماء
سحمت في عروقه .

وصححت له صاحبة الحانة قوله في سخرية : المسيح ؟ ألا تسمع ؟ أنها
صرخات امرأة ؟ هل تظن أن الرجال لهم لهجة العصافير الأتنية ؟
- لا تكلميني هكذا ...

وأمر المدعي العام العسكري بتفتيش المنازل المجاورة لمنزل الجنرال .
وانتشرت فرق من الجنود في جميع الأنحاء بقيادة عريف أو رقيب . وقلبوا في كل
الأنحاء ، الأتنية ، غرف النوم ، المكاتب الخاصة ، الحجرات العلوية ، التوابير ..
وتوجهوا إلى الأسطح ونقبوا في خزائن الشراشف ، والأسرة ، والسجاجيد ،
والصوانات ، والبراميل ، والخزانات ، والصناديق . وكان إذا تأخر أحد في فتح
الباب ، كسروه بكعسوب بنادقهم . وكانت الكلاب تنبح في غضب إلى جوار
أصحابها شاحبي اللون . وكان النباح يصدر من البيوت كأنها هو مياه تصدر عن
رشاشة ماء .

قال فاسكيز الذي كاد يتعقد لسانه من الرعب :

- إفرضي أنهم فتنشوا هنا ؟ لقد أوردنا أنفسنا موارد الهلاك ! ولو كان ذلك
مقابل شيء ، لكان الأمر ، ولكنه يكاد يكون مقابل لا شيء ، بالمره ...

وأسرعت « لامسكوانا » لتحذر « كميلا » . وأعقبها فاسكيز يقول : « إني
أعتقد أن الأفضل أن تغطي وجهها وتغادر هذا المكان حالاً . ثم أسرع إلى الباب
دون أن تنتظر جواباً لكلامه .

وقال وعيناه على ثقب الباب : « إنتظرا ، إنتظرا ! لقد أعطى المدعي العام
أمرًا آخر ، لقد توقفوا عن التفتيش . لقد نجونا ! »

وخطت صاحبة الحانة خطوتين إلى الباب لترى بعينها ما أعلنه فاسكيز بهذا
الخور .

وهمت المرأة : انظر إلى مسيحك المصلوب !

من حي ؟

«إنها المربية - ألا ترى؟» وأزاحت جسدها لتبتعد عن نطاق يدي فاسكيز
سبعيتين ، وأضافت « اتركني أيها الرجل ، اتركني ، اتركني عليك اللعنة! »

« يا للمسكينة . أنظري كيف يجرونها معهم ! »

« لماذا تصيح أعين الناس حولاء وهم يعتصرون ؟ »

« - هس ، لا أريد أن أرى . »

كانت فرقة من الجنود يقودها ضابط شهر سيفه قد جرت « لانتشابلونا »
المربية التمسعة الحظ من منزل الجنرال . كان مستحيلا على المدعي العام أن
يستجوبها . ومنذ أربع وعشرين ساعة ، كان هذا الحطام الانساني ، الذي يلفظ
الآن آخر أنفاسه ، هو الدعامة الاساسية لبيت كان النشاط السياسي الوحيد فيه هو
خطط طائر الكناري التي يحكيها للحصول على مزيد من حبوب القروطم لغذائه ،
والدوائر المتراكمة التي تنتشر تحت دفقة النافورة ، وانهماك الجنرال المتواصل في
ألعاب « الكوتشينة » ، ونزوات كميلة .

وقفز المدعي العسكري العام إلى عريته ، يتبعه أحد الضباط . وتوقفوا عند
أول ناصية ، فقد وصل أربعة رجال قذرين ، رثي الثياب ، ومعهم نقالة للحمل
جثة « لانتشابلونا » إلى المشرحة . واصطف الجنود عائدین إلى ثكناتهم ، وفنحت
« لامسكواتا » حائتها . وجلس فاسكيز في مقعده المجهود ، ولم يبد جهداً يذكر
لإخفاء اضطرابه من جزاء القبض على زوجة « خينارو روداس » . كان رأسه
كالقرون الذي يغلي فيه الأجر الأحمر ، وعقله مسطحاً من تأثير الخمر ، تتابعه
نوبات السكر من حين إلى آخر ، مقرونة بمخاوف من فرار الجنرال .

وأثناء ذلك ، كان الجنود المكلفون « بينيا فيدينا » يصطحبونها إلى السجن ،
ويدفعونها من حين إلى آخر من على الطوار إلى عرض الشارع . واستسلمت المرأة
لذلك المعاملة السيئة في صبر ، غير أنها فقدت أعصابها فجأة وهم في الطريق
وضربت واحداً منهم على وجهه . وجاءها الرد على صورة ضربة قاسية من كعب
البندقية ؛ وفي نفس الوقت سدّد إليها جندي آخر ضربة من الخلف جعلها تترنح
وأسنائها تصطك في رأسها ، والنجوم تتماثل أمام عينيها .

وتدخلت امرأة من المارة كانت عائدة من السوق حاملة سلة مليئة بالخضروات والفاكهة ، صاحبت بهم : « أيها القذرون ، ألهذا تحملون أسلحتكم ؟ يجب أن تخلعوا من أنفسكم » .

وصاح بها جندي : « اصمتي ! » .

- يا لك من وفح .

وصاح بها رقيب : هيا يا سيدتي ، تابعي سيرك . اذهبي الى حيث كنت ذاهبة ، أليس لك ما تفعلين ؟

وهل أنا مثلكم ، أيها الخنزير السمين !

فتدخل الضابط قائلاً : « اصمتي وإلا سنحطم رأسك » .

- « لمطمون رأسي ، حقاً . هذا ما كان يتقصنا فعلاً ، هؤلاء الهنود الذين يسبرون هنا وهناك مثل الصينيين ، وملابسهم مهترئة عند المرفقين وعند حجر البنطلون ! أفضل لكم أن تنظروا إلى أنفسكم وأن تكفوا أيديكم عن الناس ، أينما الجماعة التي يرتع القمل فيكم ، وأنتم تلهون بشتم الناس ! »

وقليلاً قليلاً ، ابتعد الركب عن المدافعة المجهولة عن زوجة « خينارو روداس » وسط دهشة المارة ، في حين ذهبت المقبوض عليها في طريقها الى السجن ، حزينة ، مضطربة ، تنقصد عرقاً ، وطرف شاها الطرز بمسح الأرض خلفها .

■

وصلت عربة المدعي العام العسكري إلى منزل « قابيل كرفخال » المحامي في الوقت الذي كان يتأهب لمغادرة بيته الى القصر الجمهوري مرتدياً قبعته العالية وسترته الصباحية . وقفز المدعي العام من العربة الى الطوار بما جعل العربة تهتز من بعده . وأغلق « كرفخال » الباب وراءه وكان يضع فردة قفازه بعناية حين اعتقله زميله . واصططحبته مفرزة من الجنود ، وهو في ملابسه الكاملة ، في وسط الطريق الى مركز الشرطة الثاني ، الذي زينته واجهته بالأعلام والشرائط الورقية وأخذوه ، أساً الى الزنزانة التي كان الطالب ومساعد القس سجينين فيها .

فليغن العالم جميعه !

كانت الشوارع تبتدى تدريجياً للبصر في ضوء الفجر الحارب ؛ ومن حولها ترفد الأسطح والحقول العبة بنضارة الربيع . وكانت البغال التي تحمل اللبن ترى وهي تسير خيباً وأغطية جرار اللبن تصلصل من فوقها ، يستحثها البغالون على السير قدما بالضربا وباللعنات . وسطع نور الصباح على الأبقار الواقفة للاستحلاب أمام أزوقة منازل من هم أيسر حالا ، أو في نواحي الطرقات في الأحياء الفقيرة ، بينا الزبائن ، وبعضهم في طريق النقاعة والآخر في طريق الهلاك ، وأعينهم لا يزال السبات يغطيها ، ينتظرون بقرعهم المفضلة ويذهبون إليها لاستحلابها ، وهم يميلون الجرة في براعة كيما يحصلوا على قدر من الحليب أكثر من الرغوي . وكانت النسوة اللاتي يوزعن الخبز على البيوت يمشن ورؤوسهن منحنية على صدورهن ، محنيات الظهر ، يماهدن في جر سيقانهن ، حافيات الأقدام ، يسلكن طريقتهم بخطوات قصيرة متعشرة تحت وطأة سلاهن الضخمة . كانت السلال مكموة الواحدة فوق الأخرى على هيئة الأهرامات ، مخلقة في الهواء عبر الفطائر المغطاة بالسمن المحمص والسكر . وأعلنت الساعات الدقاقة بداية يوم عطلة رسمية ، وأثارت بذلك أطرافاً من المعدن والهواء ، سيمفونية من الروائح وانفجاراً من الألوان ، في حين صدرت عن الكنائس ، فيها بين الظلمة والفجر ، دقات النافوس معلناً القداس الأول ، في وجل وجسارة في نفس الوقت ، ذلك أنه إذا كانت دقانه توحى في أيام الأعياد بفطائر الشيكولاتة والبسكويت الكسي ، فإنه في أيام العطلة الرسمية بفوح برائحة الفاكهة المحرمة .

عطلة رسمية . . .

وفي الشوارع ، مع عبير الأرض الطيبة ، ارتفع جوار السكان وهم يفرغون

أحواضاً من المياه من نوافذهم كما يترسب الغبار الذي تحلف عن قوات الجنود التي مرت تحمل الراية نحو قصر السيد الرئيس ، الراية التي لها رائحة المنديل الجديد ؛ أو عن عربات جليلة القوم المرتدين أفخر ثيابهم : أطباء في معاطف «الفرالك» ، جنرالات في حللهم الرسمية المتألقة التي تعبق برائحة «النفثالين» ، والمدنيون في قبعات عالية لامعة ، والعسكريون في قبعات مثلثة الأطراف يعلوها الريش ، أو عن خبيب جياد الموظفين الأقل شأنًا ، الذين تقاس الخدمات التي يؤدونها بالمبلغ الذي ستدفعه الدولة يومًا ما لتغطية نفقات جنازتهم .

سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأعجارك !

« وسمع الرئيس بأن يراه الشعب ، مسروراً من استجابته التي لقيتها جهوده التي يبذلها في سبيل رفاهيته ، فظهر في الشرفة طويلاً وسط كوكبة من أصدقائه المحبين .

• سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأعجارك !

وشعرت النسوة بقوة معبودهم الحبيب الإلهية . وقدم له أكابر القس فروض الطاعة والولاء . وتحيل المحامون أنهم في معية الفونسو العالم* . أما الدبلوماسيون ، وهم أصحاب فخامة أت بعضهم ربما من مدينة «تفليس» ، فقد ارتسمت على عجايمهم علامات الأهمية كأنما هم في بلاط «الملك الشمس»** في «فرساي» . وهنا الصحافيون أنفسهم على أنهم موجودون في صحبة «بركليز»*** آخر . سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأعجارك ! وأحس الشعراء أنهم في «أثينا» ، هكذا أعلنوا للعالم أجمع . وتحيل نحات للتماثيل

-
- الملك الفونسو العاشر (١٧٢١ - ١٧٨٤) ملك تشاتلة الذي اشتهر بحبه للعلم والثقافة والذي لمس منورة لنقل علوم العرب إلى اللغة الإسبانية .
 - هو لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) ملك فرنسا ، ويعد عصره العصر الذهبي للثقافة الفرنسية وكان هو نفسه مصيراً لرجال الفن والأدب .
 - • • ريم نيفي فديم (١٩٥٠ - ١٩٢٩ ق . م) عُرف بتصاوغ أفقه وشعفة ذكته .

الدينية أنه «فيدباس»* وابتنسم ، وحل يده ، ورفع عينيه إلى السماء حين سمع انفتاح في الشوارع تكريماً لحاكمهم العظيم . سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأجسادك ! وعمد مؤلف معزوفات جنازية ، مغرم بـ «باخوس»** وبالدين كذلك ، إلى مد وجهه ذي اللون الطماطي من النافذة ليرى ما يحدث في الطرفين .

ولكن ، إذا كان الفنانون قد اعتقدوا أنهم في أثينا ، فقد تخيل أصحاب البنوك اليهود أنهم في «قرطاجنة» . وهم يتجولون خلال صالونات رجال الدولة الذين وهبهم قفطه وأوكل مدخرات الأمة إلى صناديقهم التي لا قرار لها بغائلة صفر أو لا شيء في المائة ، مما نتج عنه أنهم أثروا ثراء فاحشاً ، واستعاضوا عن عمليات الحثان بالعملات الذهبية والفضية !

سيدي الرئيس ! سيدي الرئيس ! السماء والأرض مليتان بأجسادك !
وشق ذو الوجه الملائكي طريقاً لنفسه وسط المدعوين (كان جيلاً وماركاً كالشيطان) :

- الشعب يطلب ظهورك في الشرفة يا سيدي الرئيس !

- ... الشعب ؟

ووضع القائد نبرة استفهام في هذه الكلمة . وساد الصمت من حوله . ونهض من مقعده وتوجه إلى الشرفة ، تحت ضغط حزن عميق كتبه في نفسه بغضب حالماً شعر به لئلا يظهر في عينيه .

وظهر أمام الجماهير محاطاً بكوكبة من محبيه . وكانت بعض النسوة قد جنن ليهنته بالذكرى السعيدة لنجائه من محاولة للاغتيال ، وبدأت واحدة منهن ، أوكل إليها مهمة إلقاء خطبة ، تقول حالماً رأت الرئيس :

« يا ابن الشعب البار ... »

وازدرد القائد لعابه المرير ، ربما وهو يذكر أيام كان طالباً ، حين كان يعيش في

* من أشهر الحكاتين في اليونان القديمة وتنبأ إليه تمثال زيوس.

** هو الإسم اليوناني لديونيزيوس ، إله الخمر عند الرومان.

فقر مدقع مع أمه في مدينة لم يجد فيها أي متنفس لها ، ولكن المحبوب تدخل قائلاً
في رنة خفيفة :

- مثل يسوع ، ابن الشعب . . .

وردت صاحبة الخطبة : « يا ابن الشعب البار ، أقول ابن الشعب . في هذا
اليوم الساطع البهائم ، تتلألأ الشمس في كبد السماء ، وتلقي بضوئها على عينيك
وفي روحك . وإذا أمثل بالتعاقب المبارك للنهار والليل في قلب السماء ، فإن سواد
تلك الليلة لا ينسى ، حين عمدت الأيدي المجرمة - بدلاً من الاقتداء بك سيدي
الرئيس في زرع البذور الصالحة في الحقول - إلى وضع قنبلة في طريقك ، ولكنك
خرجت منها سالماً معافى ، رغم كل الدقة العلمية الأوروبية التي صنعت تلك
القنبلة » .

وغرق صوت « لسان البقرة » - كما كانت السنة السوء تسمي السيدة التي
الخطبة - في غمار تصفيق حاد من الجمهور ، الهواة لدى الرئيس
رحمته .

- عاش السيد الرئيس !

- عاش السيد رئيس الجمهورية !

- عاش السيد رئيس الجمهورية الدستوري !

- فلتردد أصداء هتافنا وتصفيقتنا في العالم كله إلى الأبد ، عاش السيد
رئيس الجمهورية الدستوري ، حامي همى الوطن ، رئيس الحزب الليبرالي
العظيم ، المدافع عن الشباب المجتهد ! » .

واستطردت لسان البقرة تقول :

- « إنه لو كانت خطط أولئك الأشرار قد نجحت ، أولئك الذين كان يعاوضهم
أعداء السيد الرئيس في محاولتهم الاجرامية ، لكانت راية بلادنا قد تلطخت بمئات
الشوايب الشائنة . إنهم لم يتوقفوا لحظة ليتدبروا أن يد الله كانت معكم تحمي
حياتكم الغالية ، مقرونا بتأييد كل أولئك الذين يسلمون بأنكم جديرون بأن
كونوا المواطنين الأول للأمة ، والذين أحاطوا بكم في تلك اللحظة العصيبة ،
الذين يحيطون بكم الآن وسوف يحيطون بكم طالما دعت الحاجة إلى ذلك . أجل

أيها السادة ، أينها السيدات والسادة ، إننا ندرك اليوم أكثر من أي وقت مضى أنه لو كانت تلك الخطط الدنيئة قد نجحت في ذلك اليوم ذي الذكرى المفجعة في تاريخ أمتنا - التي تقود اليوم الشعوب المتحضرة - لحرم وطننا من أبيه وحامي هاه ، ولسقطت تحت رحمة أولئك الذين يشحذون خناجرهم في الظلام ليظلموا بها صدر الديمقراطية في الصميم ، كما قال يوماً ذلك السياسي العظيم « خوان مونتانفو » .

« وبفضل نجاحكم ، لا نزال رايتنا تحقق عمالية دوغما شوايب . وهذا هو السبب الذي نجتمع هنا من أجله أيها السادة ، لتكريم حامي همى الطبقات الفقيرة المجيد ، الذي يسهر علينا بعطف الأب ، والذي جعل أمتنا - كما سبق أن قلت - في طليعة ذلك التقدم الذي أطلق « فالتون » شرارته الأولى باكتشافه البخار ، والذي دافع « خوان سانتا ماريا » عنه ضد الفرصة عن طريق إشعال النار في الديناميت المشؤوم في « لبيريا » . عاش وطننا ! عاش رئيس الجمهورية الدستوري ، رئيس الحزب الليبرالي ، حامي همى الأمة ، معزز النساء والأطفال العزّل ، والتعليم ! » .

وضاعت هتافات « لسان البقرة » وسط سعي من الهتاف أطفاله بحر من التصفيق .

ورد السيد الرئيس بوضوح كلمات ، ويده اليسرى تفيض على سور الشرفة المرمري ، والتفت جانباً حتى لا يعرض صدره للخطر ، وحرك رأسه من اليسار إلى اليمين ليحيط بالجمهور ، وقد قطب جبينه ، وعيناه ترقبان كل شيء . ومسح الرجال والنساء على حد سواء دموعات نساقطت من عيونهم .

وقال ذو الوجه الملائكي حين رأى الرئيس وقد انسد أنفه بعض الشيء : هلا تفضلت بالدخول سيدي الرئيس ؟ ... إن الجمهور يؤثر عليكم تأثيراً شديداً ... »

واندفع المدعي العسكري العام نحو الرئيس الذي عاد من الشرفة تتبعه ثلاثة من أصدقائه ، كيما يقدم إليه تقريراً عن هروب الجنرال « كاناليس » ويهتبه على خطبته قبل أي شخص آخر ، ولكنه مثله في ذلك مثل جميع الذين تقدموا إلى السيد الرئيس لنفس الغرض - توقف فجأة وقد شلّه شعور غريب بالوجل ، ناتج عن قوة خفية خارقة للطبيعة ، وحتى لا يبقى عذود اليد في الهواء ، تقدم ليصافح ذا الوجه

الملائكي .

بيد أن المحبوب أدار له ظهره . وسمع المدعي العسكري العام ، ويده ممدودة في الهواء ، أول انفجار في سلسلة من الانفجارات التي توالى في ثوانٍ قليلة كأنما هي طلقات مدفعية . وعلى الفور، انطلقت الصرخات ، وتقافز الناس يجررون هنا وهناك ويركلون المقاعد في طريقهم، بينما أغمى على كثير من النساء ، وسرعان ما كانت فرق الجنود تهرع لتنتشر وسط الجمهور كحبات الأرز ، وأيديهم على زناد بنادقهم المحشوة ، وسط المدافع الرشاشة ، والمرايا المحطومة والضباط والمدافع . . .

واختفى كولونيل فوق الدرجات ومسدسه في يده ، بينما هبط آخر من الدرجات ومسدسه في يده . لم يكن هناك شيء . لم يكن هناك شيء . بيد أن الهواء كان بارداً . وانتشرت الأنباء بين الجمهور المضطرب . لم يحدث شيء . وتجمع الضيوف تدريجياً في مجموعات ، وبعضهم قد بال على نفسه من الخوف ، والبعض الآخر اضاع قفازاته . وكان أولئك الذين عاد اللون الى وجوههم ، لم يستعيدوا بعد القدرة على الكلام ، بينما كان أولئك الذين استعادوا القدرة على الكلام قد غاض اللون من وجوههم . وكان السؤال الوحيد الذي لم يستطع أحد الاجابة عنه هو أين ومتى اختفى السيد الرئيس .

وعلى الأرض ، تحت سلم صغير ، كان يرقد قارع الطبول الأول في الفرقة الموسيقية العسكرية . كان قد سقط من على السلم هو وطبلته ، مما سبب كل ذلك الفزع والهلع !

الأعمام والعَمَمَات

خرج المحبوب من القصر الجمهوري بين قاضي القضاة ، وهو شيخ ضئيل الحجم يبدو في قبعته العالية ومعطفه «الفراك» أشبه بالجرذان التي تظهر في رسوم الأطفال ، وبين نائب من نواب الشعب ، وهو رجل بالغ الهزال والشحوب كأنه أحد تمثيلات القديسين العتيقة . وكانا يتناقشان في جدية بالغة فيما إذا كان «الفران هوتيل» أم تخان قريب هو الأفضل لغسل الخوف الذي أصيب به من جراء حادثة ذلك الطَبَّال الأخرق ، الذي نقلوه على التوالى الخدمة العاملة ، إلى الجحيم ، أو إلى عقاب أسوأ من ذلك ، دون أي وازع من ضمير . وحين دافع عضو البرلمان عن فكرة الذهاب إلى «الفران هوتيل» ، بدا كما لو يضع قواعد الزامية بشأن أفضل مكان أرستقراطي يمكن اللعب فيه من بنت الحان ، وهو نشاط يجد قبولاً واسعاً وانتشاراً متزايداً بين موظفي الدولة . أما القاضي فقد تكلم كأنما هو يصدر حكماً : «إن الامتياز الحقيقي يوجد دائماً حيث لا يكون هناك ما يدل على ذلك الامتياز في الظاهر ، وهذا هو السبب ، يا صديقي العزيز ، في أنني أفضل الحان المتواضع حيث المرء على سجيته وسط أصدقاء ، على الفندق الفخم حيث لا يكون كل ما يلتمع ذهباً» .

وتركها ذو الوجه الملائكي وهما لا يزالان يتجادلان عند ناصية القصر - فمن الأفضل نفخ اليد من مناقشة بين مثل هاتين الحجتين - وانجه إلى حي «انسيسو» بحثاً عن منزل خوان «كاناليس» ، شقيق الجنرال كاناليس . كانت الحاجة ماسة إلى أن يبعث هذا العم لاحضار ابنه شقيقه من حانة «الخطوتان» . قال في نفسه : «ماذا يعني سواء ذهب بنفسه أو بعث أحداً لاحضارها إليه ، ما دامت لن تصيح تحت مسؤوليتي ؟ ما دامت لن توجد بعد في خاطري كما كان الحال أمس

حين لم تكن شيئاً بالمرّة بالنسبة لي « وتنحى له اثنان أو ثلاثة من المارة عن الطريق في احترام تاركين له المطوار الى الطريق ، وشكرهم دون أن يتبين من كانوا .

كان السيد « خوان » ، شقيق الجنرال كاناليس ، يقطن حي « إنسيو » في منزل قريب من « المُعْمَلَة » ، كما كانت تسمى دار سك النقود ، وهي بالنسبة مبنى ذو كابة مشقبة . كانت ثمة دعائم خشبية تدعم الجدران المائلة ، ومن خلال القضبان الحديدية على النوافذ ، يمكن للمرء أن يلمح حجرات كأكفاس الحيوانات المتوحشة . هنا كانت ترقد ملايين الشياطين في الحفظ والصون .

وحين طرق المحبوب باب المنزل أجيب بنباح كلب . وكان واضحاً من الطريقة المحمومة التي كان الكلب ينبح بها أنه كان مفيداً .

ودخل ذو الوجه الاملائكي من الباب وقبته العالية في يده (كان جيلاً وماكراً كالشيطان) . كان يشعر بالسرور من وجوده في المنزل الذي ستذهب إليه ابنة الجنرال ، ولكن صرف انتباهه عن ذلك نباح الكلب ، والدعوة المتكررة الى « الدخول » ، من رجل متورد الوجه ، باسم ، بطين ، لم يكن سوى السيد « خوان كاناليس » نفسه .

« ادخل من فضلك ، ادخل . من هنا ، لو سمحت . وما هو يا ترى سبب تشریفنا بزيارتكم الكريمة ؟ »

نطق السيد خوان كل هذه العبارات على نحو آلي ، في رنة صوت بعيدة تماماً عن الإعراب عن الإضطراب الذي شعر به في حضرة هذا التابع الجليل للسيد الرئيس .

وتطلع ذو الوجه الملائكي حوله في الحجرة . يا للتناح الذي يستقبل به الزوار هذا الكلب الشرير ! ولاحظ وجود مجموعة من الصور لآل كاناليس معلقة على الحائط ، وأن صورة الجنرال قد أزيلت . وعكست مرآة في الطرف الآخر للحجرة المكان الذي كانت الصورة معلقة فيه ، وجزءاً آخر من الحجرة غطي بورق حائط أصفر ، لون البرقيات .

وبينما السيد « خوان » يستهلك كل ما لديه من عبارات الترحيب المؤدية ، جال في خاطر ذي الوجه الملائكي أن الكلب لا يزال هو حامي المنزل كما في

الازمان البدائية . حامي حمى القبيلة . حتى السيد الرئيس عنده مجموعة من الكلاب المستوردة .

كان رب المنزل يُرى في المرأة يتكلم بحركات إيمائية بائسة . وشعر السيد «خوان» بعد أن استنفذ كل ما لديه من عبارات التكريم أنه كالسباح الذي قفز إلى المياه العميقة .

كان يقول : « هنا ، في بيتي ، شعرنا - زوجتي وخادمكم المطيع - بالسخط العميق لسلوك أخي «ليوسيو» . أي عمل هذا ؟ الجريمة دائماً مقبلة ، وهي تزداد مقنا في أحوال كهذه ، حين تكون الضحية جديرة بكل احترام وإجلال ، رجل هو فخر جيشنا ، وفوق كل شيء ، كما أقول ، صديق للسيد الرئيس ! » .

ولزم ذو الوجه الملائكي الصمت الرهيب لأمري ، برقب شخصاً يفرق وهو يملك وسائل إنقاذه ، صمت لا مثيل له غير صمت الزوار الذين لا يملكون القدرة على تأكيد ما يقال أو تفنيده .

ولما وجد السيد خوان أن عباراته لا تجد صدى في أذن محدثه ، فقد أعصابه كلياً وبدأ يضرب الهواء بيديه ويبحث عن أرض صلبة لقدميه . وكان رأسه يغلي . كان يعتقد أنه متورط في جريمة القتل التي وقعت في «رؤاى الرب» وفي كل ما تفرع منها من تفرعات سياسية بعيدة المدى . أما كونه بريئاً منها بالفعل فلم يكن له أية أهمية . إن كل شيء بالغ التعقيد ، بالغ التعقيد والتشابك ، إن الأمر كاليانصيب يا صديقي ، كاليانصيب . كانت تلك العبارة التي تصف حالة الأمور في البلد ، فقد تعود أن يصبح بها العم «فوخنسيو» ، وهو شيخ طيب يبيع أوراق اليانصيب في الشوارع ، وكاثوليكي أصيل يعتني أشد العناية بتجارته . وبدأ «خوان كاتاليس» أنه لا يرى أمامه ذا الوجه الملائكي وإنما هيكل العم «فوخنسيو» الجانبي ، الذي كانت عظامه وفكاه وأصابه تبدو كأنها قد وصلت فيما بينها بأسلاك عصبية . كان العم «فوخنسيو» يحمل حافظة أوراق اليانصيب الجلدية السوداء تحت إبطه ، ثم يُسوي تجاعيد وجهه ، ويتفحص حجر بنطالته المتدلي ، ويمد عنقه ، ويقول بصوت يخرج في آن واحد من أنفه ومن فمه الحالي من الأسنان : «اليانصيب هو القانون الوحيد على هذه الأرض يا صديقي أ اليانصيب بإمكانه أن يرسل بك إلى السجن ، أو يجعلهم يعلمونك ربما

بالرصاص ، أو يعملك نائباً في البرلمان ، أو دبلوماسياً ، أو رئيساً للجمهورية ، أو جنرالاً ، أو وزيراً ! ما فائدة العسل ، إذا كان يمكن الحصول على كل هذا عن طريق البانصيب؟ إن الحياة يانصيب يا صديقي ، ولذلك تعال واشتر ورقة يانصيب ! » . وعند ذلك ، كان كل ذلك الهيكل المعقود ، ذلك الجذع المشوي المغضن ، يستر بالضحك الذي ينبجس من فمه كأنه قائمة بأرقام البانصيب الرابعة .

وجلس ذو الوجه الملائكي في « كاناليس » بصمت ، يسائل نفسه سؤالاً مختلفاً تماماً : « كيف يكون لمل هذا الرجل الجبان الكره أية صلة بكيملة ؟ »

واستطرد « خوان كاناليس » قائلاً وهو يخرج منديلاً من جيبه بصعوبة بالغة ويخفف به قطرات العرق الكثيفة التي تدرجت على جبهته :

- « لقد أشيع ، لقد قالوا ذلك لزوجتي على أية حال ، إنهم يريدون توريطي في جريمة مقتل الكولونيل « باراليس سونرينتي » ! » .
فقال الرجل الآخر باقتضاب : « لا علم لي بذلك » .

- إن ذلك ظلم . وكما سبق أن قلت منذ لحظة ، لقد عارضت أنا وزوجتي سلوك أخي « إيبوسيو » منذ البداية . وإلى جانب هذا ، لا أدري ما إذا كنت تعلم ذلك أم لا ، فاني لم أكن أقابل أخي مؤخرًا إلا نادراً . يكاد يكون ولا مرة . ولا مرة في الواقع . كنا نتقابل كأننا غريبان . « صباح الخير ، صباح الخير ، مساء الخير ، مساء الخير » هذا هو كل شيء ، مع السلامة ، مع السلامة ، هذا هو كل شيء » .

كان صوت السيد « خوان » مهتزا . وراة زوجته ، التي كانت تتابع الزيارة من وراء ستار ، أن الوقت قد حان لأن تنهض لمساعدة زوجها .

وهفت وهي تدخل وتومئ برأسها مع ابتسامة مؤدبة لذي الوجه الملائكي :
« هلا قدمتي للسيد « ياخوان ؟ » فقال زوجها الذاهل : أجل ، بالطبع . إسمح لي بأن أقدم زوجتي إليك » .

- « جوديث دي كاناليس » .

وسمع ذو الوجه الملائكي اسم زوجة السيد « خوان » ، بيد أنه لا يذكر أنه

قد نطق اسمه هو .

وخلال تلك الزيارة التي كانت تتناول دون داعٍ ، كانت أي عبارات لا تتعلق بكميلة لا تجد أذنًا صاغية لدى ذي الوجه الملائكي ، وذلك من جراء تلك القوة الغامضة التي بدأت تؤثر في فؤاده وتشيع الاضطراب في وجوده ذاته .

وتعجب في سريره : « ولكن ، لماذا لا يتحدث هؤلاء القوم عن ابنة أخيهيم ؟ لو أنهم تحدثوا عنها لأصغيت اليهم بكل جوارحي ، لو أنهم تحدثوا عنها لقلقت لهم إنه لا داعي لأن يشعروا بأي قلق ، وأن السيد « خوان » لا يمكن أن يورط في أي جريمة . أه لو أنهم يتحدثون عنها ! أي أحق أنا ... عن كميلة ؟ التي أود أن تكون على ما هي عليه وأن تبقى مع هؤلاء القوم وألا أفكر فيها بعد ذلك ؟ ولكن ، أي أحق أنا ، انها هي وقومها ، وأنا بعيد عنهم ، بعيد عنهم ! أميلاً كثيرة ، هي وأنا لا ... »

وجلست السيدة جوديث على الأريكة ورفعت إلى أنفها منديلًا من الدنلاكيا تخفي أرنباكها .

- كنتما تقولان ... أخشى أن أكون قد قطعت حديثكما ... أسفة ...

- إن ...

...

- لو ...

كان الثلاثة قد بدأوا يتحدثون في نفس الوقت ، وبعد كثير من عبارات « تفضل » ، نسلم السيد خوان دقة الحديث ، لا يعرف لماذا . وكانت عينا زوجته تقول له « أيها الأحق » ، لأنه لم يترك لصيفها الكلمة .

- إنني كنت أقول لصديقنا إننا - أنت وأن - قد غضبنا حين أخبرونا ، على نحو سري ، أن أخي « إيوسيبو » هو أحد المتهمين بقتل الكولونيل « باراليس » سونرينتي .

فوافقه السيدة جوديث « ثائلة وهي تدفع صدرها العظيم إلى الأمام : « أه ، أجل ، أجل ، حقا ! لقد قلنا - « خوان » وأنا - أنه لم يكن خليفًا بأخ

زوجي أن يدنس جلته العسكرية بمثل هذا العمل الحمجي ؛ والأسوأ من ذلك ،
أن الناس يريدون أن يورطوا زوجي ! »

- « كنت أيضاً أشرح للسيد «ميجيل» أنني قد ابتعدت أنا وإخوتي بعضنا عن
بعض منذ فترة طويلة ؛ لم يكن يتحمل منظري ، ولم أكن أحمل رؤيته ! »
فأضافت السيدة « جوديث » وهي تطلق زفرة في الهواء :

- « ليس إلى هذه الدرجة من السوء ، ولكن الأمور العائلية تفضي دائماً إلى
الغضب والشجار » .

فقال ذو الوجه اللاتكي : أعرف ذلك . بيد أن على السيد « خوان » ألا
ينسى أن هناك دائماً وشائج لا انفصام لها بين الأخوة . . .
- ماذا تعني يا سيد « ميجيل » ؟ أنني كنت شريكه ؟
- أرجو أن تعذرا في . . .

فقالت السيدة « جوديث » في عجلة وقد خفضت عينيها إلى الأرض :
- يجب ألا تصدق ذلك . حين تتدخل أمور المال تنقطع كل الوشائج . إنه
لأمر محزن أن يكون الحال كذلك ، ولكن المرء يراه يحدث أمامه كل يوم . المال لا
يحترم وشائج القربى .
- وأرجو أن تعذراني ! لقد قلت الآن أن هناك وشائج لا تنفصم بين الأخوة ،
لأنه على الرغم من الخلافات في الرأي بين السيد « خوان » والجنرال ، فحين رأى
الجنرال أن الخراب قد حل به وتعين عليه أن يرحل عن البلاد قال لي . . .
- إذا كان قد حاول أن يورطني في الجريمة فهو نذل آه ، يا لها من مكيدة .
- ولكنه لم يقل شيئاً من هذا القبيل .
- خوان ، خوان ، دع ضيفنا يتحدث !

- لقد قال لي إنه يعتمد عليكما معاً كيما نرعيا ابنته من بعده ، وطلب مني أن
أذهب وأحدث اليكما كي نأخذاهما لتعيش معكما في هذا المنزل . . . »

وجاء دور ذي الوجه اللاتكي كي يشعر الآن أن عباراته لا تحمد أذنأ

صاغية . كان يبدو عليه وكأنه يتحدث الى قوم لا يفهمون اللغة الاسبانية التي يتحدثون بها : كانت عباراته ترند إليه كما لو كانت تصطدم بمرآة ، لا بصفي لها لا السيد «خوان» الحليق النظيف ولا السيدة «جوديث» القابعة في داخل صدرها الهائل كأنما هي في داخل عربة يد .

« والأمر متروك لكم لتندبروا أفضل ما يمكن عمله من أجل الفتاة » .

وحالما تحقق السيد «خوان» أن ذا الوجه الملائكي لم يحضر كيما يعتقله ، استعاد قدرته الذهنية العادية وقال :

« أجل ، بالطبع ... لا أهرى حقاً ما أقول . الواقع أنك قد فاجأتني ! ليس هناك عمل بالطبع لاحتضارها هنا ، لا يمكن للمرأة أن يلعب بالنار ! انني واثق أن الفتاة الصغيرة ستكون سعيدة هنا ، ولكني وزوجتي لا يمكننا أن نخاطر بفقدان أصدقائنا ، ذلك أنهم سوف يحاسبونا على أننا فتحنا أبواب بيتنا المحترم لابنة أحد أعداء السيد الرئيس . وإلى جانب هذا ، فمن المعروف أن أخي الشهير قد عرض - كيف أعبر عن ذلك ؟ حسناً ، قد عرض ابنته على أحد الأصدقاء الخمسين لرئيس الأمة ، مقابل ...

فتدخلت السيدة «جوديث» قائلة وهي تسقط صدرها المنتفخ في زفرة أخرى : كيما يتفادى الدخول الى السجن ! ولكن ... كيما كان «خوان» يقول ، فهو قد عرض ابنته على صديق للسيد الرئيس ، الذي كان مفروضاً أن يقدمها بدوره الى السيد الرئيس نفسه ، الذي كان من الطبيعي والمنطقي أن يرفض هذا العرض الشائن . وعند ذلك ، رأى أمير الجيش ، كيما أصبحوا يلقبون الجنرال بعد خبطته الشهيرة ، أن لا منجاة له ، وقرر الهرب وترك ابنته لنا . هذه هي الحكاية ! ماذا يمكن للمرأة أن يتوقع من رجل لوث علاقته بالشكوك كالقطاعون ، وجلب العار على اسم العائلة ! لا تتصور أننا لم نعانِ نتيجة هذه المسألة . لقد شئتنا ، كيما يشهد ، على ذلك الله والعذراء ! »

وتبدت لمحة من غضب في أعماق عيني ذي الوجه الملائكي السوداوين .

« إذن ، لا مجال هناك لمزيد من القول ... »

« أنا أسفان لتجشمك عنه الحضور إلينا . لو أنك بعثت برسالة ... »

وأضافت السيدة جوديث : «ولم تكن المسألة مستحيلة تماماً علينا ، لكننا قد قبلنا بسرور من أجلك » .

وخرج ذو الوجه الملائكي دون كلمة أخرى ودون أن ينظر ناحيتها .
ونجح الكلب في سعار وهو يجر سلسلته عبر الأرض من ناحية إلى أخرى إلى أقصى امتداد لها .

وكانت آخر كلمات ذي الوجه الملائكي على الباب الخارجي : سوف أذهب لمقابلة الأخوة الآخرين ؟ .

فسارع السيد خوان يقول : « إن في هذا إضاعة لوقتك . لقد عرف عني طوال فترة إقامتي هنا أنني من المحافظين ، ومع ذلك فإنه لا يمكنني قبولها في بيتي . أما هم فليسير البيون ، أوه ، حسناً ، سيعتقدون أنك قد جنت ، أو أنك تمزح ... »

كان السيد « خوان » يقف على عتبة الباب وهو يقول تلك العبارات ، ثم أغلق الباب في ببطء ، وفرك يديه السمينتين ، معاً ، وتردد برهة ، ثم عاد أدراجه إلى البيت . وأحس برغبة لا تقاوم في أن يلاطف أحداً ، ولكن ليس زوجته ، وذهب لإحضار الكلب الذي كان لا يزال يبتلع .

وصاحت به زوجته من الفناء ، حيث كانت تقلم شجرة الورد بعد أن انحسرت الشمس عنها : « دع الكلب إذا كنت خارجاً » .

- « أجل ، سوف أخرج الآن » .

-- « حسناً ، اسرع ، لأنني ذاهبة إلى الكنيسة لأداء صلاتي اليومية ، وأفضل عدم الخروج إلى الطريق بعد السادسة مساءً » .

في سجن « كاسا نويقا »

في حوالى الساعة الثامنة صباحاً (ما أسعد ما كان الناس عليه في عهد الساعات المائية، حين لم يكن هناك ساعات دقاقة تحب الوقت بالقفزات والارتدادات) سجننا «نينا فيدينا» في زنزانة كالقبر على شكل الجيتار، بعد اتخاذ الاجراءات المعمودة والقيام بتفتيش شامل لكل شيء معها. لقد فشوها من الرأس إلى القدم، أظافرها، ما تحت إبطها، كل شيء، وهي عملية مزعجة للغاية، بل وزادوا التفتيش حدة حين عثروا في ثيابها قميصها على خطاب كتب الجنرال كاناليس بخط يده، وهو الخطاب الذي كانت قد التفتتته من على الأرض في البيت.

وأحست بالتعب من الوقوف في الزنزانة، ولم يكن هناك مكان للمشي ولو خطوتين فقط، فجلست، فالجلوس افضل على كل حال. ولكنها نهضت واقفة بعد برهة. لقد نفذت برودة الأرض الى كفليها وعظام ساقها وإلى يديها وأذنيها، فالجسم البشري حساس تجاه البرودة. وظلت واقفة بعض الوقت، ثم جلست مرة ثانية، ووقفت، وجلست، ووقفت... وهكذا...

وكانت نسمع السجينات الأخريات حين أخرجوهن من زنزانيهن لشم الهواء، يتغنى بأغانٍ غصّة كالخضروات النية، برغم الغليان الذي يشعرون به في الصدور. وكُنّ أحياناً نهمهن بعض هذه الأغاني وهن ناعسات، أغاني ذات رنابة قاسية، توحى بإحساس بالظلم المحتوم، تقطعه فجأة صرخات يأس، وكفر وسباب وشتم...

ومنذ اللحظة الأولى لدخول «نينا فيدينا» السجن، أحست بالخوف من

صوت متناثر النغمات يعيد هذه الأغنية مرارا وتكرارا كأنه يتلو مزمورا :

من سجن « كاسا نويفا »

الى بيوت السمعة السيئة

يا حبيبي الصغير

خطوة واحدة

وما دمنا هنا وحدنا

يا حبيبي الصغير

فلتعتني قبلة .

آه ، أعطني قبلة

يا حبيبي الصغير

لأن ما بين هذا السجن

والبيوت سيئة السمعة

يا حبيبي الصغير

خطوة واحدة

لم يكن البتة الأولان من الأغنية يتمشيان مع بقيتها ، ومع ذلك فإن هذا الأمر بدا كأنما يؤكد العلاقة الوثيقة بين البيوت سيئة السمعة وبين سجن « كاسا نويفا » . كان وزن كلمات الأغنية مكسورا كنها تعبر عن واقع الحال المؤلم ، وهو ما جعل « نينا فيدينا » ترتعد خوفا من أن يغمرها الخوف ، الآن وهي ترتعد ولم يغمر الخوف كيانها كله بعد ، ذلك الخوف الغامض المرعب الذي شعرت به بعد ذلك ، حين تسرب الى عظامها ذلك الصوت الذي يشبه الاسطوانة المشروخة والذي يخفي أكثر الأسرار جرما . كان ظلماً ألا نحمد ما نغفر به سوى تلك الأغنية المريرة . أنهم لو سلخواها حية لما شعرت بعذاب أكثر مما كانت تشعر به الآن من سجنها ، إذ تصغير إلى كلام ربما تعتبره السجينات الأخريات - دون أن يدركن أن فراش العاهرة أشد برودة من السجن - أمهلن الأسمى في الحرية والدفء .

ووجدت راحة في التفكير بانيها . كانت تفكر فيه كيا لو كانت لا تزال تحمله بين أحشائها ، ذلك أن الأمهات لا يشعرن أبدا أن أبناءهن قد تركن بطونهن بالفعل . إن أول شيء ستفعله حين تخرج من السجن هو تعميد إبنها . لقد اتخذت كل الترتيبات . والرداء واللقاع اللذان أهدتهما له الأنسة كميلا رائعا .

وكانت تعزز الاحتفال بهذه المناسبة بتقديم أطباق « الطامال »* والشكولاتة في الإفطار ، وأطباق الأرز على الطريقة «البليسية» والبخنة في الغداء ، ثم ماء القرفة وشراب اللوز والمثلجات وحلوى الرقاق في العشاء . وقد طلبت بالفعل بطاقات الدعوة الصغيرة التي سترسلها لأصدقائها ، من صاحب المطبعة ذي العين الزجاجية . كما أنها تريد استئجار عربتين من محل « شومان » ، تجرهما تلك الجياد الضخمة الفخمة التي تبدو كالفاتورة ، ذات اللجام التلألؤ المعطى بالفضة ، والسائقين الذين يرتدون قبعات طويلة ومعاطف الفراك . وعند ذاك حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها حتى تتجنب مصيرا كمصير ذلك الرجل الذي قال نفسه عشية ليلة عرسه . في مثل هذه الساعة غدا ، ستكونين ملك يميني يا حبيبي الصغيرة ! ثم نكب بأن سقط قالب طوب على رأسه وهو في طريقه الى الكنيسة في اليوم التالي ومات .

وأخذت تفكر ثانية في طفلها ، في استغراق سعيد جعلها لا تلاحظ أنها تحقد دون أن تشعر إلى شبكة من الرسوم الإباحية المحفورة على حائط الزنزانة ، مما جعلها تضطرب من جديد ، رسوم صلبان ، عبارات ، أسماء ، رجال ، تواريخ ، أرقام العلوم السرية ، مختلطة وسط رسوم جنسية من كل حجم ونوع . كانت ثمة كلمة دينية إلى جوار رسم لمضو جنسي ، ورقم ١٣ على رسم شخصيتين هائلتين ، شياطين ذوو أجسام معقوفة كالشمعدانات ، زهور صغيرة لها أصابع بشرية بدلا من الأوراق ، كاريكاتور لقضاة ومحامين ، قوارب صغيرة ، مراس ، شمس ، أسرة أطفال ، شمس ذات شوارب لرجال الشرطة ، أقمار لها وجوه عوانس ، نجوم ثلاثية وخماسية ، ساعات ، صفارات ، فيثارات ذات أجنحة ، سهام ...

وغلبها الفزع فحاولت الهروب من عالم الجنون والضللال هذا ، كيما تسقط في الإباحية فحسب التي تغطي الجدران الأخرى في الزنزانة . وأغلقت عينيهما وقد أخرسها الفزع ، كانت كأمراة بدأت تهوي من على منحدر شاهق ، تنفتح حولها مهاو بدلا من التوافذ ، والسماء تستعرض نجومها كما يسعرض اللذنب انيايه .

وعلى أرض الزنزانة ، كانت ثمة ت. ت. من التمل تحمل صرصارا ميتا .

* الطامال غذاء مكون من اللحم المفروم المبروج بنقع سمبل الأحمر والدرة. يتبع تقديمه في الإفطار في أمريكا الوسطى .

وجال في خاطر « نينيا فيدينا » ، إذ كانت لا تزال تحت تأثير الرسوم الإباحية ، انها تخلق إلى عضو جنسي أنثوي يمرّ شعره إلى فراش الخطيئة .

من سجن كاسا نويفا
إلى بيوت السمعة السيئة
يا حبيبي الصغير . . .

واخذت الأغنية مرة أخرى تحك لحمها الحي برفق بشظايا زجاج صغيرة ،
كأنها هي تزيل تدريجياً تواضعها الأنثوي .

وفي المدينة ، كانت الاحتفالات على شرف السيد الرئيس لا تزال تجري على قدم وساق . وفي الأميات ، كانوا ينصبون شاشة سينا كأنها المشقة في « الميدان الرئيسي » ، يعرضون عليها أجزاء غير واضحة من الأفلام على الجمهور ، الذي كان يشاهدها كأنه يشاهد حكم إعدام لمحاكم التفتيش . وكانت المباني الحكومية الخارقة في الضوء تشمخ تحياء السماء الداكنة ، وثمة سيل من العابرين يلفون أنفسهم كالعمامة حول السور المديب الأطراف الذي يحيط بالحديقة العمومية المستديرة . كانت صفوة المجتمع تتجمع هناك للتنزه حول الحديقة في الأمسيات ، في حين ترقب العامة السينا في صمت ديني تحت النجوم . وكان الشيوخ ، عزاباً وأزواجاً ، مكلسين جنباً إلى جنب كالسردين ، قد أخذوا يتناهبون في ملل ظاهر ، ويرقبون المارة من مقاعدتهم ومنصاتهم المنصوبة في الميدان ، يرسلون بالأطراء لكل فتاة تمر ، وبالتحايا إلى اصدقائهم ومعارفهم . . . ومن آن لأخر ، كان الأغنياء والفقراء على السواء يرفعون أبصارهم إلى السماء : يرقبون صاروخاً ملوناً ينفجر وتتساقط خيوطه على شكل قوس قزح حريري .

إن الليلة الأولى في السجن لشيء رهيب حقاً . يشعر السجين أنه مقطوع عن الحياة في عالم من الكوابيس ، هناك في الظلمات . الجسدان تحنفي ، والسقف يتلاشى ، والأرضية تحتجب عن البصر ، بيد أن ذلك لا يجلب معه إحساساً بالحربة ، وإنما بالموت .

وبدأت « نينيا فيدينا » تلو صلاة سريعة : « أيتها العذراء مريم الرحيمة ، معروف عنك أنك لا تخذلين أي مخلوق يتشد عونك ويتضرع طلباً لمساعدتك ويرجو حمايتك ! ولهذا فاني أعجول إليك عن ثقة ، يا عذراء العذارى ، والفي

بنفسى على قدميك ، أبكي خطابي . لا ترفضى صلواتي ، أيتها العذراء مريم ،
بل انصتي لي بأذن صاغية محبة . آمين . كانت الظلمة تخفها . لم تعد تستطيع
الصلاة بعد . وانزلت الى الأرض ، باسطة ذراعيها اللتين بدتا لها طويلتين جدا ،
طويلتين جدا ، كيما تحتضن الأرضية الباردة ، كل الأرضيات الباردة لجميع
السجناء الذين يضطهدون باسم العدالة ، المحتضرين ، المشردين . . .

وردت الابتهالات باللاتينية :

أورا برو نوبيس *

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

واعتدلت جالسة ببطء . كانت تشعر بالجوع . من سيرضع ابنها ؟
وانجحت الى الباب على يديها وقدميها وظلّت تفرعه عشا .

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

وعلى البعد ، سمعت ساعة تدق الثانية عشرة .

أورا برو نوبيس

أورا برو نوبيس

في العالم الخارجي ، حيث كان ابنها . . .

• من أمك .

أورا برو نوبيس .

وأحصت الدقات الاثني عشرة . واستجمعت قواها للتخيل أنها مطلقة السراح ، ونجت في ذلك . وتصورت نفسها في بيتها وسط حاجاتها وأصدقائها ، وهي تقول « لخوانيتا » : « مع السلامة ، لقد سعدنا برؤيتك » ، وهي تخرج لتصفق منادية « غابرييلينا » ، وهي نمى بالمسوقد ، وهي تنحني للسيد « تيمونيو » . كانت تبدو كأنها ترى حائوتها كما لو كان عضواً حياً ، جزءاً منها ومن الآخرين ...

وفي الحارج ، مضت الاحتفالات قدما ، وشاشة السينما تقوم كالمشقة والناس يسير حول الحديقة كالعيد حول عجلة رفع المياه .

وفتح باب الزنزانه بعد أن يشتت من ذلك . وجعلتها جلبة فتح القفل على الباب تقفل كأنها هي تقف على شفا حفرة من النار . ودخل رجلان يبحثان عنها في الظلام ، ودفعها عبر عمر ضيق مكشوف عصفت به رياح المساء ، وعبر حجرتين مظلمتين الى حجرة أخرى مضاءة بالأنوار . وحين دخلت ، كان المدعي العسكري العام يتحدث مع كاتبه بصوت خفيض . وقالت « نينا فيدينا » في سريرتها : « هذا هو السيد الذي يعزف على الأرغن في عيد عذراء الكرمه ! لقد بدا لي أنني أعرفه حين قبضوا عليّ ، لقد رأيت مراراً في الكنيسة ، لا يمكن أن يكون رجلاً شريراً ! »

وثبت المدعي العام عينيه عليها فترة طويلة ، ثم سألها بعض الأسئلة العامة : اسمها ، عمرها ، حالتها الاجتماعية ، عملها ، عنوانها . وأجابته زوجة « روداس » في صوت ثابت ، ثم أضافت سؤالاً من عندياتها حين فرغ الكاتب من كتابة آخر اجاباتها . وهو سؤال لم يرد عليه أحد لأنه في نفس اللحظة دق جرس الهاتف وسمع صوت أجش لامرأة تقول في صمت الحجرة المجاورة : « أجل ، كيف حالك ؟ انني مسرور لذلك ! لقد أرسلت الى « كاندوتشا » أسألها هذا الصباح ... الفستان ؟ ... الفستان جميل ، أجل ، ان فنته حلوة ... ماذا ... كلا ، كلا ، انه لم يثلوث ... أقول انه لم يثلوث ! ... أجل ، ولكن دون تأخير ... أجل ، أجل ، أجل ... تعالوا دون تأخير ... مع السلامة ... تصبحون على خير مع السلامة ... »

وفي هذه الأثناء كان المدعي العام يرد على سؤال «نيينا فيدينا» في رنة عادية من السخوية القاسية : « لا تقلقي ، إننا هنا لذلك الغرض ، كيما نقول للناس من أمثالك ، ممن لا يعرفون ، أسباب القبض عليهم » .

ثم أردف قائلاً بصوت مختلف ، وعيناه الضفدعيتان تبرزان من محجريهما : «ولكنك لا بد أن تخبريني أولاً ماذا كنت تفعلين في منزل «ابوسيو كاناليس» هذا الصباح » .

- لقد ذهبت - لقد ذهبت لأقابل الجنرال في مهمة ما .

- هل لي أن أسألك ما هي تلك المهمة ؟

- مسألة بسيطة ليس إلا يا سيدي ! مهمة اضطلعت بها ... كي ...
اسمع يا سيدي ، سوف أقول لك كل شيء : لقد ذهبت كي أخبرهم أنهم سيقبضون عليه بتهمة قتل ذلك الكولونيل (لقد نسيت اسمه) الذي لقي مصرعه في رواق الرب .

- تم تسمحين لنفسك بعد هذا ان تسأليني عن سبب وجودك في السجن ؟
هل يبدو لك ذلك شيئاً هيناً ، شيئاً هيناً أينها العاهرة ؟ هل يبدو لك ذلك شيئاً هيناً ، شيئاً هيناً ؟

وكان غضب المدعي العام يزداد مع كل مرة يقول فيها « هينا » .

- على مهلك يا سيدي ، دعني أشرح لك ، على مهلك يا سيدي ، إن الأمر ليس كما تعتقد . إنتظر ، اسمع ، بحق السماء ! حين وصلت الى منزل الجنرال ، لم يكن الجنرال هناك ، إنني لم أره ، إنني لم أر أحداً هناك ، كانوا قد رحلوا جميعاً ، وكان المنزل خالياً ، ما عدا الخادمة التي كانت تجري هنا وهناك .

- وهل يبدو لك ذلك شيئاً هيناً ؟ شيئاً هيناً ، وأي ساعة كنت هناك ؟

- كانت ساعة كنيسة « لامرسيد » تلقى السادسة صباحاً يا سيدي .

- إن ذاكرتك قوية ! وكيف عرفت أنه سيقبض على الجنرال ؟

- أنا ؟

- أجل أنت .

- سمعت ذلك من زوجي

- وما إسم زوجك ؟

- خينارو روداس .

- ومن سمع هو بذلك الأمر ؟ كيف عرف ؟ من أخبره ؟

- أحد أصدقائه يا سيدي ، يدعى لوسيو فاسكيز ، أحد أعضاء الشرطة السرية . هو أخبر زوجي ، وزوجي . . . »

وقاطعها المدعي العام صائحاً : وأنت أخبرت الجنرال ؟

وهزت « نينيا فيدينا » رأسها كذا تقول « ليس صحيحاً ، لا .

- وإلى أين ذهب الجنرال ؟

- ولكن ، بحق السماء ، كيف لي أن أعرف وأنا لم أر الجنرال مطلقاً ؟ ألا تفهم ، إنني لم أره مطلقاً ، لم أره مطلقاً ! ولماذا أكذب ؟ خاصة وأن هذا السيد يكتب كل كلمة أقولها . »

وأشارت الى الكاتب ، الذي حلق فيها بوجهه الشاحب المليء بالنمش ، الذي بدا كورقة نشاف بيضاء عليها بقع حبر كثيرة .

- ليس لك شأن بما يكتب . أجيبني عن سؤالي ! أين ذهب الجنرال ؟

وساد صمت طويل . ثم انفجر صوت المدعي العام بنبرة أحد : أين ذهب الجنرال ؟

- لا أعرف . كيف لي أن أجيب عن هذا ؟ لا أعرف ، انني لم أره على الاطلاق - لم أتحدث اليه . »

- إنك تحفظين إذ تتكررين ذلك ، لأن السلطات تعرف كل شيء . بما في ذلك أنك قد تكلمت مع الجنرال . »

- إنك تجعلني أضحك !

- اسمعي ، ليس في الأمر ما يضحك . ان السلطات تعرف كل شيء . كل شيء ، كل شيء . » وكان يجعل المنضدة تهتز عند كل « كل شيء » . » « إذا كنت لم تري الجنرال ، كيف إذن حصلت على هذا الخطاب ؟ أظن أنه فُسر الى قميصك

من نفسه ؟ »

- إن هذا هو الخطاب الذي عثرت عليه في المنزل . لقد « التقطتها » من على الأرض قبل أن أخرج . ولكن لا فائدة من قبول أي شيء ما دمت لا تصدقني وتعتبرني كاذبة .

ودمدم الكاتب قائلاً : « التقطتها » ! إنها لا تعرف حتى كيف تتحدث بلغة سليمة . يجب أن تقولي « التقطته » .

- اسمعي ، لا تكذبي يا سيدي واعترفي بالحقيقة ، لأن الكذب سوف يجر عليك عقاباً سنذكر بني به طوال حياتك .

- ولكني قلت الحقيقة ، وإذا كنت لا تصدقني فلنأبى لا أستطيع أن أجعلك تنهمني بضربك بالعصا كالأطفال !

- سوف يكلفك هذا غالياً ، سوف تترين ! وشيء آخر : ما شأنك أنت بالجنرال على أية حال ؟ ما علاقتك به ؟ هل أنت أخته أم ماذا ؟ ماذا أخذت منه ؟

- أنا ... من الجنرال ... لا شيء . إنني حتى لم أره سوى مرتين في حياتي . ولكن ما حدث هو أن ابنته قد وعدتني أن تكون إشيئة طفلي يوم تعميده .

- ليس هذا سبباً .

- إنها إشيئة إبني يا سيدي !

فقال الكاتب من الخلف : كلها أكاذيب !

- وإذا كنت قد اضطريت وفقدت أعصابي وهرعت إلى منزل الجنرال فذلك لأن لوسيو أخبر زوجي أن ثمة رجلاً يعتزم اختطاف ابنة الجنرال .

- كفك أكاذيب . أفضل لك أن تفرغي كل ما في صدرك وتقولي لي أين يختفي الجنرال ؛ لأنني أعلم أنك تعرفين ، وأنتك الشخص الوحيد الذي يعرف ، وأنتك سوف تقولين لنا هنا والآن ، تقولين لنا . كفك بكاء وتكلمي ، إنني مصغٍ إليك .

وأضاف في نبرة رقيقة ، كأنما هو نرس الاعتراف :

« إذا أنت قلت لي الآن أين الجنرال - انظري ، اسمعيني : إنني أعلم أنك تعرفين وستقولين لي - إذا أنت قلت لي أين يجتئى الجنرال سوف أفرج عنك ، سوف أطلق سراحك ويمكنك الذهاب الى بيتك مباشرة في سلام . فكيري في ذلك . فكيري في ذلك فحسب ! »

« آه يا سيدي العزيز ، لو كنت أعرف لأخبرتكم . ولكني لا أعرف ، لا أعرف لسوء الحظ . أينها العنزة المقدسة ، ماذا أفعل ؟

« لماذا تنكرين ؟ ألا ترين أنك تضرين نفسك بنفسك ؟

وفي الفترات التي قطعت بين كلام المدعي العام ، كان الكاتب يسلك أستانه .

« حسناً ، إذا كانت لا تجدي معك المعاملة الطيبة ، « إذا كنت مأكرة إلى هذا الحد ، ونطق المدعي العام بهذه العبارة الأخيرة بسرعة ويضيق متزايد كالبركان الذي يوشك على الانفجار » فسنعلمك تعرفين بوسائل أخرى . إنك تدرين أنك قد اقترفت جريمة بالغة ضد أمن الدولة ، وإنك في يد العدالة لمسؤوليتك عن فرار أحد الخونة المتمردين الثائرين القتل أعداء السيد الرئيس . . . وفي هذا الكفاية ، الكفاية تماماً ، الكفاية تماماً ! » .

ولم تعرف السيدة روداس ماذا تفعل . كانت عبارات هذا الرجل الشيطاني تخفي وعيداً ملحقاً مريعاً ، قد يكون الموت ذاته . وإرتعد فكأها ، وأصابها ، وساقاها وحين ترتعد اليذنان تبدوان كما لو كانتا بدون عظام وترتعدان كالقفاز الفارغ . وحين يرتعد الفكأن ومعجز المرء عن الكلام ، يبدو كما لو كان يبرق بالآلام وأشجانه . وحين ترتعد الساقان ، يبدو المرء جالساً في عربة يجرها جوادان مارقان ، كروح ذاهبة إلى الشيطان .

وتضرعت قائلة : سيدي !

« إني لا أمزح ! هيا ، أسرعي الآن . أين الجنرال ؟

وانفتح باب على مبعدة وانبعث منه صراخ طفل . صراخ دافئ ، يائس . . .

وحق قبل أن يقول المدعي العام ذلك ، كانت « نينا فيدينا » قد مدت عنقها تبحث في كل الأنحاء من أين ينبعث ذلك الصراخ .

- « إنه يبكي من حوالى ساعتين ، وعينا تحاولين البحث عنه . . . إنه يبكي من الجوع ، وسوف يموت جوعاً إذا لم تقولي لي عن مكان الجنرال » .

واندفعت نحو الباب ، غير أن ثلاثة رجال أوقفوها ، ثلاثة متوحشين تبدو عليهم الشراسة ، لم يجدوا صعوبة في التغلب على مقاومتها الأنثوية . وتهدل شعرها أثناء نضالها الذي لم يكن ثمة طائل من ورائه ، وخرجت بلوزتها من تحت تنورتها وتهدل قميصها الداخلي . ولكن ماذا يهمها من سقوط ملابسها . وعادت تنزحف على ركبتيها شبه عارية تنضرع إلى المدعي العام أن يتركها ترضع وليدها .

تضرعت قائلة وهي تقبل حذاء المدعي : « بحق عفراء الكرمه يا سيدي ، أجل ، عفراء الكرمه ، دعني أرضع وليدي ، انك ترى أنه لم يعد يقوى على الصراخ ، إنك ترى أنه يموت . يمكنك بعد ذلك أن تقتلني إن شئت » .

- لن تضفك أي عفراء كرمه هنا ! إذا أنت لم تقولي لي أين نجني الجنرال ، ستقين هكذا ، وابنتك ، إلى أن يموت من الصراخ » .

وركعت كالمنجونة أمام الرجال الذين يحرسون الباب . ثم تعاركت معهم . ثم عادت تركع أمام المدعي العام ، وتحاول تقبيل حذائه .
- سيدي ، من أجل ابني !

- حسناً ، من أجل ابنك : أين الجنرال ؟ لا فائدة من أن تركعي وتمثلي عليّ هكذا ، لأنك إن لم تجيبي عن سؤالي لن يكون هناك أي أمل لك أبداً في أن ترضعي طفلك .

وبعد أن قال المدعي العام ذلك ، وقف على قدميه بعد أن تعب من الجلوس . وكان الكاتب لا يزال يسلّك أسنانه ، حاملاً القلم في حالة تأهب لكتابة الاعتراف الذي لن يخرج من بين شفتي الأم النعمة .

- أين الجنرال ؟

واستمر الطفل يبكي ، شاكياً باكياً ، كما تبكي المياه في الميازيب في لبالي الشتاء .

- أين الجنرال ؟

بقيت «نينيا فيدينا» صامئة كالحيوان الجريح ، نعض شفيتها ولا تدري ماذا تفعل .

- أين الجنرال ؟

ومرت خمس ، عشر ، خمس عشرة دقيقة على هذا الحال .

وأخيراً ، مسح المدعي العام فمه بمنديل أسود الحافات وأضاف وعيداً جديداً إلى قائمة أسلحته :

- حسنا ، إذا لم تردني منجملتك تاكلين بعض الجير الحي ونرى ما إذا كان ذلك سيذكرك أين ذهب الجنرال .

- سأفعل كل ما تريد ، ولكن دعني أولاً أدعي أَرْضع طفلي الصغير . لا تكن ظالماً هكذا يا سيدي ، إن الرضيع الصغير لم يرتكب ذنباً . بإمكانك أن تعاقبني أنا كما تشاء .

وجذبها أحد الرجال الذين يحرسون الباب الى الأرض بخشونة ، ووجه إليها آخر « ركلة » طرحتها أرضاً . ومحت الدموع والسخط الذي شعرت به مناظر الجدران والأشياء من ناظرها . ولم تعد تشعر بشيء خلاف صراخ طفلها .

وكانت الساعة الواحدة صباحاً حينما بدأت تنبلع الجير حتى لا يستمروا في ضربها . وكان طفلها يبكي . . .

وكان المدعي العام يردد بين آونة وأخرى :

- أين الجنرال ؟ أين الجنرال ؟

الواحدة صباحاً . . .

الثانية . . .

وأخيراً ، الثالثة . . . ورضيعها يبكي . . .

الثالثة ، حين كان يجب أن تكون الخامسة على الأقل . . . ومتى تأتي الرابعة ؟ ورضيعها يبكي . . .

- أين الجنرال ؟ أين الجنرال ؟

وتأوهت « نينا فيلدينا » من الألم وهي ترفع الحجر وتدحرجه على الجير الحي
كيبا تذروه مسحوقا ، ويداهما مغطيتان بالشفوق العميقة ، تفتح أكثر مع كل حركة
تقوم بها ، وأطراف أصابعها متسلخة ، كلها فروح ، دامية الأظافر . وحين كانت
تتوقف ضازعة بالرحمة لطفلها وليس لآلامها هي ، كانوا يضربونها .

أين الجنرال ، أين الجنرال ؟

لم تكن مصغية لصوت المدعي العام ، فقد كان نواح طفلها ، الذي يحقت
مع مر اللحظات ، بجلا كل أسماعها .

وفي الخامسة إلا ثلثا تركوها ممددة على الأرض وقد أعمي عليها ، كان ثمة
لعاب غطاوي يسيل من شفيتها ، بيضا لبن أشد بياضا من الجير نفسه يسيل من
ثدييها اللذين كانا يسلطان بسياط شبه خفية . ومن أن لآخر كانت ثمة دمعات
مستربة تطفر من عينيها المنتفختين .

وبعد ذلك ، حين كان يطل أول خيط من الفجر ، أعادوها الى زنازتها .
وهناك ، استيقظت فوجدت طفلها بين يديها ، محتضر ، باردا ، دونما حياة ، كأنه
دمية من قش . وانتعش الرضيع شيئا ما حين أحسن بنفسه في حجر أمه ، ولم يضع
وقتا للهجوم على ثدي أمه في نهم ، بيد أنه حين وضع فمه عليه وأحسن بطعم الجير
الحريف ، ترك ثديها وأخذ في الصراخ ، ولم يفلح كل ما فعلته بعد ذلك في إغرائه
بالمودة الى الثدي .

وصرخت وأخذت تقرع الباب والطفل بين ذراعيها ، كان جسده أخذاً في
البرودة ، لا يمكن أن يتركوا طفلا بريئا يموت هكذا . وبدأت ثانية تقرع الباب
وتصرخ .

« آه ، إن ابني يموت ! آه ، إن ابني يموت ! آه ، حياتي ، صغيري ،
حياتي ! نعالوا بحق الله ! افتحوا بحق الله ، افتحوا الباب ! إن ابني يموت ! يا
للعداء المقدسة ، يا للقديس انطونيو المبارك ، يا يسوع القديس كاترين ! » .

وفي الخارج ، كانت الاحتفالات تمضي قدما . كان اليوم الثاني كاليوم
الأول ، بشاشة السينا كالمشقة ، والناس يتجولون حول الحديقة كالعييد حول
عجلة رفع المياه .

أحاييل الغرام

- هل سيأتي أم لا ؟

- سوف يظهر في أي لحظة ، سوف نرين .

- إنه قد تأخر ، ولكن لواق آخر الأمر ، فلا يهم تأخيريه ، اليس كذلك ؟

- إنه سوف يأتي بالتأكيد ، إن ذلك مضمون ضمان أن الآن ليل . ولسوف أقطع أذني إن لم يحضر . لا تعذب نفسك هكذا . . .

- وهل تعتقدين أنه سيحضر لي أخبارا عن والدي ؟ لو وعدني بذلك . . .

- بالطبع ، وهذا يزيدك تأكيدا . . .

- أوه ، إنني أدعو الله ألا تكون أخباراً سيئة ! إنني لا أدري ما أنا فاعلة ، أحس أنني سأجن . . . أريد أن يأتي سريعا حتى أخرج من هذه الشكوك ، وأرجو في نفس الوقت ألا يأتي إذا كان سيحضر لي أخباراً سيئة .

كانت « لامسكواتا » ، صاحبة الحانة ، تصغي من المطبخ الصغير الذي ابتدعت في ركن من الغرفة ، إلى عبارات كميلة التي كانت ترقد على الفراش وتكلم بصوت مرتعش . وكانت هناك شمعة موقدة مثبتة على الأرض أمام صورة العذراء .

- بما أنك تمرين بهذه المرحلة الدقيقة فلا بد أن يأتي ، وبأخبار لا بد أن تملأك سرورا ، وسترين . مستقولين ومن أين لي أن أعلم ؟ لأن هذا هو اختصاصي ، ولا يوجد شيء يتعلق بالقلب والحب لا أعرفه . صحيح أن المرء يجب ألا يحكم بالمظاهر ، ولكن الرجال كلهم سواء . . . كالنحل حول الرحيق . . .

وقطع صوت المفاح كلمات صاحبة الحانة . وراقبتها كميّلة شاردة البال وهي تنفخ في النار بالنفخ .

- إن الحب كالمشروب المثلج يا عزيزي ، إذا شربته ساعة تحضيره شعرت به حلو المذاق وخير الشراب ، يأتي من كل ناحية ، ولا بد من شربه بسرعة وإلا تساقطت قطراته على كل جانب . ولكن ، بعد ذلك ، لا يبقى منه سوى قطعة تلج لا لون لها ولا طعم .

وسمع صوت خطوات في الطريق . ودق قلب كميّلة بعنف لدرجة اضطرت معها أن تضغط بيديها الاثنتين على صدرها . وغَيَّر صوت الخطوات الباب وابتعد بسرعة .

- ظننت أنه هو . . .

- لن يتغيب أكثر من ذلك . . .

- لا بد أنه تأخر لأنه ذهب إلى منزل عمي قبل حضوره . ومن المحتمل أن يحضر معه عمي «خوان» .

- بس ! القطة ! القطة تشرب كوب لبنك ، اطردوها !

والفتت كميّلة نحو القطة ، كانت قد خافت من صيحة صاحبة الحانة ، وكانت تلعق شواربها المغمّسة باللبن إلى جوار الكوب الذي نسيته كميّلة فوق المقعد .

- ما اسم القطة ؟

- بنجي .

- كان لدي قطة اسمها قطر الندى كانت انسى .

وسمع وقع أقدام مرة أخرى . ربما . . .

أجل ، كان ذا الوجه الملائكي .

وبينا كانت «لامسكواتا» ترفع القضيب الحديدي الذي يفتح الباب ، حاولت كميّلة أن نسوي شعرها إلى الخلف قليلا بيديها . كان قلبها يدق بعنف في صدرها ، فعند نهاية هذا اليوم الأبدي ، الذي بدا لها أحيانا بلا نهاية ، كانت

تشعر بالخدر ، والضعف ، والخور ، والانهك ، كالشخص المريض الذي يسمع مهممات من حوله استعداداً لأجراء عملية جراحية له .

قال ذو الوجه الملائكي من عند الباب وهو يزيع جانباً التعبير المتعب الذي كان على وجهه : أخبار طيبة يا أنستي ، كل شيء على ما يرام !

كأنت تنتظره الى جوار الفراش ، وهي تقف وإحدى يديها على رأس السرير ، وعيناها مليتان بالدموع وعليها تعبير بارد . وتناول المحبوب يدها .

- أولاً ، أخبار والدك ، هذا أهم شيء بالنسبة إليك .

ويعد أن قال ذلك ، نظر إلى « لاسكوانا » ، ثم غيّر رأيه دون أن يغيّر نبرة صوته : « ولكن والدك لا يعلم أنك مخبئة هنا . . . »
- وأين هو ؟

- لا بد أن تلزمي الهدوء !

- حسبي أن أطمئن أنه لم يحدث له شيء ، لا احتمال أي شيء .

فقاطعت صاحبة الحانة حديثها بقولها لذي الوجه الملائكي وهي تشير الى مقعد : اجلس .

- شكراً .

- وما أن لديك الكثير مما تقوله للآنسة ، فربما نسمح لي بالخروج بعض الوقت إذا لم تكن تريد شيئاً . أريد أن أذهب لأرى ماذا حدث للويس . لقد خرج هذا الصباح ولم يعد من ساعتها .

وكان المحبوب على وشك أن يطلب من المرأة ألا تتركه وحده مع كميله ، ولكنها كانت قد خرجت بالفعل الى الفناء الصغير المظلم لتغير رداءها ، وكانت كميله تقول :

- « سيكافئك الله على ما فعلته لأجلي يا سيدتي . يا للمسكينة ، انها طيبة جداً . وكل ما تقوله ملل . انها تقول إنك طيب جداً ، وغني جداً ، وساحر ، وانها تعرفك منذ وقت طويل » .

- أحل انها طيبة . ومع ذلك فلم يكن بإمكاننا التحدث صراحة أمامها ومن الأفضل أنها قد خرجت . الشيء الوحيد المعروف عن والدك هو أنه في طريق الفرار ، وإلى أن يعبر الحدود ، لن نستطيع الحصول على أخبار مؤكدة عنه . ولكن أخبريني ، هل قلت أي شيء عن والدك هذه المرأة ؟

- كلا ، لأنني اعتقدت أنها تعرف كل شيء .

- حسنا ، من الأفضل ألا تقولي كلمة واحدة لها .

- وماذا قال عمي وعمتي ؟

- لم أتمكن بعد من الذهاب لمقابلتها لأنني كنت مشغولا باستقصاء الأنباء عن والدك . ولكني أرسلت لها بآتي سأوردها غدا .

- اي أسفة لكل هذه المصائب ، ولكنني على ثقة بأنك ستفهم أنني سأكون أسعد حالاً معها ، خاصة مع عمي « خوان » إنه اشبهني في العماد وكان دائماً أياً ذاتياً بالنسبة لي .

- هل كنتم تتزاورون كثيراً ؟

- كل يوم تقريباً . تقريباً - أجل ، أجل . لأنه إذا لم نذهب نحن الى بيته ، كان هو يأتي لزيارتنا ، إما مع زوجته ، وإما وحده . وهو الأخ الذي كان والدي يحبه أكثر من غيره من أخوته . وكان دائماً يقول لي : « حين أذهب سوف أتركك مع « خوان » يجب أن تذهبي الى بيته وتطيعيه كما لو كان والدك » . وقد تعشنا معاً يوم الأحد الماضي .

- على كل حال ، يجب أن تدركي أنني قد خيأتك هنا حتى اتعاشي أن بضايقت رجال الشرطة ، ولأن هذا المكان كان قريباً من بيتكم .

- وخفقت الشعلة المرهقة للشعلة التي لم ينظفها أحد ، كنظرة شخص يشكو من قصر النظر . وشعر ذو الوجه الملائكي بنفسه ضعيفاً وضئلاً في صوته . وبدت كصيلة أكثر شحوباً ، أكثر وحدة ، وأشد جاذبية أكثر من أي وقت مضى في ردايتها الصغير الأصفر الليموني .

- فيم تفكرين ؟

ورنّ صوته ودوداً مطمئناً .

- في الألام التي لا بد وأن والدي يكابدها ، هارباً عبر أماكن مظلمة مجهولة -
إنني لا أعبر جيداً عن أفكاري - جائعاً متعباً ، عطشاً ، وحيداً لدى أحد يعاونه .
فلتواكب العذراء القدسة خطاه ! لقد أبقيت شمعته مضيئة طوال اليوم .

- لا تفكري في هذه الأشياء ، لا تتوقعي الشر قبل حدوثه . ان ما هو مكتوب
سيحدث . إنك لم تتوقعي أن تعرفيني ، ولا أنا أن أكون بذّي نفع لوالدك .
وتناول إحدى يديها في يده وسمحت له بأن يربت عليها بينما هما واقفان معا
بمدقان إلى صورة العذراء .

وكانت تحول في ذهن المحبوب هذه الأبيات من الشعر :

بوسعك أن تمرّري بسهولة

من ثقب مفتاح باب السماوات
لأن صانع المفاتيح ،

حينما جئت إلى الوجود ،
جَبَلْ صورتك من الثلج
وطبعها على الشهاب البارق .

كانت تلك الفقرة الغنائية تمر عبر ذهنه في تلك اللحظة ، كأنها هي تجسد
الابقاع الذي يربط الآن بين قلبيهما .

- لقد قلت لي إن والدي سيذهب بعيداً ، فعنى متصرف المزيد من الأخبار
عنه ؟

- في الحقيقة ليست لدى أي فكرة ، ولكن لا بد أن نعرف شيئاً بعد أيام .

- بعد أيام كثيرة ؟

- كلا .

- ربما كان لدى عمي « خوان » أخبار عنه ؟

- محتمل جداً .

- انك تبدو عرجا حين أتكلم عن عمي وعمتي .

- ماذا تعين بذلك بحق السماء ؟ كلا ، على الإطلاق . على العكس تماما .
إنني مدرك لولاهما لكانت مسؤوليتي أعظم بكثير . إلى أين أخذك إن لم يكن
إليهما ؟

كانت نبرة صوت ذي الوجه الملائكي تتغير حين يترك خياله العنان في
الحديث عن هرب الجنرال وعن العم والعمة ، الجنرال الذي يخشى أن يعود مكبلا
بالأغلال مخفورا ، أو ياردا كالمرمر على محفة ملطخة بالدماء .

وفتح الباب فجأة . كانت « لامكواتا » ، في حالة من الاضطراب الشديد .
ورنت قضبان الباب على الأرض . وهبت دفقة هواء كادت أن تطفئ الشمعة .

- اعذراني لمقاطعتكما ودخولي فجأة هكذا . لقد قبضوا على « لوسيو » سمعت
لتوي الأبناء من صديقة حين وصلتني هذه الورقة الصغيرة : إنه في السجن . إن
ذلك من فعل « خيثارو روداس » . يا له من رجل ! لقد كنت أشعر بالقلق طوال
المساء . كل دقيقة كان قلبي يندق : يوم يوم يوم يوم . لقد ذهب ذلك
الشخص وقال لهم إنك أنت ولوسيو خطفتها السيدة الصغيرة من منزلها .

ولم يستطع المحبوب أن يفعل أي شيء لتدارك الكارثة . لم يحتج الأمر إلا إلى
كلمات قليلة حتى يقع الانفجار . لقد أطيح به ويكميلة وبقصة حبهما ذات الحظ
العائر في ثانية واحدة ، بل في أقل من الثانية بسبب حديث صاحبة الحانة
الصريح عن اختطافهم لكميلة . وحين بدأ ذو الوجه الملائكي يحيط إدراكاً
بالموقف ، كانت كميلة ترقد وهي تدفن وجهها في الفراش تبكي بلا توقف ،
وكانت صاحبة الحانة لا تزال تصف عملية الاختطاف بالتفصيل ، دون أن
تدرك أي إدراك بأنها تقذف بعالم صغير كامل إلى هوة سحيقة ، أما هو ، فقد
شعر كأنما يدغونه حياً مفتوح العينين .

وبعد أن بكت كميلة وقتاً ، نهضت كمن يمشي في نومه وطلبت من صاحبة
الحانة غطاء . تخرج به .

وقالت وهي تلتفت إلى ذي الوجه الملائكي بعد أن ناولتها المرأة شالا : وإذا
كنت سيذا مهذباً حقاً ، خذني من فضلك إلى منزل عمي « خوان » .

ورغب المحبوب أن يقول ما لا يمكن قوله ، عبارات لا يمكن أن تعبر عنها
الشفاه ، ولكنها تترافق في عيون أولئك الذين أحبط القدر أعز آمالهم .

ونساءل بصوت أجش وبضلع ابتلاعه لعاب القلق :

- أين قبعتي ؟

وعاد وبعته في يده الى داخل الغرفة ليرى مرة أخرى قبل الرحيل المكان الذي
غرقت فيه آماله لنوره .

واعترض قائلاً وهو على وشك الخروج : « ولكنني أخشى أن يكون الوقت قد
فات . . . »

- هذا يمكن أن يكون صحيحاً لو أننا كنا ذاهبين الى منزل أحد الغرباء ،
ولكننا ذاهبون الى منزلي ، ذلك أن منزل أي واحد من أعمامي هو منزلي .

وأوقفها ذو الوجه الملائكي من ذراعها برفق ، وقال لها الحقيقة المؤلمة كأنها
تخرج روحه من صدره :

- يجب عليك ألا تفكري في منزل عمك « خوان » بعد الآن ، إنه لا يريد أن
يسمع أي شيء عنك ، أو عن الجنرال ، فهو متبريء منه كأنه . لقد قال لي ذلك
اليوم .

- ولكنك قلت الآن لنوك إنك لم ترهما ، وإنك قد حددت موعداً للذهاب
اليها فحسب ! ماذا أصدق ؟ هل نسيت ما قلت لي منذ لحظة - وما أنت تقول
أشياء مريبة عن عمي ، وذلك حتى تبقى أسيرة هنا في هذا الخان وتمنع فراوي !
هل تقول إن عمي وعمتي لا يريدان أن يسمعا أي شيء عنا ، وأنهما لا يريدان
استقبالي في منزلهما ؟ حسناً ، لا بد أنك قد جننت . تعال معي هناك وسأثبت لك
العكس !

- إنني لم أجن . لا بد أن تصدقني . إنني أضحي بحياتي حتى أحول دونك
والتعرض للهوان ، وإذا كنت قد كذبت عليك أولاً فذلك لأنني - لا أعرف ، أظن أنني
كذبت رحمة بك ، حتى أوفر عليك الآلام التي تشعرين بها الآن لأطول مدة
ممكنة . وكنت أتوي الذهاب غداً مرة أخرى لأجدد محاولاتي ، عارضاً أسباباً

أخرى ، واسترحمها ألا يتركها في الطريق ، ولكن ذلك مستحيل الآن وأنت مستخرجين . إن هذا مستحيل الآن .

وكانت الطرقات المضاءة بالنور الساطع تبدو أكثر عزلة من أي وقت مضى . وتبعنها صاحبة الحانة إلى الخارج وهي تحمل الشمعة التي كانت مضاءة أمام صورة العذراء ، لنضيء بها أول الطريق . وهبت الريح فأطفأها ، وبدأت الشعلة الصغيرة وكأنها ترسم علامة الصليب قبل أن تموت .

طرقات على الباب

نام - ترام - رام ! نام - ترام - رام !

سرى صوت الطرق على الباب الى المنزل كأنفجار المفرعات ، فأيقظ الكلب الذي بدأ على الفور في النباح باتجاه الطريق . كانت الضوضاء قد أحرقت منامه . واستدارت كميلة لتتظر الى ذي الوجه الملائكي - كانت تشعر هنا على عتبة منزل غمها « حوان » بالامان - وقالت له في زهو :

« إنه ينبغي لأنه لم يتعرف عليّ ! » وصاحت بالكلاب :

« روي ، روي ! » ولكنه استمر في نباحه « روي ، روي ! إنه أنا ، ألا تعرفني يا روي ؟ اذهب واحضرهم ليفتحوا لي الباب » . ثم قالت وهي تلتفت مرة أخرى الى ذي الوجه الملائكي :

« علينا فحسب أن نتظر لحظة » .

« أجل ، أجل . لا تقلقي لذلك ، سوف نتظر » .

كان يتحدث بكلمات متقطعة ، كشيخ فقد كل شيء وأصبح لا يبالي بأي شيء .

« ربما لم يسمعوا ، يجب أن نطرق الباب بصوت أعلى » .

ورفعت مطرقة الباب إلى آخر مداها ثم تركتها تسقط عدة مرات . كانت مطرقة من النحاس على شكل راحة اليد .

« لا بد أن الخدم نائمون ، ورغم ذلك فقد كان لديهم متسع من الوقت لفتح

الباب ! كان والذي بنام بصعوبة ، وهو على حق عندما كان يقول ، بعد ليلة سيئة ، آه لو كان بإمكانى فحسب أن أنام كما بنام الخدم ! .

كان نباح الكلب هو العلامة الوحيدة على الحياة في المنزل . كان نباحه يأتي أحياناً من الردهة ، وأحياناً من الفناء . كان يصرع دون كلل هنا وهناك بينما ضربات المطرقة تنهال كالصخور على السكون المطبق الذي أخذ بخناق كميّة .

قالت دون أن تترك الباب : هذا غريب ! لا شك أنهم نائمون ، سوف أضرب بقوة أشد لأرى ما إذا كان ذلك يوقظهم .

تام - ترام - رام ! تام - ترام - رام !

- الآن سيحضرون . إنهم لم يسمعوا قبل ذلك بالتأكيد .

قال ذو الوجه الملائكي : يبدو أن الجيران هم الذين سيحضرون أولاً !

ذلك أمها رغم عدم تمكنها من الرؤية وسط غبشة الظلام ، قد سمعا صوت ابواب تفتح . - أرجو ألا يكون قد حدث شيء .
- أوه كلا ، اطرقى ، اطرقى ، لا تقلقى .

- فلنتظر برهة لنرى إذا ما كانوا قادمين الآن .

وأخذت كميّة تعدّ في ذهنها لتقتل الوقت : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، إحدى عشر ، اثنا عشر ، ثلاثة عشر ، أربعة عشر ، خمسة عشر ، ستة عشر ، سبعة عشر ، ثمانية عشر ، تسعة عشر ، عشرون ، واحد وعشرون ، اثنان وعشرون ، ثلاثة وعشرون ، أربعة وعشرون ، خمسة وعشرون

- انهم لن يأتوا !

- . . . ستة وعشرون ، سبعة وعشرون ، ثمانية وعشرون ، تسعة وعشرون ، ثلاثون ، واحد وثلاثون ، اثنان وثلاثون ، ثلاثة وثلاثون ، أربعة وثلاثون ، خمسة وثلاثون . . . ، كانت تشعر بالرعب من أن تصل الى خمسين دون

يجب « ... ستة وثلاثون ، سبعة وثلاثون ... سبعة وثلاثون ... ثمانية وثلاثون » .

وفجأة ، ودون أن تشعر بالسبب ، أدركت أن ما قاله ذو الوجه الملائكي عن عمها « خوان » صحيح ، وغلب عليها الحزن والرعب فانطلقت تطرق الباب مرة وأخرى : تام - ترام - رام ! . إن هذا مستحيل . تام - ترام - رام ! تأمترا مرا متأمترا مرا - تأمترا مرا .

وكان الرد كسابقه : نباح الكلب المتواصل . أي ذنب جنته ولا تعرفه حتى لا يفتحوا هذا الباب ؟ وطرفت مرة أخرى . ووضعت أصملا جديدا مع كل طريقة للمطرفة . ماذا سيكون مصيرها لو أنهم تركوها في الشارع ؟ ان مجرد هذه الفكرة تجعل قواها تجور . وطرفت وطرفت . طرفت بعنف ، كما لو كانت تطرق فوق رأس أعدي أعدائها . كانت تشعر بساقيها ثقيلتين ، وطعم المرارة في فمها ، وجفاف في لسانها ، بينما اصطكت اسنانها من الخوف .

وشمّع صرير نافذة تمنع مضئت أنها سمعت أصواتا . وعادت الحياة إلى جسمها كله . أنهم قادمون أخيرا ، حمد الله . إنها ستكون سعيدة أن تترك هذا الرجل الذي تنوّهج عيناه بنيران شيطانية كعيني القط . هذا الشخص الذي تشعر بالنفور منه رغم جماله الملائكي . وخلال هذه البرهة القصيرة ، احتك عالم المنزل بعالم الطريق . الذي يفصل بينهما باب البيت ، كأنها نجمان يجترقان .

إن وجود بيت يسمح للمرء بتناول طعامه في خلوة ، والطعام الذي يؤكل في خلوة لذيق الطعم ، ويعلم الإنسان الحكمة ، بيت يتمتع بأمان لاستمرار القبول الاجتماعي . انه مثل صورة العائلة ، وفيها يرئدي الأب أفضل أربطة عنقه ، وتعرض الأم أغلى جهواهرها ، شعر الأطفال ممشط جيدا بماء الكولونيا الحقيقي . أما الطريق فمن الناحية الأخرى ، فهو عالم غير مستقر ، خطر ، مليء بالمغامرات ، زائف كالمرآة ، وهو الغسلة العامة لجميع ملابس الحي القدرة .

كم من مرات عديدة لعبت على هذه العتبة وهي طفلة ! كم من مرة أيضا ، بينما كان والدها وعمها « خوان » يتحادثان في شؤونها قبل الانصراف ، تلتهت هي بالنظر من مكانها إلى أفاريز أسطح البيوت المجاورة ، مُستغرصة على السهاء الزرقاء كأنها أعمدة فترية مغطاة بالقشور .

- ألم تسمعهم وقد ظهروا من تلك النافذة ؟ أليس ذلك صحيحا ؟ ولهمم لا يفتحون الباب . . . أو أننا قد أخطأنا المنزل . . . سيكون هذا غريباً !

وتركت المطرقة ونزلت من على الانفريز لترى واجهة المنزل . كلا ، لم يخطئنا المنزل . إنه منزل عمها « خوان » . كانت ثمة لوحة نحاسية على الباب مكتوب عليها : « خوان كاناليس ، مهندس معماري » . وتغصن وجهها كالطفلة الصغيرة ثم انفجرت باكياً . وجرت دموعها على خديها كالجياذ العاديات . وفجرت معها من بين ثايا الذهن الداخلية تلك الفكرة السوداء بأن ذا الوجه الملائكي قد صدق القول حين خرجا من حانة « الخطوتان » . ولم تكن رابعة في تصديق ذلك حتى ولو كان صحيحا .

وكانت الشوارع مغلقة بالضباب ، ضباب يعبق بالخضرة الناضرة ويزخراف المنازل بلون أخضر شاحب .

- تعال معي من فضلك لرؤية اعمامي الآخرين . سنذهب أولا لعمي « لويس » ، إذا سمحت .

- كل ما تأمرين به . - إذن هيا بنا . . . إنهم لا يريدوني هنا . وكانت الدموع تمطر من عينيها كالطرر .

وانطلقا . ومع كل خطوة كانت تلتفت وراءها - فلم يكن بمستطاعها أن تقطع الأمل في أن يفتحوا لها الباب في آخر لحظة . وسار ذو الوجه الملائكي في صمت كئيب . إنه سيذهب لمقابلة السيد « خوان كاناليس » مرة أخرى ، فمن غير الممكن التفاوضي عن مثل هذا السلوك . كان نباح الكلب لا يزال يسمع ، ويحسر عن الأذان مع كل خطوة . وسرعان ما غاب هذا العزاء الأخير ، ذلك أن الكلب هو الآخر لم يعد يسمع له صوت . وأمام دار سك النقود ، صادفا ساعي برید مخمورا ، يلقي بالخطابات في الطريق وهو يسير كالماشى في نومه . كان لا يكاد يقوى على الوقوف . وكان بين آونة وأخرى يرفع ذراعيه في الهواء وينفجر في الفوقاة كالدجاجة ، إذ يناضل كيما يخلص أزرار سترته الرسمية من سيل اللعب الذي كان يطفو من فمه . وأخذت كميلة وذو الوجه الملائكي ، مدفوعين بنفس

الفكرة ، في التقاط الخطابات ودسها في حقيبة الرجل المغمور ، محذرينه من عدم
القائها مرة أخرى .

وتتم الرجل في عناية وهو يستند الى جدار دار السك :

- شك ... والكما ، شك ... راجز ... يلا !

وحين عادت جميع الخطابات الى حقيقته ، وابتعدت كميلة وذو الرجه
الملائكي عنه ، سار مرة أخرى ، يغني :

للمصمود الى السماء

يحتاج الأمر

سلما طويلا

وأخر قصير !

ثم بدأ ينشد أغنية أخرى ، بين الغناء والكلام :

إصعدي إصعدي

الى السماء أيتها العذراء

إصعدي إصعدي

ستصعدين الى مملكتك !

- « حين يعطى الشديس » خوان « الاشارة ، لن أكون أنا ، غو ...
غو ... غورسيندو سولارس ، ساعي يريد بعد ذلك ، لن أكون ساعي يريد
بعد ذلك ، لن أكون ساعي يريد بعد ذلك ! » ثم ينشد :

حين أموت من يواريني الثرى

غير الأخوات

راهبات الدير !

- « أوه ، اللعة ، إنك لا نفع فيك ، لا نفع فيك ، لا نفع فيك ! »

وابتعد مترنحا وسط الضباب . كان رجلا ضئيل الحجم ، ذا رأس كبير .

وكانت سترته الرسمية كبيرة عليه ، بينما غطاء رأسه صغير عليها .



وفي تلك الأثناء ، كان السيد « خوان كاناليس » يبذل قصارى جهده للاتصال بأخيه « خوسيه أنطونيو » . كان سترال الهاتف لا يرد ، وبدأ يشعر بالدوار من جليلة السماعة . وأخيراً اجاب عليه صوت كأنه آت من وراء القبر . وطلب ان يتحدث الى منزل السيد « خوسيه أنطونيو كاناليس » ، وبمعكس توقعاته ، سمع على الفور صوت أخيه الأكبر آتياً عبر الخط الهاتفي .

- « أجل ، أجل . أنا خوان حيث أنك لم تعرف صوتي . . حسناً ، اسمع . . . البنت وذلك الشخص ، أجل ، طبعاً طبعاً ، بالتأكيد . . أجل ، أجل . . . ماذا نقول ؟ كلا ! لم نسمح لها بالدخول . تصور ! ولا شك أنها ذهبا مباشرة من هنا الى منزلك . . ماذا ؟ ما هذا ؟ كما توقعت تماماً . إننا كنا نرتجف رعباً الى أن رحلنا . نفس الشيء معك ؟ ان صحة زوجتك لا تحتمل أي ازعاج ، وقد أرادت زوجتي ان تفتح الباب ، ولكني لم ادعها تفعل ذلك . طبعاً طبعاً ! هذا واضح . أجل ، وأيقظا أخي كله ! أجل ، فعلاً . وكان الأمر أسوأ هنا . لا بد أنها كانا غاضبين . وأظن أنها ذهبا بعدك إلى « لويس » كلا ؟ أوه ، حسناً ، سوف يذهبان . . .

وفاجأهما الفجر ، متنجساً في البداية في شحوب طفيف ، متوهجاً بسرعة بعد ذلك الى لون ليموني داكن ، ثم يرتقالي ، ثم الى احمرار النار المضمرة لنومها ممزوجة باصفرار الشعلات الأولى للجهاش . بعد أن كانا عائدتين من اللق بلا فائدة على باب منزل السيد « خوسيه أنطونيو » .

وكانت كميلة تردد عند كل خطوة : - « سوف أتصرف على نحو ما ! »

كانت استناتها تصطك من البرد . وتطلعت عيناها الكبيرتان الدامعتان الى الفجر في مراوة لا واعية . كانت تسير على غير هدى كشخص يتبعه القدر ، لا تشعر بما تفعل .

وكانت الاطيار ترحب بالفجر في الحداثق العامة وفي حدائق الأبنية الصغيرة

وتصاعد « كونشرتو » سماوي من الأنغام الموسيقية في سماء الصباح الزرقاء بينما تفتحت الورود ، وترددت الأجراس الصادرة تقول للرب صباح الخير ، مع الضربات الخفيفة لسواطير الجزارين وهم يقطعون اللحم في حوانيتهم ، وامتزجت الحان الديكة وهي تحسب الوقت برفرفة أجنحتها ، مع أصوات أرغفة الخبز وهي تسقط بخفة في السلال في المخازن ، وأصوات ساهري الليل ووقع أقدامهم مع ضوضاء باب تفتحه عجوز ضئيلة الحجم متوجهة لحضور القداس ، أو خادمة نهرع لشراء الخبز لسيدةا الذي يجب أن يلحق بالقطار في الصباح الباكر .

كان الفجر يطلع . . .

وكانت النور تنشأ فجما بينها على الأشجار ، وتتأرجع بمناكيرها على حافة قطرة . وكانت الكلاب تجري لاهة وراء الكلبات ، وقد توهجت عيونها وتدلّت ألسنتها . ومر كلب يعرج ، ذبله بين قدميه الخلفيتين ، والثفت ليلقي نظرة حزينة خائفة وراءه ، وقد أبان عن أسنانه . وخلقت الكلاب وراءها شلالات من المياه على الجدران والأبواب .

وكان الفجر يطلع . . .

وكانت جماعات الهنود الذين يكنسون الطرقات الرئيسية خلال الليل عاندين الى بيوتهم واحدا بعد الآخر ، كأنهم أشباح ترتدي الثياب الصوفية الخشن ، يضحكون ويتحدثون بلغة بدت كأغنية زيز الحصاد* في صمت الصباح . وكانوا يحملون مقشاتهم تحت أذرعتهم كأنها الشماسي . أسنان بيضاء كمسحوق اللوز في زجوة نحاسية . أقدام عارية . أسمال . وأحيانا كان أحدهم يتوقف عند حافة الطوار ويتمخط بأن يتحني الى الأمام ويعصر أنفه ما بين الإبهام والسبابة وخلعوا جميعا قبعاتهم عندما مروا على باب الكنيسة .

كان الفجر يطلع . . .

أشجار الصنوبر التي لا يصل اليها أحد ، كاستار العنكبوت الخضراء

• نوع من الحشرات الصادرة في حقول امريكا اللاتينية .

المنصورة كذا تصطاد النجوم المذبذبة . جمهرة متوجهة الى القداس المبكر . صفارة
قاطرات قصية .

»

وابتهجت « لامكواتا » لرؤيتها عاندين مرة أخرى . لم تكن قد استطاعت
أن نغمض جفنها طوال الليل من شدة القلق ، وكانت على وشك الخروج متوجهة
الى السجن تحمل الافطار « للويسو فاسكيز » .

وودع ذو الوجه الملائكي « كميلة » التي كانت تبكي مصيبتها التي لا يصدقها
عقل .

- سوف أعود قريباً .

قال لها ذلك دون أن يعرف السبب ، فلم يكن هناك من شيء يفعل بعد
ذلك .

- وعند خروجه ، أحس لأول مرة منذ موت أمه بعيبه مليئين بالدموع .

الحسابات والشيكولاتة

فرغ المدعي العسكري العام من التهام قدح الشيكولاتة بالأرز ، بعد أن أمال القدح مرتين كيما يفرغه حتى الثمالة ، ثم مسح شاربيه الأشهب بردن قميصه ، واقترّب من المصباح ينظر في القدح على ضوئه ليرى ما إذا كان قد فرغ حقا . لم يكن سهلا تبين ما إذا كان هذا الحفوي ، بعد أن خلع عنه بنيتة قميصه المنشأة ، رجلا أم امرأة ، إذ هو يجلس وسط أوراقه الرسمية وكتب القانون المتسخة ، صامتا قبيحا ، قصر النظر ، شرها ، منله مثل شجرة قوامها الأوراق الرسمية المختومة - شجرة تسند غذاؤها من جميع الطبقات الاجتماعية انتهاء ، بأدناها وأشدّها فقرا . وحين انتزع عينيه من قدح الشيكولاتة ، الذي فحّصه بإصبعه ليرى ما إذا كان قد ترك فيه شيئا ، رأى الخادمة تدخل من باب حجرة مكتبه الوحيد ، وهي عجوز ذات مظهر طيفي تجر قدميها في بطء الواحدة بعد الأخرى ، كأنها أحداؤها أكبر من قدمها .

- ولا تقل لي انك قد احتسبت قدح الشيكولاتة بالفعل ؟ -

- أجل ، وليباركك الله عليه ، كم كان لذيذا ! اني احب دائما ان أحسن بآخر قطرات فيه تنساب في حلقى .

فقلت الخادمة وهي تفتش وسط الكتب التي تلقي طلافا على المائدة : وأين وضعت القدح ؟

- هناك ، ألا تراه ؟ -

- على فكرة ، أرجو أن تلقي نظرة على تلك الأدراج المليئة بالأوراق الرسمية المختومة . غدا إن شئت سأذهب الى السوق وأرى اذا ما كان بإمكانى بيعها .

- حسنا ، ولكن حافري ان يعرف أحد ذلك . ان الناس اشرار .

- اني لست بلهاء . هناك ما لا يقل عن اربعمائة ورقة ، مضروبة في ٢٥ مليا ، ومائتين آخرين في ٥٠ مليا . لقد قمت باحصائها هذا الاصيل بينما كانت الكوكة تسخن على النار .

وقطع كلامها دق شديد على الباب الخارجي . وهمهم المدعي العام : يا لها من طريقة لدق الباب . هؤلاء الحمقى !

- اجل . انهم يقرعون الباب دائما هكذا . من يكون هذه المرة ؟ انني دائما اسمعهم حين أكون في المطبخ .

ونظقت هذه العبارة الأخيرة اذ كانت تنجيه بالفعل لتري من بالباب . كانت هذه المخلوقة المسكينة تبدو كالمظلة برأسها الصغير وتورتها الطويلة الماحلة .

وصاح بها المدعي العام : انني لست بالبيت . إنتظري لحظة ، من الأفضل ان تنتظري من النافذة . . .

وبعد عدة لحظات عادت المرأة ، وهي لا تزال تجر قدميها ، وناولته خطابا .
- انهم بانتظار الرد .

وفتح المدعي العام المظروف في حدة ، وتطلع الى البطاقة الصغيرة التي كانت بداخله ، ثم قال في لهجة أرق :
- قولي انني قد تلقيت المذكرة .

ودهبته تخرج قدميها لتقول ذلك للصبي الذي أحضر الخطاب ، وبعد ذلك أغلقت النافذة بإحكام .

ولم تعد إلا بعد وقت ، فقد كانت تتأكد من إغلاق جميع الأبواب . ولم تكن قد أزعجت بعد دوح الشيكولاتة .

وفي تلك الأثناء ، كان سيدها يسترخي في المقعد الوثير ، يعيد بعناية قراءة البطاقة الصغيرة التي نلفهاها التوه ، حتى آخر نقطة فيها . كانت البطاقة مرسلة من أحد زملائه يقدم له فيها عرضاً .

كتب المحامي « فيدالتاس » في بطاقته : « إن كونسيون ذات السن الذهبية ، وهي صديقة للسيد الرئيس وصاحبة محل دعاية مشهور ، قد زارتني هذا الصباح في مكنتي لتخبرني انها قد شاهدت سيدة فتيحة جميلة في سجن « كاسانوفيا » ، وهي تعتقد انها مناسبة للعمل في محلها . وهي تعرض عشرة آلاف بيزو ثمنها لها . ولما كنت أعلم أن السجينة محتجة بناء على أوامر منكم ، فإني أكتب اليكم أسألكم ما اذا كان مناسباً لكم أن تقبلوا هذا المبلغ الصغير وتسلموا المرأة الى عميلتي . - اذا لم تكن في حاجة الى شيء آخر ، فسأري الى فراشي . - كلا ، لا شيء ، طبت مساء .

- طبت مساء . فلتسرح الأرواح في المطير في سلام .

وفي حين ذهبت الخادمة نجر قدميها ، كان المدعي العسكري العام يحسب لمبلغ الذي سيحصل عليه من العملية المقترحة ، رقماً رقماً ، واحد ، وإلى يمينه صفر ، وصفر آخر ، وصفر آخر ، وصفر رابع ، عشرة آلاف بيزو ! وعادت الخادمة العجوز :

- نسيت أن أخبرك أن الأب قد أرسل يخاطبك أن القداس سيقام غدا مبكراً عن الموعد المعتاد .

- آه صحيح ، غدا السبت ! أوقفني حالماً تبدأ الأجراس في القزع . ذلك انني لم أتم في الليلة الماضية وربما لا أستيقظ في الميعاد . - حسناً جداً ، سوف أوقفك .

وبعد أن قالت ذلك ، خرجت ببطء ، وهي نجر قدميها . غير أنها سرعان ما عادت . كانت قد بدأت في خلع ملابسها بالفعل حين تذكرت . قالت لنفسها : لحسن الحظ أنني تذكرت . وجاهدت في ليس حذاءها مرة أخرى . « آه لو كنت قد نسيت . . . » وانتهت الى قولها « حمدا لله أنني قد تذكرت » ، مصحوبة بتهيدة عميقة . وكان كل ذلك الذي جعلها تنهض مرة أخرى من فراشها هو عدم استطاعتها ترك وعاء قدر بحجارة المكب دون أخذه وغسله .

ولم يشعر المدعي العسكري العام بدخول وخروج العجوز مرة أخرى ، إذ كان غارقاً في قراءة آخر أعماله الجليلية : قضية هروب الجنرال « إيسوسيو كاتاليس » . كان هناك أربعة متهمين رئيسيين : « فيدينا دي روداس » و« خينارو روداس » ، و« لوسيو فاسكيز » و . . . ، وبطل لسانه بشفتيه ، إذ كان لديه حساب يريد تصفيته مع الشخص الآخر : ميغيل ذو الوجه الملائكي . وجمال في خاطره أن اختطف ابنة الجنرال هو كالسحابة السوداء التي يطلقها « الجبار » حين تهاجم الحيوانات الأخرى - مجرد حيلة للدفاع السلطاني الساهرة على الأمور . لقد أثبتت رواية « فيدينا روداس » ذلك إثباتاً جازماً . كان المنزل خالياً حين وصلت الى هناك تبحث عن الجنرال في السادسة صباحاً . وكانت روايتها قد وقعت موقعا صادقا لديه منذ البداية . بيد أنه قد حمل عليها كيما يطمئن قلبه : ذلك أن ما قالته يدين ذا الوجه الملائكي ادانة قاطعة . كان المنزل خالياً بالنعل في الساعة السادسة ، وبما أنه يظهر من المعلومات التي أعطتها الشرطة ان الجنرال وصل الى منزله في منتصف الليل تماماً ، وبناء عليه يكون قد هرب في الساعة الثانية صباحاً بسبب كان ذو الوجه الملائكي يتظاهر بأنه يحتطف ابنته .

كم ستكون صدمة السيد الرئيس حين يكتشف أن صفته الخيم قد رتب أمر هروب أعدى أعدائه وأشرف على ذلك الحرب ! ماذا يا ترى سيفعل حين يعرف أن صديق الكولونيل « باراليس سونريتي » الصديق مشترك في هروب أحد قتلته ؟

وعمد إلى قراءة مواد القانون العسكري ، وإعادة قراءتها ، رغم أنه يحفظها عن ظهر قلب ، فيما يختص بالشركاء في الجريمة . ولتعت عيناه الحربائيتين بالسرور إذ وجدتا في كل سطر من هذا المجلد القانوني العبارة المنتضة التالية : « عقوبة الإعدام » أو مرادفها « عقوبة الموت » .

« أه يا سيد ميغيلين ميغيليتو ، ها أنت الآن في قبضي ، وطوال الوقت الذي أريد ! حين أهتني ليلة أمس في القصر الجمهوري لم أكن أتصور أننا سوف نلتقي مرة أخرى سريعاً هكذا ! وأني أعذك بأن دائرة انتقامي سيكون لها آلاف الدورات ! »

وبثلث الأفكار المضطربة بالرغبة في الانتقام ، وبقلبه وقد قد من الصلب

* جيران بحري هلامي يكثر في سحر أمريكا اللاتينية

البارد ، صعد درجات القصر الجمهوري في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي . وكان يحمل معه عريضة الاتهام وإذنا بالقبض على ذي الوجه الملائكي . وقال الرئيس له بعد أن عرض الوقائع عليه :

- « اسمع أيها السيد المدعي العام ، دع هنا عريضة الاتهام هذه . وانصت الى ما سأقوله لك : لا السيدة « دي روداس » و « ميغيل » مذنبان ، اصدر أوامرك بالأفراج عن تلك السيدة والتي بأمر القبض على ميغيل في سلة المهملات . ان المذنبين هم أنتم ، أيها الحمقى ، لمن ولأؤكم وخدمانكم . . . ؟ أي نفع فيكم . . . ؟ لا شيء ، ! كان على الشرطة أن تنهي حياة الجنرال « كاناليس » عند أقل بادرة منه للنهرب . كانت الأوامر هكذا ! ولكن الذي حدث هو أنه لم يكن في إمكان الشرطة رؤية باب مفتوح دون أن تأكلها يدها للسرقة والنهب ! انك تقول ان ذا الوجه الملائكي قد لعب دورا في هروب الجنرال « كاناليس » . إنه لم يكن يدبر هربه ، وإنما لموته . بيد أن رجال الشرطة ما هم إلا حمقى رسميون . . . لك أن تنصرف أما بالنسبة الى الرجلين المتهمين الآخرين فاسكيز ورووداس ، فأوقع بهما ما يستحقان من عقاب ، فهما أقاتان . خاصة فاسكيز ، الذي يعلم عن الأمر اكثر مما هو مسموح له . لك أن تنصرف » .

- ٢٠ -

ذئاب من نفس النوع

لم تكف جميع الذموم التي سحها « خيتارو روداس » لمحو التعبير الذي بدا في عيني الأبله وهو يختصر ، من ذاكرته ، وما هو يفت الآن أمام المدعي العسكري العام مضططاً الرأس ، وقد انطفت فيه آخر دباله من الشجاعة من جراء ما حل بأسرته من مصائب ، ومن جراء حالة القنوط التي تبسط ظلها على من يفقد حريته حتى لو كان أشجع الشجعان . وأصدر المدعي العام أوامره تلك فيرده ، وقال له أن يقترب ، بلهجة من يحاطب خادماً .

وقال له بعد صمت طويل كاد يكون اتهاماً : يا ولدي ، إن أعرف كل شيء ، وما أسألك إلا لكي أسمع من شفيعك كيف مات ذلك الشحاذ في « رواق الرب » .

فسارع « خيتارو » يقول : ما حدث . . . ثم توقف كأنما هو خائف مما سيفعله .

- أجل ، ماذا حدث يا ولدي ؟

- أه يا سيدي ، بحق الإله لا تمسني بسوء ، بحق الرحمة يا سيدي !

- لا تخف يا ولدي ، إن القانون قد يعامل المجرمين الأشرار بقسوة ، ولكن ليس ولداً طيباً مثلك . لا تفلق وقل لي الحق .

- أه ، إني أخاف أن تنزلوا بي سوءاً .

وكان ينلوي بطريقة مسترحمة وهو يتكلم ، كأنما يدافع عن نفسه من خطر يحل في الهواء من حوله

كلا ، كلا ، هيا الآن .

« ما حدث ؟ كانت تلك الليلة - أنت تعرفها - الليلة التي رنبت فيها مضايقة لوسيو فاسكيز » عند الكندرائية وتوجهت الى هناك عن طريق الحظي الصيبي .
كنت يا سيدي أبحث عن عمل وكان لوسيو قد أخبرني أن بوسعه الحصول على وظيفة في الشرطة السرية . نقابلنا كما قلت ، وكانت التحية والسلام والسؤال عن الأحوال ، ثم طلب مني ذلك الرجل أن تناول كأسا في بار يقع على مبعدة خطوات وراء « ميدان السلاح » اسمه « صحوة الاسد » . ولكن الكأس أصبح اثنين وثلاثة وأربعة وخسة ، وباختصار . . . »

فوافق المدعي العام قائلا وهو يلتفت ناحية الكاتب ذي الوجه المليء بالنمش الذي كان يكتب أقوال المتهم : أجل ، أجل ، باختصار .

« حسنا إذن ، كما ترى ، ظهر أنه لم يتمكن من الحصول على تلك الوظيفة في الشرطة . فقلت له إن هذا لا يهم . ثم ، أه ، أجل أني أذكر ، لقد دفع هو نعم المشروبات . وبعد ذلك ، خرجنا نحن الاثنان مرة أخرى إلى « رواق الرب » حيث كان على لوسيو نوبة الحراسة هناك ، كما أخبرني ، إذ كان عليه أن يبحث عن رجل أخرس مصاب بالسعار ويجب قتله . وعلى هذا قلت له : « سأعود الى منزلي » . وحين وصلت الى الرواق ، كنت وراءه بخطوات . وغير الطريق ببطء ، بيد أنه حين وصل إلى مدخل الرواق ، رأيته يخرج ثانية جاريا . وخرجت خلفه ، معتقدا أن ثمة شخصا يطاردنا . وأمسك فاسكيز بشيء إلى جوار الخائط - كان هو ذلك الآخرس ، الذي أخذ في الصراخ كأنما الخائط قد سقط على أم رأسه حين شعر بوقوعه في الأسر . ثم جذب فاسكيز مسدسه ولم يتنطق بكلمة بل أطلق عليه النار ، ومرة أخرى . أه ، كلا يا سيدي . لم أكن أنا الذي قتله . لا أعسوي بسوء ، إني لم أقتله . كنت أبحث فحسب عن وظيفة يا سيدي ، فهل ترى ما حدث من جراء ذلك ؟ كان من الأفضل لي أن أبقي نجارا . ماذا حدث لي كيبأود أن أصبح رجلا شرطة .

ومرة أخرى ، وفعت نظرات المدعي العام الباردة على عيني روداس . ثم ضغط على جرس أمامه ، صامتا ودون أن يغير التعبير المرئسم على وجهه . وسمع صوت وقع أقدام ، وظهر عند الباب عدة حراس يتقدمهم رئيسهم .

- أيها الرئيس ، يجلد هذا الرجل مائتي جلدة .

و قد يتغير صوت المدعي العام أدنى تغيير حين كان يصدر أمره بذلك ، كما لو كان مدير أحد البنوك يصدر تعليماته بصرف مائتي بيزو إلى أحد العملاء .

ولم يفهم هـ روداس « شيئا . ورفع رأسه وتطلع إلى الزبانية الحفاة الذين كانوا في انتظاره . وزادت حيرته حين رأى وجوههم الهادئة الجامدة الخالية من أي تعبير عن الدهشة . وحول الكاتب وجهه الخالي بالشمس وعينيه الجامدتين نحوه . وقال رئيس الحراس شيئا للمدعي العام . وقال المدعي العام شيئا لرئيس الحراس . لم يسمع كلامها ، ولم يفهم ما كان يجري حوله . ولكنه شعر وكأنه على وشك أن يشترق في ملابسه حين صرخ رئيس الحراس فيه بأن يذهب إلى الخجرة المحاورة ، وهي صالة طويلة ذات سقف مغطى ، وأعطاه الكرة وحشبه في صدره حين وصل إلى تناول يده .

وحين دخل السجين الآخر ، « لوسيو فاسكيز » ، الخجرة ، كان المدعي العام لا يزال يتفجر سخطا على روداس :

- لا فائدة من معاملة هذا النوع معاملة حسنة ! إن ما يحتاجون إليه هو العصا ، ثم العصا .

ورغم أن فاسكيز قد شعر أنه في وسط أهله ، إلا أنه لم يكن يثن فيهم بأي حال ، خاصة حين سمع ملاحظة المدعي العام . إن وجود أية علاقة له بهروب الجنرال كانانيس ، حتى ولو ضد رغبته ، مهمة خطيرة للغاية ، وبإلشدد ما كان حقته !

- اسمك ؟

- لوسيو فاسكيز .

- هل ولدت هنا ؟

- هنا .

- في السجن ؟ - كلا ، طبعاً لا . في العاصمة .

- متزوج أو أعزب .

- أعزب طول عمري .

أجب على الأسئلة بلباقة ! المهمة أو الوظيفة ؟

- موظف حكومي .

- هل اعتقلت ؟

- أجل .

- بأي تهمة .

- القتل أثناء الخدمة . - سنك ؟

- ليس بي سن .

- ماذا تعني بالألا سن لك ؟ .

- لا أعرف كم سني . ولكن أكتب خمسا وثلاثين إذا كان لا بد وأن تكون بي

سن ! - ماذا تعرف عن مقتل الأبله ؟

وجه المدعي العسكري العام ذلك السؤال الى السجين في الصميم وهو ينطلق الى عينيه مباشرة ؛ بيد أن كلماته ، على عكس ما كان يتوقع ، لم تخلق أي تأثير على معنويات فاسكينز ، الذي رد بصرة طبيعية وهو يكاد يجلس بالرضا الكامل :

- « إن ما أعرف عن مقتل الأبله هو أنني قتلته بنفسني » . ثم كرر ما قاله

مشيرا بيده الى صدره حتى لا يبقى هناك أي شك في الأمر : « أنا قتلته » .

وزار المدعي العام قائلا : وهل تأخذ هذا الأمر هكذا على محمل المزاح ، أو أنك من الجهل بحيث لا تدرك أن هذا قد يكلفك حياتك ؟

- ربما ...

- ماذا تعني برحما ؟

ومرت برهة على المدعي العام لم يعرف خلالها ماذا يفعل ، فقد أحس بالارتباك من الهدوء الذي يتملك فاسكيز ، ومن صوته المشابه لصوت الجيتار ، وعينيه الحادتين . وانجه الى الكاتب كيما يكسب وقتا .

- اكتب . . . وأضاف في صوت مرتعد :

- اكتب أن لوسيو فاسكيز يقرر أنه قتل الأبلة ، بالاشتراك مع خينارو روداس .

فتتمم الكاتب من بين أسنانه : لقد كتبت ذلك بالفعل .

فقال فاسكيز بهدوء ، برنه صوت فيها شيء من المزاج جعل المدعي العام بعض شفتيه : « إنني أرى أن الأستاذ لا يعرف الكثير عن هذا الأمر . ماذا يعني ذلك القرار ؟ إن أي شخص بإمكانه أن يرى أنني لم ألوث يدي من أجل أبلة سائل اللعاب . . .

- - إحترم المحكمة ، وإلا سأكسر دماغك ! »

* - إن ما أقول في صميم الموضوع . أقول لك إنني لست من الحماسة بحيث أقتل ذلك الأبلة لمجرد القتل . ذلك أنني فعلت ما فعلت بناء على أوامر صريحة من السيد الرئيس . . .

- اخبرس أيها الكاذب . . . ها . . . ستكون مهمتنا سهلة إذا . . .

ولم يكمل عبارته ، لأن حراس السجن دخلوا في تلك اللحظة يجرّون « روداس » وقد تدلت ذراعاه ، وقدماه تكتسان الأرض ، كالخرفه ، أو كوشاح مصارع الثيران .

وسأل المدعي العام الرئيس الذي كان يتسم للكاتب وسوطه معلق حول عنقه كذيل القرد : كم أعطيتهم ؟

- مائتين .

- حسنا . . .

وأسرع الكاتب الى نجدة المدعي العام ، فتمتم وهو يدمج الكلمات في بعضها حتى لا يسمعه الآخرون : يجب إعطاؤه مائتين آخرين .

وعمل المدعي العام بنصيحته : « أجل أيها الرئيس . أعطه مائتين آخرين إلى أن أفرغ من هذا الولد »

وجاك في خاطر فاسكيز : « يا لأعصابه . . . أجل إن هذا ما هو منتظر من شيخ مثله ، وجهه كمقعد الدراجة ! »

وعاد الحراس أدراجهم يمزون حملهم البائس يتبعهم رئيسهم . وألقوا به على حشبة في ركن الحجرة حيث ينفذون العقوبة . وأمسك أربعة منهم بيديه وقدميه ، بينما أخذ الآخرون بضربونه ، ورئيسهم يحسب العدد . وتفلس جسد روداس مع الضربات الأولى ، بيد أنه كان قد فقد قواه الآن ولم يعد يستطيع الجهاد ولا الصراخ من الألم كما فعل حين ضربه في المرة الأولى منذ دقائق . وغلقت فطرات جامدة من دماء الجروح التي خلفتها دورة الضرب الأولى ، بعضا الخيزران الرطبة المرنة ذات اللون الأصفر المخضوضر . وكانت آخر شكواه صرخات مخنوقة كالخبوان الذي يحتضر دون أن يحس بالآلام . ودفن وجهه في الحشبة وقد تقلصت فسمائه وتهوش شعره . واختلطت صرخاته الثاقبة مع لهثات الحراس الذين كان رئيسهم يعاقبهم بسوطه كلما تهاونوا في الضرب .

« إن مهمتنا تكون سهلة يا لوسيو فاسكيز إذا اطلقنا سراح أي مواطن يرتكب جريمة حين يؤكد بأنها بأوامر من السيد الرئيس ! ما هو البرهان ؟ إن السيد الرئيس ليس مجنوناً كئيباً يصدر أمراً كهذا . أين هي الورقة التي يذكر فيها أنه أمرك بفعل ما فعلت ضد هذا البائس يمثل هذه الطريقة المجرمة الجبانة ؟ »

وشحب وجه فاسكيز ، وبينما كان يبحث عن رد ، وضع يديه المرتعشتين في جيبي بظلمة .

« انك تعلم أنه أمام المحاكم يجب أن تدعم أقوالك بالوثائق . وإلا فماذا يكون الوضع ؟ أين هو ذلك الأمر ؟ »

« حسناً ، انظر ، انه ليس معي الآن . لقد أعدته لا بد أن يكون السيد الرئيس على علم بذلك .

ما هذا ؟ ولماذا أعدته ؟

- لأن الأمر كان مذيلاً بعبارة تنص على أنه يجب إعادته بعد التنفيذ ! لم يكن مسموحاً لي بالاحتفاظ به . . . أظن أنك تفهم .

- ولا كلمة . . . ولا كلمة زيادة ! إنك تحاول خداعي بكلامك عن الرئيس . أيها اللص ، إنني لست طفلاً لا أزال في المدرسة حتى أصدق كلاماً فارغاً كهذا أيها السوء ! إن إقرار المسء شيء ، والدليل عليه شيء آخر ، إلا في الحالات التي يحددها قانون العقوبات ، ومنها شهادة رجال الشرطة التي تقوم مقام الدليل القاطع . ولكنني لست بصدد الفاء محاضرة عليك عن قانون العقوبات . هذا يكفي ، يكفي : لقد قلت ما فيه الكفاية . . .

- حسناً ، إذا لم تكن تريد أن تصدقني ، اذهب واسأله ، ربما سصدق ما يقوله لك . ربما لم أكن معك حين اتهم الشحاؤون الأبله . . .

- اخرس ، وإلا أمرت بضربك إيا للمهزلة إذ أتصور نفسي ذاهباً لسؤال السيد الرئيس ! . . . إن ما أقوله لك يا « فاسكيز » إنك تعلم عن الموضوع أكثر مما يحق لك ، وإن رأسك في خطر !

وأخيراً « لوسيو » رأسه كأنما قد قطعتها كلمات المدير العام . وكانت الرياح تترأرأ في غضب على نوافذ الحجر .

حلقة مفرغة

جذب ذو الوجه الملائكي بينفته وربطة عنقه عنه في عنف . وجال في خاطره أنه لا يوجد أسخف من التفسيرات الهينة التي يبتزعها الناس لتبرير أفعال الناس الآخرين . أفعال الآخرين . . . الآخرين . أحياناً لا يرقى انتفاذهم إلى أكثر من المهمة اللاذعة . يخفون ما هو في صالح المرء ويغالون في وصف الباقي . يا لهم من حثالة ! بيد أن الأمر مؤلم كمروور الفرشاة الخشنة على موطن الجرح . كما أن التائب المفتع ، الذي يتكرر في صورة تعليق ودي عادي أو حتى تعليق بمقصد به الاحسان ، يمكن أن يكون جرحه أشد إيلا ما ، تماماً كالفرشاة ذات الشعير الخاد المرهف . وحتى الخدم ! فليذهب كل هؤلاء إلى الجحيم !

وفي جرة واحدة ، انقطعت أضرار القميص كلها دفعة واحدة . لقد شقّه بعنف من الأمام . كان الأمر كما لو كان قد شق صدره . كان خدمه يحكون له بتفصيل شديد ما يقول الناس عن قصّة غرامه . إن الرجال الذين يترددون في الزواج خوفاً من مشاركة امرأة هم في بيتهم نقص عليهم - كالتلميذة المجتهدة يوم الامتحان - ما يقوله الناس عنهم ، وكلها أشياء قبيحة ، ينتهي بهم الأمر إلى سماع هذه الأشياء من فم خدمهم ، كما حدث لذي الوجه الملائكي . وأسدل ستائر غرفته أخيراً دون أن يخلع عنه قميصه . كان في حاجة ماسة إلى النوم ، أو على الأقل أن تبدو غرفته حاجزاً بينه وبين النهار الطالع ، وهو نهار لم يكون أقل سوءاً من سابقه ، كما قال في نفسه بمرارة .

« النوم » ، ردّد ذو الوجه الملائكي هذه الكلمة إذ جلس على حافة سريره ، بفك أزرار بنطاله ، دون حذاء ولا جورب ، وقميصه مفتوح . « أوه ، يا لي من أحق ! إن لم أخلع سترتي بعد ! »

وسار على عقبه وقد قوّس أصابع قدميه حتى يبعد راحة قدميه عن لمس أرض

الحجرة الباردة ، ونجح في تعليق سترته على ظهر المقعد ، ثم عاد الى فراشه قافرا بخفة على قدم واحدة كأنه طائر الكروان . ولكن . . . « طاخ » ! . . . ويقع على الأرض وقد هزمت هذه الأرضية الباردة . ودارت ساقا بنطاله في أضواء كعفري ساعة هائلة الحجم . وبدت الأرض مصنوعة من التلج وليس من الإسمنت . يا نليون ! تلج ممزوج بملح . تلج ممزوج بالدموع . وقفز الى السرير كأنه يقفز من جبل تلجي إلى طوق نجا . كان يري الفرار من كل ما حدث ، وحين سقط على السرير تخيل أنه جزيرة ، جزيرة بيضاء تحيط بها شبه ظلمة ، وأحداث ساكنة مسحوفة . سوف ينسى ، وينام ، ويتوقف عن أن يكون موجوداً . سوف يستريح من تجمع الأسباب وطرحها كأنما هي قطع في مأكينة من الماكينات . فلنذهب قواعد الصواب المتداولة الى الجحيم بكل التواءاتها ! من الأفضل بمراحل النوم المجاني للصواب ، ذلك الخدر اللذيذ ، ذو اللون الأزرق في البداية ، والذي يكون أحضر ثم ينحول بعد ذلك إلى السواد ، والذي يتقطر من العين إلى الكيان كله ، خالعا الانبساط الكامل على المرء . آه ، الرغبة ! إن المرغوب فيه يكون محزرا وغير محرز في نفس الوقت . إنه مثل بئيل من ذهب تكون يدانا بأصابعهما العشرة مضمومة فقصاله . النوم الكامل المريح ، الخالي من المضايقات ، يدخل من مرابا العيون ويخرج من نوافذ الأنف ، كان هذا هو ما يتوفى به ، نوم هنيء كنوم الأيام الخوالي .

وسرعان ما أحس أن النوم يوم عاليا فوقه ، فوق . طمح بيته ، في نور النهار الساطع ، ذلك النهار الذي لا يُنسى . وأدار وجهه . لا فائدة ، واستدار على جانبه الأيسر حتى يهدئ من ضربات قلبه . ثم على جانبه الأيمن . لا فائدة . كانت ثمة مائة ساعة تفصل بينه وبين النوم الهنيء في تلك الأيام حين كان يأوي الى فراشه خاليا من المشاغل العاطفية . واهتمته بغيرته بأنه إنما يعاني من هذه العذابات لأنه لم يغتصب كمية بالقوة . إن المرء يشعر أحيانا بالجانب المعتم للحياء بحوم قريبا منه إلى درجة يبدو الانتحار معها هو الوسيلة الوحيدة للهرب منه . وجمال في خاطره : « سأتوقف عن أن أكون موجوداً » . وارتعش في داخله . وليس إحدى قدميه بالقدم الأخرى . كان يزعجه عدم وجود مسامير في الصليب الذي علّق عليه . وجمال في خاطره : ثمة شيء في مشية السكران يذكّر المرء بالمشوقين . والمشوقون يذكرون المرء بالسكران ، حين يرفسون بأقدامهم

بتطوحون في الهواء . وأشارت غريزته إليه باصبع الانعام . عضو السكر . عضو
المشوق . وأنت ، يا ذا الوجه الملائكي ، لست أفضل منها ! ...
وجال في خاطره : الحيوان لا يخطئ في دفتر حساباته الجنسية . فنحن كأنا
نبون أطفالا يأخذون طريقهم الى المقبرة . ونفـير يوم القيامة . . . حسنا ، لن
يكون نفيرا . سيقوم مفص من الذهب بقطع هذا الخيط الأبدى من الأطفال .
إننا نحن معشر الرجال نشبه أمعاء الخنزير التي يحشوها الخنزير الشيطاني باللحم
المفروم كيما يصنع منها مقائق . وحين سيطرت على طبيعتي حتى أنفذ كمية من
رغبتي فيها ، تركت ورائي جزءاً مني خالياً ، ولذلك فاني أشعر بنفسي خاوياً ،
قلقل ، غاضباً ، مريضاً ، وحبیباً في الفتح . إن المرأة هي اللحم المفروم التي يملأ
بها الرجل نفسه كأعضاء الخنزير حتى يكون راضياً . بأنه من انذاك !
والنصقت به الشرأشف كأنها تنورات . تنورات مبللة بفرق لا بطق

لا بد أن « شجرة الليلة الحزينة » تشمر بالألم في أوراقها . « آه يا دماغني
المسكين ! » ، صوت صلصلة الأجراس السائلة ، « بروغيز » ، مدينة الموز .
شرائط لولبية من الخربير حول عنقه . « أبداً . . . » . ولكن ثمة فوتوغراف في
مكان ما في الجوار . لم أسمعه أبداً . لم أعرف أنه يوجد . أول أبناء عنه . لديهم
كلب في الفناء الخلفي للمنزل . لا بد أن هناك النسين . ولكن هنا لديهم
فوتوغراف . واحد فقط . ما بين تغير الفوتوغراف هنا ، وكلاب الفناء الخلفي
تصغي لصوت سيدها ، يقع منزلي ، رأسي ، نفسي . الجيرة هي أن تكون قريباً
وتكون بعيداً في نفس الوقت . هذا أسوأ ما في الجوار . ولكن بالنسبة إلى هذين
الجارين ، فلديها عمل عليها أن ينجزاه . إنها يديران الفوتوغراف ، ويتكلمان في
حق الجميع . بوسعي أن أتصور ما يقولان عني . يا لها من زوج من الخالة
العفة . بوسعي أن يقول ما يشاءان عني ، فانا لا بهمي شيء . ولكن . . . عما
هي ! لو تأكدت أنها قد قالا كلمة واحدة في حقها فسوف أجعلها عضوين في
« منظمة الشبيبة الحرة » . لقد هدتها مرارا بذلك ولكنني أشعر اليوم أنني سأنفذ
وعيدي حقاً . سوف يملأ ذلك حياتها بالمرارة . ولكن ربما لا أفعل ذلك ، فهنا لا
يتحفظان أصلاً . إن بوسعي أن أسمعهما يقولان في كل الأنحاء : لقد خطف
الفتاة المسكينة بعد منتصف الليل ، وحملها إلى خان تملكه قوادة حيث اغتصبها
هناك ، بينما كانت الشرطة السرية تحرس الباب حتى لا يدخل عليها أحد .

وسوف يتخيلان المشهد وأنا أخلع عنها ملابسها وأمزقها ، وكعيلة كالطائر الذي وقع في الفخ ، يرتجف جسدا وربشا . وسوف يقولان : « ثم اغتصبها بالقوة دون أن يلاطفها ، مغلق العينين كأنها هو يرتكب جرما أو يجمع دواء مرأ » . لو أنها علمت بأن ما حدث كان مختلفاً تماماً عن ذلك التصور ، وأني هنا شبه نادم على تصرفي كمجتلمان ! لو أنها أدركت أن كل ما يقولان خاطئ . إنها في الحقيقة برغبان في تخيل الفتاة ليس إلا . تخيلها معي ، معي ومعها . هما مجردتاها من ثيابها ، هما يقومان بما يتصوران أنني فمت به ! . إنه الشيء الحرة « لا تليق بمثل هذين المخلوقين . علي أن أدبر خفا شيئاً أسوأ من ذلك . إن العقاب الأمثل - بما أنها عازبان - أجل إنها حقاً أعزبان عربتان - هو تكيلها بزواج من أولئك النسوة ، أولئك النسوة . إن أعرف امرأتين ممن يحمن حول السيد الرئيس . فلتكونا هما إذن . هما . ولكن إحداهما حامل . لا يهم . بل أفضل إذا أمر الرئيس بعقد زواج فلا طائل من وراء الاحتجاج بأن العروس حامل . لذا فليتزوجا منها بدافع الخوف ، فليتزوجا . . . » .

وقوس نفسه في الفراش واضعاً ذراعيه بين ساقيه ، وودفن رأسه في الوسائد . باحثاً عن استراحة من لمحات أفكاره المؤلمة . وكانت في انتظاره صدمات جسمانية في صورة الأركان الباردة من الفراش ، مما أعطاه راحة مؤقتة من جنوح تفكيره الطائش . وفي النهاية ، سعى إلى تلك الاحساسات التي يرحب بها رغم إيلاهاها بأن مد ساقيه خارج الشرشف إلى أن لسا العمود المعدني في نهاية السرير . ثم فتح عينيه بالتدريج . وبدأ حين فعل ذلك أنه يقطع خطوط جفبه الدقيقة غاية الدقة . وأحس بنفسه عديم الوزن كالظلال ، وبمظامه هشة رخوة ، وضلوعه ترقق حتى تصبح غضاريف ورأسه يتحول الى عجينة طرية . . . وكانت ثمة يد من القطن والصوف تتخذ هيئة المقرعة في الغبسة السائدة . . . يد صوفية قطعية لأحد السائرين في نومهم . . . إن المنزل مصنوع من المقارع . . . والمدن غابات من أشجار المقارع . . . وراحت أوراق الصوت تسقط بيننا هي تضرع الباب . . . وبقي جذع شجرة الباب سليم بعد أن سقطت عنه أوراق الصوت . . . ولم يكن أمامها ما تفعله سوى أن تضرع الباب . . . ولم يكن أمامهم مفر من أن يفتحوا . . . ولكنهم لم يفتحوا . كان يمكن أن تكسر الباب بقرعها عليه . . . فربعه وراء قرعة ، كان يمكن أن تكسر الباب : قرعة وراء قرعة . . . ثم لا

شيء ، كان يمكن أن نكسر الباب . . . من بآليات ؟ ماذا ؟

- إنه إعلان وفاة أحضروه لتوهم .

- أجل ، ولكن لا تذهب به إليه لأنه لا بد نائم ضعه هنا على المكتب .

« توفي الليلة الماضية السيد خواكين سيرون ، بعد أن تناول السر المقدس الأخير . ومن دواعي حزن حرمه وأولاده وأقاربه الآخرين أن يبلغوكم بهذا النبأ ، راجين منكم الترحم عليه والتفضل بحضور الجنازة في المقبرة العامة اليوم الساعة الرابعة مساءً وسيجتمع المعزون أمام باب المقبرة ؟ وعنوان منزل الفقيد : شارع كاروسيرو » .

كان ذو الوجه الملائكي قد استمع رغماً عنه لصوت أحد خدمه يقرأ إعلان وفاة السيد خواكين سيرون بصوت عالٍ .

وخلص إحدى ذراعيه من الشراشف وثناها تحت رأسه . كان السيد « خوان كاتاليس » يسير عبر دماغه مرتدياً ريشاً . كان قد انتزع أربعة قلوب مصنوعة من الخشب وأربعة قلوب مقدسة وصنع منها صاجات يثق عليها . وكان بوسعه أن يشمر في قذاله بالسيدة «جوديث» ، بتدبيرها الهائلين سجينة الكورسيه المصنوع من خيوط المعدن والرمال ، وشعرها المصفف على الطريقة « اليومية » ومشط فخم في وسطه جعلها تبدو كالتنين . وأحس بتقلص عنيف في ذراعه الذي استخدمه وسادة تحت رأسه ، ومذة في حذره ، كأنه ثوب فيه عقرب يسعى . . . في حذر . . .

كان ثمة أسانسير مليء بالنمل يصعد نجاه كتفه ، وأسانسير مليء بنمل مغناطيسي يبط نجاه مرفقه . ومضى التقلص عبر أنبوب مقدم ذراعه واختفى وسط الظلال . وكانت يده نافرة مياه - نافورة ذات أصابع مزدوجة . وشعر بعشرة آلاف ظفر حتى أخمص قدميه .

« يا للفنأة الصغيرة المسكينة ، تفرع وتفرع ثم لا شيء . . . إنهم منوحشون ، بغال عبيدة . سوف أبصق في وجوههم لو فتحوا الباب . بالتأكيد ، كما أن ثلاثة واثنين خمسة . . . وخمسة عشرة . . . وتسعة تسع عشرة ، سوف أبصق في وجوههم . كانت تفرع الباب في انشراح أول الأمر ، ولكن في النهاية

بدت وكأنها تحفر في الصخر . لم تكن تفرع الباب ، بل تحفر قبرها بنفسها . يا لها من صحوة مريرة ! سوف أذهب لرؤيتها غدا إن استطعت . بحجة أنني أحمل لها أخبارا عن والدها . آه ، لو كان بإمكانني فحسب أن أحصل على أخبار عنه اليوم . بوسعي . . رغم أنها قد لا تصدق ما أقول . . . »

« إنني أصدق ما تقول ! إنني مفتتحة ، مفتتحة تماما إن أعصابي قد تنكروا لوالدي وقالوا لك إنهم لا يريدون رؤيتي في منزلهم مرة أخرى » .

كان هذا يحول في خاطر كميعة إذ هي ترقد في سرير « لامسكواتا » والألم يختصر ظهرها ، يبسا الناس في الحانة ، التي يفصلها عن حجرة النوم حاجز من الألواح القديمة والمشمع والحرق البالية ، يعلقون على أحداث اليوم : هروب الجنرال ، واختطاف ابنته ، وأنشطة المحبوب . وتظاهرت صاحبة الحانة بعدم سماع أي شيء . يقولونه ، بيد أنها حرصت على ألا تفوتها كلمة منه .

وخلعت موجة جديدة مفاجئة من الغثيان بكميعة بعيدا عن هذه العصبية الأثمة . إحساس بالسقوط عموديا وفي صمت . . وبعد تردد ، أنصرخ مع ما في ذلك من تهور ، أو لأنصرخ وربما يغمي عليها تماما ، قررت أن تصرخ طلبا للنعون . وبعد ذلك ، أحاط بها شعور بالبرد ، كأنما من ريش طيور ميتة . وهرعت « لامسكواتا » لتجدتها على الفور . ماذا حدث؟ وحلما رأتها هناك شاحبة اللون كالثلج ، وذراعيها متصلبتين كيد المكنسة ، وفكيها مطبقين ، وعينيها مغلقتين ، أسرعت بأخذ جرعة من البراندي من أقرب زجاجة ، ورشّت بها وجهها . وأفعمها القلق للدرجة لم تسمع معها زبائنها وهم يغادرون الحانة . وتضرعت للعدو . وجميع القديسين ألا تموت الفتاة هنا في منزلها .

« حين الترقينا هذا الصباح ، بكت مما قلته لها . ماذا كان بوسعي أن أفعل ؟ حين يقع شيء كان يبدو مستحيلا ، يبكي المرء إما من السرور أو الأسى . . . »

هكذا كان يحول بخاطر ذي الوجه الملائكي وهو يرقد في الفراش ، نصف

نائم ، نصف مستيقظ ، مستيقظ على لهيب أزرق سماوي . وشيئا فشيئا ، نام
بالفعل ، طافيا تحت أفكاره المضطربة ، دوغا جسدا ، دوغا شكلا ، كنسمة هوا ،
دافئة تهتز من جراء أنفاسه . . .

وبعد هذا السقوط في العدم ، لم يبق له إلا كميالة ، طويلة عذبة ، قاسية ،
كالصليب المنتصب فوق المقابر . . .

واستقبله ملك النوم ، الذي يحيط بحار الحقيقة المظلمة ، في واحدة من سفنه
العديدة . وجرت له أيد خفية بعيدا عن فكّي الأحداث الفاعرين ، بينا الموجات
النهمة تتشاجر بوحشية على مزق ضحاياها .

وتساءل ملك النوم : من هو ؟

وأجاب رجال خفيون : ميغيل ذو الوجه الملائكي .

وامتدت أيديهم كالظلال البيضاء ، وسط الظلال السوداء ، هلامية غير
لموسة .

وتردد ملك النوم قائلا : خذوه الى سفينة . . . سفينة المحيين الذين يشعرون
الشعور بالحب وقتعوا بأن يحبهم الآخرون .

وكان رجال ملك النوم ينقذون الأمر ويحملونه الى تلك السفينة ، وهو يتحرك
فيها فوق ذلك الغشاء من الوهم الذي يغطي أحداث الحياة اليومية بغبار دقيق ،
حين انزعته ضوضاء مفاجئة من قبضتهم كالملحلب . . .

الفراش . . . الخدم . . .

كلا ، الإعلان ، كلا . . . صبي !

وفرك ذو الوجه الملائكي عينيه ورفع رأسه في رعب . وعلى بعد خطوتين من
سريره كان ثمة صبي لاهث الأنفاس لا يستطيع الكلام . وقال أخيرا :

« لقد أرسلتني .. السيدة صاحبة الخانة . . . لأقول لك . . . ان عليك
الذهاب حالا الى هناك . . . لأن الأنسة . . . في حالة خطرة . . . »

ولو كان ذو الوجه الملائكي قد تلقى تلك الأنباء من السيد الرئيس نفسه ، لما ارتدى ملابسه بمثل السرعة التي ارتداها بها . واندفع خارجا الى الطريق واضعا على رأسه أول قبعة رآها على المشجب ، وحذاؤه مفكوك ، وربطة عنقه مهدلة .

وتساءل ملك النوم : « من هي ؟ »

وكان رجاله قد اصطادوا لتوهم وردة ذابلة من مياه الحياة القذرة . فأجابوا :
« كميّلة كاناليس » .

- حينئذ جدا . ضعوها في سفينة المحيين النعساء ، إذ كان لا يزال فيها موضع
للقدم . . .

ورقّ صوت ذو الوجه الملائكي واتخذ رنة أبوية وهو يقول : ماذا تظن بما
دكتور ؟ « كانت كميّلة مريضة للغاية .

- أعتقد أن الحمى ستزداد . . . انها مصابة بالتهاب رئوي . . .

القبر الحي

لم يعد لابنها وجود . . . ورفعت «نينا فيدينا» الجسد إلى وجهها المرتعش بالحمى ، بحركة آلية تماثل حركة من يفقدون عقلهم في خضم فرضي حياتهم المنهارة . لم يكن الجسد يزن أكثر من وزن بذرة جافة . وقبلته . ولاطفته . وركعت فجأة على ركبتيها - وكان ثمة شعاع أصفر شاحب ينساب من تحت الباب - وانحنت بالقرب من الفرجة التي يدخل منها شعاع الفجر الساطع هذا على مستوى الأرض ، حتى ترى ما تبقى من صغيرها على نحو أوضح .

وبدا الوليد كجنين في قماطه وليس طفلا له عدة شهور ، إذ كان وجهه الصغير مغضنا كسطح الندبة ، ودارتان سوداوان تعيطان بعينه ، وشفتاه في لون الجير . وحلته بسرعة بعيدا عن الضوء وضغطت به على ثدييها المتفخخين . واشتكت الى الله في عبارات غير مفهومة مختلطة بالنواح . وكان قلبها يكف عن الدق لحظات ، وتنطلق حزنها في نواح على نواح متممة في لعشة تشبه فواق المحتضر : إيني . . . إب . . . إب . . . إيني !

وتدحرجت الدموع فوق وجهها الخالي من التعبير . وبكت إلى أن كادت تفقد الشعور ، ناسية زوجها الذي توعدوه بالموت جوعا في السجن إذا لم تعترف زوجته ، وناسية آلامها هي الجسمانية ، ويديها وتدييها المضروحة ، وعينيها المحترقتين ، وظهرها المهشم ، وإزاحت جانباً قلبها على عملها الذي لا يوجد من يعنى به ، وسيطرت عليها الدهشة والذهول . وحين جفت دموعها ولم يعد بإمكانها أن تكي بعد ، شعرت أنها قد أصبحت قبرا لابنها ، وأنه قد عاد مرة أخرى داخل بطنها ، وأن سيانه الأخير الذي لا نهاية له هو سياتها هي . وللحظة ، قطع سرور حاد أبدية آلامها : فقد كانت فكرة كونها قبرا لابنها يلسا ملغظاً لقلبها . وشعرت بسعادة النسوة الشرفيات اللاتي يدفن مع أحيائهن . بل وكانت

سعادتها أعظم - فإنها لم تكن لتدفن مع إبنها ، بل إنها هي قبره الحي ، مهله الأخير ، الحجر الأمومي ، وسوف ينتظران معاً ، متحدان ، إلى أن يستدعيها الله إليه . ودون أن تحفف دموعها ، سوت شعرها كأنما هي ذاهبة إلى حفل ، وقبعت في ركن من الزنزانة الحب ، وجثة ابنها لاصقة بشديها وبين ذراعيها وساقها .

والقبور لا تختزن الموت ، لذلك كان عليها أن تمتنع عن تقبيل إبنها ، ولكنها تضغط عليهم بشدة ، بشدة ، كما تفعل هي الآن . انها دروع للقوة والركة ، تغير الموت على تحمل مضايقة الديدان وحرارة التحلل في صمت ودون حراك . اما الشعاع المتماوج الذي يدخل من فرجة عقب الباب فإنه لا يزيد سطوعاً إلا كبل ألف سنة . والظلال ، يطاردها الضوء الطالع ، تزحف ببطء على الجدران كالعقارب . جدران من عظام . . . عظام موشومة برسوم خليعة . وأغلقت نينا فيدينا عينها ، فالقبور مظلمة من الداخل ، ولم تنطق كلمة أو آتينا ، فالقبور صامتة أبداً .

كان الوقت منتصف الظهيرة . رائحة أشجار الصنوبر مغسولة بمياه الأمطار . طيور السنونو . اهلل . كانت الطرق لا تنزال تستحم في ضوء الشمس ويملاها الاطفال المزعجون . وكانت المدارس تفرغ نهراً من الحيات الجديدة الى المدينة . كان بعض الأولاد يلعبون « المسافة » ، عارجين هنا وهناك كالذباب . وتحلق آخرون حول اثنين من رفاقهم كانا يتعاركان كدبكي المصارعة . أنوف دامية ، يكاء ، دموع . وراح البعض يلق على الأبواب ثم يجري مرمياً . وأغار آخرون على محال الحلويات لشراء طوفي العسل ، وفطائر جوز الهند ، والكعك باللوز ، وحلوى المارنغي ، أو هجموا كالفراصة على سلال الفاكهة ، تاركينها كالفوارب الفارغة المفككة . وجاء وراءهم أولئك الذين كانوا مشغولين ببيع الأشياء القديمة أو تبادل طوايح البريد أو بأول محاولاتهم في التدخين .

وتوقفت عربة اجرة امام سجن « كاسانويثا » وأفرغت ثلاث سيدات في زهرة الشباب وسيدة بدينة عجوز . ولم تكن تخطى ، العين معرفة من جث من مظهرهن . كانت الشابات منهن يرتدين ملابس قطنية زاهية اللون ، وجوارب حمراء ، وأحذية صفراء ذات كعوب عالية جداً بصورة مغالى فيها ، وتورت فوق الركبة تظهر أردية داخلية ذات شراريب من الدانتلا الطويلة الفضرة ، وبلوزات

مفتوحة عند السُرة . وكان شعرهن مصففا على الطراز المسمى بطراز لويس الخامس عشر ، ويتكون من كمية كبيرة من اللغات الفارقة في زيت الشعر المربوطة في الجانبين بشرائط أخضر أو أصفر ، وكانت حمرة خدودهن تعيد إلى الأذهان المصابيح الكهربائية الحمراء التي تعلق على أبواب بيوت الدعارة . أما المرأة العجوز التي كانت ترتدي ثوبا أسود عليه شال أرجواني فقد هبطت من العربة متعثرة الخطى ، وهي تمسك الباب بيد سميكة مغطاة بالكثير من الجواهر . وسألت صغرى الفتيات وهي ترفع صوتها لكي تسمعه حتى أحجار الطريق : « سوف تنتظرننا العربية ، اليس كذلك يا سيدة » نشون ؟

فردت العجوز : أجل بالطبع ، يمكن أن تنتظرن هنا .

وتوجهن أربعهن إلى « كاسا نويثا » حيث استقبلتهن البوابة بمظاهر الترحيب والابتهاج .

وكان ثمة أشخاص آخرون ينتظرون في تلك القاعة ذات المظهر القاسي .

وسألت العجوز البوابة : قولي لي يا « شيتا » ، هل السكرتير موجود ؟

- أجل يا سيدة « نشون » ، لقد حضر لتوه .

- إذن قولي له وحياتك انني أريد مقابلته لأنني أحضرت معي امرأ كتابياً له ، في غاية الأهمية بالنسبة لي .

وظلت العجوز صامدة طوال غياب البوابة . كان المكان لا يزال ، بالنسبة لكبار السن من عاصروه ، يحتفظ بجو الأديرة ، ذلك أن المبنى كان ، قبل تحويله إلى سجن للمتحرفين ، سجناً للعشاق . للنساء فقط . وكانت أصوات راهبات « سانت تريزا » العذبة تنساب من جدرانها الضخمة كأنها تحليق حالم . ولم تكن هناك من زناجب نرى ، ولكن الضوء كان أبيض مهددا بهيجا ، واستعير عن الصيام والحش بأشواك جميع ألوان التعذيب التي ازدهرت تحت علامة الصليب وشباك العنكبوت .

وحين عادت البوابة ، ذهبت السيدة « نشون » لتشرح للسكرتير موضوعها . كانت قد رتبت أمورها مع مديرة السجن من قبل ؛ وقد أصدر المدعي العسكري العام أوامره بتسليمها - مقابل عشرة آلاف بيزو ، وهو ما لم يذكره - السجينة

« فيدينا دي روداس » ، التي ستصبح من وقتها نزيلة « النشوة اللذيذة » كما كان مأخوذ السيدة تشون ذات السن الذهبية يدعى .

وتردد صدى قرعتين كالرعد في الزنزانة التي كانت السجينة التبعة لا تزال مغمبة فيها مع ابنها ، بلا حراك ، مغلفة العينين تكاد لا تنفس . ويجد جهد ، تظاهرت بأنها لا تسمع . ثم تصاعد الصرير من المزاليج . وترددت أصداً أزيز متطاوّل من مفضّلات قليلة الاستعمال ، من خلال الصمت ، كأنها العويل . وفتحوا الباب وأمسكوا بها في غلظة . وأغلقت عينيها بقوة حتى لا ترى الضوء ، فالقبور مظلمة في الداخل . وهكذا جروها كالعمياء ، وجسد طفلها الصغير العزيز مضغوط إلى صدرها . لقد بيعت كالحبوان إلى أخط الأعمال .

- إنها تتظاهر بالخرس .

- إنها تغلق عينيها حتى لا تروا .

- انها خجلاّنة ، هذه هي الحقيقة .

- ربما لا تريد أن يوقفوا طفلها .

هكذا كانت تعليقات « تشون » ذات السن الذهبية وفتياتها الثلاث أثناء الرحلة . وقعتت العربية وهي تنطلق على طول الطريق غير المهد ، وصدرت عنها ضوضاء جهنمية . وكان السائق ، وهو إسباني ذو مظهر « كيشوتي » ، السباب لجواديه ، وكانا مخصّمين لحلبة المصارعة ، وكانما هو فارس المصارعة . وجلست « نيبا فيدينا » إلى جواره خلال الرحلة من سجن « كاسا نويفا » إلى بيوت الدعارة (كما في الأغنية) جاهلة تماماً ما يدور حولها ، دون أن تحرك جفنيها أو شففتيها ، بل تقبض على طفلها بكل قوتها .

وبينا كانت السيدة « تشون » تدفع للسائق أجره ، ساعدت الأخريات « فيدينا » على النزول ودفعنها بلطف إلى داخل دار « النشوة اللذيذة » .

وكان هناك بضعة زبائن ، معظمهم من الجنود ، يقضون الليلة في صالون

المأخوذ . وصاحت السيدة تشون بالبارمان عند دخولها : كم الساعة يا أنت ؟

وردد أحد الجنود : السادسة والثلاث يا سيدتي نشون »

« آه ، أنت هنا أيها المشاغب العجوز ؟ إني لم أخط وجودك ! »

وأظهر الجميع اهتماما بالفتاة الجديدة ، وأرادوا أن يمضوا الليلة معها .
وراصلت « فيدينا » بعناد صمتها الشبيه بصمت الفيور ، وجسد طفلها معلق في
ذراعها ، وأبقت عينيها مغلفتين ، وأحسست ببرودة الأحجار ونقلها .

وقالت ذات السن الذهبية لفتياتها الثلاث : هيا ، خذوها الى المطبخ وقولوا
« لمانويلا » أن تعطيهما شيئاً تأكله ، واجعلوها تنزبن بعض الشيء وتعتني بنفسها .

وتوجه ضابط مدفعية ذو عيين زرقاوين شاحيتين الى الفتاة الجديدة يتحسس
ساقها . بيد أن إحدى الفتيات الثلاث حتمها منه . وعندها لفت جندي آخر
ذراعيه حول وسطها كأنما هي جذع نخلة ، واحولّت عينيها وأبان عن أسنانه المتهتدة
الباهرة ، كأنه الكلب الى أوار أنثاه وقت النزو . وبعد ذلك قبلها وهو يحك خديها
التلجحين ، المملوحين من الدموع ، بثفتيه اللتين تنضحان بالبراندني . وكان
ذلك يمثل خير اتحاد بين تكتات الجنود وبين دور الدعارة ، فإن حرارة العاهرات
هي خير تعويض عن برودة ساحة التدريب في التكتات .

وقالت السيدة « نشون » منبهة بذلك هذا المشهد البذي : « والآن ، أنت أيها
المشاغب ، أيها الفاسق ، كف عن هذا ! آه ، حسنا ، سنضطر إلى تقييدك » .

ولم تدافع « فيدينا » عن نفسها ضد هذه الأشياء الشقية، بل اكتفت بأن
تضغط على جفنيها وشفتيها حتى تحفظ ظلامها وسكونها الشبهين بالقر من
الهجوم ، في حين ضمت طفلها الميت اليها بشدة وهددته بين ذراعيها كأنما هو
نائم . وفادوها الى فناء صغير ، حيث كان الأصل يفرق تدريجياً في النافورة .
وترامى صوت تأوهات ، أصوات خفيضة ، همسات مريضات ، تلميذات ،
سجينات أو راهبات ، ضحكات مغنملة ، صرخات قصيرة فظلة ، وخطوات
أقدام لا ترتدي سوى الجورب . وألقى أحدهم أوراق اللعب من باب إحدى
الحجرات ، وسقطت على الأرض على شكل المروحة . ولم يعرف أحد أبهم فعل
ذلك . وأخرجت امرأة ذات شعر منكوش رأسها من فتحة صغيرة ، وحدثت إلى

أوراق اللعب كأنها هي مثل القدر نفسه ، ثم مسحت دمة تساقطت على خدها الشاحب .

« كان ثمة قنديل أحمر معلقاً على الباب الخارجي لدار « النشوة اللذيذة » . كان يبدو كعين حيوان منتفخة ، ويلقي صبغة تراجيدية على الرجال والحجارة . استنخفاء الكاميرات الفوتوغرافية وغرف تجميع الصور . كان الرجال يأتون ليستحموا في ذلك الضوء الأحمر كضحايا الجدري الذين يأملون في علاج نقرحاتهم . وكانوا يعرضون وجوههم للضوء في خجل أن يراهم أحد ، كأنما هم يشربون دماً ، ثم يعودون بعد ذلك لضوء الشارع ، إلى ضوء البلدية الأبيض ، إلى أضواء بيوتهم الصافية ، يحملون معهم إحساساً قلقاً بأنهم قد أفسدوا تجميع الصورة .

كانت « فيدينا » لا تزال غير واعية لما يحدث حولها ، بيد أنه كانت تسبطن عليها فكرة أنه لا وجود لها إلا من أجل طفلها . وأبقت عينيها وشفتيها مزومة أكثر من ذي قبل ، وكان الجسد الصغير لا يزال عالقاً بثنيتها الطافحين . وبذلت ريفقاتها كل ما في وسعهن للخروج بها من هذه الحالة ، حين كن يأخذنها إلى المطبخ .

وكانت « مانويلا كالفاريو » ، الطباخة ، قد توجت منذ سنوات عديدة ملكة على شؤون المطبخ ومشتقاته في دار « النشوة اللذيذة » ، وكانت بمثابة الأب الرحيم دونما لحية وفي تنورة مشاة . وكان فكاً هذه الطباخة المحترمة الهائلة الحجم المترهلان مملوءين بمادة هوائية وجدت متنفساً لها في عبارات حادة وجهتها إلى « فيدينا » حالماً وقع بصرها عليها :

« ها ، عاهرة فاجرة أخرى ، حسناً ، من أين أنت هذه ؟ وما هذا الذي تضمه بشدة إلى صدرها ؟ »

ولم تغرؤ الفتيات الثلاث على الكلام ، رغم أنهن لم يعرفن لذلك سبباً ، وأفهمن الطباخة بالإشارات - مثل وضع اليد فوق أخرى ، علامة القصبان - أنها قد أتت من السجن .

وكانت ملاحظة المرأة بعد ذلك : « كلبة قذرة ! » ثم أضافت حين خرجت الأخيرة : « ينبغي أن أعطيك سباً بدلاً من أن أعطيك طعاماً ! هاك ، خذي

هذا ، وذاك ! » ورجعت اليها عدة صربات بسيف اللحم على ظهرها .

وجلس « فيدينا » على الأرض تحمل جسمانها الصغير ، دون أن ترد أو تفتح عينيها . كانت قد حملته مدة طويلة في نفس الوضع حتى انها لم تعد تشعر بثقله . وأخذت « مانويلا » نروح هنا وهناك ، مشوطة بيديها وهي ترسم علامة الصليب . ولاحظت في مرواحها وعيبتها وجود رائحة كريهة في المطبخ . وعادت من ناحية الحوض تحمل طبقاً ، وبدأت - بلا انتظار - تركل « فيدينا » وهي تصيح بها : « إن معك شيئاً نتنا يفوح بالرائحة الكريهة . إلقه بعيداً عن هنا ! تخلصي منه فإني لا أريده هنا ! »

وجاءت السيدة تشون الى المطبخ عن صيحات « مانويلا » ، وتعاونوا معها كأنها يقتلعان شجرة في فتح ذراعي المرأة البائسة . بيد أنها حين أدركت أنها تنتزعان طفلها منها ، فتحت عينيها وأطلقت صرخة حادة لم سقطت مغشياً عليها .

وصاحت « مانويلا » : إنه الطفل الذي تفوح منه الرائحة . إنه ميت ! يا للهول ! . ولم تحردات السن الذهبية منطقاً ، وبينها العاهرات يتدفقن الى المطبخ جرت إلى الهانف كيبا تخطر السلطات . كانت كل واحدة تريد أن ترى الطفل وتقبّله ؛ وغطينه بالقبلات وتنازعن عليه فيما بينهن . كان الوجه المغضن الصغير مفتعاً برضاب الرذيلة ، وكانت قد أخذت تنبعث منه رائحة كريهة . وامتلا المكان بالبكاء وبالحديث عن اجراءات اقامة جناز للطفل . وتوجه المايجور « فارغان » لاستخراج تصريح الدفن من الشرطة . وأخلبت أكبر حجرات النوم الخاصة من الاثاث ، وأحرقوا فيها البخور لطرد رائحة المني العفنة من السائر والسجاجيد ، وأحترقت « مانويلا » فطراتا في المطبخ ، ووضعوا الطفل على صفحة سوداء من البناء وسط الورود والكنان حيث رقد مقعياً على نفسه ، جافاً مصفراً ، كبذرة نبات لبلابي .

لقد بدؤن جميعاً كما لو كانت كل واحدة منهن قد فقدت طفلاً تلك الليلة . كانت أربع شمعات تحترق . ورائحة فطائر الذرة والبيراندي ، ولحم عليل ، وأعقاب سجائر ونبيذ .

وكانت ثمة امرأة نصف محمورة ، وأحد نديها عار ، تمضغ سيجاراً بدلاً

من أن ندخته . ظلت تردد وسط انهار من الدموع :

نم يا صغيري نم

نم يا حبيبي الوليد

والأسياني الذئب

فياكلتك !

نم يا حبيبي نم

لا علي أن أذهب الآن

لأغسل لك اللقائف

وأجس أحبك لك الثياب .

تقرير عن الرسائل الموجهة إلى السيد الرئيس

١ - السيدة «البحاندرا»، أرملة المرحوم «بران»، القاطنة في هذه المدينة، وصاحبة حانوت الأثاث المسمى «لاباينا فرانكا»، تقرر أنه لما كان عليها مجاورا ختنة «أخفونتان»، فتد كان يوسعها أن تشرى عدة أشخاص يترددون على تلك الحانة، خاصة بالنبل، حجة زيارة إحدى المريضات. وهي تشرف بإحاطة السيد الرئيس عليها هذه الوقائع، إذ يبدو لها - من المحادثات التي سمعتها عبر الحائط - أن الجنرال «إيوسيو كاناليس» قد يكون مختبئاً في تلك الحانة، وأن الأشخاص الذين يترددون على ذلك المكان يتآمرون ضد سلامة الدولة وعلى حياة السيد الرئيس الغالية.

٢ - «سوليداد بلماريس»، القاطنة في هذه المدينة، تقرر أنها لم تعد تجد ما تقتات به لأن مواردها قد نفذت. ولما كانت غريبة عن هنا ولا يمكن لأحد أن يقرضها نفودا، فلما تخرج السيد الرئيس أن يفرج عن إنها «مانويل بلماريس!»، وعن زوج اختها «فيدريكو أورتيروس ب». وأن الوزير المفوض بسفارة بلدها هنا يمكنه أن يشهد أنه لا صلة لها بالسياسة، وأنها ما جاء هنا إلا ليكسب عيشها بالعمل الشريف، وأن جريمتها الوحيدة أنها قبلت توصية من الجنرال «إيوسيو كاناليس» «ساعدها في الحصول على وظيفة في محطة السكك الحديدية».

٣ - الكولونيل برود نسبو بيرفكتو باره يقرر: أن الرحلة التي قام بها مؤخراً إلى الحدود كانت تهدف إلى التعرف على حالة الأراضي والفرق والممرات البرية هناك لتحديد المواضع التي ينبغي اتخاذ مزيد من الإجراءات بشأنها. وهو يعطي وصفا تفصيليا لخطة ٥٠ حملة يمكن القيام بها في نقاط إستراتيجية ملائمة في حالة حدوث حركة ثورية، وهو يؤكد نبأ تطوع أفراد عند الحدود لذلك الغرض، وأن

منهم «خوان ليون بارادا» وغيره، وأنهم يحوزون أسلحة من النوع التالي : قنابل يدوية ، رشاشات يدوية ، بنادق محدودة المدى ، ديناميت وغيره من لوازم زرع الألغام ؛ وأن الثوار لديهم ما بين ٢٥ و ٣٠ رجلا مسلحا بإمكانهم الهجوم على قوات الحكومة المراقبة هناك . ولم يكن بإمكانه تأكيد خبر أن «كاناليس» هو قائدهم ، ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فإنهم بلا شك سيفوضون بغزو بلدنا ما لم تتخذ الإجراءات الدبلوماسية لتسليم هؤلاء الثوار من البلد المجاور . ويضيف أيضا أنه يستعد لتنفيذ الهجوم المحدد له بداية الشهر القادم ، بيد أنه يقتصر إلى نسخة لفرقة المشاة ، وليست لديه ذخيرة كافية ، وأنه باستثناء بعض المرضى الذين يحتاجون رعاية طبية ، فإن قواته بحالة طبية ، وأنهم يتلقون تدريبا من السادسة إلى الثامنة صباح كل يوم ، ويخصص لغذائهم رأس من الماشية كل أسبوع ، وأن الموقع أدناه قد طلب أكياسا من الرمل من المياه لبناء تحصينات .

٤ - «خوان أنطونيا ماري» ، يشكر السيد الرئيس على الاهتمام الذي تفضل بإبدائه نحوه ، بتوفير الرعاية الطبية اللازمة له . وهو جاهز الآن للعودة إلى الخدمة ويرجو الإذن له بالحضور إلى العاصمة للاضطلاع ببعض المهام الناشئة عن معلوماته الخاصة عن الأنشطة السياسية التي يقوم بها المحامي « قابيل كرفخال » .

٥ - « لويس رافيليس م » ، يقرر أنه بالنظر إلى مرضه ونقص الوسائل الكفيلة باستعادته لصحته ، فإنه يود العودة إلى الولايات المتحدة ، حيث يرجو تعيينه في إحدى الوظائف بإحدى قنصليات الجمهورية ، لا في « نيواورليانز » ، وليس بموجب الظروف السابقة ، بل بوصفه صديقا مخلصا للسيد الرئيس . وكان من حسن حظه أن أخرج اسمه في جدول المقابلات في نهاية يناير الماضي ، ولكنه حين كان في الصالون وعلى وشك الدخول ، لاحظ وجود شيء من الريبة من جانب ضباط الحراسة ، الذين عدلوا موضع اسمه في القائمة ، وحين حل دوره ، أخذ ضابط إلى حجرة مجاورة حيث فتش كائما هو فوضوي . وقال له إنه يفعل ذلك بناء على إخبارية بأن المحامي « قابيل كرفخال » قد دفع له مالا كبيرا يقوم باغتيال رئيس الجمهورية . ولدى عودته إلى الصالون ، وجد أن مقابله قد ألغيت ، ورغم أنه بذل منذ ذلك ما في وسعه كيما يقابل السيد الرئيس ليطلمعه على بعض الأشياء التي لا يمكن تسطيرها على الورق ، فإنه لم ينجح في ذلك المسعى .

٦ - «نيكوميدس آسيتونو» يكتب مقررا أنه في طريق عودته إلى العاصمة بعد

إحدى رحلاته العديدة التي تحملها إليها أعماله، لاحظ أن الملقب الإعلاني مربوط إلى خزان المياه - والذي يظهر فيه إسم السيد الرئيس - قد دُمِّر كله تقريباً، إذ نُزعت عنه ستة حروف وتُحِبَّت حروف أخرى فيه.

٧ - «لوسيو فاسكيز»، المقبرض عليه في السجن المركزي بأمر المدعي العسكري العام، يرجو مقابلة السيد الرئيس.

٨ - «كاتارينو ريغيسيو» يقرر أنه يدير عقار «لاتييرا» المملوك للجنرال «إوسيبو كاناليس». وأنه في أحد أيام شهر أغسطس الماضي رار ذلك السيد أربعة أصدقاء، أعلن ضم (وهو في حالة سكر) أنه إذا اندلعت الثورة فتمه كتيبته تحت أمره: واحدة ناتقز بأمر أحد أصدقائه هو الميجور «فارسان»، والأخرى لأحد العملاء لم يذكر اسمه. ولما كانت شائعات الثورة لا تزال تتردد، فإن الموقع أدناه يكتب لأبلاغ السيد الرئيس بهذا، نظراً لأنه لم يتمكن من مقابله لأبلاغه بذلك شخصياً، رغم ماعيه العديدة لهذا الغرض.

٩ - الجنرال «ميغاديو رايون» يرفق خطاباً تلقاه من القس «بلاس كوستديو» يقرر فيه أن الأب «أوركيوخو» يفترى عليه الشائعات (حيث أنه سيخلف الأب في رئاسة أبرشية «سان لوقا» بأمر من الأسقف) ويثير عليه السكان الكاثوليك بالكاذب، تعاونته السيدة «أركاديا دي أبوسو». ولما كان وجود الأب «أوركيوخو» في الأبرشية يمكن أن تترتب عليه عواقب وخيمة، وهو صديق للمحامي «قاينيل كرفخال»، فإن الموقع أدناه يتشرف بإحاطة السيد الرئيس علماً بهذه الوقائع.

١٠ - «الفريدو توليدانو»، من هذه المدينة، يقرر أنه نظراً لأنه يعاني من الأرق ولا ينام إلا في ساعة متأخرة من الليل، فإنه قد فاجأ أحد أصدقاء السيد الرئيس - هو «مينيل ذو الوجه الملائكي»، يقرر بعنف على باب منزل السيد «خوان كاناليس»، شقيق الجنرال المسمى بنفس اللقب، والذي دأب أيضاً على انتقاد الحكومة. وهو يبلغ السيد الرئيس بذلك علّه يجد فيه ما يهمه.

١١ - «نيكوميدس آسيتونو»، وكيل أعمال متنقل، يقرر أن الرجل الذي عا إسم السيد الرئيس من على ملصق خزان المياه هو «غيرمو ليزازو» المحاسب، وهو في حالة سُكْر.

١٢ - «كاسيميرو ريبيكولونا» يقرر أنه سيتم قريباً ستين ونصفاً من الاعتقال

في مركز الشرطة الثاني؛ وإنه لما كان فقيرا ولا أقارب يشفعون له، فإنه يرجو من السيد الرئيس أن يتكرم بالأمر بإطلاق سراحه، وأن الحرية المنهم بها هي أنه أزال إعلانا عن ذكرى والده السيد الرئيس من على باب الكنيسة التي يعمل مساعدا للنفس بها، بناء على تحريض من أعداء الحكومة، يقول إن تلك التهمة غير صحيحة، وإنه إنه كائن قد فعل ذلك فلأنه قد خلط بين الإعلان وبين إعلان آخر، حيث أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

١٣ - الدكتور « لويس مارينو » يرجو من السيد الرئيس الإذن له بالسفر إلى الخارج بغرض البحث والدراسة، بصحبة زوجته .

١٤ - « أديليدا بيبال »، نزيلة دار الدعارة الرسمية - « عة » النسوة المليدة « في هذه المدينة، ترغب في إبلاغ السيد الرئيس أن الميجور « مودستو فارفان » قد أخبرها حين كان غمورا أن الجنرال « ايسيو كاتاليس » هو الجنرال الوحيد الأصلي في الجيش، وأن المصيبة التي حلت به إنما ترجع إلى خوف السيد الرئيس من الفادة الأكفاء، وإن الثورة ستنتصر في النهاية رغم كل شيء .

١٥ - « مونيكاردومينو »، المريضة في المستشفى العمومي، في السرير رقم ١٤ في غير « سان رافايل »، تقرر أنها لما كان سريرها محاورا للمريضة « فيدينا روداس »، فإنها قد سمعتها تتحدث عن « الجنرال كاتاليس » في هدياتها، وأنه نظرا إلى أنها هي نفسها مريضة فإنها لم تفهم ما قالته المذكورة، ولكن قد يكون مستصوبا أن يقوم شخص بمرافقة ما نقول ويكتب ملاحظات به . ونرسل الموقعة أدناه هذه الإخبارية إلى السيد الرئيس انطلاقا من إعجابها الفائق بحكمه .

١٦ - « توماس جافيلي » يعلن زواجه من الأنسة « أركنتينا سواريز »، ويرغب في تكريس هذا الزواج للسيد رئيس الجمهورية .

٢٨ أبريل ...

دار الدعارة

- تعالي هنا يا فتاه ...
- ولماذا هنا وليس هناك ...
- ماذا هناك ؟
- دهاني ما دهاني ...
- وصرخت ذات السن الذهبية في الفتيات :
- إصمتن حالا ، إصمتن ، ما هذا ؟ منذ يسرع الفجر ومن هنا يتحادثن ويتشاجرن ؛ إنهن كالحیوانات التي لا تفهم .
- وكانت صاحبة المخامة ترتدي بلوزة سوداء وتنورة ارجوانية ، جالسة تهضم عشاءها في مقعد من الجلد وراء نضد البار .
- وبعد برهة ، وجهت كلامها إلى خادمة ذات بشرة نحاسية وصفائر مجدولة لامعة :
- « بانثشا » ، إذهبي وقولي للفتيات أن يأتين إلى هنا ، فهذا لا يصح ، فالزبائن قد يحضرون في أي لحظة ولا بد أن يكن هنا جاهزات ينتظرن ! دائما عليّ أن أكون وراءهن في كل شيء ! .
- ودخلت فتاتان تجريان إلى الغرفة لا ترتديان في أقدامهن إلا الجوارب .
- كفى ضجيجكما يا « كونسويلر » . أه . يا ههما من جميلين صغيرتين ! انظر إلى لبعهما ! واسمعي يا « أدلايدا » - « أدلايدا » ، إنني أتحدث إليك - إذا حضر الميجور من الأفضل أن تخلعي عنه سيفه مقابل ما عليه من ديون لنا . كم بلغت

ديونه أيها القرد العجوز ؟

فرد الباهمان : تسعمانة بالضبط ، بالإضافة إلى ستة وثلاثين أعطيتها له بالأمس .

- إن السيف لا يساوي كل هذا ، حتى ولو كان من ذهب ، ومع ذلك فإنه أفضل من لا شيء . « أدلايدا » ، إنني أتحدث اليك لا إلى الحائط !

فردت « أدلايدا » بين ضحكة وأخرى :

- أجل يا سيلة « تشون » ، أجل إني اسمعك .

ثم واصلت لعبها مع رفيقتها التي كانت قد أمسكتها من شعرها .

وجلست تشكيلة النساء اللاتي تعرضهن دار « النشوة اللذيذة » هنا وهناك على الأرائك القديمة صامتات . كان هناك من كل نوع : سمينات ، نحيفات ، متقدمات في السن ، شابات ، طويلات ، قصيرات ، مراهقات ، وديعات ، نفورات ، شقراوات ، حراوات الشعر ، سوداوات الشعر ، صغيرات العين ، واسعات العين ، بيضاوات ، سمراوات ، خللايات . ورغم أن كل واحدة كانت تختلف عن الأخرى ، فقد يبدو جميعا متشابهات ، فقد كانت رائحتهن واحدة ، نفوح منهن رائحة الرجل ، كلهن الرائحة اللاذعة للمحار العتيق . وكانت النداو هن تترجرج هنا وهناك داخل قمصانهن القطنية الصغيرة الرخيصة ، كأنها تكاد تكون سائلة . وحين يجلسن في استرخاء متفرجات الفخذ ، فأنهن يبين عن سيقان نحيلة كمواسير تصريف المياه ، وأربطة جوارب زاهية اللون ، وسراويل إما حمراء مطرزة بشريط أبيض ، أو وردية خفيفة مطرزة بشريط أسود .

كان إنتظار الزبائن يملأهن بالقلق . كن ينتظرن كالمهاجرين ، وفي عيونهن تعبير حيواني ، يجلسن في مجموعات أمام المرايا . ويعمد بعضهن ، دفعا للفسج ، إلى النوم ، والبعض إلى التدخين ، بينما يأكل البعض حبات التناع ، ويحشي البعض بقع بقايا الذباب على الورق الأزرق والأبيض الذي يزين السقف . كانت المتعديات منهن ينشاجرن ، بينما الصديقات يلاطفن بعضهن بعضا في ومن وقلة حياء .

وكن لمن جميعا تقريبا القاب غير اسمائهن . فالفتاة ذات العينين الواسعتين

تدعي الغزالة ، فإذا كانت قصيرة فهي الغزالة القصيرة ، وإذا كانت متقدمة في السن ممثلة ، فهي الغزالة الكبيرة . أما الفتاة ذات الأنف المرتفع إلى أعلى فهي الرومانية ، والسمراء هي الاسمرانية ، والخلابية : الدكنة ، والفتاة ذات العيون المائلة : الصينية ، والشقراء : قطعة السكر ، والفتاة التي تتكلم بصعوبة : المتهتة .

وإلى جانب هذه الألقاب العامة ، كانت هناك أيضا القاب الساخرة ، والخزيرة ، وذات القدم المفلطحة ، وذات اللسان الذي يقطر عسلا ، والفردة ، والدودة الشريطية ، والحكمة ، والقنبلة ، والجبانة ، والطرشاء .

وكان بضعة رجال يقدون في الساعات الأولى من الليل لينسلوا بعض الوقت بأحداث العشق مع أي من الفتيات غير المنشغلات وتقبلهن ومداعبتهن مداعبات ثقيلة . كانوا دائما متحذلقين مقلسين . وكانت السيدة « تشون » تنوق إلى طردهم ، لأنهم قد اقترفوا في نظرها جريمة ، هي أنهم فقراء ، ولكنها كانت تتحملهم إكراما « للمملكات » . يا للمملكات المسكينات ! إنهن قد علقن بهؤلاء الرجال - الذين يستغلونهن مقابل الحماية ويخدعنهن باسم الحب . إنطلاقا من نوقهن للحب والإحساس بوجود رجل يملكه .

وكان بعض الصبية يحضرون أيضا في مطالع الليل . كانوا يأتون يرتعدون ، لا يكادون يقدرون على الكلام ، يتحركون في وجل كالغراشات زائغة البصر ، ولا يستردون أنفاسهم إلا بعد أن يخرجوا إلى الطريق . صيد سهل . طائعون لا يجادعون . « مساء الخير » ، « لا تسبي » . وبدلا من الإنم والاستئساد اللذين يدخلون بها إلى الماخور ، يخرجون بمذاق كريحه في أفواههم ، وذلك الخور اللذيذ الناتج عن الضحك مع امرأة والتقلب في أحضانها . آه ، ما أحلى الإبتعاد عن هذا المنزل العفن ! ويستنشقون الهواء كما لو كان عشا ناضرا زاهرا ، ويحقدون في النجوم كأنها هي تعكس قوتهم وفتوتهم .

وبعد ذلك يتقاطر على المنزل الزبائن الجادون : رجل أعمال محترم ، متحمس مستدير البطن ، وقُدْر هائل من اللحم يحيط بتجويف صدره ؛ ثم موظف في أحد المحلات ، يضم الفتيات إليه كما لو كان يقيس القماش بالمتر ، بعكس الطبيب ، الذي يبدو كما لو كان يفحص صدورهن بالسماعة .

وصحافي، يترك داتها شيئا وراءه كرهن ، حتى ولو كان قمعته . وعمام ، يشبه
القط وزهرة الجيرانيوم في آن واحد ، بظهوره ووداعته المبتذلة غير المريحة . وزيفي
ذو أسنان بيضاء كالخليب . وموظف حكومي محني الكتفين ، غير جذاب للنساء .
وناجر بدين . وصانع بعين برائحة جلد الماشية . والثري الذي يتلمس بين حين
 وآخر محفضته وساعته وخواتمه . وكيميائي يفوق الحلاق تحفظا وإن كان يقل عن
طبيب الأسنان أدبا .

ومع انتصاف الليل تكون الحجرة في حالة هياج وفوران . فالرجال والنساء
يستخدمون الستهم لإذكاء عواطف الآخرين . قبلات . نلاق شهواني للأجساد
والرضاب ، بالتناوب مع العض ، استئمان مع ضربات . ابتسامات مع قهقهات
مماجلة فجأة ، فرقة فليئة زجاجات الشمبانيا مع فرقة الرصاص حين يكون
حاضرا شجاع مخمور .

وصاح رجل مسن وهو يرتكز بمرفقيه على منصدة ، وعيناه نطوفان هما
وهناك ، وقدماه تتحركان في قلق ، وشبكته من العروق نافرة في جبهته المتوهجة :

- « هذه هي الحياة حقاً ! » .

- وزاد حماسه فسأل واحدا من ندمائه :

- هل أستطيع الذهاب مع تلك المرأة هناك ؟

- لم لا أيها الشيخ ، إنهن هنا لهذا الغرض .

- وتلك الأخرى التي هناك ، إنني أفضّلها .

- حسناً ، بإمكانك الذهاب معها أيضاً .

وكانت ثمة فتاة سبراء تعبر الحجرة عارية القدمين على نحو مشير .

- وتلك التي تسير هناك ؟

- أي واحدة ؟ الخلاسية السمراء ؟

- ما اسمها ؟

- « أولديدا » ؛ إنهم يلقبونها بالخنزيرة . ولكني لم أكن لأذهب معها ، لأنها

فتاة الميجور « فارقان » . أظن أنه يحتكرها .

ولاحظ الشيخ في صوت خفيض : الخنزيرة ! انظر كيف تلاحظه ! .

أطابها في المكان ، حاول الرجال المتزوجون أن يبروا ما إذا كان أحد قد هاجم المرأة ، حتى يكون بإمكانهم الحرب قبل أن تأتي الشرطة ، في حين لم ينظر الآخرون إلى الأمر بهذه الخطورة وجروا هنا وهناك حتى يجتسكوا بالفئتيات وسط افسرج والمرج .

وكانت المجموعة تنزايد حول المرأة التي رقدت تتلوى وترنجف وعيناها تدوران في محجريها ، بينما تدلى لسانها إلى خارج فمها . وفي قمة الأزمة ، إنخلعت أسنانها الصناعية ، وسرى هياج محموم بين النظارة ، بينما تعالت ضحكة حين سقطت أسنانها فجأة على الأرض العارية .

وضعت السيدة « تشون » حداً لهذا المشهد الشائن . كانت مشغولة هناك في الداخل وهرعت للمساعدة كاللدجاجة السمينة التي تفاقمي خلف فراخها ؛ وأمسكت بالمرأة المسكينة من أحد ذراعيها ومسحت بها الأرض وهي تجذبها حتى المطبخ ، حيث تعاونت معها «مانويلا» في وضعها في عرزن الفحم ، بعد أن عاجلتها الطباخة ببعض ضربات من السيخ الخديدي .

واستغل الشيخ الذي أغرم بالختزيرة القوضى التي دبت فمتمزعة من الميجور ، الذي كان مخموراً جداً لدرجة لم يشعر معها بأي شيء . وصاحت دات السن الذهبية حين عادت من المطبخ : يا لها من كلفة قدرة ، هه ، أيتها الميجور « فارفان » . إن مبايضها لا تؤلمها حين يحين وقت الأكل واليوم طوان اليوم ؛ إن ذلك مثل الجندي الذي يشعر عند بداية المعركة بالذات بالآلام في ... !»

وعزفت عبارتها في انفجار ضحكات مخمورة . كانوا يضحكون كأنهم يصفقون عسلاً مخلوطاً « بالأنيس » . وفي هذه الأثناء ، تحولت السيدة «تشون» إلى البارمان وقالت له :

- لقد أردت أن أستعيض عن هذه المتوحشة العنيدة بالقنساء الجميلة التي أحضرتها من سجن « كاسانويثا » أمس . يا للخسارة أنها قد راحت من بين يدي !» .

- آه ، أجل ، إنها كانت فتاة رائعة !

- لقد قلت للمحامي أن عليه أن يجعل المدعي العسكري العام على إعادة

نفودي لي . لن يسئولي إبن العاهرة هذا على العشرة آلاف بيزو التي أعطيتها له .
لست أنا من يفعل معها ذلك ، هذا المجنون !

- إنك على حق تماما . ولكني علمت أن ذلك المحامي ليس فوق مستوى
الشبهات .

- إهم كلهم جماعة من المجرمين القذرين !

- وهو بارع جدا في أساليب المساومة !

- قل فيه ما نشاء . ولكني أعدك بشي . واحد : لن بلدغي المدعي العام
مرتين . لو أنه يظن أن بإمكانه أن « يلهف » النقود مني هكذا . . . ! » .

ولم تكمل عبارتها وانجهت إلى النافذة لترى من يطرق الباب . وصاحت
بصوت عالٍ للرجل النواقف على الباب ، يستحم في ضوء القنديل الأرجواني ،
ولفاعة مرفوع حتى عينيه : « يا لجميع الملائكة القديسين ! تحدث عن الشيطان
نره ! » .

ثم توجهت دون أن ترد على تحيته كي تحبر البوابة ان تفتح الباب على الفور .
- « إسرعى وافتحي الباب يا « باناشا » . إسرعى ! افتحي بسرعة ، إنه السيد
« ميغيل » ! »

كانت السيدة « تشون » قد عرفته بحديثها الفائق وأيضا من عينيه
الشيطانيتين .

- حسنا ، يا غا من معجزة .

وبينا كان ذو الوجه الملائكي يحببها ، جال بعينيه في الحجرة ، واطمأن حين
رأى شخصا قابعا عرف فيه الميجور « فارفان » ، وثمة خيط من اللعاب ببيل من
فمه المفتوح .

- معجزة كبرى ، لأنه ليس من عادتك أن تزورنا نحن البسطاء .

- كلا يا سيدة « تشون » ، لا نقولي ذلك .

- لقد جئت في وقتك . إنني كنت أنزعج لنوي للقديسين كيما يساعدوني في
ورطة وقعت فيها ، ولقد أرسلوك لي ! » .

- حسنا ، إنني دائماً تحت أمرك كما تعلمين .

- شكراً . سأحكي لك عن ورطتي ، ولكن يجب أولاً أن تشرب شيئاً .

- لا تنمي نفسك ...

- ليس هناك من تعب . كأس صغير ليس إلا ، كأس صغير مما تحب ، مما تريد . برهان على حسن النية ! كيف تريد الويسكي ؟ ولسوف أقدمه لك في جناحي الخاص ! تعال معي .»

وكان جناح ذات السن الذهبية منفصلاً تماماً عن بقية الدار ، وبدأ كأنه عالم بحاله . مناضد ، صوانات بأدراج ، بوفيهات ، كلها مزودة باللوحات والتمائيل والصور والأثاث الدينية . وكانت ثمة لوحة للعائلة المقدسة نلفت الأنظار بحجمها الهائل والمهارة التي رسمت بها . كان يسوع الطفل في طول زيتونة بيضاء ، وكان ما بنفسه أن يتكلم . وكان على الخانين صورة رائعة للقديس يوسف مع العذراء في رداء مرصع بالنجوم . وكانت العذراء مزودة بالجوهر ، في حين يرفع القديس كأساً مرصعة بياقوتتين ، كل منهما تساوي ثروة . وفي داخل صندوق زجاجي ، كان ثمة تمثال ليسوع أسمر البشرة يحتضر ، مغطى بالدماء ، وفي صندوق زجاجي آخر عريض محاط بالأصداف كان ثمة تمثال للعذراء صاعدة إلى السماء - وهي تقليد بالنحت للوحة «موريللو» المشهورة . وكان أثنى شيء في التمثال هو الأفعى المصنوعة من الزمرد ، التي تقعي عند قدمي العذراء . وبين الصور المقدسة كانت هناك لوحات للسيدة «تشنون» (والاسم تصغير لاسمها الحقيقي وهو «كونسبسيون») في سن العشرين ، حين كان ثمة رئيس للجمهورية تحت قدميها ، عارضاً عليها أن يأخذها إلى «باريس» ، فرنسا ، وكذلك قاضيان من قضاة المحكمة العليا ، وثلاثة جزارين يتقاتلون بالسكاكين في أحد المهرجانات من أجلها . وفي أحد الأركان ، بعيداً عن الأنظار ، صورة لمن صمد من عشاقها ، وهو رجل كثيف الشعر . انتهى به الأمر أن أصبح زوجها.

- اجلس هنا على الأريكة يا سيد «ميفيلينو» . ستكون مرتاحاً هناك .

- إنك تعيشين عيشة هنية يا سيدة «تشنون» .

- إني أعمل على راحتي ...

- إن المكان ، كالكثيسة ...

- لا تهرأي، لا تسخر من قديسيّ .

- وماذا تريد من مني؟

- إشرّب كأسك أولاً .

- حسناً جداً، في صحتك .

- في صحتك يا سيد ميغيلينو . وأرجو أن تغفر لي عدم شربي معك، إذ إن معدتي ليست على ما يرام . ضع كأسك هنا، على هذه المنضدة الصغيرة . هنا، ناولني إياه .

- شكراً .

- حسناً؛ كنت أقول يا سيد «ميغيلينو» إنني في ورطة شديدة ويسعدني أن أسمع نصائحك، ذلك النوع الذي يمكنك وحدك أن تسديها لي . لقد حدث أن أصبحت إحدى النساء التي لديّ هنا لا نفع فيها فجأة، لذلك فقد أخذت أبحث عن غيرها . وقال لي أحد أصدقائي إن ثمة سجنينة في «كاسا نويقا» موضوعة هناك بأمر من المدعي العام، فتاة جميلة هي ما ابتغي بالضبط . حسناً، إنني أعرف ما يجب عمله، لذلك فقد ذهبت مباشرة إلى محاميّ - السيد «خوان فيداليس» - الذي سبق أن تحصّل على بعض النسوة لداري، وجعلته يجرّ لي خطاباً مناسباً للمدعي العسكري العام، عارضة عشرة آلاف بيزو ثمنها لها .

- عشرة آلاف بيزو؟

- أجل . ولم يكذب المدعي العام خيراً، فقد أجابني على الفور أنه موافق، وحالاً تسلّم النفود (التي أحصيتها بنفسني أوراقاً نقدية من فئة ٥٠٠ بيزو على مكتبه) أعطاني أمراً كتابياً لسجن «كاسانويقا» لتسليمي الفتاة التي أريدّها . وقالوا لي هناك إنها سجنينة لأسباب سيامية . يبدو أنهم قبضوا عليها في منزل الجنترال «كاناليس»

- ماذا تقولين؟

كان ذو الوجه الملائكي يتابع قصة ذات السن الذهبية بعدم اكتراث، مرهفاً أذنيه للباب كيبيّ يتأكد من عدم مغادرة الميجور «فارقان» للمكان دون علمه (ذلك أنه كان قد بحث عنه ساعات طويلة) ولكنه حين سمع اسم «كاناليس» بدا وكأن

شبكة من الأسلاك الدقيقة قد نُشرت فجأة أمامه . لا بد أن هذه المرأة التمسمة هي
المرأة «تشايبلا» التي ذكرتها كميلة في هذيانها المحموم .

- آسف أن أقاطعت . . . ولكن أين هذه المرأة الآن ؟

- سوف آتي لذلك، ولكن دعني أكمل فصتي . أخذت أمر المدعي العام
وذهبت بنفسني مع ثلاث فتيات لاحضارها من «كاسانويشا» . لم أكن أريد أن
يخدعوني ويعطوني أخرى أقل منها شأنًا . وقد ذهبنا في عربة أخرى حتى نكون
مستريحات . وهكذا وصلنا، وأعطينهم الأمر، وفحصوه وقاروه جيدا، وأحضروا
الفتاة، وسلموها لي، وباختصار، أحضرناها معنا هنا حيث كان الجميع في
انتظارها وأحسوها لأول وهلة . كل شيء على ما يرام حتى الآن، هم، يا سيد
ميغيليتو .

- وأين وضعتموها ؟

كان ذو الوجه الملائكي يود أن يأخذها من هنا في هذه الليلة ذاتها . وبدت له
الدفائق أعواما إذ كانت هذه المرأة العجوز تحكي قصتها .

- إنكم جميعا سواء أيها الشبان المغمومون ! ولكن دعني أكمل لك . بعد أن
تركنا «كاسانويشا» لاحظتُ أن تلك المرأة ترفض أن تفتح عينيها أو أن تنطق حرفا .
كنا كأنا نتحدث إلى جدار صامت . ظننت أنها تلعب علينا لعبة أو شيئا من هذا
القبيل . والأدهى أنني لاحظت أنها كانت تحتضن رزمة في حجم طفل صغير بين
ذراعيها .

واستطلعت صورة كميلة في ذهن ذي الوجه الملائكي إلى أن انقسمت نصفين
كحرف ثمانية ، بالسرعة التي تنفجر بها فقاعة الصابون عند لمسها .

- طفل صغير ؟

- أجل، واكتشفتُ طبائخي «مانويلا كالفاريو كريستائيس» أن ما كانت
المرأة التمسمة تمدهده بين ذراعيها هو طفل صغير ميت قد بدأ يتعفن . وناديتني
فجريتني إلى المطبخ وتعاونتا نحن الاثنان في انتزاعه منها بالقوة، ولكن ما كدنا نفتح
ذراعيها . وقد كادت «مانويلا» أن تكسرها - وتأخذ الطفل الميت منها حتى فتحت
عينيها على أنساعها كالبيت يوم القيامة، وأطلقت صرخة لا بد أنها وصلت حتى

السوق، وسقطت سطيحة على الأرض .

- مينة ؟

- لقد ظننا ذلك برهة . ثم جاوزوا وأخذوها، منقوفة في إحدى الشرائف إلى مستشفى القديس «خوان الإلهي» . لم أكن أريد رؤية ذلك المنظر، فقد أرعبتني حالتها. وقالوا إن الدموع أخذت تنسال من عينيها المغلقتين كأنها ذلك الفائنض من المياه التي لا نفع فيها لأحد .

وتوقفت السيدة «تشن» لالتقاط أنفاسها ثم غتمت :

- لقد سألت عنها الفتيات اللاتي كن في زيارة للمستشفى ذلك الصباح، ويبدو أنها في حالة سيئة . والآن، هذا هو ما يقلقني، فكيف يمكنك أن تتصور، لا يمكنني أن أدع المدعي العام يحتفظ بالعشرة آلاف بيزو التي أعطيها إياه، وإنني أفكر في طريقة أجعله يعيدها لي، فلماذا يحق السهاء يستولي على ما هو حقّي ؟ لماذا يحق السهاء؟ إنني أفضل ألف مرة أن أهب هذا المبلغ منحة لدار الفقراء .

- يجب على محاميك أن يعيدها لك، أما بشأن هذه المرأة المسكينة . . .

- تماماً! ولقد ذهب مرتين اليوم آسفة لفصاحتك، لقد ذهب محامي فيداليتاس مرتين لمقابلته، مرة إلى بيته ومرة إلى مكتبه، وفي كل مرة قال نفس الشيء، إنه لن يعيد لي شيئا. ها أنت ترى كيف أن هذا الرجل لص حقير. إنه يقول لو أن بقرة نفقت بعد أن بيعت فإن الحسارة تقع على المشتري وليس على البائع. إنه يتحدث عن الناس كما لو كانوا حيوانات! هذا ما قال. أوه، حقا إنني أود أن . . .

كان ذو الوجه الملائكي صامتا- من تكون هذه المرأة التي بيعت؟ من يكون ذلك الطفل الميت؟

وظهرت السن الذهبية للسيدة «تشن» وهي تقول متوعدة :

- آه، ولكن قُما أنوي فعله هو أنني سأعطيه علفة لم ينلها في حياته، ولا من أمه. إذا سجنوني فسيكون لأمر رهيب. يعلم الله أن كب العيش أمر شاق مع وجود هؤلاء الناس الذين يسرقون المرء هكذا ! عليه اللعنة ذلك الصعلوك العجوز. لقد قلت لهم بالفعل هذا الصباح أن يُلقوا طينا من المقبرة على عتبة دار

المدعى العام . سترى إن كان ذلك يجلب عليه النحس . . .

- وهل دفنوا الطفل ؟

- لقد أعدونا جنازا له هنا في هذا البيت . إن الفتيات عاطفيات جدا .
وقدمن فطائر الذرة . . .

- حفل كبير ؟

- بالضبط !

والشرطة ؟ ماذا فعلت ؟

- لقد دفعت كيبا يعطونا شهادة وفاة . وفي اليوم التالي ، دفننا الطفل في الجزيرة
في كفن جميل مطرز بالساتان الأبيض .

- ألا تخافون وجود أقارب للطفل يطالبون بالجثمان أو يشكون من عدم
إبلاغهم بالأمر ؟

- هذا يكون القشة التي تنقسم ظهر البعير ! ولكن . . . من ذا الذي سيطلب
به ؟ إن الأب ، «روداس» ، في السجن ، والأم في المستشفى كما قلت لك .

واتسم ذو الوجه الملائكي في سريره ، فقد انزاع حمل ثقيل من على نفسه . لا
علاقة لذلك الطفل ولا تلك المرأة بكريمة .

- لماذا تنصحنى يا سيد ميغيليتو ؟ إنك ماهر جدا . كيف لي أن أمنع ذلك
البخيل المعجوز من الاحتفاظ بقودي ؟ إنها عشرة آلاف بيزو ، أتذكر ذلك ؟ إنه
مبلغ ليس بالقليل !

- إن نصيحتي هي أن تذهبي لرؤبة السيد الرئيس ونشككي له . اطلبي
مقابلة وقصي عليه الحكاية . وثقي أنه سيصحح الوضع ، إذ أن ذلك من سلطته .

- هذا ما فكرت فيه ، ولسوف أنفذه . سوف أرسل له غدا برقية عاجلة
أطلب مقابله . ونحن أصدقاء قداماء لحسن الحظ . كان يجني حين كان لا يزال
وزيراً فحسب . لقد كان هذا منذ وقت طويل . كنت شابة جميلة آنذاك ، دقيقة
الخصر كعمود الخيران ، مثل تلك الصورة التي هناك . أتذكر أنني كنت اسكن حي
« سينيتو » مع أُمي . عليها رحمة الله . حين نقر ببغاء عينا فأعماها ، هلا سمعت

عن مثل سوء حظ كهذا! لا بد أن أعترف أنني قد شويت ذلك البغاء، وكنت سعيدة تماما بهذا ، وأعطيته للكلب، وأكله ذلك الكلب الغنيي وأصيب بالسعار لوقته . ولعل أكثر ما أتذكره من تلك الأيام بهجة هو أن البيت كان يقع في الطريق الذي يجب أن تمر به جميع الجنائزات في طريقها إلى المقبرة . وكانت الجثث تمر بنا على الدوام كل يوم . لقد كان هذا هو السبب الذي قطع لأجله السيد الرئيس علاقته بي إلى الأبد . لقد كان يحمي الجنائزات . أما أنا، فماذا يهمني من ذلك؟ إنها ليست غلطتي . لقد كان كالطفل الصغير، رأسه مليء بالأوهام . كان يصدق أي شيء يقوله له أي شخص ، سواء بالخير أو بالشر . كنت في البداية حريصة عليه ، واعتدت أن أواصل تقبيله طوال الوقت الذي تستغرقه الجنائزات في المرور بمختلف ألوان النعوش أمام المنزل، حتى لا يلمحظ مرورها . ولكني مللت من ذلك ولم أعد أفعله . كان أحب شيء إليه أن تلعن له إحداهن أذنه ، رغم أن طعمها يكون كريها أحيانا . إن بإمكانني أن أراه الآن، جالسا حيث أنت جالس، ومندبيله الحريري الأبيض معفود بعناية وإحكام حول عنقه ، وقبعته العريضة، وغطاء خذانه بحوافه الوردية، وحلته الزرقاء .

- وبعد ذلك ، أظن أنه لا بد وكان قد أصبح رئيسا للجمهورية بالفعل حين كان شاهدا على عرسك؟ .

- كلا، بالمرّة . إن المرحوم زوجي - رحمه الله - لم يكن يهتم بمثل هذه الأشياء . وكان يقول: إن الكلاب وحدها هي التي تحتاج إلى شهود وأناس تمعلق فيها حين تزوج، ثم ينطلق العروسان وخلفهما شريط من الكلاب الأخرى، وكلها سائلة اللعاب متدلية الألسن . . .

حاجز الموت

وصل الفس على جناح الطير . وقال في نفسه : ثمة أناس على استعداد لأن يهرعوا مقابل جزء من هذا . فماذا هناك أغل من نفس إنسانية ؟ وثمة أناس يفرغون من طعامهم ومعدتهم لا تزال تضح طلبا للمزيد مقابل جزء من هذا . مع . . . ! إني أؤمن بثلاثة أشخاص منفصلين في الشالوت ، وإله حقيقي واحد . ضجيج المعدة ليس هناك ، بل هو هنا ، عندي ، عندي ، عندي ، عندي ، في معدتي ، في معدتي ، في معدتي . . . من معدتك ، يا يسوع . . . هناك المائدة جاهزة ، المفروش الأبيض ، الأطباق البورسلين الناصعة البياض ، والخادمة العجفاء . . .

وحين دخل القس - تبعه بعض النسوة من الجيرة من المذمبات حضور مشاهد الاحتضار - إنتزع ذو الوجه الملائكي نفسه من رأس السرير الذي تنام عليه كميله ، وبدت وقع خطواته كانتزاع الجذور العميقة من تربتها . وأحضرت صاحبة الخانة كرسيًا للقس ، ثم انسحب الجميع من الغرفة .

وبدأت تتمتم كلمات الاعتراف الأخير : أنا ، الخاطئة ، أعترف لله بـ . . .

- باسم الأب والابن والروح القدس . . . يا ابني ، كم مضى عليك منذ أن اعترفت آخر مرة؟

- شهران . . .

- وهل أدبت طقوس التوبة؟

- أجل يا أبي . . .

- بسردي خطاياك . . .

- اعترف يا أبي . أبي كذبت . . .

- بشأن موضوع خطير ؟

- كلا . وأبي عصيت والدي ، و . . .

(تـك ، تـك ، تـك ، تـك ، تـك ، تـك)

- وأعترف يا أبي ، انني . . .

(تـك ، تـك) .

- لم أحضر بعض القداسات . . .

وبدا كأن الفتاة المريضة والقس الذي تعترف له يتحدثان في قبو تحت الأرض . كان الشيطان والملاك الحارس والموت حاضرين الاعتراف . وأفرغ الموت نظراته الحارية في عيني «كميلة» ، بينما جلس الشيطان عند رأس السرير يبصق عناكب ، ويكي الملاك في أحد الأركان ، بنشيع طويل متحجب .

- وأعترف يا أبي أنني لم أكن أواظب على تلاوة صلواتي في المساء والصباح ،

وانني . . .

(تـك ، تـك ، تـك ، تـك) .

- . . . تشاجرت مع أقراني من الفتيات !

- حول أمور تتعلق بسمعتك ؟

- كلا . . .

- يا ابنتي ، لقد إقترفت إثما عظيما في حق الله . . .

- وأعترف يا أبي أنني ركبت الجياد كالرجال .

- أكان ذلك أمام الناس ، وهل سبب ذلك فضيحة ؟

- كلا ، لم يكن هناك سوى بعض المنود .

- إذن لقد شعرت أن بوسعك القيام بأي شيء يقوم به الرجال . إن هذا أيضا

خطيئة كبرى ، فإن الله تعالى خلق المرأة كي تكون امرأة ، وعليها ألا تحاول أن تغير من طبيعتها وتقلد الرجال ، فإن هذا هو السير في طريق الشيطان الذي أراد أن يكون مساويا لله جل شأنه .

وفي الجزء الآخر من الغرفة ، أمام النضد الذي غطوه كيبا يصبح كمذبح الكنيسة ، بما عليه من زجاجات من كل صنف ولون ، كان ذو الوجه الملائكي

«ولامسكوناه» والجيران ينتظرون، لا ينطقون حرفاً بل يتبادلون نظرات مليئة بالخوف والرجاء، ويزفرون سيمفونية من التهديدات، ثقيلة بما تجعله من فكرة الموت الخائفة. وأظهر الباب المزارب لمحة من الطريق ساطع النور، وفناء كنيسة «لامرسيد»، وبعض المنازل وحفنة من المارة. وشعر ذو الوجه الملائكي بالآلم لرؤية هؤلاء الناس يروحون ويغدون بلا أكرات رغم أن «كميلة» تختصر - وهم كحيات رمال ثخينة في غربال شمسي، أشياح نبطر عليها روح الثعلب، مصانع برار متقلبة...
وجز صوت القس سلاسل صغيرة من الرنين خلال الصمت الذي يسود الحجرة. وسعلت المريضة. وقطع اهواء طبول رثيها.

- أيتها، إني أعترف بكل الخطايا الصغيرة والكبيرة التي اقترفتها ونسيتها.

وتلا ذلك عبارات الغفران باللاتينية، واختفاء الشيطان مهطعاً، وظهور الملاك كهالة من نور كيبا ينشر جناحيه الأبيض فوق «كميلة». وثني غضب ذي الوجه الملائكي من المارة غير المباليين. ومن كراهيته الصيبانية المزوجة بالحنان، ويجعله يفكر - إذ إن الرحمة لها دروب خفية - في أن يعمل على إنقاذ رجل يتهدهه خطر الموت، فربما يمنحه الله حياة «كميلة» في مقابل ذلك، رغم أن الأمر يبدو مستحيلاً من وجهة نظر العلوم الطبية.

وخرج القس في صمت، وتوقف على عتبة الباب ليشعل سيجارة من ورق الذرة ويلعلم أطراف مسوحيه الكهنوتي، فقد كان القانون يلزمه بأن يبقيه مخفياً تحت عباءته ما دام في الطريق. كان يبدو رجلاً مسالماً وديعاً عذبا. وذاعت الأنباء بأنه قد استذعي كيبا تعترف له امرأة تختصر. وغادر الجيران البيت بعده، كما خرج ذو الوجه الملائكي كي ينفذ خطته في إنقاذ رجل.

«حارة المسيح»، «الخصان الأبيض»، ثم «ثكنات الكلفاري». وهناك سأل ذو الوجه الملائكي العريف الذي يقوم بالحراسة عن الميجور «فارغان»، فقال له أن ينتظر، ودلف جندي إلى الداخل منادياً:

- «الميجور «فارغان»! الميجور «فارغان»!

ومات أصوته في الفناء الرحيب دوغماً جواب. ولم يرد عليه سوى أصداء صوته

التي ترددت وسط المنازل البعيدة: جور فان فان! جور فان فان!

ووقف المحبوب ينتظر على بُعد خطوات قليلة من الباب، دون أن يتجارب مع ما كان يجري حوله. كانت الكلاب والنسور تشاجر على قطعة مينة ملقاة وسط الطريق. وفي مقابل هذا المشهد مباشرة كانت ثمة نافذة ومن ورائها ضابط يتسل بمراقبة المعركة الشرسة وهو يقتل طرفي شاربه. وكانت ثمة سيدتان تحتسيان عصير الفاكهة في حانوت صغير يموج فيه الذباب. ومن الباب الخارجي للمنزل السالي خرج خمسة صبية صغار يرتدون ملابس البحارة، يتبعهم سيد شاحب كالكرنية وسيدة حبل (بابا وماما). وشق جزار طريقه وسط الصبية وهو يشعل سيجارة؛ كانت ملاسها تغطيها بقع الدماء، وقد شعر عن ساعديه، وحمل ساطوره الحاد بالقرب من صدره. وكان الجنود يروحون ويغدون، وثمره خيط متعرج من آثار أقدام حافية مليلة فوق القرميد الذي يغطي الصالة الداخلية ثم يختفي في الفضاء. وصلصلت مفاتيح الثكنة وهي تصطدم ببندقية الحارس إذ كان واقفا انتباه إلى جوار ضابط الحراسة الذي كان يجلس على مقعد حديدي في وسط حلقة من كتل البصاق.

ودلفت إلى المكان عجوز بيضاء الشعر، تمشي المومنا كالغزال الصغير، جلدها في لون النحاس المحروق بفعل الشمس وقد غضته السنون، واتجهت إلى الضابط وغطت رأسها بشالها القطني في احترام وقالت له متضرعة:

- عفوا يا سيدي، إني أرجوك بحق الرحمة أن تدعني أتحدث مع ابني، وستكافئك العذراء على صنيعك.

وقبل أن يرد الضابط عليها أطلق سيلًا من البصاق - نفوخ منه رائحة التبغ وتسويس الأسنان.

- ما هو اسم ابنك يا سيدي؟

- إسماعيل يا سيدي.

- إسماعيل ماذا؟

- «إسماعيل ميخو» يا سيدي.

ويصن الضابط مرة أخرى.

- ولكن، ما هو لقبه؟

- «مبخوه» يا سيدي .

- إسمعي ، من الأفضل أن تعودتي يوماً آخر فنحن مشغولون .

وانسحبت العجوز دون أن تُنزل الشال من على رأسها ، في بطن ، وهي تحصي خطواتها كأنها هي نزن الأمانة ، وتوقفت برهة على حافة الطوار ثم عادت ثانية واقتربت من الضابط الذي كان لا يزال جالسا على مقعده .

- اعذربي يا سيدي ، ولكي لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك ؛ إني أتية من بعيد جدا ، على مسافة ستين كيلومترا ، لذلك فإني إذا لم أراه اليوم فلا أعرف متى سأستطيع العودة . هلا استدعيته من فضلك ؟

- لقد سبق أن قلت لك إننا مشغولون . اذهبي ولا تضايقي .

وكان ذو الوجه الملائكي يشهد هذا المنظر ، وثار فيه مرة أخرى الرغبة في أن يفعل خيرا حتى يكافئه الله على ذلك بإنقاذ حياة كريمة ، فقال للضابط في صوت خفيض :

- استدع الشاب أيها اللقنات ، وهاك شيئا حق السجائر .

وتناول الضابط النقصود دون أن ينظر إلى الغريب وأصدر أوامره بإحضار «اسماعيل مبخوه» . ووقفت العجوز الضئيلة الحجم تحديقاً إلى من أحسن إليها كأنها مر ملاك .

ولم يكن الميجور «فارغان» موجودا في الشكنات . وظهر موظف في إحدى الشرفات وقلمه خلف أذنه ، وأخبر المحبوب أن الميجور يكون عادة في هذه الساعة من الليل في دار «النشوة اللذيذة» ، لأن ابن إله الحرب النبيل هذا يقسم وقته بين الواجب والهوى . ولكن ، لن يضر شيء أن يبحث عنه أولا في بيته . واستقل ذو الوجه الملائكي عربة أجرة . كان «فارغان» يسكن شقة مفروشة في صاحبة بعيدة . وكان باب الشقة ناحل اللون كثير الفروج بفعل الرطوبة فكان يبين عن داخل الشقة المظلم . ودق ذو الوجه الملائكي مرتين وثلاثاً . لم يكن هناك أحد في الداخل . وعاد لتوه ، ولكنه ذهب يرى كيف حال «كميلة» قبل أن يتوجه إلى دار «النشوة اللذيذة» . ودهش لصوت العربية بعد أن تركت الطرق غير الممهدة إلى الطرق المرصوفة : حوافر الجياد والعجلات ، العجلات وحوافر الجياد .

حين انتهت ذات السن الذهبية من حكاية غرامها مع الرئيس، عاد ذو الوجه الملائكي إلى الصالون. كان من الأهمية لديه بمكان ألا يغرب ميجور «فارغان» عن نظره، وأن يتحقق من قصة المرأة التي قبضوا عليها في منزل «كاناليس» وباعها المدعي العسكري العام النذل مقابل عشرة آلاف بيزو.

كان الرقص على أشده في الصالون، والراقصون يتمايلون على أنغام الفالس، يصاحبهم صوت «فارغان» الغارق في السكر، بغنااته:

لماذا من البغايا
مفتونات بي
لاني أغني لمن دائما
أغنية زهرة المقهى

واعتمد في جلسته فجأة وأدرك أن الخنزيرة لبست معه، فتوقف عن الغناء وصاح بين نوبات الفواق:

« إذن لقد ذهبت «الخنزيرة»، أليس كذلك أيها الأفاقون؟ إنها مشغولة، أليس كذلك أيها الأفاقون؟ إذن أنا ذاهب، أقول لكم إنني ذاهب، أ... قو... ل لكم إنني... ذاهب، ذاهب... حسنا، ولماذا لا أذهب؟... أقول لكم إنني ذاهب... »

ونفض بصعوبة وهو يستند إلى المنضدة التي قد تمدد عليها، وإلى المضاعف والجدران، ومشي مترنحا ناحية الباب. وجرت الخادمة تفتحه له.

« أقول... لكم... إنني ذاهب! سوف تعود هذه العاهرة، أليس كذلك يا سيده «تشنون»؟ ولكنني ذاهب! لم يعد أمامنا نحن العسكريين المحترفين إلا أن نموت من السكر، وعندها يكون بوسعهم أن يستقطروا الخمر منا بدلا من أن يذوقونا! يعيش بخني لحم الخنزير، ونعيش الجساهير! »

ولحق به ذو الوجه الملائكي على الفور. كان يسير على حافة الطوار مترنحا كالبهلوان، يقف مرة وقدمه اليمنى في الهواء، ومرة قدمه اليسرى، ثم مرة أخرى قدمه اليمنى، والآن قدماء الإثنان... ولحق نفسه قبل أن يقع وقال ملاحظا: « هكذا... كما قال البخل للجام ».

وكانت ثمة نوافذ مفتوحة في مآخور آخر تلقي بأضوائها في الطريق، وعازف بيانو طويل الشعر يعزف صوناتة ضوء القمر ليهوفن. ولم يكن هناك من أحد ينصت له في الغرفة الخالية سوى المقاعد التي اصطفت كالنظارة من حول البيانو الضخم المتهالك، الذي لم يكن يزيد في ضخامته عن حوت بونس. وتوقف ذو الوجه الملائكي جامدا وقد بهرته الموسيقى. وأستند الميجور - ذلك الدمية المطروعة - إلى الحائط، واقترب كئيبا يخضع شذرات فؤاده المحطوم للألحان: كان يعود إلى الحياة وسط الأموات وجل ميت ذو عَيْنَيْن مشتعلتين معلق بعيدا بعيدا فوق الأرض، بينما كانت عبون مصابيح الطريق تنطفئ، واحدة بعد أخرى، وقطرات الندى الليلي تنساقط من الأسطح كالمصابير التي تصلب السكاري أو التي تندق في ألواح العنش الخشبية. وكان كل مفتاح صغير داخل الصندوق المغناطيسي للبيانو يجذب ومال الألحان الموسيقية الدقيقة، وبعد أن يجسها في جوفه فترة، يطلقها مرة أخرى على شكل أصابع للنغمات الوترية، مضاعفة كئيبا تسكر باب الحب المغلق على الدرام؛ نفس الأصابع دائها، ونفس اليد دائها. وكان القمر يمنح غير ساء عمهدة نجاء الخمول الغافية، مغلما وراءه أحراجا تخيم عليها الظلمة، مرغبة للطيور، ولأولئك الذين يجنون الدنيا قد أنقلبت رحيبة واسعة كأنما بفعل السحر حين يولد الحب، وضبيعة فارغة حين يموت الحب.

واستيقظ «فارغان» ليجد نفسه راقدا على نضد حانة صغيرة، تهزه يد أحد الغرباء كما يهزون الشجرة حتى تسقط ثمارها الناضجة.

- ألا تعرفني يا ميجور؟

- أجل... لا... حالا، حالا سأعرفك...

- ألا تذكرني؟

- آ... آ... آوه... «تأهب فارغان وهو ينهض من على النضد الذي كان راقدا عليه، وفد بلله العرق كبغال الجمر.

- «إني ميغيل ذو الوجه الملائكي، في خدمتك».

وحياه الميجور بالتحية العسكرية.

- «أرجو أن تعذري، فإني لم أتعرف عليك. ولكن، أجل، بالطبع، إنك من يرى دائما مع السيد الرئيس».

- حسنا! لا تندعش لإيقاظي إياك، يا ميجور، على هذا النحو المفاجيء .

- لا أهمية لذلك للمرة .

- ولكن لقد حان الآن وقت عودتك إلى الثكنات، وكان يجب أن أحادثك على انفراد، ومن المصادفة أن كانت صاحبة هذه ... فلنقل هذا المقهى، غائية الآن. لقد بحثت عنك في كل مكان، كالابرة في كومة من القش، أصيل أمس، في الثكنات، في شقتك. يجب أن تعذني بالألا تبوح لشخص بما سوف أقوله لك الآن.

- كلمة شرف.

وشد المحبوب على يد الميجور بحرارة وقال له بصوت خفيض وعينه على الباب:

- إنني في مركز بمكنتي أن أعرف أنه قد صدرت أوامر بالتخلص منك. لقد أرسلت تعليمات إلى المستشفى العسكري بأن تُعطى لك جرعة متومة قاتلة في أول مرة تدخل هذه المستشفى عقب إحدى سهراتك الصاخبة. لقد أبليت العاهرة التي تصاحبها في دار « النشوة اللذيذة » السيد الرئيس عن نوباتك الثورية .

وتصلب «فارغان» في موضعه من وقع كلمات المحبوب إليه. ثم رفع قبضته في الهواء صائحا:
- آه، الكلبة!

وضرب الهواء بقبضته كأنما هو يضرب العاهرة، ثم أحنى رأسه كأنما هو قد انسحق.

- يا إلهي، وماذا سأفعل؟

- لا تسكر في الوقت الحاضر، فهذا هو السبيل الوحيد لانتقاء الخطر الداهم، ثم لا ...

- هذا ما كنت أفكر فيه، ولكني قد لا أحمل ذلك، فهو شيء صعب جدا. ماذا كنت ستقول؟

- كنت سأقول لك أيضا انه يجب ألا تتناول طعاما في الثكنات .

- لا اعرف كيف اشكرك .

- بالصمت . . .

- بالطبع . ولكن هذا لا يكفي . ومع ذلك ، فلا بد أن تسنح لي فرصة أرد لك فيها هذا الجميل ؛ ومن الآن ؛ يمكنك أن تعتمد عليّ في أي شيء ، فانا مدين لك بحياتي .

- ولسوف أعطيك نصيحة أخرى طيبة كصديق . حاول ان تعثر على طريقة تصح بها من أتباع السيد الرئيس .

- أجل ، هذا هو طريق الخلاص ، اليس كذلك ؟

- لن يكلفك هذا شيئا .

وكان كل منهما يضيف إلى ذلك الكلام في سريره :

إن أفضل وسيلة لكسب ثقة السيد الرئيس هي : ارتكاب جريمة ، مثلا ، أو الجور العلني على الناس الضعفاء العزل ، أو إظهار نفوق القوة الغاشمة على الرأي العام ، أو اكتساب الأموال على حساب الأمة ، أو . . .

. . . وأفضل وسيلة هي ارتكاب جريمة قتل ، إن القضاء على أحد الزملاء هو أفضل برهان يقدمه مواطن على ولائه للسيد الرئيس . ثم يقضي شهرين في السجن حفاظا على المظاهر ، ثم يتولى بعد ذلك مباشرة أحد المناصب العامة المخصصة لأهل الحظوة ، مما لا تمنح إلا لمن له قضية معلقة أمام المحاكم لم يتم البت فيها ، وذلك حتى يمكن الزج بهم في السجن مرة ثانية إذا هم لم يحسنوا السلوك .

- لن يكلفك هذا شيئا .

- إنك لفي غاية الكرم يا سيد ميغيل .

- كلا يا ميجور ، لا تشكركي ، إن قراري بإنقاذ حياتك هو قرباني إلى الله مقابل حياة مريضة في حالة خطرة . حياتك مقابل حياتها .

- أهى زوجتك ؟

وطافت أجمل كلمة في نشيد الأناشيد فترةً سابحةً في الهواء . كوشي . سحري

لطف، وسط أشجار مليئة باللائكة الصغار، وبزاعم أزهار البرتقال .
وبعد أن خرج الميجور، قرص ذو الوجه اللائكي نفسه كيما يتأكد أنه هو
بلحمه ودمه - الرجل الذي ساق الكثيرين إلى حتفهم - هو الآن بنفسه الذي يدفع
رجلا إلى الحياة، في تلك الزرقة الصافية للصبح الطالع .

زوبعة

وأزاح ذو الوجه الملائكي صورة الميجور البدين من ذهنه، ثم أغلق الباب وتسلل على أطراف أصابعه إلى الغرفة الداخلية المظلمة. كان يشعر وكأنما هو بحلم. إن الفرق بين الحقيقة والحلم هو فرق زائف تماماً. نائم، مستيقظ، في أي الحالتين هو؟ وبدا في الغبشة كأنما يشعر بالأرض تميد تحت قدميه. وكانت الساعة والذباب يصحب كميلة إذ هي راقدة تخنصر، فالساعة - نابضة - تسقط حبات الأرز الصغيرة لتترك علامة على طريق العودة، حين تحل ساعة الموت. أما الذباب فهو يجري فوق الجدران، ينظف أجنحته الصغيرة من برودة الموت. وكانت ثمة ذبابات أخرى تطلن وهي تطير هنا وهناك بسرعة. وتوقف ذو الوجه الملائكي أمام السرير في هدوء. كانت المريضة لا تزال سادرة تهذي...

... لعبة الأحلام... برك من زيت الكافور... حوار النجوم البطيء...
الاتصال الخفي المائع العاري بالفضاء الخالي... مفصلة اليدين المضاعفة...
عدم جدوى اليدين في اليدين... صابون معطر... الحديقة في كتاب المطالعة... في بيت النمر... في ما وراء عالم البيغاوات الفسيح... في قبضة الإله... في قبضة الإله... في قداس منتصف الليل - المسمى قداس الديك - ديك على عُرْفه قطرة من القمر... ينفر القربان المقدس... يضيء وينطفئ، يضيء وينطفئ، يضيء وينطفئ... إنه قداس إنشاد... إنه ليس ديكا، إنه ومضة برق من السيلوليد في عتق زجاجة ضخمة يحيط بها جنود صغار... برق حانوت الحلوى المسمى «الزهرة البيضاء» التي تضعها القديمة ووزا... رغبة بيرة الديك تقدم للديك الصغير... للديك الصغير...

سوف تسجيها

جنة هامدة

يا ملاك الموت، موت!

فهي ليست سعيدة هنا

يا ملاك الموت، موت!

ثمة صوت طبول لا يُسمع خلاله أحد يتمخط، طبول تقتفي أثر الدقات في مدرسة الريح... قف! إنها ليست طبولا، بل هو باب يردد صدى مقرعة عمل شكل يد نحاسية. وتتردد الدقات كالنذير في كل ركن من أركان الصمت الداخلي للبيت... رات - ثات - ثات... طبول البيت. كل بيت له طبول على بابه تستدعي ساكنيه الذين هم عماد حياته، وحين يكون الباب مغلقا يكونون كالأحياء الأموات... رات - ثات - ثات... البيت... الباب... رات - ثات - ثات البيت... وحين تسمع مياه النافورة صوت طبول الباب ترهف أذانها، ويقول الناس لخدمهم في غلظة: «أوه، الباب يقرع!» وترجع الجدران صدى يتردد مرارا وتكرارا: الباب يقرع، إذهب وافتح الباب! «أوه، الباب يقرع، إذهب وافتح الباب!» الرمداء في قلق ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا (بينما القطة جالسة كالحارس اليقظ) إلا أن يبعث رجفة رقيقة عبر قضبان الموقد؛ وتخاف الورود - الضحايا البرينة للأشواك القاسية؛ وتتكلم المرايا، تلك الوسائط المشربة، بصوت هو روح من الأثاث الميت: أي... بدقون، تعالوا افتحوا!!

... البيت كله يرتج كإنما حدث زلزال، ويريد أن يذهب ليرى من يقرع الباب، يقرع، يقرع، يقرع طبول الباب: وترقص الكسرولات، وتهادى أصص الزهور، وتدق الأحواض الحديدية: «رانا بلان، رانا بلان!»، وتسعل الأطباء سعلة صينية، وتتناثر الأقداح وأدوات المائدة كالضحكة الفضية، وتبثق الزجاجات الفارغات الزجاجية التي رُبنت بدموع دهن الشمعة والتي يستخدمونها شمعدانا في الغرفة الخلفية، وكتب الصلوات مع فروع النخيل تحاول عندما يقرعون الباب الدفاع عن البيت ضد العاصفة، والمقصات، والأصداف، واللوحات، وخصلات الشعر القديمة، ودنان الزيت، وصناديق الكرتون، وعيدان الثقاب، والمسامير...
... أعماقها هم الوحيدون الذين يتظاهرون بالنوم وسط الأشياء النائمة، في جزر أسرهم العريضة، مستترين بالأغطية المحشوة بالفطن والتي تعبق برائحة

عصير الأعماء. وعينها تفرض طبول الباب في الصمت العريض. وتغمغم واحدة
من زوجات أعمامها، وأكثرهن نقاشاً: «إنها لا يزالان يقرعان الباب». ويرد
زوجها في الظلام: «أجل، ولكن من الخطر فتح الباب». «كم الساعة الآن؟ آه يا
عزيزي، لقد كنت مستغرقة في النوم... إنها لا يزالان يقرعان الباب». «أجل.
ولكن من الخطر فتح الباب». «وماذا يقول الجيران؟». «أجل، ولكن من الخطر
فتح الباب. إذا كان الأمر يتعلق بنا نحن فقط لفتحنا الباب بالطبع، ولكن فكّري
فيما سيقول الناس عنا!». «إنها لا يزالان يقرعان الباب». «أجل ولكن من الخطر
فتح الباب». «إنه لأمر شائن، هل سمعت أبداً شيئاً كهذا؟». «أجل ولكن من
الخطر فتح الباب!». «

ثم خفت صوت عمها الخشن وضدّر الآن عن حلول الخدم. ووصلت أشباح
تعبق برائحة الخراف إلى حجرة نوم سيدها وهي غيمس: سيدي، سيدي. انصتا
تَبْ يدقان على الباب!... «ثم تعود إلى أسرّتها البفيرية وإلى براغيثها وإلى
أحلامها، وهي تردد مراراً وتكراراً: آه، ولكن من الخطر فتح الباب. آه، إن من
الخطر فتح الباب!». «

رأت نات - نات على طبول البيت... ظلمة الطريق... الكلاب تغطي
الساء بقرميد نباحها، بأسطحة سطوحاً للنجوم وللزواحف السوداء والغاسلات
المنجولات من الطين. اللائي يدفعن أذرعتهن في أعناق رغبة البرق العضي...
«بابا... عزيزي بابا... بابا!». «

ونادت على أبيها في غمرة هذيانها، وعل مربيتها العجوز التي تسرد ميتة في
المستشفى، وعل أعمامها الذين لم يفتحوا لها أبواب منازلهم حتى وهي تختصر.

ووضع ذو الوجه الملائكي يده على جبهتها. وجال في خاطره وهو يرت
عليها: «إن شفاءها ضرب من المعجزة. آه لو كان بإمكانني فحسب أن أطرد عنها
المرض بدفء يدي!». كان يعاني من ذلك الحزن الغامض الذي يصيب من يقرب
مخلوقاً فتياً مختصر، تلك الرقة الراجفة التي بعثت بالشجن يزحف تحت جلده
وخلال لحمه. ما يوسعه أن يفعل؟ وبدأ عقله يقحم آلياً صلوات بين أفكاره: «لو
كان يوسعي فحسب أن أزحف تحت جفنيها وأزيل دموع الحزن والوحدة من
عينها. من تلكها العينين اللتين بلون أجنحة الأمل. فليحفظك الله. نحن المحرومين

نضرع إليك يا الهي . إن الحياة كل يوم جريمة . . . حين يجب المرء . إمتحنا يومنا يا الهي» .

وحين خطر بيته على باله كان كأنما يفكر في بيت غريب . إن بيته هنا ، مع «كميلة» ؛ صحيح إن هذا ليس منزله ، ولكن «كميلة» فيه . وماذا يحدث لو لم تكن «كميلة» هنا؟ واخترق جسده ألم غامض طوَّاف . ماذا يحدث لو لم تكن «كميلة» هنا؟

ومرت عربة نقل ، فاهتز المنزل وارتمت الزجاجات على رفوف البار؛ ودقت مطرقة باب ، واهتزت بيوت الحي . وأجفل ذو الوجه الملائكي إلى درجة شعر معها أنه لا بد وكان على وشك أن ينام وهو واقف . من الأفضل أن يجلس . كان ثمة مقعد إلى جوار منضدة الأدوية . وبعد لحظة كان هذا المقعد يستقبل جسده . نكتات الساعة ، رائحة الكافور ، ضوء الشموع المضاء قربانا ليسوع . كنيسة «لامرسيد» ويسوع «كاندلاريا»ه المجيدون ، المنضدة ، المناشف ، الأدوية ، زئبق رداء القديس فرانسيس الذي أعفرتهم لهم إحدى الجارات كئيبا يطرد الشيطان ، كانت كلها تتحلل تحللا فوريا في هدوء في إيقاع بطني ، في تدرج موسيقي يبعثه المخدَّر عناءً لذيد به نقوب أكثر عما في اسفنجة ، خفي ، نصف ذائب ، مستور ، تخترقه ظلال الأحلام المتقطعة :

ومن يعزف على الجيتار؟ . . . عظام صغيرة تتكسر في القبو المظلم ، الذي ترتفع منه أغنية المهندس الزراعي . . . البرد القارس بين أوراق الشجر . . . ومن جميع مسام الأرض ترتفع ضحكة متصلة شيطانية كالجنح المربع الأركان . . . هل هم يضحكون ، هل هم يبصقون ، ماذا يفعلون؟ لم يهبط الليل بعد ، ولكن الظلام يفصل بينه وبين كميلة ، ظلام الجماجم التي تضحك في مقلاة المشرحة . . . تصدر الضحكة عن أسنان سوداء مريضة ، بيد أنها حين تبلغ الهواء تمتزج ببخار الماء وترتفع إلى أعلى كئيبا تصبح سحابا . وأسوار مجسولة من أمعاء بشرية تقسم الأرض إلى نصفين . وضلوع جواد تصبح فيولينة يعزف الإحصار الهادر أنغامه عليها . ويرى جنازة «كميلة» تمر من أمامه ، عينها تسبحان في زبد لجام نهر من العربات السوداء . . . لا بد أن للبحر الميت عيوننا أيضا!

عينها الخضراءوان . . . لماذا بلوح السائقون بقفازاتهم البيضاء في

الظلمة؟ ... ووراء موكب الجنازة، يغني هيكل عظمي مليء بعظام أفخاذ الأطفال: «أيها القمر، أيها القمر، خذ برقوتك، والحق الحجر في البحيرة! ..» وكل عظمة صغيرة رقيقة تغني هذه الأغنية: «أيها القمر، أيها القمر، خذ برقوتك، والحق الحجر في البحيرة! ..» وعظام الخوض يعيون مستطيلة كالعراوي: «أيها القمر، أيها القمر، خذ برقوتك، والحق الحجر في البحيرة! ..» لماذا يتعين على الحياة اليومية أن تسنم؟ ... لماذا يستمر الترام يسير؟ ... لماذا لا يموت كل الناس؟ ... بعد جنازة «كميلة» لا يمكن أن تكون الأشياء على حالتها السابقة، كل شيء ناه، زائف، لا وجود له ... من الأفضل لو استطاع الضحك ... البرج ينحني من فرط الضحك ... وهم يفتشون جيوبها بحثا عن تذكارات ... الثراب الذي حلفته أيام «كميلة» ... لا قيمة له ... خبط ... ينبغي أن تكون «كميلة» هنا الآن ... خبط ... بطاقة قدرة ... أوه، ووجنة ذلك الدبلوماسي الذي يأتي بالبيد والبصائع المعلقة دون رسوم جبركية ثم يبيعها لخانوت بملكه مسدوي من أرض «النبرون» ... دع العالم كله يغني ... حطام سفينة ... أطواق النجاة كالتيحبن البيضاء ... دع العالم كله يغني ... كميلة، ساكنة بين ذراعيه ... مقابلة ... يد قازح الخرس ... إنهم يقبضون نواصي الطريق رأسا على عقب ... شاحبة من الانفعال ... تتميز غيظا، صامته، متفسحة ... لماذا لا يقدسونها ذراعهم؟ ... وترك نفسها تهبط بنسيج حاسة اللمس لديها، تستند على الدراع التي تنقصها؛ وهي لا تمسك إلا برون السترة الفارغ ... في أسلاك البرق ... لقد أضاع وقته ينظر إلى أسلاك البرق، ومن منزل ضخم في «حارة اليهود» يخرج خمسة رجال محبوبين من الزجاج المعتم، يعترضون طريقه، كل واحد منهم ينز من صدغه سيل من الدماء ... وبحاروب بانسا ليصل إلى المكان الذي تنشطر فيه كميلة. يعيق برائحة صمغ طوابيع البريد ... وبعيدا بُرى جبل الكرمل ...

ويحاول ذو الوجه الملائكي في حلمه المتقطع أن يشق طريقه إلى الخارج. إنه عسى ... إنه يبكي. ... ويحاول أن بعض خبط الظلمة الرفيع الذي يفصله عن حجر النمل البشري الذي يقام تحت تندات من القش على التل الصغير لبيع اللعب والفواكه واخفوى ... ويُشرع مخالبه ... ويتصب شعره ... وينجح في عبور جسر صغير ويمضي لمقابلة كميلة، ولكن الرجال الخمسة المحبوسين من تزجج المعتم يعترضون طريقه ثانية. انهم يقسمونها شرائح صغيرة تُعيد القربان

المقدس! . ويصبح فيهم: «دعوني أمر قبل أن يدمروها كلية. إنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها لأنها ميتة! ألا ترون؟ انظروا، انظروا! كل ظل له ثمرة فاكهة وثمره شذرة من «كميلة». مبنوثة في كل ثمرة! كيف يصدق المرء عينه؟ لقد رأيتها مدفونة وكنت على ثقة من أنها ليست هي، إنها هنا في عيد القربان المقدس، في هذه المقبرة، تعبق برائحة السفرجل والمانجو الكمثري والخوخ؛ وصنعوا من جسدها حمائم صغيرة بيضاء، عشرات... مثاث من الحمائم القطنية البيضاء الصغيرة مربوطة بشرائط ملونة مطرزة عليها عبارات مثل «اذكريني» «حب خالد» «أنت في بالي دائماً» «حبيبي إلى الأبد» «لا تنسي». ويغرق صوته في صوت الأبواق الصيائية الحاد، والطبول المصنوعة من أمعاء السنوات المجففة والحيز العفن؛ وفي جبهة الناس (أباً) يصعدون بخطى متتالية، وأطفال بطاردون بعضهم بعضاً؛ وفي صلصلة الأجراس في أبراج الكنائس، وفي حمأة الشمس، وفي دفء الشموع العمياء في الظهيرة، في وعاء القربان المقدس المتلألئ... ويندمج الرجال الخمسة المجلبولون من الزجاج المعتم في رجل واحد، شكل مجبول من دخان غاف... ومن بعيد، لا يبدو لهم مظهر ملموس... إنهم يشربون مياها غازية... رابطة من المياه الغازية مرفوعة في الأيدي ترفرف كالصرخات... متزلجون على الجليد... «كميلة» تنزلق بين متزلجين خفيفين، عبر امرأة عامة تعكس الخبر والشر بلا محاية. وشنت الأذان برنة صوتها المعطر وهي تحاول أن تدافع عن نفسها بقولها: «كلا، كلا، ليس هنا!» «ولكن، لم لا هنا؟» «لأنني ميتة» «وماذا يهم ذلك؟» «ذلك...» «ماذا؟ قولي ماذا؟» «ومر بين الإثنين تبار من الهواء البارد من السماء الرحيبة وطباير من الرجال يرتدون بناطيل حمراء. وخرجت «كميلة» وراءهم. وبدافع المفاجأة يتدفع هو وراءها... ويقف الطباير فجأة مع آخر دقة من الطبول... ويتقدم السيد الرئيس... هيته موشاة بالذهب... «تانتارارا!» ويتقهقر الجمهور مرتعداً... ويلعب الرجال ذوو البناتيل الحمراء برؤوسهم...

برافو... برافو! أعيدوا مرة ثانية! مرة أخرى، أحسنتم! ولكن الرجال ذوي البناتيل الحمراء لا يطعمون أوامر رؤسائهم بل يطعمون صوت الجمهور ويستمررون في اللعب برؤوسهم... ثلاث مرات... واحد: إرفع الرأس عالياً... إنسان: إذفها عالياً كيما تمشط بين النجوم... ثلاثة: التقطها بين يديك وأعدها إلى مكانها... برافو، برافو! أعيدوا مرة ثانية! مرة ثانية! أحسنتم! مرة ثانية! إن ذلك

يفشعر البدن... وغوت الأصوات تدريجيا... وتُسمع الطبول... ويرى كل شخص شيئا لا يريد أن يراه. ويخلع الرجال ذوو البناتيل الحمراء رؤوسهم ريتدرون بها في الهواء، ولكنهم لا يلتفتونها حين تهبط. وتهشم الجماجم على الأرض أمام صفّي الأشخاص الخاضعين وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم.

وأيقظت ذا الوجه الملائكي دقتان عاليتان على الباب. يا له من كابوس مريع! شكر الله على أن الحقيقة مختلفة تماما. إن القطة من كابوس يخلف في النفس ذات الشعور الذي تخلفه العودة من جنّة. وجرى ليبري من يندق الباب. أهي أباء عن الخبرات أو استدعاء عاجل من السيد الرئيس؟

- صباح الخير

ووجد ذو الوجه الملائكي شخصا أطول منه، وردي الوجه، يجني رأسه لينظر إليه خلال عويناته السمكية. ورد ذو الوجه الملائكي:

- صباح الخير.

- « معذرة. ربما يمكنك أن تخبرني ما إذا كانت السيدة التي تطبخ الطعام للمترسفين تعيش هنا. إنها سيّدة ترتدي السواد... »

وأغلق ذو الوجه الملائكي الباب في وجهه. وكان أثر على قصر النظر لا يزال يتطلع حواله باحثا عنه. ولما رأى أنه ليس هناك، دقّ على الباب التالي.

- «وداعا نيبا توماسيتا». حظا سعيدا!

- إني ذاهبة إلى الميدان الصغير.

كان الصوتان قد تكلمتا في نفس الوقت. وحين ذهب ذو الوجه الملائكي كي يفتح الباب، كانت «لامسكوانا» قد وصلت بالفعل.

وسأل ذو الوجه الملائكي «لامسكوانا» التي عادت لتوها من زيارة السجن:

- كيف الحال؟

- نفس الشيء.

- ماذا قالوا؟

- لا شيء.

- هل رأيت فاسكيزه؟
- هل رأيته؟ لا أظن. لقد أخذوا سلة أظفاره ثم أعادوها ثانية، وهذا كل شيء.*
- إذن فهو ليس في السجن؟
- لقد كنت أصعق حين أعادوا السلة كما هي، بيد أن سبدا أخبرني أنه قد عاد لعمله.
- مأمور السجن؟
- كلا. لقد وجهت إلى ذلك المتوحش ما فيه الكفاية. لقد كان يريد أن يخذلني.
- كيف نظنين حال كميلة؟
- إن المرض يأخذ مجراه. أجل، إن المرض يأخذ مجراه!
- إن حالتها في غاية السوء، أليس كذلك؟
- إنها محظوظة. ما أحسن أن يمضي المرء قبل أن يعرف ماهية الحياة! إنني أشعر بالخزن لأجلك أنت. إن عليك أن تذهب وتصلي ليسوع كنيسة «لامرشد».
- من يدري، ربما يأتي بمعجزة من أجلك. هذا الصباح، قبل أن أذهب إلى السجن، أشعلت شمعة هناك وقلت له: إسمع يا صغيري الأسود، ها أنا آتية إليك، لأنك أبونا ويجب أن تصغي إلينا: إن يوسعك أن تنقذ حياة هذه الفتاة، لقد رجوت العذراء أن تنقذها قبل أن انهض اليوم وها أنا أضايك الآن لنفس السب؛ سوف أترك لك هذه الشمعة وأذهب وأنا واثقة من قدرتك، ولكي سوف أعود سريعا كيما أذكرك برجائي!
- وتذكر ذو الوجه الملائكي حلمه وهو لا يزال شبه نائم. ومن بين الرجال ذوي البناتيل الحمراء، كان المدعي العسكري العمام - بوجه بومبة - يتبارز مع رجل مجهول، ويقبله، ويلعقه، ويأكله، ويتبرزه، ثم يأكله مرة أخرى...

في طريق المنفى

تعثّر بغل الجوزال «كاناليس» في ضوء الغسق الخافت، وقد أسكره التعب الذي برزح فيه تحمّل الثقل المصمت للراكب الذي يتعلّق في حافة المروج الأمامية. كانت الأظيار تحلّق فوق الغابات، والسحب تعبر فوق الجبال، صاعدة هنا، هابطة هناك؛ هابطة هنا، صاعدة هناك، تماماً كما كان الراكب يصعد ويهبط (قبل أن يتغلب عليه النوم والإجهاد) فوق تلال لا معابر فيها، وعبر أنهار فسيحة مليئة بالصخور أنعتت مياهاها المتدفقة بغله، عبر منحدرات يبرقشها الطين وتنزلق عليها الحجارة فتفتت نثاراً على الوهاد، عبر أجمات مليئة بالعوسج، وعلى طول ممرات الماعز التي تعيد إلى الذهن ذكرى الساحرات وقطاع الطرق.

كان لسان الليل متدلّياً. عصبية من أرض المستنقعات. ثم برز شكل طيفي. ورفع الراكب من على بغله، وقاده إلى كوخ مهجور ثم رحل في صمت. بيد أنه عاد على الفور. لا بد أنه كان قد خرج بين طيور «الزبزة» التي تخفي: كوكوكوكو، كوكوكوكو، كوكوكوكوكو! وبقي برهة قصيرة في الكوخ ثم اختفى كالدخان. ثم عاد ثانية. وظلّ يدخل ويخرج، يدخل ويخرج. كأن الأمر يبدو كما لو أنه يخرج ليعلم ما وجدته، ثم يعود كيؤكد من وجوده. وبدت الطبيعة كأنها تتابع دخوله وخروجه التي تشبه دخلات السحلية وخروجاتها، كالكلب الأمين، يهرّ ذليلاً من الأصوات (كوكوكوكو، كوكوكوكو، كوكوكوكو) في صمت الليل.

وفي النهاية، عاد إلى الكوخ ولم يرحل. كانت الريح تفضّ وسط أفنان الأشجار. وكان الثبار يطلع على المدرسة الليلية التي تتعلم فيها الضفادع مطالعة النجوم. جو من الهضم السعيد، حواس الضوء الخمس. وأخذت الأشياء تتخذ شكلاً أمام عيني الرجل الذي كان يجلس القرفصاء على الباب، رجل طيب وجلّ،

سكت إجلا لا لطلعة الفجر ونفس الراكب النائم البريء. في الليلة الماضية لم يكن إلا طيفا، وهو الآن رجل من لحم ودم، إنه هو الذي قاد بغل الراكب. وحين بزغ الضوء أشعل نارا، واضعا أحجار الموقد الداخنة غير المتساوية على هيئة الصليب، كاشطا الرماد المحترق بقطعة من الخشب، وجامعا ركية من الأغصان الجافة والخشب الطري. والخشب الطري لا يحترق في هدوء، إنما يتكلم كالبيغاء، ويشتتم، ويقلص، ويضحك، ويكي. واستيقظ الراكب وقد تجمد خوفا مما يراه، ولم يكن قد استجمع وعيه بعد. وقفز فقرة واحدة إلى الباب ومسده في يده، عازما على أن يدافع عن نفسه حتى النهاية. ولم يقزع الرجل الآخر من قوّة المدس المصوب نحوه، بل أشار في صمت إلى إناء القهوة الذي يمسح بالغليان إلى جوار النار. ولكن الراكب لم يابه له وتقدم ببطء تجاه الباب - فقد ظن أن الكوخ لا بد محاصر بالجنود - ولم ير أمامه إلا سهلا فسيحا يستحم في ضوء الفجر الوردى. بعيدا. كالجلد الأزرق. أشجار. سحب. دغدغة زقزقة العصافير. وكان بغله غافيا تحت شجرة تين. ووقف يصغي دون أن تطرف عينه كيما يختبر ما يراه أمامه، ولم يسمع شيئا على الإطلاق إلا الكونسير المتناغم للطيور والسريران البطيء لجدول قراق، تركت مياهه الوفيرة هميسا لا يكاد يُسمع في الهواء النقي، كالسكر المسحوق الذي يسقط في قدح من القهوة الساخنة.

قال الرجل الذي قاد بغله، وهو يكمّ وراء أربعين أو خمسين كوز ذرة في حرص: إنك لست من رجال الحكومة؟

ورفع الراكب عينيه ونظر إلى رفيقه، ثم هز رأسه من جانب إلى آخر دون أن يحرك فمه عن قدح القهوة.

فغمغم الآخر بسياء مأكرة، وهو يسرح الطرف في أرجاء الحجرة كعني كلب ضال: تانيتا!*

- إنني هارب... ١

وتوقف الآخر عن إخفاء أكواز الذرة وذهب يصبّ مزيدا من القهوة لرفيقه. لم يكن بوسع «كاناليس» الحديث عما وقع له من مصائب.

* تان، وتصغيرها تانيتا، هي كلمة محلية يطلقها المزد على البهش وهي تعني «الاب الصغير».

- إنك مثلي يا سيدي! إنني هارب بسبب ما استولي عليه من أكواز الذرة.
ولكنني لست لصا. لقد كانت هذه الأرض أرضي إني أن استولوا عليها مني، وبغالي
أيضا. . . .

واهتم الجنرال كاناليس بما كان يقوله الهندي، وأراد أن يسمع تفسيره كيف
يسرق المرء ثم لا يُعد لصا.

- « سوف أخبرك يا « تاتيتا » كيف أسرق رغم أنني لست لصا محترفا. لقد
كنت قبل هذا مالكا لقطعة أرض صغيرة بالقرب من هنا، وثمانية بغال. كان لدي
منزلي، وزوجتي وأولادي، وكنت شريفا مثلك تماما. . . . »

- أجل، ثم ماذا حدث؟

- « منذ ثلاثة أعوام، جاء إلى هنا المندوب السياسي وأخبرني أن أقوم بنقل
هنا من أخشاب الصنوبر على بغالي للاحتفال بعيد ميلاد السيد الرئيس. فأخذت
يا سيدي، وماذا كان يوسمي أن أفعل غير هذا؟ وحين وصل وشاهد بغالي،
وضمعتي في السجن في زنزانة انفرادية، ثم اقتسم مع العمدة - وهو خلاسي -
حيواناتي. وحين طالبت بما استحق من نفوذ لديها على عملي، قال لي المندوب إنني
حيوان وإني إذا لم أطبق فمي فورا فسوف يضعني في السجن مرة أخرى. فقلت
له: « حسنا جدا يا سيدي المندوب، أفعل معي ما تريد، ولكن البغال ملكي ». ولم
أستطع أن أنطق حرفا أكثر من ذلك يا تاتيتا، لأنه ضربني ضربة عنيفة على
رأسي بزناره حتى أنه كاد أن يقتلني. . . . »

ولاحث ابتسامة مريرة ثم اختفت من تحت الشارب الأشهب للجندي
المعجوز الذي حلت به الكوارث. ومضى الهندي يقول بنفس اللهجة دون أن يرفع
صوته:

- « وحين خرجت من المستشفى جاؤوا يقولون لي إنهم قد وضعوا أولادي في
السجن وأنهم لم يطلقوا سراحهم إلا إذا دفعت لهم ثلاثة آلاف بيزو. ولما كان
أولادي صغارا ولا يحتملون الأذى، فقد هرعت من فوري إلى المحافظ وسألته أن
يبقي عليهم في السجن ولا يبعث بهم إلى الخدمة العسكرية العاملة، وإني سوف
أرهن أرض كيبا أجمع لهم الثلاثة آلاف بيزو. وذهبت إلى العاصمة، واتفق لي
المحامي هناك مع سيد أجنبي على توقيع ورقة نقول أنها سيعطيني ثلاثة آلاف بيزو

رهنا للأرض. كان هذا ما قرأه لي من الورقة، ولكنه كان غافلاً لما كان في الورقة بالفعل. وبعد ذلك بعثوا رجلاً من المحكمة يقول لي إن علي أن أترك أرضي لأنها لم تعد ملكي. لأنني قد بعثتها للأجنبي لقاء ثلاثة آلاف بيزو. وقد حلفت بالله أن ذلك غير صحيح، ولكنهم صدقوا المحامي ولم يصدقوني، واضطروني إلى الرحيل عن أرضي. ورغم أنهم قد أخذوا الثلاثة آلاف بيزو مني فقد أرسلوا بانياني إلى الخدمة العسكرية: مات منهم واحد وهو بحرس الحدود؛ وأصيب الآخر بجراح رهبة كان الأفضل معها لو أنه قد مات، ثم ماتت أمهما، زوجتي، بالمalaria. وهذا هو سبب لجوئي إلى السرقة رغم أنني لست لصاً، يا ناتان، حتى لو أنهم ضربوني حتى الموت أو ألغوا بي في السجن».

- أهذا هو ما ندافع عنه نحن العسكريين؟

- ماذا قلت يا ناتان؟

كانت ثمة عاصفة من الأحاسيس تضطرم في صدر «كاناليس» العجوز، من ذلك النوع من الأحاسيس التي تضطرم في قلب رجل طيب إزاء مظاهر الظلم. كان يتألم نيابة عن بلده، كما لو أن دعاء ذلك البلد نفسها قد فسدت. كان يعاني الآلام في جلده، في نخاع عظامه وجذور شعره، تحت أظافره، بين أسنانه. أين الحقيقة؟ ألم يفكر أبداً بعقله قبل الآن وإنما بردائه العسكري؟ إن الأمر يكون أكثر مدعاة للاشمئزاز وبالتالي للحزن إذا كان على المرء أن يكون عسكرياً فحسب كيما يُبقي السلطة في يد عصابة من الأفاقيين المستغلين، المشبهين بالآلهة، الخونة لأوطانهم، عن أن يموت المرء من الجوع في المنفى. أي حق يرغب العسكريين على الولاء لنظم لا تدين بالولاء لأي قيم ولا للعالم ولا للامة؟

وكان الهندي يتحدث في الجنرال كأنما هو صنم غريب، ولكن دون أن يفهم الكلمات القليلة التي ينطق بها.

- عليك أن ترحل يا ناتان، قبل أن تصل شرطة الخيالة!.

وطلب «كاناليس» من الهندي أن يرحل معه إلى الدولة المجاورة، ووافق الهندي، ذلك أنه كان كالشجرة التي لا جذور لها بعد أن استولوا على أرضه. وكان الأجر طيباً.

وغادرا الكوخ دون أن يطفئا النار. وشقا طريقهما وسط الغابة بغأسيهما. وكانت آثار أقدام فهد تبدو متعرجة أمامهما. ظلام. نور، ظلام. نور. شبكة من أوراق الشجر الملتفة. وشاهدا بعد فترة الكوخ يبرق وراءهما كالشهاب. الظهيرة. سحب جامدة. اشجار جامدة. كدر. بياض ناصع. أحجار ثم مزيد من الأحجار. حشرات. هياكل عظمية، خالية من اللحم ودافئة كالثياب التي تُكوى لتوها. تحلل. طيور مضطربة تحلق فوقهما. ماء وعطش. المدايريات. تبدل لا نهاية له، ودائما، دائما، نفس الحرارة.

وكان الجنرال يرتدي منديلا بحمي به قذاله ورقبته من لسعة الشمس. وكان هندي يسير إلى جواره، مراقبا خطاه على خطى البغل.

- أعتقد أننا لو سرنا طوال الليل فقد نصل إلى الحدود صباح غد، ومن الأفضل أن نحاطر ونسلك الطريق الرئيسي لأن علي أن أتوقف لدى بيت بعض الصديقات في منطقة «لاس ألدياس».

- الطريق الرئيسي يا تانا! ماذا تظن؟ لسوف نصادف هناك شرطة الخيالة.

- تعال، اتبعني! إذا لم نحاطر لن نحصل على شيء، كما أن صديقاتي هؤلاء قد يكن ذوات نفع لنا.

- أوه، لكنها يا تانا.

- وأجفل الهندي بغتة وقال:

- ألا تسمع، ألا تسمع يا تانا؟

كانت تُسمع مجموعة من الجياد تقترب، بيد أن الريح سكنت بعد ذلك، وبدا كأن الصوت قد تراجع إلى الوراء، كأنها الجياد تبتعد.

- صمتا!

- إنها شرطة الخيالة يا تانا. إنني أعرف ما أقول. والآن يجب علينا أن نعب هذا الممر، رغم أنه الطريق الأبعد للوصول إلى «لاس ألدياس».

وهبط الجنرال عبر طريق جانبي خلف الهندي. وتعين عليه أن يترجل ويقود البغل. وحين ابتلعها الأخدود الضيق شعرا وكأنها في داخل صدفة حلزون، مستورين من الخطر الذي يهددهما.

وأطبقت الظلمة بغته . وكانت الظلال تتجمع في أعماق الوهدة الغافية .
وبدت الأشجار والأطيار كالنَّذر المفلّزة في وسط النسمات اللطيفة المتماوجة دوما .
ولم يربا من مخلفات شرطة الخيالة إلا سحابة من الغبار الأحمراري توسطت بينهما
وبين النجوم ، وذلك حين كانا يجتازان في المكان الذي غادرته الشرطة لتوها .
واستمرا يسيران طوال الليل .

- «حين نصل إلى أعلى التل سنرى «لاس الدياس» يا تاتا» .

وسبق الهندي قلما مع البغل ليعلم وصولهما لصديقات «كاناليس» ، وهن
ثلاث أخوات غير متزوجات يقسمن حياتهن بين الصلوات وآلام إحتقان اللوز،
والتاسوعات وآلام الأذن ، وآلام الوجه والظهر والجنيين . والتهمن التبا ، وكاد أن
يغمي عليهن من فوط المفاجأة . واستقبلن الجنرال في حجرة النوم ، ذلك أن حجرة
الاستقبال لم تكن ترحي لمن بالثقة .

وفي الريف ، يدخل الزوار المنزل دون استئذان ويتوجهون لتوهم إلى المطبخ :
السلام لك يا مريم ، السلام لك يا مريم .

وحكى لمن الجنرال قصة نكبتة في رنة بطيئة هادئة ، وذرف عدة دمعات حين
أتى على ذكر ابنته .

ويكث صديقاته من الحزن ، وكان حزنه عظيمًا لدرجة نسين معه الآمهن ،
و وفاة والدتهن ، التي كن يرتدين السواد الكامل حدادا عليها .

- ولكننا سوف نرتب أمر فرارك وعبورك الحدود بأي ثمن سوف أذهب لأسأل
الجيران . لقد حان الوقت كيما نتذكر من فيهم يعمل بالتهريب . ذلك إن أعرف أن
كل المعابر الممكنة تقريبا تحرسها السلطات» .

كانت كبراهن هي التي قالت ذلك ، وتطلعت متسائلة إلى الآخرين .

وقالت الوسطى ، التي سكنت آلام أسنانها بفعل مفاجأة وصول الجنرال
«كاناليس» : أجل ، سوف نرتب أمر فرارك كيما قالت أختي ، يا جنرال . ولما كنتُ
أعتقد أنك ستكون بحاجة إلى بعض المؤن ، فسوف أذهب وأجهزها .

وقالت الصغرى : ولما كنتُ استمضي اليوم معنا فسوف أبقي لأحادثك

واسليك شيئا ما» .

ونظر الجنرال بامتنان إلى الأخوات الثلاث - فقد كانت الخدمة التي يقدمنها له فريدة - ورجاهن في صوت خفيض أن يغفرن له ما سببه لهن من متاعب .

- لا شيء من هذا يا جنرال .

- كلا يا جنرال ، لا تقل هذا .

- إني أدرك مدى طيبتكن وشفقتكن يا عزيزاتي ، ولكني أعرف أنني أوردطكن معي بوجودي في المنزل .

- ولكننا صديقاتك مع كل هذا . لك أن تتصور أنه منذ مائت أمثا . . .

- ولكن ، قولى لي ، كيف ماتت والدتك؟

- سوف تحكي لك أختي هذا ، سوف نذهب نحن ونجهز الأشياء .

قالت الأخت الكبرى هذا ، ثم تهتدت . كانت تحمل مشد الحصر ملفوفا في شالها ، وتوجهت لترتيبه في المطبخ ، حيث كانت الأخت الوسطى تجهز بعض المأوى للجنرال ، تحيط بها الخنازير والدواجن .

- لم يكن ممكنا نقلها إلى العاصمة ، ولم يفهموا علّة مرضها هنا ، وأنت تعرف الأمر يا جنرال . وقد ساءت حالتها شيئا فشيئا ، المسكينة ، وماتت وهي تبكي لأنها تركنا وحدنا في الدنيا . لم يكن هناك سبيل لتفادي ذلك . ولكن تصور أنه لم يكن معنا نقود ندفع منها أجر الطبيب ، الذي أرسل إلينا فاتورة بخمسة عشرة زيارة يصل ثمنها إلى حوالى قيمة هذا المنزل ، وهو الشيء الوحيد الذي خلقه لنا والدنا . إسمح لي بدقيقة ، سأذهب لأرى ما يحتاج إليه خادمك .

وحين خرجت الأخت الصغرى ، استغرق «كانالسيس» في النوم . عينان مغلفتان . جسد في خفة الريشة .

- ماذا تريد أيها الفتى ؟

- بحق السماء ، أخبريني أين أستطيع أن أقضي حاجتي . . .

- هناك ، في زريبة الخنازير! » .

ونسج سلام الريف خيوطه في أحلام الجنرال النائم. إمتنان حقول الذرة،
ورقة المراعي بأزاهيرها الصغيرة البسيطة. وسرعان ما انطوى الصباح، بعدما
اشتمل على خشبة طيور الخجل ترشقها طلقات الصيادين؛ والخوف المدهم الذي
تثيره مراسم دفن والفس يرش المياه المقدسة؛ وهياج ثور فني نشيط. وفي أبراج
الحمام في فناء الأخوات العوانس وقعت أحداث هامة: موت حبيب، وخسبة،
ونلاتون زيجة تحت أشعة الشمس. أي لا شيء على الإطلاق!

لا شيء على الإطلاق! هكذا قالت الحمام وهي تظل من نوافذ بيوتها
الصغيرة. لا شيء على الإطلاق.

وفي الساعة الثانية عشرة، ايقظوا الجنرال لتناول طعام الغداء. أرز مثيل،
مرق اللحم. بجنّة. دجاج. بازلاء. موز. قهوة.

- «السلام لك يا مريم!».

وأطبق صوت المندوب انسيابي عليهم وهم يتناولون الغداء. وشحبت وجوه
العوانس ولم يعرفن كيف يتصرفن. ونوارى الجنرال وراء أحد الأبواب.

- لا تنزعجن يا عزيزاتي، فأنا لست الشيطان ذا الأحد عشر ألف قرن! يا
إني، كيف تخفن مني هكذا، خاصة بعد أن تصرفت معكن تصرفا رحيما!.

كانت المسكينات قد فقدن القدرة على الكلام.

- ثم، ألن تطلبين مني الدخول والجلوس، حتى ولو كان ذلك على الأرض؟

وأحضرت الصغرى مقعدا لأهم موظف في القرية.

- شكرا جزيلًا. ولكن، من كان يتناول الطعام معكن؟ إني أرى طبقا رابعا.

وحملفن جميعا ناحية طبق الجنرال.

فتلعثمت الأخت الكبرى قائلة وهي تلوي اصابعها من فرط اليأس. إنه، كما
نعرف...

وأنقذتها الوسطى قائلة:

- من الصعب شرح الأمر، ولكن برغم وفاة والدتنا فإننا نهيء لها مكانا معنا

دائها، حتى لا نشعر بالوحدة.

- أوه ، يبدو أنكن تتحولن إلى مجال الروحانيات.

- إلا تتناول شيئاً أيها المندوب؟

- شكراً لك، ولكنني تناولت طعامي بالفعل. لقد جهّزت لي زوجتي الغداء، ثم لم أستطع أن أغفئ إغفاءة الظهر لأنني تلقيت برفقة من وزير الداخلية بخطرني فيها أن اتخذ الإجراءات ضدكن إذا لم تدفعن للطبيب أجره.

- ولكن يا سيادة المندوب، هذا ليس عدلاً، أنت تعرف أنه ليس...

- قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن صوت القانون هو كل شيء.

فهمت الأخوات الثلاث والدموع في مآقيهن: «طبعاً»

- إنني جد آسف أن آتي وأسبب لكن هذا الإزعاج، ولكن هكذا هي الأمور كما تعرفن، تسعة آلاف بيزو، أو المنزل، أو...»

وقد تبدى عناد الطبيب الكريه بوضوح في الطريقة التي دار بها المندوب على عقبه، وأعطاهن ظهره؛ ظهرٌ بداً مماثلاً لجذع الشجرة.

وسمعهن الجنرال يبكين. وأغلقن الباب الخارجي بالمفتاح والمزلاج خشية أن يعود المندوب. وتناثرت دموعهن فوق طبق الدجاج.

- يا لقسوة الحياة يا جنرال. إنك سعيد الحظ إذا تغادر هذا البلد نهائياً.

فسأل «كاناليس» مخاطباً الأخت الكبرى: بماذا كان يندكن؟»

وقالت الكبرى لاختيها دون أن تخفف دمعها:

- فلنقل له إحدانا.

فقال الصغرى في لعنة: بأن يخرج ماما من قبرها.

فحملن «كاناليس» في الأخوات الثلاث كلهن وتوقفن عن الأكل.

- ماذا نقولين؟

- تماماً هكذا، بأن يخرج ماما من القبر.

- ولكن هذا ظن.

- قولي له .

- حسنا . ولكن عليك أن تعلم يا جنرال أن طبيب قريتنا هو واحد من أسفل أرواغ أهل الأرض طرا ، لقد قالوا لنا ذلك من قبل ، ولكن المرء لا يتعلم إلا بالتجربة . وماذا كنا سنفعل؟ من الصعب تصديق أن الناس يمكن أن يكونوا بهذا الشر .

- هل لك في بعض الفجل يا جنرال؟

وناولته الوسطى الطبق ، وبينما كان الجنرال يتناول منه بعض الفجل ، واصلت الصغرى قصتها :

- لقد وقعتا في مصيده . هذه هي لعبته : حين يسقط أحد زبائنه فريسة مرض خطير ، ويكون آخر ما يفكر فيه الأقارب ترتيبات الجنازة ، يأمر بإعداد مقبرة للدفن . ثم حين يحتم القضاء ، يضرب ضربته ؛ وهذا ما حدث لنا ، إذ بدلا من أن نترك ماما تدفن في الأرض الجرداء ، قبلنا مكانا لها في المقبرة التي أعدها دون أن ندرك ما نحن مقبلات عليه من جراء ذلك .

وقالت الكبرى ملاحظة وسط الشهقات «وهو يعلم أننا نسوة لا عائل لنا» .

- أقول لك يا جنرال ، إنه في اليوم الذي أرسل إلينا الفاتورة ، صنعنا كلنا : تسعة آلاف بيرو لقاء خمس عشرة زيارة ؛ تسعة آلاف بيرو أو هذا المنزل ، لأنه يريد فيها يبدو أن يتزوج ، أو

- أو ، إذا لم ندفع ، كما قال لأختي ، ويا للشعاعة ، «بوسعكم أن تأخذن قمامتكم من مقبرتي» .

وضرب «كاناليس» المائدة بقبضة يده .

- يا للسافل القدر! .

وقرع المنضدة مرة أخرى ، مما جعل الأطباق وأدوات المائدة والأكواب تصلصل ، وفتح أصابعه ثم أغلقها كأنها يريد أن يخفق هذا الوغد ويسمر جماع النظام الاجتماعي الذي أفرز مثل هذه الأمور المسيئة المخجلة واحدة وراء أخرى .

وجال في خاطره : «هل وعد الناس البسطاء مملكة النساء على الأرض - هذا

اللغو الريائي - لمجرد أن يحتملوا مثل هؤلاء الأوغاد. كلا! كفانا من حكم الجمال هذا! إني أقسم على العمل في سبيل الثورة الشاملة، يجب قلب كل شيء، ظهرا لبطن. يجب أن يشور الناس ضد الطفيليين، ضد من يستغلون مناصبهم الحكومية، والعاطلين الذين يحسن إرسالهم لفلاحة الأرض. لا بد أن يأخذ كل واحد نصيبه من الدمار! الدمار! الدمار! لن يحتفظ أي عميل منهم برأسه.

وحدد لرحيله الساعة العاشرة من مساء تلك الليلة، وفقا لترتيب اتخذ من مهرّب من أصدقاء عائلة الأخوات الثلاث. وجرر الجنرال خطابات عدة، منها خطاب عاجل إلى إبنته. وأتفق على أن يحمل الهندي الخطاب ثم يعود من الطريق الرئيسي. ولم يقل أحد وداعا. ومضت الجياد وحوافرها ملفوفة بالخرق، بينما وقفت الأخوات عند الحائط، يبكين بحرقة في غنمة حارة مظلمة. وحين بلغ الجنرال الطريق الواسع شعر بيد تمسك بلجام جواده. وسمع وقع أقدام. وهمس له المهرّب: «لشد ما أفرغوني. لقد ضاعت أنفاسي. ولكن لا تقلق، إنهم بعض الرجال يصحبون الطبيب للغناء تحت شجرة خطيبته».

وكان ثمة مشعل مضاء عند نهاية الطريق، يرسل ألسنة من اللهب تنضم على نورها ثم تتفرق أشكال البيوت والأشجار وخمسة أو ستة رجال يقفون معا تحت إحدى النوافذ.

وسأل الجنرال ومسدسه في يده: «من فيهم الطبيب؟» وشد المهرّب عنان جواده، ورفع ذراعه وأشار إلى رجل يحمل جيتارا. وشقت طلقة رصاص الهواء، وسقط رجل على الأرض كما تسقط موزة من قرطها.

- يا إله السماوات! انظر ماذا فعلت! لا بد أن نهرب، سريعا، وإلا قبضوا علينا! هيا، إهمز حصانك!«

- إن هذا... هو ما يجب... على كل شخص أن يفعله،... يمرر الشمب!

نطق «كاناليس» بهذه الكلمات بصوت منقطع بين خيب حصانه الراكض. وأبقت جلبة حوافر الجوادين الكلاب، وأبقت الكلاب الدجاج. وأبقت الدجاج الديكة، وأبقت الديكة الفلاحين، الذين عادوا إلى الحياة في تناقل، شتاء بون ويتمطون ويشعرون بالخوف.

ورفعت جماعة المغنين الليلين جسد الطيب الميت . وخرج الناس بقناديلهم من المنازل المجاورة . ولم تستطع الفتاة التي كانوا يفتون لها البكاء ، بل وقفت مشدودة من فعل الصدمة في ملابس نومها تمسك بقنديل صيني في يدها البيضاء ، ونظراتها ضائعة في الظلمة الغاتلة .

- نحن الآن محاذون للنهر يا جنرال ، ولكن عليّ أن أقول لك إنه لا يقدر على عبوره في المكان الذي نريد عبوره فيه إلا الرجال الشجعان . أه أيتها الحياة ، لو إنك تدومين إلى الأبد!

فرد «كاناليس» الذي كان يركب جوادا أسود وراءه :

- ومن يخاف؟

- براؤفوا! إن المرء يحس بشجاعة الأسود لو أن ثمة رجلا وراءه . إمسك بي جيدا، جيدا، وإلا ضللت طريقك.

كان كل شيء مبهم المعالم حولها، وكان الهواء دافئا، وإنما تجري فيه تيارات ثلجية . وكنا بسمعان النهر جائشاً خلال أعواد البوص.

وترجلا وقفزا إلى المجرى . وعقل المهرب الجوادين في مكان يعرفه جيدا حتى يمكنه أخذهما عندما يعود . ووسط الظلال ، عكست رفاع النهر السماء المرصعة بالنجوم . وكانت تطفو على صفحته نباتات غريبة تنافس من أشجار خضراء ، لها عيون بلون التلك وأسان بيضاء . وقرقرت المياه عبر الضفاف الدهنية الغافية ، تعبق برائحة الضفادع.

وطفق المهرب والجنرال يقفزان من جُزيرة إلى أخرى في صمت ، وكل منهما حامل مسدسه في يده . وتبعهما ظلاهما كالتمايح ، وتبعتهما التمايح كظليهما . وخزنتها سحائب من الحشرات ، وكان ثمة سمٌ يمنح يملق في الهواء . وعبرت في الجو رائحة البحر ، البحر واقعا في شبكة الغابة ، بكل سمكاته ، ونجومه ، ومرجانه ، وشعباه ، وبأعماقه وتياراته . وكانت الطحالب تندل فوق رأسيهما كأنها عجمعات غاطية لأخطبوطات تحتضر . وحتى الوحوش المتوحشة لم تكن تجرؤ على الذهاب حيثما كانا ذاهبان . وطفق «كاناليس» يدير رأسه في كل اتجاه ، ضائعا في هذه الطبيعة المشؤومة التي لا يصل إليها أحد والمتوحشة توخش روح حيواناتها.

وهاجم تمساح المهرب، وبدأ واضحاً أنه قد ذاق طعم اللحم البشري من قبل . ولكن المهرب قفز من طريقه في الوقت المناسب . بيد أن الجنرال لم يكن سعيد الحظ . بالمثل ، إذ استدار يدافع عن نفسه وجمد مصعوقاً إذ وجد تمساحاً آخر ينتظره فاعبر الفكين . لقد كانت لحظة حاسمة . وشعر برعشة عميقة تسري في عموده الفقري ، وانصب شعره ، وقَدَّ النطق من فرط الألم . وشد على قبضتيه . ودوت ثلاث طلقات متتابعة ردها الصدى ، قبل أن يتنهز الجنرال فرصة هروب الوحش الجريح كيما يقفز إلى مكان آمن . وأطلق المهرب طلقة أخرى . وحين استعاد الجنرال توازنه جرى إلى الأمام وصافح المهرب ، مما أحرق أصابعه من جراء لمسه قوة المسدس .

وكانت الشمس تشرق حين افترقا عند الحدود . وفوق الحقول اللازوردية ، وفوق الجبال بقممها الكثيفة المغطاة بأشجار تحيلها الطيور إلى صناديق موسيقية ، وفوق الغابة ، كانت سحب على شكل التماسيح تطفو في السماء ، تعمل كنوا من النور على ظهرها .

الجزء الثالث

أسابيع ، وشهور ، وسنوات ...

حديث في الظلام

الصوت الأول: أي يوم نحن فيه ؟

الصوت الثاني: أجل ، أي يوم نحن فيه ؟

الصوت الثالث: إنتظروا . . . لقد قبضوا عليّ يوم الجمعة : الجمعة ، السبت ، الأحد ، الإثنين . . . الإثنين . . . ولكن ، كم انقضى عليّ وأنا هنا ؟
حقا ، أي يوم نحن فيه ؟

الصوت الأول: احس انني في مكان قصي سحيق . ألا تحسون بنفس هذا الشعور ؟

الصوت الثاني: لقد نسونا في قبر من قبور المقبرة العتيقة ، مدفونين إلى الأبد . . .

- يجب ألا نتحدث هكذا !

الصوتان الأولان : يجب ألا

- . . . نتحدث هكذا !

الصوت الثالث: ولكن ، لا تتوقفا عن الكلام . إنني أخاف من الصمت ، إنني خائف . إنني أتحيل يدا تمتد نحوي في الظلام لتقتض على عنقي وتخنقني .

الصوت الثاني: نتحدث بحق الإله ! قل لنا عما يحدث في المدينة ؟ إنك آخر من رآها فينا . ماذا يفعل الناس ؟ ما حال كل شيء ؟ . . . أحيانا أتصور المدينة كلها مدفونة في الظلال مثلنا ، سحابة بين جدران عالية جدا ، بين الشوارع قابعة في الوهدة وسط طين الشتاء الميت . لا أعرف إذا كنتما تشعران كما أشعر ! ولكني

في نهاية الشتاء لا أحتفل أن أفكر بأن الطين يتيسر وحين أتحادث عن المدينة ،
يتتابي اشتياقي لعين إلى الطعام ، إنني أشتهي بعض تفاحات كاليفورنيا . . .
الصوت الأول : أوريما البيرتقال . أما أنا فأفضل قرحا من الشاي
الساخن .

الصوت الثاني : ثم التفكير بأن كل شيء يسير كالمعتاد في المدينة ، كما لو لم
يحدث شيء ، كما لو أننا لسنا مدفونين هنا أحياء . ولا بد أن الترام يسير كالمعتاد .
كم الساعة يا ترى مع كل هذا ؟

الصوت الأول : حوالى . . .

الصوت الثاني : ليست لدي أي فكرة . . .

الصوت الثالث : نكلها ! استمرا في الكلام ! لا تتوقفا بحق النساء ! إنني
أخاف من الصمت ، إني خائف . إنني أتحيل دائما يداي تمتد نحوني في الظلام
لتقبض على عني وتحنني .

ثم أضاف في صوت حزين : لم أحب أن أقول لكها ذلك ، ولكنني أخشى أنهم
قد يجلدوننا . . .

الصوت الأول : لا تتحدث عن ذلك ! لا شك أن ضرب المرأة شيء مرعب .

الصوت الثاني : حتى أحفاد الرجال الذين جُلدوا يشعرون بالخزي من ذكرى
ذلك .

الصوت الأول : إنك لسان شر ! من الأفضل أن نلزم الصمت .

الصوت الثاني : كل شيء يبدو شرا في نظر رجل الكنيسة .

الصوت الأول : لا شيء من هذا القبيل . أي أساطير خرقاء قد حشوا بها
راسك ؟

الصوت الثاني : أقول لك أن أي شيء يقوم به الآخرون يعتبره رجل الكنيسة
شرا .

الصوت الثالث : نكلها ! استمرا في الكلام ! لا تتوقفا بحق من عيابه أكثر

من غيره في هذه الدنيا ! إن الصمت يملأني بالرعب ، إنني خائف إنني أنجبل دائما
ن يداتمد نحوي في الظلام لتقبض على عنقي وتحنني .

كان الطالب ومساعد النس لا يزالان محبوسين في السجن الذي قضى فيه
الشحاؤون ليلة واحدة ، بيد أنه كان معها الآن المحامي « كرفخال » .

قال كرفخال : لقد تم إلقاء القبض علي بطريقة مرعبة جدا . ذلك أن
الخادمة التي خرجت في الصباح لتبتاع بعض الخبز عادت لتقول لنا إن المنزل محاط
بالجنود . قالت ذلك لزوجتي وزوجتي قالت لي . بيد أنني لم أهتم بالأمر ،
وتصورت أنهم يبحثون عن أحد مهربي البراندي أو غيره من المجرمين . وأنهيت
حلاقة ذهني ، وأخذت حمامي وتناولت إفطاري ، وارنديت ملاسني كيما أتوجه
لنهيئة رئيس الجمهورية - كنت في آخر أوبة « كما يقولون » . أهلا يا صديقي ، يا
ها من مفاجأة » . هكذا قلت للمدعي العسكري العام حين وجدته على عتبة بابي
مرتديا زيه الرسمي الكامل . فرد علي قائلا : « لقد حضرت هنا من أجلك . هيا
بنا فقد تأخرنا بالفعل » . وسرت معه بضع خطوات ، وحين سألتني عما إذا كان
لدي فكرة عن سبب محاصرة الجنود للمنزل ، قلت له كلا . فقال : إذن سأقول
لك أيها الجرد الصغير . لقد حضروا للقبض عليك . ونظرت إلى وجهه ورأيت
أنه لا يمزح . وعند ذلك أمسك أحد الضباط بذراعي واصططحني الجميع خارجا ،
مرتديا مئزقي الصباحية وقبعتي العالية ، وألقوا بجثتي في هذا السجن » .

وأصاف بعد فترة صمت : والآن ، تكلموا أنتما الإنسان . إنني أرتعد من
الظلام ، إنني خائف !

وهتف الطالب : آه يا عزيزي ، آه يا عزيزي ! ماذا حدث ؟ إن رأس
مساعد القس بارد كالثلج .

- ماذا تعني ؟

- إنني ألهه ، ولكنه لم يعد يشعر بأي شيء ، و . . .

- إنه لست أنا ، حاذر مما تقول !

- من هو إذن ؟ أنت يا كرفخال ؟

- كلا .

- إذن . . . هل هناك رجل ميت بيننا ؟

- كلا ، إنه ليس رجلا ميتا . . . إنه أنا .

فقال الطالب : ولكن ، من أنت ؟ إنك تبدو باردا جدا . ورد صوت بالغ الضعف : إني واحد منكم .

وصاحت الأصوات الثلاثة الأولى : أروووه !
وحكى مساعد القس لكرفخال قصة مأساته :

- « لقد غادرت الكنيسة » ، وتصور نفسه خارجا من غرفة مقننيات الكنيسة التي تفوح منها رائحة المجامر المطفأة ، والأثاث الخشبية العتيقة والزخارف الذهبية وجذاذات شعر الموت ، « واخترقت صحن الكنيسة » ، ورأى نفسه يخترق بهو الكنيسة الداخلي ممتلئاً رهبة من وجود سر الأسرار فيه ، وسكون الشموع وحركة الذباب ، « وتوجهت لانزع عن لوحة الاخطارات إعلانا عن تاسوع العذراء - لأن أحد الأخوة قال لي أنه قد إنتهى . ولكن المشكلة هي أنني لا أعرف القراءة ، فتزعت بدلا من ذلك ، عن طريق الخطأ ، إعلانا عن الاحتفال بذكرى والد السيد الرئيس ، وكان معروضا بأمر منه . ولم يكن في الإمكان أن أترف أسوأ من ذلك الخطأ . وقضوا عليّ ووضعوني في هذا السجن بوصفي أحد الثوريين ! » .

وكان الطالب هو الوحيد بينهم الذي لم يبح بسبب القبض عليه . وكان الحديث عن رئيته المعروضتين أهون عليه من ذكر وطنه بسوء . وركز على علته الجسمانية حتى ينسى أنه قد رأى النور أثناء غرق السفينة ، وأنه رأى النور وسط الجثث ، وأنه قد فتح عينيه في مدرسة لا نوافذ لها ، حيث أطفأوا بصيص الإيمان في نفسه حالما وصل ، دون أن يسندلوا به شيئا سوى الظلمة والفوضى والاضطراب وكآبة الخصييان الفلكية . وفي صوت خفيض ، بدأ يتلو قصيدة الأجيال الضائعة التالية رويدا رويدا :

إننا نسير في موانئ العدم
دولما ضوه يلتصع على ساربات أذرعتنا
تغرقنا الدموع المألحة
كاللاحين العائدين من البحر
شفتاك هما ملاذي وماواي
فقبليني طويلا

يذني في يدك . . . مند دامن

آه ، عبثا تنبعث الحياة .

في مرمى قلبنا البارد .

لقد انكسر الابريق وأريق العسل

بينما النحللات عهزب بعيدا في الفضاء

كانها الشهب . لم يحن الوقت بعد .

لقد سقطت ورقات وزدة الرياح .

بينما الغزاد موثوق إلى أحجار القبور

آه ، طم طم طم ، العربة تدمدم في سيرها

وغضي الخياد في الليل الذي لا يطلع له فجر

تملاها الورود إلى أخص حوافرها

كانها تعود من رحلة إلى النجوم

وليس من المقبرة .

آه ، طم طم طم ، العربة تدمدم في سيرها

قاطرة بحرا من الدموع ، طم طم طم ،

بين حاجبين من الریش ، طم طم طم .

أحجيات الفجر في وسط النجوم

تنايا الوهم في عرض الطريق

كم هو بعيد عن العالم ، وكم هو باكر

مرجات من الدموع تجاهد وسط المحيط

كيبا تصل إلى شاطئ الجفون .

قال كرفخال بعد صمت طويل : تكلموا ، استمعوا في الكلام ، استمعوا في

الكلام !

فتمتم الطالب : فلتكلم عن الحرية .

فقاطعه مساعد القس قائلا : يا لها من فكرة ! تصوروا أن نتكلم عن الحرية

رنح في السجن !

- ألا تفترض أن المرضى يتحدثون عن الصحة وهم في المستشفى ؟ وغنم
الصوت الرابع في وهن : لا أمل لنا في الحرية يا أصدفائي ! علينا أن نحتمل ما
يحدث لنا إلى ما شاء الله . إن الرجال الذين كانوا يخلصون النية لوطهم قد
أصبحوا بعيدا الآن : بعضهم يتسول أمام المنازل في بلاد أخرى . وآخرون
يتحولون إلى تراب في مقابر جماعية . سوف يأتي اليوم الذي لن يجوز فيه أحد على
السير في شوارع هذه المدينة . ولم تعد الأشجار تطرح ثمارا كما كان الأمر من
قبل . والدرة لم تعد تشبع المرء كما كانت قبلا . والنوم أقل راحة . والمياه أقل
إرواء . وقد أصبح إستنشاق الهواء مستحيلا . وبأنى القطاعون بعد الأوبة . وبعد
القطاعون تأتي الأوبة . وسرعان ما سيقع زلزال يفضي علينا جميعا . إن عبي
تجبراني أن جنسنا محكوم عليه بالفناء . والرعد هو صوت أم من السماء يقول :
إنكم أشرار فاسدون ، أنتم شركاء في الشر ! لقد أخبت الرصاصات الغادرة
رؤوس مئات من الناس على جدران سجننا هذا . وقصورنا المرمية مخضبة بالدماء
البريئة . أين إذن يمكن للمرء أن ينتج بهتنا عن الحرية ؟

مساعد القس : إلى الله العلي القدير .

الطالب : ما جدوى ذلك ، إذا كان لا يجيب ؟

مساعد القس : لأن ذلك إرادته المقدسة .

الطالب : واحسرتاه !

الصوت الثالث : تكلموا ، استمروا في الكلام بحق السماء ! لا تنسقوا .
إني أرتعد من الصمت ، إني خائف . إني أخجل دائما أن يدا تمد نحوي في الظلام
لتقبض على رقابنا وتخنقنا !

- من الأفضل أن نصلي . . .

ونشر صوت مساعد القس إذعانا مبيحا في طول زنزاة السجن وعرضها .
وغنم كرفخال ، الذي عُرِف عنه في الجوار أنه ليبرالي يكره القس :
- فلنصل . . .

- د أن الطالب هتف يقاطعه : ماجدوى الصلاة ! ينبغي لنا ألا نصلي .

- بي لنا أن نسعى إلى تحطيم هذا الباب ونخرج لتنضم إلى الثورة ! .

وامنذت ذراعاً شخص لم يكن بمستطاعه أن يراه ، وطوّفه في حرارة ، وشعر
على خده باللمس الحشن للحية صغيرة مخضلة بالدموع ، وصوت يقول :
بإمكانك الآن أن تموت في سلام أيها القائد السابق لمدرسة « سان خوسيه »
للمشاهير ، فلا يزال ثمة أمل في بلد يتحدث شبابه على هذا النحو ! .

الصوت الثالث : نكلموا ، استمروا في الكلام ، استمروا في الكلام ! .

مجلس عسكري

بلغ نص اللائحة الجنائية التي تنهم « كاناليس » و « كرفخال » بالعصيان والتمرد والخيانة ، بكل ما يجعله ذلك من ظروف مشددة ممكنة ، صفحات عديدة لدرجة لم يكن معها ممكنا تلاوته حتى آخره في جلسة واحدة . وقد قرر أربعة عشر شاهداً بالإجماع بعد حلف اليمين أنهم في ليلة ٢١ أبريل كانوا موجودين في « رواق الرب » حيث تعودوا قضاء الليل نظراً لفقرهم الشديد ، وأنهم رأوا الجنرال كاناليس والمحامي قابيل كرفخال يهجمان على ضابط ، عرفوا فيها بعد أنه الكولونيل خوسيه بيراليس سونريتي ، ويخنفانه بالرغم من المقاومة الباسلة التي أبداها لها ، فقد ناضل ضدّها يداً بيد كالليث المحصور ، بيد أنه كان عاجزاً عن استعمال أسلحته للدفاع عن نفسه ضد قوتها الغاشمة . وقرروا أيضاً أنه حالما تمت الجريمة ، خاطب « كرفخال » « كاناليس » بالعبارات التالية أو بما يفيد معناها : « الآن وقد قتلنا « الرجل ذا البخل الصغير » ، يتعين على القادة العسكريين أن يسلموا أسلحتهم ويعترفوا بك يا جنرال رئيساً أعلى للجيش . سيطلع الفجر بعد برهة ، فلنسرع بنقل الأنباء إلى الذين تجمعوا في منزلي ، حتى يمكنهم المضي في اعتقالات رئيس الجمهورية وإعدامه وتشكيل حكومة جديدة » .

وداهل كرفخال . لقد كانت ثمة مفاجأة في انتظاره في كل صفحة من صفحات الاتهام . ولو لم يكن الاتهام خطيراً للغاية لكان الأمر مدعاة للضحك . ومضى يقرأ . كان يقرأ على الضوء التراموي من نافذة تطل على فناء مغلق ، في الغرفة الصغيرة العارية المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام . وكان المجلس العسكري الذي سيحقق في الموضوع سينعقد في تلك الليلة ، وقد تركوه وحيداً مع صفحات الاتهام كىما يُعد دفاعه . ولكنهم أخرّوا ذلك حتى اللحظة الأخيرة .

كان يرتجف من قمة رأسه إلى الخصر قدميه ، وقرأ دوغما وعي أو توقف ، نعتبه فكرة أن الظلام قد أخذ يقرض الأوراق التي كانت تبدو كأنها هي تذوب إلى رماد رطب بين يديه . ولم ينجح في قراءة الكثير منها . كانت الشمس تغرب ، ونورها يتحول إلى العتمة ؛ وكان الأسى يظلل عينيه لفقدانها . سطر أخير ، كلمتان ، ضربة قلم ، تاريخ ، رقم صفحة . . . وجاهد عينا كيما يقرأ رقم الصفحة ؛ كانت الظلمة تغيض على الصفحة كلطخة حبر أسود . بيد أنه تشبث بالملف في هفة كأنها ، بدلا من اضطرابه إلى قراءته ، سوف يُلف حول عتقه كالحجر قبل إلقائه إلى الهاوية . وكانت تُسمع صلصلة قيود السجناء غير السياسيين على طول الأبنية غير المرئية ، وفيها وراءها أيضا ناتي الأصوات المختلفة لجلبة المرور في شوارع المدينة . « أه با إلهي . . . إن جسدي المتجمد البائس في حاجة إلى الدفء وعيني تحتاجان للنور احتياجا أمس من حاجة جميع سكان نصف الكرة التي تشرف الشمس عليهم الآن مجتمعين . لو أنهم علموا معاناتي لكانوا أشفق عليّ منك يا إلهي ولردوا عليّ الشمس حتى أتمكن من إنهاء القراءة . . . » .

وأعاد إحصاء الصفحات التي لم يقرأها مرات ومرات ، باللمس فحسب . وحيدة وتسعون . مرات ومرات مرّ بأصابعه على سطح الصفحات خشنة اللمس ، محاولا القراءة كيما يفعل الأعمى في دوامة اليأس . كانوا قد نقلوه في الليلة الماضية في أوائل المساء ، في عربة مغلقة ، وسط مظاهر استعراض كبير للقوات من مركز الشرطة الثاني إلى السجن المركزي . ورغم ذلك ، كان سروره عظيمًا بمشاهدة الشارع من حوله وسماعه والاحساس به ، حتى لقد شعر برهة أنهم إنما يقودونه إلى منزله : وماتت الكلمات على شفثيه في بحر من الدموع والاشتياق .

ووجده رجال الأمن وصحيفة الاتهام الجنائي بين ذراعيه والمذاق العذب للطرق المبتلة في فمه ، فتزعوا الوثائق منه ودفعوه دوغما كلمة إلى الحجرة التي كان المجلس العسكري منعقدا بها .

واستجمع كرفخال شجاعته ليقول للجنرال الذي كان يترأس المحضر « ولكن ، سيدي الرئيس ، كيف يمكنني الدفاع عن نفسي وأنتم لا تعطونني د حتى لمجرد قراءة لائحة اتهامي ؟ » .

فرد رئيس المجلس : « هذا لا علاقة له بنا . إن الفترات التي تتخلل الجلسات قصيرة ، والوقت يمر ، وهذه القضية عاجلة . لقد استدعيناها هنا كي تصدر الحكم » .

وما تبع ذلك كان بالنسبة لكرفخال حلماً ، نصفه مراسم ، ونصفه الآخر مهزلة . كان هو الممثل الرئيسي ، يواجههم جميعاً من مكانه على أرجوحة الموت ، وسط فراغ عدائي . بيد أنه لم يشعر بالخوف ، لم يشعر بأي شيء ، بل نامت مخاوفه تحت جلده الخدر . وأبدى شجاعة عظيمة . وكانت المنصدة التي جلست هيئة المحكمة حولها مغطاة بغلم الدولة ، كما نقضي اللوائح . أزياء عسكرية . قراءة الوثائق . وثائق عديدة . حلف اليمين . وكتاب القانون العسكري يرفد كالحجر على المنصدة ، فوق العلم . وكان الشحاذون جالسين في مقاعد الشهود . جلس « ذو القدم المسطوحة » منتصب الظهر ، بوجهه الشمل البشوش الخالي من الأسنان وشعره المصفوف بعناية ، لا تفوته كلمة عما كان يتلى ولا تعبير يرسم على سبهاء رئيس المحكمة . أمام سلفادور النمره فقد تابع سير المحاكمة هيبية الغوريلا ، وهو يغمز في أنفه المفرطحة ، أو في الأسنان القليلة المنتشرة في فمه العريض الذي يمتد من الأذن إلى الأذن الأخرى . أما « فيردا » الطويل الأعرج ذو الهيئة الشريرة ، فقد لوى وجهه وخلع على نفسه هيئة الجثة كيما يتسم لأعضاء المحكمة . وعمد « لولو » القزم السمين المتجعد الوجه إلى الانخراط في نوبات فجائية من الضحك أو الغضب ، من السود أو من الكراهية ، وبعدها يغلق عينه ويسد أذنيه حتى يعلم الجميع أنه لا يريد أن يرى أو يسمع شيئاً مما يجري في القاعة . والتف « دون خوان دي لاليفاكوتا » بمعطفه الفراك العتيق الذي لا يرى دونه ، ضيلاً ، شارد الذهن ، تلي ملابسه المستعملة بأنه ينحدر من أسرة برجوازية : ربطة عنق عريضة ملطخة بعصير الطماطم ، حذاء من الجلد الأصلي ملتوي الكمين ، وردان صناعيان ، صديري منفصل للقميص ؛ بينما خلعت عليه ثيابه المصنوعة من القش ، وصممه الثقبيل مظهرأ رشيقياً . وأخذ دون خوان ، الذي لم يكذب بسمع أي شيء ، يحصي الجنود المنتشرين أمام جدران القاعة على مسافة خطوتين من أحدهما الآخر . وإلى جواره جلس « ريكاردو » العازف ، يغطي رأسه وجزءاً من وجهه بتدليل ملون ، محمر الأنف ، ولحيته الشائكة عليها بقايا من طعام . وكان ريكاردو العازف يكلم نفسه ، وعيناه مثبتتان على بطن الصماء البكاء المتنفخ ، التي كانت جالسة معهم إلى جواره بسبل اللعاب من فمها

ونحك القمل تحت إبطها الأيسر . وبعدها كان يجلس « بيريكى » ، وهو زنجي ذو
أذن واحدة على شكل المبولة . وبعد بيريكى ، « ميونا » الصنيعة ، وكانت بالغة
النحافة ، عوراء ، لها شارب خفيف ، وتنبعث منها رائحة الحشايا العتيقة .

وبعد تلاوة لائحة الاتهام ، نهض المدعي ، وهو عسكري قصير الشعر تبرز
رأسه الصغيرة من صدر عسكري ذي بنيفة بالغة الضخامة بالنسبة إليه ، وطالب
بالحكم على المتهم بالإعدام . والتفت كرفخال يتطلع إلى أعضاء المحكمة باحنا
عن أي دلالة على الحكمة والنجاسة . وكان أول عضو وقعت عليه عيناه ثملا
كاشد ما نكون الثمالة . وكانت يدها تفعيان على العنم أمامه ، كيدي فلاح يمثل
في رواية في حفل ريفي . وإلى جواره كان ثمة ضابط أسمر البشرة ، ثم هو
الأخر . أما رئيس المحكمة ، الذي كان يقوفها ثمالة ، فقد بدا وكأنه على وشك
أن يغمى عليه من فرط السُّكر .

ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة دفاعا عن نفسه . لقد حاول النطق ببعض
العبارات ، ولكنه تلقى على الفور انطبعا بأن ما من أحد ينصت إليه ، والواقع
أنه فعلا لم يكن هناك أحد ينصت . وتحدثت كلماته في فمه كأنها خبز رطب .

كان الحكم قد صدر وصيغ سلفا ؛ وكان ثمة شيء فخم فيه يتناقض مع
بساطة أولئك الذين ينفذونه ويصدقون عليه ؛ دمي من اللحم المقدد ومن
الذهب ، تستحم من أعلى إلى أسفل بالضوء المنهل من المصباح الزيتي ؛ أو
يتناقض كذلك مع الشحاذين بعيونهم الضفدعية وظلالهم الشعبانية التي تنطرح على
الأرض البرتقالية كأنها أقمار سوداء ؛ أو مع الجنود الصغار الذين يلهون في سبور
بذلاتهم ؛ أو مع أثاث القاعة الذي ينتصب صامتا كأنما هو في منزل ارتكبت فيه
جريمة قتل . وصاح كرفخال بأعلى صوته :
- إنني سأستأنف الحكم .

فبرطم رئيس المحكمة قائلا : دعك من هذا ، فلا يوجد هنا استئناف ولا
استئناف ، أو أي كلام فارغ من هذا القبيل .

وساعد كرفخال كوب من الماء هائل الحجم ، استطاع الإمساك به على
ضخامته لأن الحول كله كان في يديه ، على أذراء ما كان يحاول أن يطرده من

جسده : فكرة المعاناة ، آلية الموت ، وقع الرصاص على العظام ، الدماء على الجلد الحي ، تحمد العينين ، الملابس الذافئة ، الأرض . وغلبه الفزع فأعساد الكوب وبقي ذراعه ممتدا إلى أن استجمع شجاعته وسحبته إلى جانبه . ورفض سيجارة قدموها له . وتحسس رقبته بأصابع مرتجفة بينما راحت عيناه ، بعكس وجهه الشاحب شحوب الإسمنت ، تتجولان دونما قيد بين جدران القاعة الناصعة البياض .

ودفعوا به وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة عبر عمر يعصف فيه الهواء ، ومذاق حريف في فمه ، وساقاه لا تقويان على حمله ، وعبرة في كل عين .

وقال له ضابط ذو عينين كعيني مالك الحزين : - « هاك . . . خذ جرعة ؟ » .
ورفع الزجاجاة التي شعر بها مائلة إلى فمه وشرب .

وصاح صوت من الظلمة : « أيها الضابط ، عليك أن تتحقق بفرتك العاملة غدا . لدينا أوامر بعدم التسامح بأي صورة من الصور مع المجرمين السياسيين . »

وبعد بضع خطوات أخرى ، دفنوه في جُيب تحت الأرض ، طوله ثلاثة أمتار في مترين ونصف ، وبه إثنا عشر رجلا محكوما عليهم بالاعدام ، لا يتحركون لعدم وجود أي مكان ، الواحد منهم إلى جوار الآخر كالمسردين ، يقضون حاجاتهم وهم وقوف ، ويطلون فضلات اجسامهم مرارا وتكرارا . وكان « كرفخال » رقم ١٣ . وبعد رحيل الجنود ، ملأت الأنفاس الاليمة لتلك الجمهرة من الملعدين صمت الجيب الذي كانت تعكره على البعد صرخات أحد المسجونين .

ووجد « كرفخال » نفسه مرتين أو ثلاث مرات محصي في آلية صرخات ذلك التعس المحكوم عليه بالموت عطشا . إثنان وسبعون . ثلاثة وسبعون . أربعة وسبعون . . . وجعلته نثانة البراز الموطوء بالاقدام ونقص الهواء يشعر بالاعياء ، وحمله بعيدا عن هذه المجموعة من البشر ليجول على شفا جرف جهنمي من اليأس ، محصيا صرخات السجين .

وكان « لوسيو فاسكيز » بروح جيئة وذهابا في زنزانة أخرى مجاورة ، وقد كسأه مرض الصفراء لونا معصفرا ، وأظافره ومقلته بلون الجانب السفلي من ورقة أشجار

البلوط الخضراء . وكان الشيء الوحيد الذي يُسرِّي عنه في شقائه هو أنه يوما ما سينتقم من « خيتارو روداس » ، الذي كان يعتبره مسؤولا عما بلفاه من رزايا . كان هذا الأمل البعيد هو ما يُبقي عليه الحياة ، أمل مدلهم اللون وحلو المذاق كالعمل الأسود . إن بإمكانه أن يحتمل البقاء هنا إلى الأبد لو كان بمستطاعه أن ينفذ انتقامه فحسب . لقد عشت الليالي الحالكة السوداء في صدره الخسيس ، لدرجة لم يعد معها من شيء يُدخل بصيصا من النور على أفكاره الشريرة إلا صورة السكين وهي تقطع أحشاء « روداس » تاركَةً فيه جرحا كالغم الفاسر . وقضى « فاسكيز » ساعة وراء ساعة ، ويداه متقلصتان من البرد ، يتذوق طعام إنتقامه ، كدودة مجبولة من الطين الأصفر . اقتله ! اقتله ! . . . وكان بمد ذراعه في الظلمة ، كأنما عدوّه قد بات بالفعل في متناول يده ، ويتحسس في خياله سكينه البارد كالثلج ، ويهجم على « روداس » كأنه شيخ يقوم بحركاته المجهودة . وأعادته إلى الواقع صرخات السجين ، الذي كان يردد في صراخه بعض كلمات بالإطالية :

- « بحق الله ، من فضكم . . . ماء ! ماء ! ماء ! ماء ! أيها الضابط . . . ماء ! ماء ! بحق الله ، من فضلكم . . . ماء . . . ماء . . . ماء . . . ماء . . . ماء . . . ماء ! » .
وأنفى السجين بنفسه على باب زنزانه ، التي عُرِلت تماما من الخارج بطبقة من الطوب الأحمر المثبت إلى الأرض بالأسمنت وغطيت جدرانها بالأسمنت أيضا .
- « ماء ، أيها الضابط ، ماء ، أيها الضابط ، ماء ! بحق الله ، من فضلك أيها الضابط ! » .

وظل السجين ، وقد نفدت منه الدموع ، واللعاب ، وكل ما هو رطب أو بارد ، وقد استحالت حلقة أكمه شوك حارقة ، مترددا بين عالم من نور ورقاع من ظلمة ، يقرع صرخاته التي لا تنقطع :

- « ماء ، أيها الضابط ! ماء أيها الضابط ! ماء أيها الضابط ! » .

وكان ثمة رجل صيني على وجهه علائم الجدري معني بشؤون السجناء . وكان يأتيهم « كل بضعة قرون » كأنما هو آخر نفس في الحياة . هل كان ذلك

المخلوق شبه الإلهي يوجد حقا ، أم كان خيالا من خيالات أحلامهم ؟ كانت رائحة البراز الموطوء وصرخات السجين تجعل رؤوسهم تدور ، كما أنه من الممكن أن ذلك الملاك الخنون لم يكن سوى رؤيا خيالية من بنات أفكارهم .

- ماء أيها الضابط ! ماء أيها الضابط ! بحق الله ، من فضلكم ، ماء ! ماء ! ماء ! ماء ! « .

وكان ثمة جنود بروحون وبجيثون ، تدق كعابهم على الأرض المغطاة بالقرميد وهم يرتدون صنادلهم الجلدية ، وكان البعض منهم يزأر بالضحك ويرد على السجين الصارخ بقوله :

- « أيها التيرولي ، أيها التيرولي ، لماذا قتلت الطائر الذي يتحدث كالإنسان ؟ » .

- « ماء ، بحق الله ، من فضلكم ، ماء ، أيها السادة ماء من فضلكم ! » .

وكان « فاسكيز » يتدبر انتقامه ، بينما تركت صرخات الإيطالي الهواء جافا عطشا كغلاف قصب السكر . وجعله صوت طلقة رصاص يحبس أنفاسه . لقد بدأ تنفيذ أحكام الإعدام . لا بد أن الساعة الآن الثالثة صباحا .

زواج في ظلال الموت

- ثمة مريضة تختصر في حينها .

وخرجت عانس من باب كل منزل .

- ثمة مريضة تختصر في حينها .

وخرجت من منزل « المائتين » امرأة تدعى « بترونيلا » ، وجهها وجه جندي وحركاتها حركات دبلوماسي ، ولو خيروها لاختارت على الأقل أن تدعى « برتا » تدلّلا ، لعدم وجود مغريات أخرى فيها . وبعدها ، جاءت صديقة من منزل « المائتين » أيضا تدعى « سيلفيا » ، وجهها كالعنساوية وملابسها على الطراز البروفيناني* ؛ ثم إحدى معارف « سيلفيا » وتدعى « إنغراسيا » ، ترتدي كورسيها يضغط على جسدها حتى ليصح نعته بالدرع . وحذاء ضيقا عند كعبيها ، وسلسلة ساعة تدلى حول عنقها كأنها حبل مشنقة ؛ ثم ابنة عم « إنغراسيا » ، ذات رأس على هيئة القلب كرأس الأفعى ، وكانت أجشسة الصوت ، مدملجة ، ذات مظهر رجولي ، لا تكاد تجاوز إحدى سيقان إنغراسيا حجبا ، ومدمنة على التنبؤ بالكوارث واستطلاع ظهور الشهب ، أو المسيح الدجال ، أو العصر الذي سيلجأ فيه الرجال إلى قمم الأشجار هربا من مطاردة النساء ، والذي متصعد النساء فيه إلى تلك الأشجار لإعادتهم إليهن ثانية !

ثمة مريضة تختصر في حينها . يا له من نيا ! كان الأمر لا يبين عن سرورهم بتلك الفكرة ، بيد أنه كان يبين في الطريقة التي حاولت بها أصواتهن الخافتة إخفاء جهورهن بذلك الحدث الذي قد يهيء للكثيرات منهن العمل بمقاصاتهن ، بل

* نسبة إلى أول أسرة مانكة في فرنسا .

ويُخَلَّف كثيرا من القماش لمن جميعا بحيث تأخذ كل واحدة لنفسها ثوبا منه .

كانت « لامسكوتا » في انتظارهن . وأعلنت « بىرونيلا » الأتية من منزل « المائتين » : - « إن أخواني جاهزات » .

ولم تُبين لأي شيء من جاهزات .

وقالت « سيلفيا » : فيها يتعلق بالملابس ، يمكنك طبعاً الاعتماد عليّ . إذا لزمك شيء منها .

أما « إنغراسيا » ، إنغراسيا الصغيرة ، التي تعبق برائحة مرق اللحم حين لا تفوح منها رائحة دهان الشعر ، فقد أضافت ، وهي تنطق بنصف الكلمات من فرط ما يضغط الكورسيه على جسدها :

- « لقد فكرت فيها وتلوث صلاةً على أرواح المحتضرين بعد أن فرغت من صلواتي » .

كن متجمعات في الغرفة الواقعة وراء الحانة ، يتكلمن في صوت خفيض ، ويماولن ألا يمكن الصمت الذي كان يجلل سرير المريضة كأنه دواء طبي ، أو يضايق السيد الذي كان يجلس إلى جوارها ليل نهار . إنه سيد أصيل حقاً . كن يتوجهن إلى السرير على أطراف أصابعهن ، مدفوعات بالرغبة في الفاء نظرة على وجهه أكثر منه بالنظر إلى « كميلة » الراقدة هناك كالشيخ ، بأهدابها الطويلة ، وعقها التحيل التحيل ، وشعرها المهوش . وحين شمن رائحة سر في الموضوع (اليس ثمة سر دائماً حيثما كانت قصة حب ؟) لم يهدأ لمن بال حتى استخلصن مفتاح السر من صاحبة الحانة . إنه خطيبها ! خطيبها ! خطيبها ! خطيبها ! طبعاً ! إنه خطيبها ! ورددن جميعاً الكلمة السحرية ، كلهن ما عدا سيلفيا ، التي خرجت دون أن يلحظها أحد حالما عرفت أن « كميلة » هي ابنة الجنرال كاناليس ، ولم تعد بعد ذلك . كانت ترى من الأفضل عدم الاختلاط بأعداء الحكومة . وقالت لنفسها إن الشخص الذي يعودها ربما يكون خطيبها أي نعم ، وقد يكون أيضاً من أصدقاء السيد الرئيس ، « ولكنني شقيقة أخني ، وأخي نائب في البرلمان ، وربما أضر به اختلاطي بهم . لا بد لنا أن نضع ثقتنا في الله ! » . ورددت حين خرجت إلى الطريق : « لا بد لنا أن نضع ثقتنا في الله ! » .

ولم يكذب الوجه الملائكي يشعر بهؤلاء النسوة ، رغم أنهم كن حريصات على إتمام مجاملتهن للفتاة المريضة بمواساة خطيبها . وشكرهن دون أن يسمع ما يفكته - مجرد كلام - وروحه بكاملها متببهة لأنين كميلة المؤلم الذي يصدر عنها برغمها ، ولم يستجب لمظاهر العطف الذي أبديته وهن يضافته . وشعر بجسده يبرد ، مسحوقاً تحت وطأة البؤس الذي انتابه . وتملكه إحساس بأن الدنيا تقطر ، وأن أطرافه قد خدرت ، وأنه مشتبك مع أطراف غير مرئية في حيز أكبر من الحياة ، حيز من الفراغ بدا فيه الهواء والنور والظلال والأشياء منفصلة عنه وحيدة .

وكسر الطبيب سلسلة أفكاره .

- ما العمل إذن يا دكتور . . . ؟

- لن ينقذها سوى معجزة !

- سوف تعود ، أليس كذلك ؟

لم تبدأ صاحبة الحانة لحظة ، ورغم ذلك لم يبد عليها أي تعب . كانت تغسل الثياب لبعض الجيران ، ولذلك نقت الثياب في الصباح الباكر قبل أن نذهب بطعام الإفطار إلى فاسكيز في السجن ، ولم تكن قد سمعت أنباء عنه مؤخراً . وحين تعود ، كانت تغسل الثياب وتمصرها وتعلقها لتجف ، ثم تسرع إلى أداء بعض الأعمال المنزلية في بيتها خلف الحانة ، وغير ذلك من الأشياء : العناية بالمريضة ، إشعال الشموع أمام نور القديسين ، محاولة حمل ذي الوجه الملائكي على تناول بعض الطعام ، انتظار الطبيب ، الذهاب إلى الصيدلية ، تحمل ثقل ظل « القسيسات » كما تسمى هؤلاء النسوة العوانس ، والشجار مع صاحب محل حشايب الأسرة المجاور لها . وصاحت من على عتبة الباب وهي تتظاهر بأنها تنش الذباب بعيداً بخرقه ثياب : « حشايب للخنازير الكسولة ! حشايب للخنازير الكسولة ! » - لن ينقذها سوى معجزة !

ردد ذي الوجه الملائكي عبارة الطبيب . معجزة ، الاستمرار التعسفي لما هو قابل للموت ، إنصار جزء من الإنسانية على المطلق العقيم . وشعر برغبة جارفة في التضرع إلى الله لإنجاز معجزة ؛ بيد أن العالم في تلك الأثناء كان يدور ويلف

بعيدا عن مثاوله - بلا فائدة ، معاديا ، مضطربا ، لا هدف له .

كانوا جميعا في انتظار المأساة من لحظة إلى أخرى . نباح كلب ، طرقة قوية على الباب ، دقات أجراس كنيسة « لامرسيد » ، كانت تدفع الجيران إلى رسم علامة الصليب والتنهيد قائلين : « لقد استراحت أخيرا ! أجل ، لقد حانت ساعتها . يا للرجل المسكين . إنه المصير المحتوم . إنها إرادة الله . إنه مصيرنا جميعا » . وأخذت « بيرونيللا » تنقص ما جرى لصديقة لها :

- « إنه أحد هؤلاء الرجال الذين لا يظهر عليهم أي تقدم في السن ، بدرّس الإنكليزية ومواد أخرى أكثر غرابة ، ويعرف عادة بقلب « المعلم » . »

كانت تريد أن تعرف ما إذا كان ممكنا إنقاذ حياة كاملة عن طريق الشعوذة ، ولا بد للمعلم أن يعلم ، فبالإضافة إلى دروس اللغة الانكليزية التي يعطيها ، كان يكرس وقت فراغه لدراسة التصوف ، والروحانيات ، والسحر ، والتنجيم ، والتنويم المغناطيسي ، وعلوم الباطن ؛ بل وكان قد اخترع طريقة سماها : « مستودع السحر النافع في العشور على الكنوز المخبوءة في المنازل المسكونة بالأشباح » . ولم يستطع المدرس مطلقا أن يعلل أسباب إيمانه لعلوم المجهول ، فقد كان في مطلع شبابه ميالا إلى الكنيسة ، ولكن امرأة متزوجة ، أكثر منه تجربة وتسلطا ، تدخلت يوما حين كان متوجها لإنشاد صلوات الكنيسة ، فكانت النتيجة أن خلع مسوحوه وغيرها من أردية القسس ، وظل هكذا يبدو عليه البله والوحدة وترك كلية اللاهوت إلى كلية التجارة ، وكان سيخرج فيها بتجاح لو لم يضطر إلى الهروب من استاذة المحاسبة التي وقعت في غرامه . وفتحت له بعد ذلك أبواب عالم الميكانيكا ، في صورة الحدادة الشاقة ، والتحق بورشة قرية من منزله لينفخ في كبر الحداد ، بيد أنه لم يكن معتادا على العمل الشاق ولا هومتين البنية بما فيه الكفاية له ، فترك ذلك العمل أيضا . ولماذا يتعين عليه أن يعمل وهو ابن الأخ الوحيد لسيدة بالغة الثراء كانت قد كرّسته للكنيسة ، ولم تفقد بعد أملها في أن يصبح قسا ؟ وكانت تقول له : « عد إلى الكنيسة بدلا من أن تجلس هنا تتشاب ، عد إلى الكنيسة . ألا ترى أنك قد ضقت ذرعا بالدنيا ، وأنت نصف أحمق وضعيف كقالب الزبد ، وأنت قد جربت كل شيء ولم ترض أبدا عن شيء : »

جندي ، موسيقي ، مصارع نيران ؟ ! . وإذا لم تكن تريد أن تصبح قسا ، فلماذا لا تصبح مدرسا - تعطي دروسا في الانكليزية مثلا ؟ إذا لم تكن من الصفوة التي اختارها الله ، فلماذا لا تختار أنت التلاميذ ؟ إن الانكليزية أسهل من اللاتينية وأكثر نفعاً منها ، وأنت إذا أعطيت دروسا في اللغة الإنكليزية فسيفترض تلاميذك أنك تتحدث الإنكليزية رغم أنهم لا يفهمونك ، فإذا كانوا لا يفهمون فهذا أفضل ! .

وخففت « بترونيلا » من صوتها ، كما تتحدث دائما عن أمور نسحق فؤادها :

- « إنه يحبّ يعبدنا ، يتعبد في محرابها أيها المعلم ؛ ورغم أنه قد اختطفها ، فقد عالجها باحترام ويأمل أن تبارك الكنيسة إتحادهما الأبدى . إن المرة لا يرى مثل هذه الأمور كل يوم . . . » .

وقالت أطول ساكنة في منزل « المائتين » ، وهي امرأة تبدو وكأنها قد صعدت عدة درجات من سلم جسدها ذاته ، وهي تدخل إلى الغرفة حاملة باقة ورد :

- إنها تحدث الآن أقل من أي وقت مضى يا طفلي .

- ولقد غمرها هذا المحب بكل ألوان العطف أيها المعلم ، وبالتالي أكد أنه سوف يموت معها . . . آه . . .

وقال المعلم في ببطء : أتقولين يا بترونيلا إن السادة الأطباء قد أعلنوا أنه ليس بإمكانهم عمل شيء لانقاذها من يدي القدر ؟

أجل يا سيدي ، إنهم عاجزون . لقد أعلنوا ثلاث مرات أن لا أمل البتة .

- وهل تقولين يا بترونيلا إن معجزة فحسب قادرة على إنقاذها ؟ .

- هو ذاك . وإن قلبي يدمي من أجل ذلك الشاب المبكين .

- حسناً . إن عندي الحل . لسوف نعمل على أن تحمل تلك المعجزة . إن الشيء الوحيد الذي يمكنه مكافحة الموت هو الحب ، لأن الحب والموت ، كما يجبرنا « نشيد الإنشاد » هما قدر مماثل من القوة : وإذا كان حبيب هذه الفتاة - كما

تقولون - يعيدها ، ويحبها حبا عميقا ، أعني بكل فؤاده وجوارحه ويريد الزواج منها ، لذا فإمكاننا أن ننفذ حياتها عن طريق مراسم الزواج المقدسة . وطبقا لنظريتي في التطعيم ، فإن هذا هو ما يجب فعله في هذه الحالة .

وكاد أن يغمر على « بترونيلا » بين ذراعي المعلم . وأيقظت المنزل كله ، وذهبت مرة أخرى إلى منازل الصديقات ، وأرسلت « لامسكواتا » كيما تحدث القس . وفي نفس ذلك اليوم ، تم زواج ذي الوجه الملائكي وكملة ، على أعتاب العالم الآخر . وأمسك ذو الوجه الملائكي يدا طويلة رقيقة ، باردة كسكين ورق عاجية ، في يده اليمنى المحمومة ، بينما تلا القس عبارات مراسم الزواج الديني باللاتينية . وكان سكان منزل « المائتين » حاضرين : انغراسيا ، والمدرس يرتدي ملابس سوداء . وهتف المعلم بالانكليزية حين انتهت مراسم الزواج :

- « إخلق لي نفسك روحا جديدة ، من أجل ! » .

حرّاس من جليد

كان بُرى في مدخل السجن صفان من سيوف البنادق اللامعة ؛ وكان الجنود القائلون بالحراسة يجلسون في مواجهة أحدهم الآخر كأنهم المسافرين في عربات السكة الحديد المظلمة ووجهة ، توقفت إحدى العربات المارة أمام الباب . وانحنى السائق إلى الخلف كي يسيطر على الزمام على نحو أفضل ، وهو يهتز من جانب إلى آخر كالدمية المصنوعة من الخيزران القذرة ، ويطلق السباب . لقد كاد يفقد توازنه ويسقط . ووصل صوت احتكاك عجلات العربة بالأرض من جراء إيقافها بقتته إلى داخل المبنى المشؤوم ذي الجدران الملساء العارية ، وترجل من العربة ببطء رجل مستدير البطن لا تكاد ساقاه تصلان إلى الأرض . وشعر السائق بأن عربة الأجرة قد استراحت من ثقل وزن المدعي العسكري العام ، فوضع سيجارته المطفأة بين شفتيه الجافتين . . . يا لها من راحة أن يبقى وحده مع جياده ! وأرعى الزمام وساق العربة كيها ينتظر في مواجهة المنزل ، إلى جانب حديقة صخرية كتلب الحونة المقدود من صخر ، في نفس اللحظة التي ألقت فيها إحدى النسوة بنفسها أمام قدمي المدعي العام ، راجية منه في صوت عالٍ أن يستمع إلى شكواها .

- « إنهضي يا سيدي ؛ لا يمكنني أن أستمع إليك على هذا النحو ! كلا ، كلا ، إنهضي أرجوك » لم أنشرف بعد بمعرفتك . . . » .

- إنني زوجة كرفخال المحامي . . .

- إنهضي . . .

ولكنها انفجرت مرة أخرى :

- « لقد كنت أبحث عنك طوال الليل والنهار يا سيدي ، في كل ساعة ، في

كل مكان ؟ في منزلك ، في منزل والدتك ، في مكتبك ، بلا جدوى . إنك الشخص الوحيد الذي يعرف ماذا حدث لزوجي ؛ إنك الوحيد الذي يعرف ؛ إنك الوحيد الذي يمكنه أن يدلني . أين هو ؟ ماذا حدث له ؟ قل لي يا سيدي إن كان لا يزال حيا ؟ قل لي يا سيدي إنه لا يزال على قيد الحياة . . . » .

- الواقع يا سيدي أن المجلس العسكري الذي سينظر في قضية زميلي المحامي قد تلقى أمر استدعاء عاجلا للاجتماع هذه الليلة .

آ آ آ آ آ !

وإرتعشت شفتاها اللتان لم تستطع إطباقها من الفرحه . إنه لا يزال حيا ! ومع هذا النبأ جاءها الأمل .

حيا ! . . . ربما إنه بريء . . . فسيطلقون سراحه . . . بيد أن المدعي العام أضاف دون أن يغير نبرته الباردة :

- « إن الوضع السياسي للبلد لا يسمح للحكومة أن تنهون بأي حال من الأحوال مع أعدائها يا سيدي . هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله لك . إذهبي إلى السيد الرئيس واستمعيه للإبقاء على حياة زوجك ، فقد يُحكم عليه بالموت ويعدم رميا بالرصاص ، وفقا للقانون ، بعد أربع وعشرين ساعة . . . » .

- آه ، آه ، آه . . .

- إن القانون فوق الأشخاص يا سيدي ، وما لم يعف السيد الرئيس عنه . . . - آه ، آه ، آه . . .

ولم تستطع الحديث . ووقفت هناك وقد غاض اللون من وجهها وصار أبيض كالمنديل الذي كانت تقطعه مِرْفَقاً بإستانها ، ساكنة ، بلا حراك ، نائهة الفكر ، تلوي أصابعها .

وإختفى المدعي العسكري العام بين صفى السونكي . وبعد فترة من النشاط ، امتلا فيها الطريق بعربات بها سيدات وصادة متأنقون في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد استمتاعهم بالنزهة الرئيسية في المدينة ، بقي بعدها مستنفدا قفرا .

وأطلت عربة ترام صغيرة تصفر وترق من شارع جانبي ، ومضت بعيدا نمرج على قضبانها . . . آه ، آه ، آه . . .

لم نستطع كلاما . كانت ثمة كماشة باردة كالجليد تقبض على عنتي ، ويستحيل عليها الفكك منها ؛ وشعرت بجسدها ينزلق من كتفيها إلى الأرض . لم تعد سوى رداء خالٍ ، برأس ويدين وقدمين فحسب . وتردد في سمعها صوت عربة أجرة تقترب عبر الطريق . وأوقفتها واستقلتها . وبدت الجياد منتفخة كالدموع حين نوت عنقها واستدارت على أعقابها ثم توقفت . وقالت للسائق أن يحملها إلى منزل رئيس الجمهورية الريفي بأسرع ما يمكن . ولكنها كانت في عجلة وهفة ، هفة يائسة ، إلى درجة أنه رغم أن الجياد كانت تجري بأقصى سرعتها ، فإنها لم تتوقف عن الإلحاح على السائق بأن يجعلها تجري أسرع . . . كان عليهم أن يكونوا هناك الآن بالتأكيد . . . أسرع . . . لا بد لها أن تنقذ زوجها . . . أسرع ، أسرع ، أسرع . . . واختطفت السوط من السائق . . . لا بد لها أن تنقذ زوجها . . . وزادت الجياد من سرعتها بفعل ضربات السوط القاسية . . . كان السوط يشوط جوانبها . . . تنقذ زوجها . . . كان عليهم أن يكونوا هناك الآن . . . ولكن العربة لا تتحرك . . . كان يوسعها أن تشعر أنها لا تتحرك ، كانت العجلات تدور حول المحاور النائية دون أن تتقدم على الإطلاق ؛ كانوا متوقفين في مكانهم . . . ولكن عليها أن تنقذ زوجها . . . أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل . . . وتهدل شعرها - تنقذه - وإنحلت أزرار بلوزتها - تنقذه . . . ولكن العربة لم تكن تتحرك . . . كان يوسعها أن تشعر أنها لا تتحرك ، العجلات الأمامية فقط هي التي تدور ، ولكن كان يوسعها أن تشعر بالعجلات الخلفية تلكا بطريقة جعلت العربة تتطاول كمنفاخ الكاميرا ؛ وكانت ترى الجياد تنصاعرن وتنصاعرن على البعد . . . كان السائق قد استعاد سوطه منها . . . لا يمكنهم المضي على هذا المنوال . . . أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، أجل ، لا يمكنهم . . . أجل . . . كلا ، أجل . . . كلا . . . ولكن ، لم لا ؟ لم لا ؟ أجل . . . كلا ، أجل . . . كلا . . . وخلعت عنها خواتمها ، ومشبك صدرها ، وأقراطها ، رساورها ، ووضعنها كلها في جيب سترتها ثم ألقت بها إلى السائق ، راجية منه ألا يتوقف . لا بد لها أن تنقذ زوجها . ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد . . . لا بد أن

تصل إلى هناك ، تصل إلى هناك ، تصل إلى هناك ، ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد ... لا بد لها أن تصل إلى هناك ، وترجو الإبقاء على حياة زوجها ، وتنقله ... ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد . حجارة ، أخاديد ، طين جاف ، عشب أخضر ، ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد ... إنهم ثابتون كأسلاك أعمدة البرق ، أو بالأحرى يرجعون القهقري كأسلاك أعمدة البرق ، كالأشجار المزروعة ، كالحقول الياب ، كالسحب الموشاة بأشعة الشمس الغاربة ، كتقاطع الطرق المقفرة ، كالتيران الساكنة .

وأخيرا ، دلفوا إلى الطريق المؤدي إلى منزل الرئاسة ، عبر شريط ضيق يختفي وسط الأشجار والأحراج . كان قلبها يخفق في إختناق . واتخذ الطريق مسرى وسط بيوت صغيرة لقرية مقفرة نظيفة . وهنا بدأوا يصادفون عربات عائدة من ضيعة الرئيس - طراز « لاندوا » وه « سُلكي » وه « كالانش » - يشغلها أناس ذوو وجوه وملابس تشبه بعضها بعضا . وتقدمت جلبة العجلات وحوافر الجياد على الطريق المرصوف ، ولكنهم رغم ذلك لم يصلوا بعد ، لم يصلوا بعد ... وبالإضافة إلى أولئك العائدين في عرباتهم - موظفون سابقون بالحكومة ، وضباط سمان متأنقون - كانوا يصادفون أناسا آخرين سائرين على الأقدام : أصحاب أراضٍ سبق استدعاؤهم لمقابلة الرئيس بصورة عاجلة منذ شهور مضت ؛ ومزارعون يرتدون أحذية كالحفائب الجلدية ؛ ومدارس يتوقفن كل بضعة دقائق لالتقاط أنفسهن وعيونهن بعصف بها التراب وقد تقطعت أحذيتهم من وقع الطريق وارتفعت تنوراتهن إلى ركبتهن ؛ وفرق من الشرطة الهنود لا يفقهون إلا قليلا مما يجري حولهم . لا بد لها أن تنقله ... أجل ، أجل ... ولكن هل يصلون أبدا إلى هناك ؟ أول شيء هو الوصول إلى هناك ، والرجاء ، وإنقاذه . ولكنهم لم يصلوا حتى الآن . لم يبق هناك الكثير ، عبور القرية ليس إلا . كان يجب أن يكونوا هناك الآن ، ولكن القرية لا تبدو لها نهاية ! إن هذا هو نفس الطريق الذي مرت به صور يسوع وعذراء الآلام عمولة على الأكتاف في يوم التحميس المقدس . وعبرت الكلاب عند سماعها موسيقى الطبول الحزينة حين كان الموكب يمر أمام الشرفة التي يقف فيها الرئيس تحت ظلة من قماش أرجواني موشحة برسوم الزهور . ومر يسوع وقد إنحنى ظهره من ثقل الصليب الحشوي ، أمام قصر ، ولكن نظرات الإعجاب من الرجال والنساء المجهت إلى قيصر وليس إلى يسوع . لم

تكن الآلام بكافية . لم يكف البكاء ساعات وساعات ، لم يكف أن تشيح
والعائلات والمدن من وطأة اليأس ؛ بل كان لزاما لمضاعفة الإنهم أن تعبر عبنا
السيد الرئيس بصورة المسيح وهو يتألم ، ومسر بالفعل وعيناه غائمتان تحت ظلة
ذهبية شائعة ، بين صفيين من الأفافين وعلى وقع صلصلة موسيقى وثنية .

وتوقفت العربة أمام المنزل الفاخر . وأسرعت زوجة « كرفخال » تجري عبر
طريق من أشجار مقطوعة الساق . وتوجه إليها أحد الضباط يقطع عليها
الطريق .:

- سيدتي ، سيدتي . . . - لقد أتيت لمقابلة الرئيس .

- السيد الرئيس لا يقابل أحدا يا سيدتي ، عودي أدراجك .

- بل ، بل ، سيقابلني ، أنا ، إنني زوجة المحامي « كرفخال » . . . ومضت
قدما إلى الأمام ، متملصة من أيدي الجنود الذين أسرعوا خلفها يتادون عليها ،
حتى وصلت إلى منزل صغير تسطع أنواره الباهتة في ظلال الفسق . . . إنهم
سيعدمون زوجي أيها الجنرال ! » .

كان ثمة رجل طويل القامة ، ذاكن البشرة ، مرصع بالنباشين الذهبية ،
يمشي في ردة ذلك المنزل الدمية . وتوجهت إليه وقالت له بشجاعة : « إنهم
سيعدمون زوجي أيها الجنرال ! » وظل الضابط الذي تبعها من الخارج يردد أنه من
المنحيل عليها أن تقابل الرئيس .

وبالرغم من حسن خلق الجنرال فقد رد عليها بفتور :

- السيد الرئيس لا يمكنه مقابلة أحدا يا سيدتي . لا بد لك من الذهاب . . .

- أه يا جنرال ! أه يا جنرال ! ماذا سيكون حالي بدون زوجي ؟ ماذا سيكون
حالي بدون زوجي ؟ كلا ، كلا يا جنرال ! إنه سيقابلني ، دعني أدخل ، دعني
أدخل ! قل له إنني هنا ! إنهم سوف يعدمون زوجي ! .

كانت دقات قلبها تسمع عبر رداها . ولم يذعورها تركع على ركبتيها . وكانت
أغشية أذنيها تطرفان وقد اخترقها الصمت الذي واجهوا به طلباتها .

وطفطفت أوراق الأشجار الذابلة في الفسق كأنما من خشية الرياح التي نهب

عليها فتطيرها من على الأرض . وتهالكت على أحد المقاعد . إن الجنود يجولون من جليد أسود . متصلبو الشرايين . وارتفع نشيجها إلى شفتيها بصوت حفيف الثياب المنشأة ، يكاد يماثل صوت السكاكين . وكان اللعاب ينبس من ركني فمها مع كل دفقة أنين . وتهالكت على المقعد بعد أن روت بأنيها كأغا هو حجر لشخذ السكاكين . لقد أبعدوها عن المكان الذي كان يمكن أن تعثر فيه على الرئيس . ومرت دورية حراسة جعلتها ترتعد من البرد . كانت تفوح منها رائحة مقائق الثوم والعسل الأسود وخشب الصنوبر المتزوع اللحاء . واختفى المقعد في الظلمة كاللوح الخشبي في وسط البحر . وتحركت من مكان إلى آخر حتى لا تغرق في مقعدها وسط الظلمة ، حتى تبقى على قيد الحياة . واستوقفتها حراس منبثون وسط الأشجار مرتين ، ثلاث مرات ، مرات عديدة . كانوا يرفضون بأصوات أجشة أن يدعوها تمر ، ويهدونها إذا ألحت بكعب أو ماسورة بنادقهم . وحين صادفت الإحباط عن الشمال ، جرت ناحية اليمين . وتعثرت في الأحجار ، وأصابها الأجسام المليئة بالأشواك بالجراح . كان طريقها يسده مزيد من حراس من جليد . وتضرعت ، وناضلت ، ومدت يدها كالنسولة ، وحين لم يصغ أي واحد منهم إليها ، أخذت تهرى في الاتجاه المقابل .

وجرفت الأشجار ظلها ناحية عربية الأجرة ، ظلها الذي ما كاد يضع قدميه على سلم العربية حتى عاد مرة أخرى كالمجنون ليرى ما إذا كان يجدي الاسترحام مرة أخيرة . واستيقظ السائق وكاد أن يطوح الحلى الصغيرة الراقدة في دفه جبهه حين جذب يده بسرعة كيما يمسك اللجام . كان الوقت يمر في بطل شديد بالنسبة إليه ، وكان توافا إلى العودة والمباهاة وسط أفرانه ، ولديه أسلحتة لذلك الغرض : أفرات ، خواتم ، أساور ، بوسعه رهنها والانتفاع بالنقود . وحك إحدى قدميه بالأخرى ، وجذب قبعته فوق عينيه ، وبصق . ماذا كان يحدث هنا في الظلام ؟ وعادت زوجة « كرفخال » إلى عربية الأجرة كالسائرة في نومها . وانغذت مقعدها في العربية وقالت للسائق أن ينتظر برهة ، فرمما يفتحون الباب . . . نصف ساعة . . . ساعة . . .

وسارت العربية دون أن يصدر عنها أي ضجيج ، فلما أنها لم تسمع جيذا ، ولما أنهم لم يتحركوا بعد . . . وكان الطريق يهوي إلى قاع وهدية عبر تل شديد الأغوار ؛ وبعد ذلك ، يصعد مرة أخرى إلى المدينة . أول جدار مظلم . أول

بيت أبيض . وفي فجوة حائط ثمة إعلان عن « أونورف » وشعرت كأنما كل شيء يلتحم بحزنها الهواء كل شيء . ثمة مجموعة شمسية في كل دعة تذرّفها . . ومئات من قطرات الندى تسقط من الأسطح على الأفاريز الضيقة لم تكن الدماء تكاد تجري في عروقها كيف حالك ؟ إنني مريضة ، مريضة جدا وغدا ، كيف سيكون حالك ؟ على نفس السؤال ، واليوم الذي يليه كذلك كانت ترد على أسئلتها هي نفسها واليوم الذي يلي الغد أيضا

إن يُقل الموتى يجعل الأرض تدور ليلا ، وهي تدور بالنهار بفعل ثقل الأحياء وحين يزيد عدد الموتى على عدد الأحياء ، سيصبح الليل أبديا ، لا نهاية له ، ذلك أن الأحياء لن يكون لهم الثقل الكافي لإعادة النهار

وتوقفت العربة . وكان الطريق منبسطا ، ولكن ليس لها ، لأنها توقفت عند باب السجن الذي لا بد يقينا أن

وسارت قُدماً في بطة ، خطوة خطوة ، ملتصقة بالجدار . لم تكن ترتدي ثياب الحداد ، ولكنها اكتسبت قدرة الخفافيش على اللمس في الظلام الخوف ، البرد ، الإشمئزاز ، قهرتها جميعا كبرا تلتصق نفسها بالجدار الذي سيردد صدى طلقات الرصاص وعلى أية حال ، فهم لن يستطيعوا إطلاق الرصاص على زوجها ، هكذا ، بينما هي واقفة هناك . كيف يحدث هذا لرجال مثله ، أناس مثله ، لهم أعين ، وفم ، وأيد ، وشعر على رؤوسهم ، وأظافر على أصابعهم ، وأسنان في أفواههم ، ولسان ، وحلق ليس ممكناً أن يطلقوا النار على أناس هكذا ، أناس لهم نفس لون الجلد ، لهم نفس زنة الصوت ، نفس طريقة الإبصار ، والسمع ، والإيواء إلى الفراش ، والنهوض ، والحب ، وغسل الوجه ، والأكل ، والضحك ، والسير ، لهم نفس المعتقدات والشكوك

السيد الرئيس

بعد أن تم استدعاء ذي الوجه الملائكي على جناح السرعة إلى القصر الجمهوري ، أخذ يفكر بقلق في حالة كميلة ، وقد إرتسم في نظراته الحائرة شيء من المرونة كان أمراً جديداً عليها ؛ كما إنعكس في عينيه تعبير إنساني جديد . وكان يتقلب ويتحول في دوامة شكوكه ، كالثعبان الجبان الذي يتعثر في ذيله ؛ هل يذهب أم لا يذهب ؟ الرئيس أو كميلة ؟ كميلة أو الرئيس ؟ .

كان لا يزال يشعر بدفعات صاحبة الخانة في ظهره تستحثه على الذهاب ورنه صوته المتضرع ، إذ كانت ترى في ذهابه فرصة للتوسط من أجل فاسكيو . « إذهب أنت ، وسأبقى أنا هنا أرعى المريضة » . وفي الطريق ، استشق الهواء بعمق . كان يركب عربة تتجه إلى القصر الجمهوري . ضربات حوافر الجياد على الأرض الصخرية . . . دفع العجلات السائل . وأخذ يقرأ أسماء الحيوانات بعناية وهي تمر أمام ناظره : « القفل الأحمر » . . . « خلية التحصيل » . . . « البركان » . . . وكانت العناوين تبدو أشد وضوحاً في الليل عنه في النهار . . . « السكة الحديد » . . . « الدجاجة والكتاكيت » . وأحياناً ، كانت عيناه تقعان على أسماء صينية . . . « لون لي لون وشركاه » . . . « كوان سي شان » . . . « فو كوان ين » . . . « شون شان لو » . . . « سي يون سي » . ومضي يفكر في الجنرال كاتاليس . لا بد أنهم بعثوا في طلبه كيما يحيطوه علماً بأخير الانباء . . . مستحيل ! . . . لماذا مستحيل ؟ . . . لقد قبضوا عليه وقتلوه . . . أو ربما لم يقتلوه بل أعادوه سجيناً . وهبت سحابة من الغبار فجأة . كانت الريح تلعب مصارعة النيران مع العربة . كل شيء جائز ! وحين وصلوا إلى خارج المدينة ، سارت العربة في سلامة ، كالجسم الصلب الذي يتحول فجأة إلى سائل .

وأمسك ذو الوجه الملائكي ركبتيه بيديه وتهد . وضاعت جلبة العربية وسط آلاف من أصوات الليل الذي يزحف ببطء ، حثيثا ، كرويا . وظن أنه سمع جناحي طائر يرفرفان . ومروا على بضعة منازل متفرقة . ونبحثهم كلابٌ شبه ميتة . . .

وكان وكيل وزارة الحربية في انتظاره على باب مكتبه . ولم يكذب بمر وقت كاف للمصافحة حتى وضع سيجارته على حافة منفضة السحائر وقاده مباشرة إلى جناح السيد الرئيس . وأمسك ذو الوجه الملائكي بذراع وكيل الوزارة وقال له :

- جنرال ، هل تعلم لماذا إسندعاني الرئيس؟

- كلا يا سيد مينيليتو ، إني « أجهل » ذلك .

وعرف عند ذاك الموضوع . وأكدت ضحكة قصيرة ، تكررت مرتين أو ثلاث مرات ، ما جعله الرد المراع لوكيل الوزارة محتب . وحين وصل إلى غرفة الرئيس رأى غابة من الزجاجات فوق منضدة مستديرة ، وإلى جوارها طبق من اللحوم الباردة مع ثمار الأفوكاتو وسلطة الفلفل الأخضر . وتمت اللوحة بوجود المقاعد مقلوبة على الأرض هنا وهناك . وجاهدت النوافذ بأفاريزها المصنوعة من الزجاج الأبيض المعتم ، والتي يعلو كل منها عُرْفٌ أحمر ، كبها تحجب الضوء النسلل من المصابيح التي في الحديقة . وكان الضباط والجنود القائمون بالحراسة شاكّي السلاح ، ضابط على كل باب ، وجندي عند كل شجرة . وتقدم السيد الرئيس من الطرف الأقصى للغرفة ، وبدت أرضية الغرفة كأنها تتقدم تحت خطواته والسقف من فوق رأسه .

وحياه المحبوب بقوله : « سيدي الرئيس » وأسرع يضع نفسه تحت إمرة ، حين قاطعه ذاك قائلا :

- نيه . . . نيسر . . . يرقا !*

- هل يشير السيد الرئيس إلى إلهة الجمال « منيرفا » ؟ !

واقترب فخامته من المائدة بخطوات قافزة ، وصاح بالمحسوب دون أن يلقي بالاً لكلامه عن « منيرفا » :

• كلمة تقارب كلمة سيباب بالإسبانية .

- هل تعرف يا ميغيل أن من اكتشف الخمر إنما كان يبحث أصلا عن مشروب إطالة الحياة ؟

فأسرع المحبوب يقول : كلا سيدي الرئيس ، لم أكن أعرف ذلك .
- هذا غريب ، لأن ذلك مذكور في دائرة المعارف .

- إن الأمر يكون غريبا حقا لو كان عدم معرفة ذلك من جانب رجل له مثل سعة اطلاعك سيدي الرئيس ، ومن له حق اعتبار نفسه أحد أبرز ساسة العصر الحديث . ولكن ليس غريبا أن يكون مني أنا .

وأرخص فخامته جفنيه فوق عينيه حتى يخفي عن نظاريه حالة القوضى الضاربة إطنابها فيما حوله من أشياء على النحو الذي صوّرتها له في تلك اللحظة حالة السكر البين التي كان واقعا تحت تأثيرها .

- إه ، أجل ، إني أعرف الكثير !

قال ذلك ثم أرخص يده وسط غابة زجاجات الويسكي السوداء ، وصب كأسا لذي الوجه الملائكي .

- إشرب يا ميغيل .

وغص حلقه بالكلام . كان ثمة شيء قد انحسر في حلقه ، ودق على صدره لينتخلص منه ، في حين انشدّت عضلات رقبته التحيلة وإنفجحت عروق جبهته . وجعله المحبوب يتلع بعض المياه الغازية ، وبعد بضع تكريرات استعاد قدرته على الكلام .

وانفجر ضاحكا وهو يشير إلى ذي الوجه الملائكي : « ها ها ! ها ها ! ها ها ! على حافة الموت » . . . انفجار وراء انفجار من الضحكات . . . « على حافة الموت » ، ها ها ! ها ها ! .

وشحب وجه المحبوب ، وانحرف في يده كأس الويسكي الذي شرب منه لتوه نخب الرئيس .

- السيد . . . فقاطعه فخامته قائلا :

- ... الرئيس يعرف كل شيء . ها ها ! ها ها ! ... على حافة الموت ،
وتصبحة أحد المتخلفين عقليا ، كما هم كل الروحانيين ! ها ها ! ها ها ! .

ووضع ذو الوجه الملائكي الكأس على فمه وضغط عليه وهو يشرب حتى يمنع
نفسه من الصباح غضبا . لقد رأى الضوء الأحمر لتوه ، فقد كان على وشك أن
يهجم على سيده ويتخفق ضحكاته البائسة في صدره ، ورأى شعلة دماثة المشربة
بالخمر . ولو كان ثمة قطار قد مر على جسده ، لما سبب له من الآلام أكثر مما كان
يشعر به الآن . كان يشعر بالقرف ، ولكنه استمر يتصرف كالكلب المتمرن
الذكي ، السعيد بنصبه من القاذورات ، والمُشبع بغريزة حب البقاء . وابتم
كينا بخفي عداة ، بيد أن الموت كان مرتسا على عينيه المخمليتين ، كشارب السم
الذي يشعر بوجهه أخذًا في الاحتقان . وكان فخامته بطارد ذبابة .

- ألا تعرف لعبة الذبابة يا ميغيل ؟

- كلا سيدي الرئيس .

- آه ، حقا إنك ... على حافة الموت ! ها ها ! ها ها ! ... هي هي !
هي هي ! هو هو ! هوو . هووو !

واستمر مفهقها يطارد الذبابة وهي تطير من مكان إلى آخر ، وقد خرج
قميصه من زئار بنطاله ، وانفخت أزرار بنطاله ، وانحلت سيور حذائه ، وسال
اللعاب من فمه ، بينما عيناه تشعان ضوءاً أصفر كمع اليبضة .

وقال وقد توقف لاهثا عن مطاردة فريسته : ميغيل ، إن لعبة الذبابة هي
أحسن تسلية وأسهل لعبة في العالم ، إن الشيء الوحيد الذي لمُتَاجِه فيها هو
الصبر . لقد كنا نلعب لعبة الذبابة لقاء الملايم في قريتي حين كنت صبيا .

وعسى حين ذكر قريته ، وظللت وجهه سحابة سوداء ؛ وتحول لينظر في
خريطة للجمهورية كانت معلقة خلفه ، وصوب ضربة بقبضته إلى اسم القرية .

وأبصر في مخيلة الطرق التي جابها طولاً وعرضاً حين كان صبيا فقيرا ، فقرا
ظالما ، والتي جابها شاباً مرغماً على كسب قوته بينما الخلاسيون المنحدرون من
عائلات ثرية يقضون وقتهم متفليين من قصف إلى قصف . ورأى نفسه ضيلا ،

يقعي في ظلال أفرانه ، منعزلا عن الجميع ، جالسا تحت مصباح الطريق الذي
تعود أن يستذكر على ضوءه ، بينما أمه تنام على سرير من الخرق البالية ، والرياح
تصفع الطرق المهجورة بهبات من الهواء المحمل برائحة الأغنام . ثم رأى نفسه
لاحقاً في مكتبه كمحام من محامي الدرجة الثالثة ، وسط العاهرات والمقامرين
وبائعي الفضلات ولصوص الجياد ، محتقراً من بقية زملائه الذين يتناولون قضابا
هامئة .

وابتلع الكثير من كؤوس الشراب ، الواحد تلو الآخر . وكانت عيناه
الجاحظتان تلمعان وسط وجهه المخضوض ، وأظافره المجللة بالسواد تحدد إطار
يديه الصغيرتين . - يا لهم من جحدة !

وأسنده المحبوب من ذراعه . وبدا كأن الرئيس يرى أمامه أشخاصا وهو يمر
بعينه عبر الحجرة المشوشة ، وقال ثانية :

- « يا لهم من جحدة ! » ثم أضاف بصوت خفيض : « ولقد أحيت
« باراليس سونريني » وسأظل أحبه دائما ؛ وكنت على وشك أن أرفعه جنرا لا ،
لأنه داس على أهل موطني وأذلهم ، ولو لم تتدخل أُمِّي لكان قد قضى عليهم كليةً
وانتقم لي من كل ما أحمل تجاههم من ضغائن ، وهي أشياء أنا وحدي الذي
أعرفها . يا لهم من جحدة ! والأقطع أنهم قتلوه الآن والناس ينحططون من كل
جانب لاغتيال ، وأصدقائي يتخلون عني ، وأعدائي يزدادون و . . . كلا ،
كلا ! لن يبقى من « رواق الرب » حجر واحد . »

كانت الكلمات تندفق من شفثيه كالعربة التي تجري فوق طريق زلق .
وإنحني فوق كتف المحبوب ، ويده الأخرى تضغط على بطنه ، ورأسه يبدور ،
وعيناه منطقتان ، وأنفاسه باردة كالثلج ، وسرعان ما تقبأ فيضا من سائل برتقالي
اللون . وهرع وكيل الوزارة إلى داخل الغرفة يحمل إناء من الميثاء مطبوعا على قاعه
شعار الجمهورية ؛ وحين انتهى الطوفان - وقد ذهب أغلبه فوق ملابس المحبوب -
تعاون الإثنين على حمله وسحبه إلى سريره .

كان يبكي ويردد مرارا وتكرارا : - « يا لهم من جحدة ! يا لهم من جحدة ! »
وهمس وكيل الوزارة للمحبوب وهما خارجان :

« تهانتي يا سيد ميغيليتو ، تهانتي . لقد أصدر السيد الرئيس أمره بنشر خبر زواجك في جميع الصحف ، مع إدراج اسمه على رأس قائمة المحتفلين » .
ودلفا إلى البهو ، ورفع وكيل الوزارة صوته قائلاً :

« وذلك على الرغم من أنه لم يكن راضياً عنك في البداية ؛ فقد قال لي .
« لم يكن ينبغي لأحد أصدقاء » باراليس سونريتي « أن يفعل ما فعل ميغيل ؛ كان يجب على الأقل أن يلتصق إيدي قبل أن يتزوج من ابنة أحد أعدائي » . ثمة أناس يريدون إلحاق الأذى بك يا سيد ميغيليتو ، أجل ، يريدون إلحاق الأذى بك . طبعاً ، لقد حاولت أن أجعله يفهم أن الحب عاطفة عنيدة جامحة حاسمة خادعة .
شكراً جزيلًا يا جنرال .

فاستطرد وكيل الوزارة في صوت مرح ، وهو يدفع ميغيل دفعات ودية رقيقة تجاه مكتبه وهو يضحك طول الوقت :

« حسناً ، تعال إذن وانظر إلى هذا . تعال أنظر إلى الصحف ! لقد حصلنا على صورة السيدة من عمها « خوان » . رائع يا صديقي العزيز ، رائع ! » .

ودس المحبوب أصابعه في كوم الصحف الخفيض . وإلى جواره صورة الشاهد الرئيس ، كانت ثمة صورة للسيد خوان كاناليس ، المهندس ، وأخيه السيد خوسيه أنطونيو . « عرس في الطبقة الراقية . تم في الليلة الماضية الاحتفال بزواج الأنسة الفاضلة كميله كاناليس والسيد ميغيل ذي الوجه الملائكي . والعروسان . . . » . وجرت عيناه إلى مسطور شهود العقد . . . « وكان شهود العقد فخامة رئيس الجمهورية الدستوري ، الذي جرت مراسم الاحتفال في قصره ، ووزراء الدولة ، الجنرالات . . . » وعبر فوق مسطور قائمة الأسماء . . . « وعمّا العروس المحترمان ، السيد خوان كاناليس المهندس ، والسيد خوسيه أنطونيو كاناليس . وفي نهاية الفقرة : « وهناك صورة للأنسة كاناليس في عمود الاجتماعات من طبعة اليوم لجريدة « الناسيونال » . ونحن نتشرف بإزجاء التهاني للطرفين متمنين لهما كل سعادة في بينهما الجديد » .

ولم يدر ذو الوجه الملائكي أن يتوجه ببصره . . . « معركة الفردان مستمرة .

من المتوقع أن يشن الألمان هجوماً يائسا الليلة .

وأراح عينيه عن صفحة الأخبار الخارجية وأعاد قراءة الكلام المكتوب تحت صورة كميلة . ها قد أفحم الشخص الوحيد الذي أحبه في هذه المهزلة الشائنة التي يشتركون فيها جميعا . وتناول وكيل الوزارة الصحيفة منه .

- إنك لا تكاد تصدق عينيك ، إه ، أيها الرجل المحظوظ !

وابتسم ذو الوجه الملائكي .

- ولكنك في حاجة إلى تغيير ملابسك يا صديقي . خذ عربي .

- شكرا جزيلًا يا جنرال .

- انظر ... إنها هناك . فل للسائق أن يأخذك إلى منزلك بأسرع ما يمكن ثم عد إلى هنا مرة أخرى . مساء الخير ... وتهانتي ... أوه ، وبالنسبة ، خذ هذه الصحيفة لكي تراها زوجتك ، وإنقل لها التهاني من خادمك 'نطيع ... !

- إنني ممتن لك على كل شيء ، مساء الخير .

وسارت العربة وبها المحبوب ، دون صوت كأنها مهم أسود يحمره جوادان عجولان من الدخان . وشكلت أغاني الجداجد سطحا فوق عزلة الحقول الفواحة بعبير الخزامى ، وعزلة حقول الذرة التي بكترت في الظهور ، والمراعي المخضلة بالندى ، وسياج الحدائق المحملة بالياسمين .

وقال في سريرته : « أجل ، إذا واصل الهزء مني ف سوف أخفه » ، وأخفى وجهه في المقعد الخلفي خفية أن يقرأ السائق ما يرسم في عينيه : كتلة لحم متجمد على صدر الوشاح الجمهوري ، والوجه المقطع جامد ساكن ، واليدان نطيطها الأردن حتى لا يبين منها سوى الأصابع ، والحناء الجلدي مغطى بالدماء .

ولم تنفق حالته العدائية الجياشة مع هزات المركبة . كان بود لو كان جالسا ساكنا سكوت القتال الذي يستعيد جرمته في السجن ، سكوتا ظاهريا ، خارجيا ،

تُملّ تعويضا ضروريا عن الثورة الجياشة التي نعتمل في أفكاره . كانت دماؤه تنجلي
في عروقه . وأخرج وجهه من نافذة العربة في الليل البارد بينما كان ينظف ثيابه مما
علق بها من قمي ، سيده بمندبل يلكه العرق والدموع . كان يب ويلعن ويبيكي من
خفيظ . . . آه لو كان بإمكانني فحسب أن أنظف الضحكات التي أفرغها فوق
روحي ! » .

ولحقت بهم عربة أخرى بداخلها ضابط ، ثم سبقتهم على الطريق . ووميضت
الساء فوق لعبتها الشطرنجية الأبدية . وكانت الجياد تحب في وحشية تجاه المدينة
في سحابة من الغبار . وقال ذو الوجه الملائكي لنفسه : « كش ملك ! » إذ كان
ينظر إلى سحابة الغبار التي يهرع في وسطها الضابط ليحضر للسيد الرئيس واحدة
من محظياته . كان يبدو وكأنه رسول الآلهة .

وفي المحطة المركزية للسكك الحديدية ، كان العمال يفرغون البضائع
بضوضاء سريعة ، وسط نخير القاطرات التي يتصاعد منها البخار . وكانت
الطُرقات يظلمها وجود زنجي يُظلم من سرقة بيت عال خضراء ، وخطوات
السكاري المترنحة ، ورجل غمي الهيئة يجر وراءه أرغنا هائل الحجم ، كأنه مدفع
يُسحب بعد الهزيمة العسكرية .

النقاط فوق الحروف

أخذت أرملة « كرفخال » تهم من منزل إلى منزل ، حيث إستقبلوها ببرود في كل مكان ؛ ولم يجرؤ إلا القليل من الناس على إظهار حزنهم على وفاة زوجها خوفا من اعتبارهم أعداء للحكومة . وفي بعض الحالات أطل الخدم من الشرافذ لبصيحوا بها دون لياقة :

« من تريدن ؟ أوه ، لا أحد في المنزل » .

وذاب الجليد الذي هطل عليها من جراء تلك الزيارات حالما وصلت إلى منزلها . وعادت تذرف فيضانات من الدموع أمام صورة زوجها ، دوغما رفيق سوى ابنها الصغير ، ونخامة صباء ظلت نصيح بالطفل بأعلى صوتها : « إن حب الأب هو أعظم نعمة في الوجود ! » ، ويبغاء يردد مرارا وتكرارا : « بغبغان ملوكي من البرتغال ، ملايه خضراء وليس معه مليم ! صباح الخير أيها المحامي . صافحيني يا بولبي . النسر في المفلة . رائحة ملايس محترق . مبارك هوسر القربان المقدس ، ملكة الملائكة الطاهرة ، العذراء التي حملت دون دنس . آي ، آي ... » .

كانت قد خرجت ترجو الحصول على توقيعات على ملتمس إلى الرئيس لتسليمها جثة زوجها ، بيد أنها لم تجرؤ على ذكر الموضوع في أي من البيوت التي زارتها ؛ ذلك أنهم إستقبلوها دون أي ترحاب ، في تردد ، بين نوبات سعال وفترات صمت مشؤوم . ومن ثم فقد أحضرت معها الورقة تحت شالها الأسود لا تحمل أي توقيع غير توقيعها هي . كانوا يشيحون برؤوسهم جانبا ، متظاهرين أنهم لم يروها ؛ واستقبلوها على عتبة الباب دون العبارة المعهودة : « تفضل بالداخل » . وبدأت تشعر كأنما تعاني من مرض مُعدٍ خفي ، شيء أقطع من

الفقر ، من الكوليرا ، من الحمى الصفراء ؛ ورغم ذلك فقد تلقت وابلا من « الخطابات الغفل » كما تقول الخادمة الصبا كلما عثرت على خطاب ملقى من تحت فرجة باب المطبخ الصغير الذي يطل على زقاق مظلم مهجور ، وهي أوراق مطوية مكتوبة بخط مرتعش توضع هناك تحت ستار الليل ، وكان أقل وصف يخلعونه عليها في تلك الخطاب هو القديسة ، الشهيدة ، الضحية البريئة ، بالإضافة إلى رفع مكانة زوجها التمس إلى السماء ، ووصف الجرائم التي ارتكبتها الكولونيل « باراليس سونرينتي » بتفاصيلها البشعة .

وفي صباح اليوم التالي ، كان هناك خطابان بدون توقيع تحت عتبة الباب . واحضرنهما الخادمة ملفوفين في ميدعتها ، لأن يديها كانتا مبتلتين . وكان نص الخطاب الأول كما يلي :

سيدتي : إن هذه ليست أفضل طريقة أنقل بها لك ولامرتث المحزنة الاحترام العميق الذي أكنه لشخصية زوجك ، مواطننا المبجل السيد « قابيل كرفخال » ، ولكن إسمي لي أن أجا إلى هذه الطريقة من باب الحرص ، ذلك أن بعض الحقائق لا يمكن استئمانها للورق . ويوما ماسأقول لك إسمي الحقيقي . لقد كان والدي أحد ضحايا ذلك الرجل الذي تنظره كل أهوال جهنم - الكولونيل « باراليس سونرينتي » - ذلك القاتل المأجور الذي سوف تُسطر أفعاله يوما ما في صفحات التاريخ ، إذا كان يوجد من هو على استعداد لأن يغمس قلمه في سم الثعابين ليكتبها . لقد قتل هذا الرجل الجبان والدي في طريق مهجور منذ سنوات عديدة . ولم يثبت شيء ، بالطبع ، وكانت الجريمة مستظل لغزا لولم يتقدم أحد الغرباء الذي كتب إلى أسرتي ، دون توقيع ، بصف الجريمة البشعة بالتفصيل . وإنني لا أعلم ما إذا كان زوجك ، هذا الإنسان المثالي ، هذا البطل الذي له في قلوب مواطنيه تمثال من المجد ، هو في الحقيقة من انتقم من جرائم « باراليس سونرينتي » ، ذلك أن هناك عددا من القصص المختلفة متداولة حول هذا الموضوع ، ولكن على أية حال فإني أرى من واجبي أن أعبر لك عن خالص عزائي ، وأن أؤكد لك يا سيدتي أننا قد بكينا جميعا معك لحسارة رجل خلص بلده من أحد رجال العصابات المتعدين الذين يسيثون اليه ، والذين يستغلون ذهب

أمريكا الشمالية لإخضاعه لحكم الحديد والنار .

وتقبلي نحياتي .

(صليب قلعة رافا)

كانت الأرملة مستنزفة فارغة ، قد شلها قصور عميق عن الحركة جعلها تبقى راقدة في سريرها ساعات طويلة كالخنة أو هي أشبه ، فعصرت أنشطتها على مجال منضدة مجاورة لسريرها (وعليها الأشياء التي تحتاج إليها دائما حتى تتجنب النهوض) وعلى هجمات من المستيريا تتأبها إذا حاول أي شخص فتح الباب أو استخدام مكتسة أو صدر عنه أي صوت بالقرب منها . وخلعت الظلمة والصمت والقدارة هيبة على عزلتها ، على رغبتها في أن تكون وحيدة مع خزنها ، مع ذلك الجزء منها الذي مات مع زوجها والذي كان يسيطر تدريجيا على جسدها وروحها .

وبدأت تقرأ الخطاب الآخر الغفل من التوقيع بصوت عال :

سيدتي المحترمة المبعجلة : سمعت من بعض الأصدقاء أنك قد وضعت أذنك على جدران السجن ليلة إعدام زوجك رميا بالرصاص . وحتى لو أنك سمعت وأحصيت الطلقات التسع ، فإنك لن تعرفي أيما اختطفت المحامي «كرفخال» ، رحمة الله عليه ، من بين الأحياء .

وبعد كثير من التردد خوفا من أن أسبب لك ألما ، قررت أن أكتب إليك باسم مستعار - فمن الخطورة استئمان الخطابات هذه الأيام - لأنقل إليك كل ما أعرف عن الموضوع ، فقد شهدت الإعدام . كان ثمة رجل نحيف أسمر البشرة وذو شعر أشيب يغطي جبهته العريضة ، يمشي أمام زوجك . ولم أفلح في معرفة اسمه .

وبرغم المعاناة التي تبذت في دموعه ، كانت عيناه الغائرتان تشعان بشعور دافق من الرحمة الإنسانية ، وكان يوسع المرء أن يقرأ فيها أن صاحبها رجل نبيل وكريم . وكان المحامي يتعثر خلفه دون أن يرفع عينيه عن الأرض - وربما أيضا لم يكن يراها - يبلل العرق جبهته ، وإحدى يديه على صدره ربما ليمنع قلبه من أن ينفجر . وحين خرج إلى الفناء ورأى نفسه محاطا بالجنود ، حك عينيه بظهر يديه كأنها هو لا يصدق ما يراه . كان يرئدي حلة ناحلة صغيرة عليه بحيث لا تصل

أكمام السترة إلا إلى مرفقيه ، ولا يصل البنطال إلا إلى ركبتيه ، ملابس قديمة
مجمدة قذرة مهلهلة ، ككل الملابس التي يرتديها السجناء المحكوم عليهم
بالإعدام ، بعد أن يعطوا ملابسهم الأصلية إلى أصدقائهم الذين يخفونهم وراءهم
مقبورين في زنازات السجن التحتية ، أو إلى حراس السجن مقابل بعض
الخدمات الخاصة . كانت فتحة قميصه لا يقيمه سوى زر واحد من العظم .
ولم يكن يرتدي ربطة عنق ولا حذاء . بيد أن وجود رفاهه في الكارثة معه ،
أنصاف عرايا مثله ، أنعش شجاعته . وبعد أن فرغوا من قراءة حكم الإعدام ،
رفع رأسه . ينظر في حزن إلى صف حراب السونكي وقال شيئا غير مسموع .
وحاول الرجل المحرم الذي كان بجواره الكلام هو الآخر ، ولكن الضباط أسكتوه
بتهديده بسيفهم . كانت أيدي الضباط ترتعش من جراء الخمر التي شربوها ،
وبدت سيفهم كالشعلات الزرقاء للكحول المحترق في ضوء الفجر الساحب .
وفي تلك الأثناء ، ارتج صوت مصطلما بصداه المتردد من الجدران وهو ينطق
عبارة : « من أجل الأمة ! » ، وتبع ذلك واحد ، إثنان ، ثلاث ، أربع ،
خمس ، ست ، سبع ، ثمان ، تسع دورات من الرصاص . وكنت أعدّها على
أصابعي ، دون أن أشعر بما أفعل ، ولذلك فقد تولد لدي منذ ذلك الوقت انطباع
غريب بأن عندي إصبعاً زائداً . وأغلق الضحايا عيونهم وثنوا أجسادهم كأنما
ليتحسّسوا طريقهم بعيدا عن مرمى الموت . وارتفع نقاب من الدخان فاصلا بيننا
وبين هذه الحفنة من الرجال الذين جاهدوا عبثا أن يمسك الواحد منهم بالآخر إذ
هم يسقطون بدلا من أن يهتوا وحدهم إلى الفراغ . وإرتجت طلقات الرحمة
كأنفجار الصواريخ الرطبة التي يتأخر مفعولها وتتفجر على نحو رديء . وكان من
حسن حظ زوجك أن قتله أول دورة من الرصاص . وكان يُسمع عاليا ، في
السماء الزرقاء البعيدة المثال ، صوت الأجراس والأطيار والأنهار ، خافتا لا يكاد
يبين . وقد قيل لي أن المدعي العسكري العام قد اضطلع بدفن الجثث — .

وقلبت الصفحة في لفة ، « الجثث » ، بيد أن بقية الكلمة لم يكن لها وجود ،
ولا أي صفحات أخرى ؛ فقد انقطع الخطاب فجأة ، ولم يكن هناك من بقية له .
وأعادت قراءة الخطاب ، ولكن عبثا ؛ وبحثت داخل المظروف ، وقلبت
الفراش ، وبحثت في الوسائد ، وعلى الأرض ، وعلى المائدة ، وقلبت كل شيء .

رأساً على عقب في لهفتها لأن تعرف أين دفن زوجها. وفي الفناء ، كان البيغاء يهذر :

« بغيغان ملوكي من البرنغال ، ملابس خضراء وليس معه مليم ! آه ، ها هو المحامي يأتي ، مرحى أيها البغيغان الملوكي ! قال لي الكذوب ! إني لا أبكي ولكني لا أنسى ! »

*

تركت خادمة المدعي العسكري العام أرملة « كرفخال » واقفة على عتبة الباب والتفتت إلى امرأتين تتحدثان بأعلى صوتيهما في ردة المدخل .

كانت إحداهما تقول : اسمعي ، إسمعي فحسب ، إذعبي وقولي له إني لن أنتظره أكثر من ذلك . إني لست من المتود ، عليه اللعنة ، حتى يتركني « وقفائي يغمّر عيشا » على هذا المقعد الحجري ! إنه يذكرني بوجهه القبيح ! قولي له إني قد جئت أرى ما إذا كان سيرد لي أخيراً العشرة آلاف بيزو التي اختلسها مني لقاء امرأة من سجن « كاسا نويفا » ظهر أنها لا تنفع منها لدي ، لأنه في اليوم الذي أحضرتها فيه إلى منزلي وقعت فريسة نوبة صرع . ثم ، اسمعي ، قولي له إنها آخر مرة سأزعجه فيها ، لأن ما سأفعله الآن هو الذهاب للشكرى إلى السيد الرئيس .

وقالت لها المرأة الأخرى : لا تعكري دمعك يا سيده « تشون » ، إطرحي عنك هذا الوجه الغاضب البا . . . ثس .

وحاولت الخادمة الكلام إلى المرأة الأخرى : . . . آتسي . . . ولكن الأنسة فاطمتها قائلة : إخرسي أنت .

ـ قولي له ما قلت لك ، ولا تقبلي منه الزعم بانني لم أعطه فسحة من الوقت : قولي له إن السيدة « تشون » قد جاءت لئلا مع إحدى الفتيات ، وحين علمتا أنه ليس هنا ، ذهبتا قائلتين إنه سوف يرى من أي معدن هما . . . »

ولم تترك أرملة « كرفخال » شيئاً مما يجري حولها ، إذ كانت مستغرقة في أفكارها . كانت تبدو في ثيابها السوداء ، لا يظهر منها إلا وجهها ، مثل الحنة المسجاة في نعش ذي نافذة . وربت الخادمة على كتفها . وبدت أصابع المرأة المعجوز كأنها هي مغطاة بخيوط العنكبوت . ودعتها إلى الدخول . ودخلتا المنزل .

ولم يكن بوسع الأرملة التحدث بوضوح ، بل كانت همهم كإمرىء قد تعب من طول القراءة بصوت مسموع .

- أجل يا سيدي ، إتركي خطابك معي . وحين يحضر - ولن يطول ذلك كثيرا إذ أنه كان يجب أن يكون هنا الآن بالفعل - سوف أعطيه له وأقول له ما تريد . - بحق الله

وفي اللحظة التي كانت أرملة « كرفخال » تغادر فيها المكان ، ظهر شخص يرتدي حلة قطنية بلون القهوة ، يتبعه جندي قد علّق بندقيته « الرمنغتون » فوق كتفه ، وختجرا في زناره ، ونظافا مليئا بخراطيش الرصاص حول عجيزته .

وقال ذلك الشخص للخادمة : من فضلك ، هل المدعي العسكري العام موجود ؟

- كلا ، إنه ليس هنا .

- وأين أستطيع أن أنتظره ؟

- إجلس هنا ، والجندي أيضا .

وجلس السجين وحارسه في صمت على المقعد الحجري الذي أشارت إليه الخادمة لهما من غير رقة .

إن الغناء يعبق برائحة زهور رعي الحمام والبيفونيا . وكانت ثمة قطة تمشي على سطح المنزل ، وعصفور يحاول الطيران داخل قفصه الخيزراني . ومن بعيد ، كان يُسمع صوت خرير المياه التي تنساب في خول إلى النافورة كأنها يصيبها الدوار من السقوط .

وأغلق المدعي العسكري العام الباب في صلصلة من المفاتيح ، ثم وضعها في جيبه وتوجه إلى السجين والجندي . ووقف كلاهما .

وتساءل وهو يشنّ بأنفه : « خينارو روداس ؟ » كان البيت ، في كل مرة يدخل من الخارج ، يعبق برائحة غلفات القطن .

- أجل يا سيدي ، في خدمتكم .

- هل يفهم حارسك اللغة الإسبانية ؟
- فرد روداس : «قليلًا جدًا منها» . والتفت إلى الجندي وأضاف :
- ما قولك ؟ هل تفهم القشتالية ؟
- نصف نصف .
- فقال المدعي العام : حسنًا جدًا . يحسن أن تبقى هنا . وسوف أتحدث معك .
- إبق هنا إلى حين أن يعود ، سوف يتحدث معي .
- وتوقف روداس على باب حجرة المكتب . وطلب إليه المدعي العام
- الدخول ، ووضع الأسلحة التي كانت معه على منضدة مغطاة بالكتب والأوراق ،
- سدس ، وخنجر ، وحزام يد معدني ، وهراوة قصيرة .
- أظن أنهم قد أخطروك بالحكم ؟
- أجل يا سيدي .
- ست سنوات وثمانية شهور ، على ما أذكر .
- ولكن يا سيدي ، إنني لم أكن شريكًا للرئيس فاسكيز ؛ لقد فعل ما فعل
- دون أي مساعدة مني ؛ وحين وصلت إلى ذلك المكان ، كان الأبله يتدحرج
- بالفعل على سلال الرواق مغطى بالدماء وشبه ميت . ماذا كان بوسعي أن أفعل ؟
- كانت أوامر . قال لي إنها أوامر صادرة إليه .
- حسنًا ، لقد نفذَ فيه حكم الله بالفعل
- والتفت «روداس» لينظر إلى المدعي العام ، كما لو لم يكن بإمكانه أن يصدق
- ما كانت سيئات وجهه الشريرة تؤكد ، وظلا صامتين . ثم تنهد «روداس» قائلاً :
- «لقد كان شابًا طيبًا» . ثم خفض صوته وهو يقول العبارات التالية في ذكرى
- صديقه ، وكان قد تلقى النبأ بين دفتين من دقات قلبه وهما هو يشعر به في دماغه :
- «حسنًا ، لا فائدة ترجى الآن ! لقد كنا ندعوه «بالقطيفة» لأنه كان دائمًا يعرف
- من أين تُقطف الثمرة» .
- لقد حُكم عليه طبقًا لعريضة الاتهام على أساس أنه مقترف الجريمة ،
- وعليك بوصفك شريكًا له . - ولكنني وكلت محاميًا عني .

- لقد كان المحامي بالذات في الواقع ، وهو يعرف رأي السيد الرئيس من القضية ، هو الذي طلب الإعدام لفاسكيز وأقصى عقوبة لك .

- يا للشباب المسكين ! إني على قيد الحياة على الأقل ، احكي القصة .

- وبامكانك أن تصبح حرا على الفور إذا أنت رغبت ، لأن السيد الرئيس بحاجة إلى شخص مثلك ، شخص جرب السجن فترة لأسباب سياسية . إن الموضوع يتعلق بمراقبة واحد من أصدقائه ، لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أنه بخونه ... - هل تعني ... ؟

- هل تعرف ميغيل ذا الوجه الملائكي ؟

- بالاسم فقط . إنه ذلك الذي اختطف ابنة الجنرال كاناليس ، اليس كذلك ؟

- أجل ، إنه هو . إنك ستعرف عليه بسهولة لأنه وسيم للغاية : رجل طويل ، حسن البنية ، أسود العينين ، شاحب الوجه ، حريري الشعر ، رشيق الحركة . إنه عميل خطير ، وتريد الحكومة أن تعرف كل شيء يقوم به ، والناس الذين يزورهم أو يتحدث معهم في الطرّيق ، والأماكن التي يتردد عليها في الصباح وفي الظهيرة وفي الليل ، ونفس الشيء بالنسبة إلى زوجته . سوف أعطيك تعليمات كاملة ونقودا كافية لذلك الغرض .

وتابع السجين حركات المدعي العام في بلادة ، إذ تناول بعد كلماته تلك ريشة من على المنضدة وغمسها في بحيرة كبيرة عليها تمثال للإلهة « تيميز » واقفة بين بشرين من الحجر الأسود ، وأعطاهما إلى « روداس » قائلا :

- وقّع بإمضاءك هنا ، وسأصدر أوامري غدا بإطلاق سراحك . جهز أشياءك كما تخرج غدا .

ووقع « روداس » باسمه . وكان السرور يرقص في ثنايا جسده كالشور الصغير الهائج .

وقال وهو يخرج : « إني ممتن جدا ، جدا . وكاد أن يقتل الجندي الذي كان بانتظاره ، وعاد إلى السجن كرجل ذاهب إلى الجنة .

بيد أن المدعي العسكري العام كان أشد سرورا بالورقة التي وقّع عليها
« روداس » ، بامضائه ، والتي كان نصها كما يلي :

تسلمت من السيدة « كونسبيون غاموسينو » ، ولقبها « ذات السن
الذهبية » ، صاحبة محل الدعارة المسمى « النشوة اللذيذة » ، مبلغ عشرة آلاف
بيزو بالعملة المحلية ، وهو مبلغ أعطته لي كتعويض جزئي عن الضرر الذي سببه
لي ببإغواء زوجتي - السيدة « فيدينا دي روداس » - بأن إستغلت حسن نيتها
وطيبتها ، واستغلت السلطات بأن عرضت عليها العمل كخادمة لديها ، ثم
أدراجتها ، دون أي تصريح بذلك ، في عداد الفتيات اللاتي يعملن في بيت الدعارة .

خينارو روداس

وسمع صوت الخادمة تقول من وراء الباب :

- هل يمكنني الدخول ؟

- أجل ، ادخلي .

- لقد أتيت لأرى ما إذا كنت تحتاج لأي شيء . إنني ذاهبة إلى الحانات
لشراء شمع ، ولا بد أن أقول لك إنه قد حضرت إلى هنا امرأتان من بيت
الدعارة ، قالتا لي أن أقول لك إنه إذا لم تُعِد إليهما العشرة آلاف بيزو التي سرقتهما
منهما ، فيذهبان ويشكوان للرئيس .

وتنم المدعي العام وقد بدا عليه الضيق وهو ينحني ليلتقط طابع بريد من على
الأرض ، وماذا أيضا ؟

- كما حضرت سيدة في ملابس الحداد تريد رؤيتك ، وأظن أنها زوجة الرجل
الذي أعدم ... ،

- أي واحد فيهما ؟

- السيد « كرفخال » . - حسنا ، وماذا كانت تريد ؟

- لقد أعطتني المسكينة هذا الخطاب . أظن أنها تريد أن تعرف أين دفن
زوجها .

وبينا المدعي العام يتطلع في تردد إلى الورقة المحاطة بالسواد ، استطردت الخادعة نقول : علي أن أقول لك إنني قد وعدتها بأن أبذل جهدي لمساعدتها لأنني أشعر بالأسف من أجلها ، فخرجت المسكينة وهي تؤمل خيراً .

- لقد قلت لك مرارا وتكرارا إنني لا أحب أن تتعاطفي مع الناس . يجب عليك ألا تشجعهم على الأمل خيرا . متى ستفهمين أن عليك ألا تشجعي الناس على الأمل خيرا ؟ في بيتي ، أول شيء يجب على الجميع ، حتى القطة ، أن يتعلموه هو أنه لا توجد أسباب لأي أمل من أي صفة لأي شخص . إن المرء لا يمكنه الاحتفاظ بمنصب مثل منصبي إلا إذا أطاع الجميع أوامره ؛ والقاعدة التي استنّها السيد الرئيس هي عدم إشاعة أي أمل ، وينبغي ركل الناس وضربهم والدوس عليهم إلى أن يتبينوا ذلك . حين تأتي تلك السيدة ، عليك أن تعيدي إليها خطابها ، مطوبا كما هو ، وتقولي لها إنه لا سبيل لها إلى معرفة المكان المدفون فيه زوجها .

- لا تغضب هكذا وإلا فسوف تقع فريسة للمرض . سأقول لها ذلك . رعاك الله وسدد خطاك .

وخرجت تحمل الخطاب ونجر قدميها ، واحدة بعد الأخرى ، واحدة بعد الأخرى ، تحت تنورتها المنشأة .

وحين بلغت المطبخ ، جمّدت الخطاب بين أصابعها وألقت به وسط الفحم . وتغضنت الورقة بين النيران كأنها جسم حي ، ثم تحولت فجأة إلى كتلة من الديدان الصغيرة المصنوعة من أسلاك الذهب . ومشت قطة سوداء عبر الرفوف حيث اصطفت مرطبانات البهارات ، منبسطة كالجسور ، ثم قفزت على المقعد الحجري إلى جوار المرأة العجوز ، وحكّت نفسها على بطنها العقيم ، وهي تهرّ كصوت تظاؤل إلى أن أصبح ذا أقدام أربعة ؛ ثم ثبتت عينيها الذهبيتين ، في حب استطلاع شيطاني ، على قلب النيران التي كانت الآن قد أنت على الخطاب وأحاطه رمادا متثورا .

نور للعميان

كانت « كميلة » نقف في وسط الحجرة ، معتمدة على ذراع زوجها وعلى عصا للمشي . وكان الباب الرئيسي للحجرة يطل على فناء تفوح منه رائحة القسط والجراء ، أما النافذة فهي تطل على المدينة التي أحضروها إليها في دور النفاة على كرسي ذي عجلات ؛ وكان ثمة باب آخر صغير يفضي إلى حجرة مجاورة . وبرغم الشمس التي تغرب على طول نيران عينها الخضراوين ، والهواء الذي يملأ رثيها كالسلسلة الثقيلة ، فقد تساءلت كميلة متعجبة إذا كانت هي التي تسير على قدميها ثانية . ويدت لها قدميها أكبر من المعتاد ، وساقها كمكازين . كانت تبدو وكأنها تسير في عالم آخر وعيناها مفتوحتان على وسعها ؛ كانت مولودة من جديد ، دونما وجود ، تحيط بها الأشباح التي تسير في زبد من خيوط العنكبوت . كانت تشعر كأنها قد ماتت مع احتفاظها بوجودها ، كما يحدث في الأحلام ، ثم عادت إلى الحياة لتجد أنها تجمع بين واقعها وبين الحلم . كان والدها ، وبينها ، ومريبتها ، يشكلون جزءاً من وجودها الأول . أما زوجها ، والمزمل الذي يقضاه مؤقتاً ، والخدم ، فهم وجودها الجديد . كانت من تسير هي وليست هي . الاحساس بالعودة إلى الحياة في حياة جديدة . وكانت تتكلم عن نفسها كأنها تتكلم عن شخص يعتمد على عصا من حياتها السابقة ؛ وكانت تفهم أشياء غير متوقعة ؛ فإذا تركوها وحدها غرقت في ذلك العالم الآخر ، جالسة تسرح بعيداً بأفكارها ، جامدة الشعر ، ويدها ترقدان في حجر تنودنها الطويلة التي تدل على عرسها الذي تم قريباً ، بينما الضجيج بصطخب في أذنيها .

وسرعان ما كان يوسعها أن تتجول في البيت ، ورغم ذلك فقد ظلت علية ، أو قل إنها ظلت غارقة في تقييم الأشياء المهولة التي وقعت لها منذ طبع زوجها أول قبة له على خدها . كان الأمر أكثر مما تستطيع احتماله ، بيد أنها تشبثت به بوصفه

الشيء الوحيد ملك يمينها حقيقة في عالم غريب عنها . كانت تستمتع بمنظر القمر ، في علباته وفي ظلاله المنسكبة على الأرض ، أمام البراكين التي يظللها غمام السحب ، تحت النجوم المتلألئة كأنها حشرات ذهبية في برج حمام سامق خال .

وأحس ذو الوجه الملائكي أن زوجته ترتعد داخل ثيابها الصوفية البيضاء ، لا من البرد ، لا كما يرتعد الناس عادة ، بل كما ترتعد الملائكة ، فقادها من يدها خطوة خطوة إلى حجرة نومها . تمثال الرأس الهائل الحجم فوق النافورة . . . السرير المعلق الساكن ، والمياه ساكنة سكوت السرير المعلق . . . أمصص زهور رطبية . . . زهور صناعية . . . عمرات يصل بينها ضوء القمر . . .

وأويا إلى فراشيهما ، يتحدان من غرفة إلى الأخرى . كان ثمة باب يصل ما بين حجرتيهما . وخرجت الأزرار من عُرُها في وسن بصوت رقيق يحاكي صوت زهرة تُقطع ، وسقطت الأحذية على الأرض . كسقوط المرساة في عرض البحر ، وانسلخت الجوارب من عل السيقان كما ينسلخ الدخان من المدخنة . وتحدث إليها ذو الوجه الملائكي عن أدوات الزينة الخاصة به المصقوفة على منضدة إلى جوار حامل المشقة ، كما يخلق جوا عائليا في هذا المنزل الضخم الذي يبدو مهجورا ، وكما يُقصي أفكاره عن ذلك الباب الصغير الضيق ، كبوابة السماء ، الذي يفعل بين حجرتي نومهما .

ثم دلف إلى فراشه بكل ثقله ، ووقف فيه فترة طويلة دون أن يتحرك ، يرغل في المد الغريب ، عذبا العلاقة التي تنمو ثم تتحطم باستمرار فيها بينهما . لقد اختطفها كليا يستحوذ عليها بالقوة ؛ ثم ثما الحب بينها بدافع الغريزة العمياء ، فحجر خطته الأولى وحاول أخذها إلى بيت عمها ، ولكن الباب هناك يؤصد دونها . ولذلك فقد عادت إلى حوزته مرة أخرى ، ولا شك أنه لم تكن ثمة مخاطرة في الاستحواذ عليها آنذاك ، طالما أن الجميع يظنون فيه هذا الظن . بيد أنها تعلم حقيقة الأمر وتحاول تجنبه . ووقف مرضها عتبة أمام استحواذه عليها . ومسات حالتها في ساعات قليلة . لقد كانت تموت . سوف يأتي الموت ويحل المشكلة . وهو يعلم ذلك ويبدو أحيانا مستكينا للأمر رغم أنه يتمرّد على هذه القوى العمياء في أغلب الأحيان . ويحبط دعاوى الموت أعز آماله ، والقدر يتظر حتى آخر لحظة كليا يجمع بينهما .

كانت كالطفلة اولا حين لم تكن تستطيع المشي بعد ، ثم في طور المراهقة بعد أن نهضت ومشت خطواتها الأولى ؛ وبين ليلة وضحاها ، استردت شفتاها لون الدماء ، وامتلأ مشد صدرها بما يحمله من ثمرة ؛ وكانت تحس بالاضطراب ويندى منها العرق حين يقترب منها الرجل الذي لم تتصور أنه سيكون زوجها .

وقفز ذو الوجه الملائكي من الفراش . وشعر بأن ما يفصل بينه وبين كميله خطأ لم يقترفه أي منها ، بزواج لم يوافق عليه أي منها . وأغلقت كميله عينيهما . وابتعدت خطواته ناحية النافذة .

كان القمر يخفي ويظهر من ثانيا أركان السحب السابحة ، والطريق ينساب كنهر من عظام بيضاء تحت جسر من الظلال . ومن حين لآخر ، يحكي كل شيء ، كالصدا الذي يعلو الآثار القديمة ، ثم يظهر بعد ذلك موشحا بندف من الذهب . وتدخل جفن أسود عريض وقطع أستار هذه الرؤيا التي تبتدى خلال أجفان خافتة . وبدت رموشه الهائلة وكأنها تيزغ من أعلى البراكين قاطبة ، وتنتشر بخطى المتكبرات الهائل فوق هيكل المدينة ، دامعة إياها بظلال الحداد . وهزت الكلاب آذانها كمقابض الأبواب ، وحلقت طيور ليلية في أفق السماء ، وإنقلت أمة من شجرة سرو إلى شجرة سرو ، وسرت أصوات ملء الساعات الدقيقة . واختفى القمر كلية وراء قمة فوهة بركان عالية ، وهبط ضباب كثاف العروس فوق أسطح المنازل . وأغلق ذو الوجه الملائكي النافذة . وكانت كميله في غرفة نومها تزفر أنفاسا بطيئة ثقيلة كأنها هي قد نامت ورأسها تحت الأغشية ، أو كأن نمة شبحا يرقد على صدرها .

وكانا يذهبان أحيانا في تلك الأيام للاستحمام . وكانت ظلال الأشجار ترقط الفمضان البيضاء التي يرند بها الباعة الجوالين ، الذين يحملون الأوعية الفخارية ، والمكاس ، وطيور الزينة في أقفاصها الحيزرانية ، وأكواز الصنوبر ، والفحم ، وأخشاب التدفئة ، والذرة . كانوا ينتقلون في مجموعات تغطي ساحات شاسعة ، يمشون على أطراف القدم دون أن يرمحوا كموسم أبدا على الأرض . وكانت الشمس تمرق منهم . وكانوا يلهثون ، ويلوحون بأذرعهم ، ثم يخفون كالطيور المهاجرة .

وتوقفت كميله في ظل كوخ نرقب عملية جمع حبات البن . كانت أيدي

القاطفين تتحرك وسط العناقيد المعدنية كأنها الحيوانات النهمة ، فوق ، تحت ، ثم تلقي في جنون كأنها تدغدغ الشجرة ، ثم تتباعد كأنها تفك أزرار قميصها .

وأحاط ذو الوجه الملائكي بخمصرها ثم قادها عبر ممر ينسبط تحت أحلام الأشجار الدافئة . كانا يشعران برأسيهما وجذعيهما ، أما ما تبقى ، الساقان واليدين ، فكانت تطفو معها وسط زهور الأوركيد والسحالي ذات الألوان البراقة ، في نور فاتر تحول تدريجيا إلى ظلمة عسلية إذ هما يمضيان قدما داخل الغابة . وكان يشعر بجسد كميلة من خلال بلوزتها الرقيقة كما يحس الماء بحبات الذرة الناعمة الحريرية الرطبة من خلال الأوراق الناضرة : وكان الهواء يبعث بشعريهما . وحين وصلا إلى مكان الاستحمام كانت الشمس غافية على صفحة المياه ، وشمعة مخلوقات خفية تطفو وسط ذوايات أعشاب السرخس الظليلة . وخرج ملاحظ الحمامات من كوخ ذي سطح من الزنك وهو يأكل حبات الفاصولياء ، وحياهما بإيماءة من رأسه ، وابتلع حبة الفاصولياء التي كانت بين شفتيه ، وأخذ يتطلع إليهما بنظرة فاحصة تدل على الاعتداد بالنفس . وطلبا حمامين . وذهب لإحضار القانچ ، وفتح لهما كابتيتين يفصل بينهما حاجز . وتبادلا قبلة سريعة قبل أن يذهب كل منهما إلى كابتيته . وكان ملاحظ الحمامات يعاني من ألم في إحدى عينيه ولذلك فقد غطى وجهه لحمايتهما .

وشعرا بالغربة ، بعيدين أحدهما عن الآخر ، ضائعين وسط مهممات الغابة . وخلع ذو الوجه الملائكي ملابسه أمام امرأة محطومة بعجلة الشباب الوثاب . لماذا يتعين على المرأة أن يكون رجلا ! ، حين يكون من الأفضل له أن يكون شجرة ، سحابة ، يعسوبة ، فقاعة ، أو طائرا مضردا ؟ وصرخت كميلة حين لمست قدميها المياه الباردة وهي تقف على أول درجة في سلم حوض الاستحمام ؛ وصرخت مرة أخرى حين نزلت إلى الدرجة الثانية ، وعلا صرايحها مع الدرجة الثالثة ، واشتد حدة مع نزولها إلى الدرجة الرابعة . . . ثم . . . « سبلاش » ! وانفتح قميصها الهندي كأنه البألونة ، ولكن المياه غمرته في نفس لحظة امتلائه بالهواء تقريبا ، فصاغت جسدها في ألوان القماش الغامقة من زرقاء وخضراء وصفراء : نهذان متوثبان . ويطن خصاء ، وإنحاءة رقيقة عند الفخذين ؛ ظهر أملس . وكثفان تحيلان نوعا ما . وبعد أن أتمت « الغطس » ،

خرجت ثانية من الماء وقد أحست بالاضطراب شيئا ما من الصمت الذي ران على أعشاب البوص ، والذي بدا كأنه يمد يدا إلى شخص مختفٍ هناك ، روح غريب يحوم فوق الحمامات ، أغمى ملونة بالوان الفراشات . ولكنها سمعت صوت زوجها يسأل من وراء الباب عما إذا كان بوسعه الدخول ، وأحست بالأمان .

وتفاقرت المياه معها كأنها حيوان سعيد . ووسط نسج العنكبوت المضيء للظلال الممتدة فوق جدران الحمامات ، شاهدها ظلال جسديها كأنها عنكبوتان هائلتان . وكان الهواء يعبق برائحة النباتات المائية ، وسجود البراكين القصية ، ورطوبة بطن الضفادع ، وأنفاس المعجول الصغيرة وهي تمتص المراعي الخضراء بعد أن تحولت إلى ذلك السائل الأبيض في ضروع أمهاتها ، وبرودة شلالات المياه التي تنبجس وهي تضحك ، وطيوان الذباب الأخضر في قلق . وغمرها نقاب هلامي من فؤوس خرساء ، وصوت شخص يغني في الوهاد ، ورفرفة جناحي طائر .

وأطل ملاحظ الحمامات كي يسأل عما إذا كان الجوادان اللذان وصلا من قرية « لاجراديتاس » لها . لقد حان الوقت لارتداء الملابس ومغادرة الحمامات . وشعرت كميله بدودة تتثنى في المنشقة التي ألقتها حول كتفها لحماية ملابسها من شعرها البليل . ولم يستغرق إحساسها بها ، وصرختها ، وإسراع ذي الوجه الملائكي لنجدها وقتل الدودة ، سوى ثوانٍ معدودات . بيد أنها لم تعد تحس بالمتعة بعد ذلك ، فقد بدأت تشعر بالخوف من الغابة ، وبدا كأنها هي تغرق في لهات رطيب ، وسبات بلا أحلام ، تنفض عنها الدود .

وكان الجوادان يذبان عنها الذباب بطرفي ذيلها تحت شجرة تين . وهرع السائس الذي أحضرهما نحو ذي الوجه الملائكي وقبعت في يده .

- آه ، أهو أنت . صباح الخير ! ماذا تفعل هنا ؟ ...

- إني أعمل . إني هنا منذ تفضلت علي وأخرجتني من معسكر الجيش ، منذ عام تقريبا . . . - أرى أن الوقت قد سرقنا . . .

- يبدو هذا سوف تغرب الشمس عما قليل يا سيدي ، وأماننا مشوار طويل .

وسأل ذو الوجه الملائكي كميّلة ما إذا كانت تريد العودة الآن . وتوقّف كي
يدفع الحساب للملاحظ الحّمّامات .

- كما يحلو لك .

- « ولكن ، ألا تشعرين بالجوع ؟ ألا ترغبين في تناول شيء من الطعام ؟ ربما
كان بوسعنا شراء شيء من الملاحظ » .

واقترح عليها السائس قائلاً : « ألكيا في بعض البيض ؟ » واستخرج من
جيب ستورته ، التي امتلأت بالأزرار التي فاقت عدد عراها ، منديلاً ملفوفاً به
ثلاث بيضات . قالت كميّلة : شكراً جزيلاً . يبدو أنها طازجة للغاية .

- الشكر لك يا عروسة . أما عن البيض ، فهو طازج جداً ، فقد وضعته
الدجاجات لتوها هذا الصباح ، وقد قلت لزوجتي : اتركي هذه على جِدة فإنني
أزعم حلها إلى السيد الملائكي .

وودعا ملاحظ الحّمّامات ، الذي كان لا يزال يمسح عينيه التي تؤلّه ، ويأكل
حبّات الفاصولياء .

ومضى السائس قائلاً : وكنت أفكر أن من الأفضل أن نبتلع السيدة البيض
نبتاً ، لأن المسافة طويلة منا وربما شعرت بالجوع .

فردت كميّلة قائلة : كلا ، فإنني لا أحب البيض النيء . وربما أصابي
بالمرض .

- إنني أظن أن السيدة معتلة بعض الشيء .

- ذلك أنني قد غادرت فراش المرض لتوي .

فقال ذو الوجه الملائكي : أجل ، لقد كانت مريضة جداً .

فقال السائس وهو يشد أحزمة السرجين : ولكنك ستحسّنين الآن . فالنساء
كالإرود ، في حاجة إلى السقي والرعاية ؛ وسيصلح الزواج الآن من حالتك » .

وأرخت كميّلة جفنيها وقد احمرت وجنتاها وغمرها الاضطراب ، كالنبات

الذي تطلع له بدلا من الأوراق عيونٌ من كل جانب ؛ وتبادلت نظرة مع زوجها ،
نظرة مليئة برغبة متبادلة ، ووقعا بذلك على الاتفاق الضمني الذي كانا يفتقدان
وجوده حتى الآن .

نشيد الأنشاد

وكانا يقولان ، أحدهما للآخر : « ماذا يكون عليه الحال لو لم يجمع بيننا القدر ! » ذلك أن فكرة المخاطرة التي مرّ بها كانت تملأها بالرعب ، لدرجة أنه إذا حدث واقتربا ، فإن كلا منهما يأخذ في البحث عن الآخر ، وإذا كانا معا تعانقا ، وإذا كان الواحد منهما في أحضان الآخر ضمه إلى حضنه أكثر وأكثر ، ولا يكفي بذلك بل يقبله بحرارة ويُفرق نظراته في عينيه ، ثم يفرقان في خضم من السعادة يحملهما إلى حالة شفاقة من الدهول ، في وفاق نشوان مع الأشجار المتلثة بالعصارة الجديدة ، ومع ندف اللحم الصغيرة المقطاة بريش متلألئ الألوان والتي تظهر في خفة تضارع خفة الصدى .

ولكن الثعابين بحثت في ذلك السؤال . لو أن القدر لم يجمع بينهما ، أكانا مشيعران بالسعادة ؟ وطُرح حق تدمير هذه الجنة الساحرة عديمة الجدوى في المزداد بين الأشباح الجهنمية ، وبدأت الأرواح الشريرة تترقب ، وانجس صوت الشك من بين لفاح الإثم الرطيب ، في حين نسجت الأيام خيوطا عنكبوتية في جوانب الزمن .

ولم يكن بمستطاعه ولا بإمكانها أن يتجنبتا حضور الحفلة التي يقيمها رئيس الجمهورية في منزله الريفي هذه الليلة . وثكدا بيتها غربيا عليها فجأة . كانا حائرين كيف يتصرفان . وجلسا في حزن يحيط بهما أريكة ومراة للزينة وأثاثات أخرى ، بدلا من العالم الساحر الذي كان يحيط بهما في شهور زواجهما الأولى . كان كل منهما يشعر بالأسف من أجل الآخر ، وبالحجل من كونها على ما هما عليه .

وكان ثمة ساعة حائط تلقى في حجرة الطعام . ولكنها شعرا أنها بعيدان جدا

لدرجة يحتاجان معها إما إلى قارب أو بالون ليذهبا إلى مكان الحفلة . وجلسا في حجرة الطعام . . . وأخذتا يأكلان في صمت وأعينهما على رقاص الساعة الذي يقرّبهما مع كل حركة منه إلى موعد الحفل . ونهض ذو الوجه الملائكي كيما يرتدي سترة السهرة . وشعر بالبرودة وهو يُدخل ذراعيه في الأكمام ، كشخص يلف نفسه في أوراق الموز . وحاولت كميّة أن تطوي منشفة المائدة ، ولكن المنشفة كانت هي التي طوت يديها عوضاً عن ذلك ؛ وجلست بين المائدة ومقعدها ، لا تشعر بأي قوة للقيام بالخطوة الأولى في الاستعداد للذهاب إلى الحفل . وعاد ذو الوجه الملائكي ليرى الوقت ، ثم رجع إلى حجرته ليحضر قفازيه . ووصل إليها وقع أقدامه على مبعدة كأنما هو يعيش في نفق . وقال شيئا . شيئا . وبدأ صوته غير واضح . وعاد إلى الظهور بعد برهة في حجرة الطعام يحمل مروحة زوجته . ولم يكن بوسعه أن يتذكر ما هو الشيء الذي ذهب لإحضاره من غرفته وكان يبحث عنه في كل الأنحاء في إبهام . وتذكر آخر الأمر ، بيد أن قفازيه كانا في يديه بالفعل !

وقالت كميّة للخدم الذين كانوا يرقبون خروجها من الباب إلى المشى : تأكدوا من إطفاء جميع الأنوار ، ثم أغلقوا الباب بعناية ، وبعد ذلك بمكنكم الذهاب إلى الفراش .

وانطلقا في عربة نجرها جياذ حنة التغذية ، تحب في نهر من العملات الفضية المجلجلة المعلقة في السرج . ودفت كميّة نفسها في ركن العربة ؛ لم يكن بوسعها أن تنفض عنها ذلك الحذر الذي يجثم فوقها ؛ والتمتع الضوء المليت لمصابيح الطريق في عينيها . ومن أونة لأخرى ، كانت العربة ترتج بحركة مفاجئة تهزها عن مقعدها ، قاطعة حركة جسدها الذي أخذ يتابع إيقاع العربة . وكان أعداء ذي الوجه الملائكي يشيعون أنه لم يعد بعدُ محبوب السيد الرئيس ولا من الأثيرين لديه ، وأخذوا يلتمحون في نادي أصدقاء السيد الرئيس ، إلى أنه ينبغي الآن أن يُدعى مينيل كاناليس بدلا من لقبه الحقيقي . وكان جالسا في العربة تهزّه عجلاؤها وهو يستطيب مقدما مذاق الدهشة التي يسببها لهم ظهوره في حفل الرئيس هذه الليلة .

وخلفت العربة الطرق المرصوفة وانحرفت إلى ربوة رمليّة جعلت العجلات تنن بصوت أجوف . وشعرت كميّة بالخوف ، فلم تكن ترى شيئا في الظلمة من

الريف حولها ، بل النجوم فحسب ، ولم تكن تسمع شيئا من الحقول المغطاة بالندى إلا صرير الجنادب ، وشعرت بالخوف وارتدت إلى الخلف كأنما هي مسافة إلى خنفها عبر عثمى (أو شبه عثمى) على إحدى جانبيه هوة تغفر قاعها ، وفي الجانب الآخر جناح الشيطان منبسطا كالصخرة في وسط الظلمة .

وقال ذو الوجه الملائكي لزوجته وهو يأخذها برفق من كتفها بعيدا عن الباب : ما الخبر ؟ » - إني خائفة .

- هس ، إهدئي .

- إن ذلك الرجل سيقلب العربة بهذه السرعة التي يسوق بها قل له أن يبطئ قليلا . ارجوك ! أه يا عزيزي ، ألم تسمع ما قلت ؟ قل له ! لماذا أنت صامت ؟

فقال ذو الوجه الملائكي : إن هذه العربات

ولكنه قطع عبارته ، لأن زوجته أمسكت به حين حدثت هزة عنيفة غير متوقعة من عجالات العربة . وشعرا كأنها يتدحرجان إلى الهوة .

قال وهو يللم أطراف نفسه : خلاص ، لقد مر الأمر . لا بد أن العجلات قد وقعت في حفرة عميقة » .

وكانت الريح تهب على أعالي الصخور بقوة محدثة صريرا كصوت غمزيق القماش . وأخرج ذو الوجه الملائكي رأسه من طاقة العربة ليصبح بالسائق أن يكون حريصا بعض الشيء . وأدار إليه السائق وجهه الأسمر المنقور بيثور الجدري وأبطأ جياده حتى أصبحت كأنها تسير بخطى جنازية .

وتوقفت العربة في الطرف الأقصى لقربة صغيرة . وتقدم نحوهم ضابط يرتدي معطافا فضفاضا يصلصل مهمازه ، وتعرف عليهم وسمح للسائق بمواصلة السير . وهممت الريح وسط أوراق عيدان الذرة الجافة المقطوعة . ولاح شبح بفرة مربوطة أمام أحد المنازل . وكانت الأشجار غافية . وعلى مبعدة مائتي ياردة ، تقدم ضابطان ليريا من القدام ، ولكن العربة لم تكد تتوقف . والآن ، وقد كانوا على وشك التزجل أمام بيت رئيس الجمهورية ، تقدم ثلاثة كولونيلات إلى الأمام تنفضش العربة .

ورحب ذو الوجه الملائكي بضابط أركان الحرب (كان جيلاً وماكراً كالشيطان) . وكان ثمة حنين للبيت الدافئ بمحوم في رحابة الليل الغربية ، ونور فتدبل في الأفق يدل على موقع لكنة مدفعية تقوم على حراسة رئيس الجمهورية .

وخفضت كميلة عينها أمام رجل ذي تكشيرة شيطانية ، وكشفين مائلين ، وعينين مستطيلتين ، وسافين نحيلتين طويلتين . وحين دخلا ، سد هذا الرجل ذراعه ببطء وفتح يده كأنما هو على وشك أن يطلق حمامة منها بدلاً من أن يتحدث إليها .

قال : « لقد أسير » بارثينيوس البيتي في حروب « ميتريدانس » وحمل إلى روما حيث أشرف على تدريس البحر الشعري الإسكندري . لقد تعلمه منه « بربرينيوس » و « أوفيد » و « هوراس » وأنا . . . » .

وكانت ثمة سيدتان متقدمتان في السن تتحدثان عند باب الصالة التي كان الرئيس يستقبل فيها ضيوفه . وكانت إحداهما تقول وهي تمر يدها على تسريحة شعرها : « أجل ، أجل ، لقد قلت لهم إنهم لا بد أن يعيدوا انتخابه » .

- وماذا قال ؟ إنني منشوقة بالفعل إلى سماع ذلك . . . » .

- لقد اكتفى بالابتناس ؛ ولكني أعلم أنه سيُعاد انتخابه . إنه أفضل رئيس للجمهورية عرفناه يا « كانديدينا » . هل تعلمين أنه منذ أن تولى الحكم ، فإن زوجي « مونتشو » قد تقلد أفضل المناصب ؟ » .

وخلف هاتين السيدتين ، كان « المعلم » يتكلم في ثقة واعتداد وسط مجموعة من الأصدقاء .

وقال المدعي العسكري العام ، وهو يلتفت يمينا ويسارا إذ كان يسير وسط الحلقة : « لقد سأل السيد الرئيس عنك ، لقد سأل السيد الرئيس عنك ، لقد سأل السيد الرئيس عنك . . . » .

فرد عليه المعلم : شكرا لك !

فقال أحد أصحاب المناصب السود ، مقوس الساقين ، ذهبي السن ، وهو بظن أن الشكر موجه إليه : « عفوا » .

كانت كميلة نود ألا يلحظها أحد في هذا الجمع الحاشد . ولكن ذلك كان مستحيلا . ذلك أن جمالها النادر المثال ، وعينيها الخضراوين الصافيتين الهادئتين ، وجسدها الرقيق المغلف في رداؤها الحريري الأبيض ، وصدرها النحيل ، وحركاتها الرشيقة ، وفوق كل شيء : كونها ابنة الجنرال كاناليس ، قد جعلها محط الأنظار . ولاحظت إحدى سيدات الجماعة قائلة :

- إنها لا تستحق كل هذا . امرأة لا ترندي « كورسيها » مشدّها بوسع أي شخص أن يرى أنها عادية !

وهست أخرى : « كيا أنها قد أعادت تجهيز ثوب عرسها حتى ترنديه في الحفلات . . . » .

ورأت سيدة ناحلة الشعر الفرصة مواتية لتضيف :

- أنتم تعرفون أن الناس الذين لا يحسنون التصرف هم دائما من يصبحون عرضةً للانتظار » .

- أوه ، كم نحن قساء القلوب . إنما قلت تلك الملاحظة بشأن الثوب لأنه من الواضح أنهم في حالة عسر مادي ! »

فلاحظت السيدة ناحلة الشعر قائلة :

- « بالطبع هم معسرون ، ونحن جميعا نعلم السبب » ، ثم أضافت في صوت خفيض : « يقولون إن السيد الرئيس لم يعد يعطيه شيئا منذ زواجه من تلك الفتاة ! » .

- ولكن ذا الوجه الملائكي يكنّ له ولاء خالصا . . .

- بل كان يكنّ له ولاء خالصا بالأحرى . لأنه كما يشاع ، فإن ذا الوجه الملائكي هذا قد اختطف زوجته الحالية حتى يعمي أنظار الشرطة عن هروب حيه الجنرال من المنزل ، وإنه لولا ذلك لما تمكن الجنرال من الفرار !

وتقدمت كميلة رذو الوجه الملائكي وسط المدعوين إلى الطرف الأقصى من الصالة التي كان بها الرئيس . وكان فخامته يتحادث مع أحد فقهاء القانون ،

الدكتور « إريغرا غابلي » ، وسط مجموعة من السيدات اللاتي ، حين اقترب الرئيس منهن ، خرست الكلمات على ألسنتهن ، كمن ابتلع شموعا مشتعلة ، ولم يجرؤن على التنفس أو على فتح شفاههن . وكان هناك رجال مصارف سبق القبض عليهم وخرجوا بكفالة ولا تزال قضاياهم أمام المحاكم ، وبسكرتيون ذوو ميول تقدمية لم يرفعوا أصيحتهم عن السيد الرئيس دون أن يجرؤوا على توجيه التحية له حين ينظر إليهم ، ولا على الانسحاب حين يحول بصره عنهم ؛ وأعيان القرى ، ممن انطلقا حماسهم السياسي ، ولكنهم لا يزالون يبدون شيئا من عزة الكرامة الإنسانية حين يُعاملون كالجراذين بينما هم ليوث في الحقيقة .

وتوجهت كميلاً وذو الوجه الملائكي إلى الرئيس لتحيته . وقدم ذو الوجه الملائكي زوجته . وقدم الرئيس يده اليمنى الصغيرة إلى كميلاً ، وإستقرت عيناه عليها وهو ينطق باسمه ، كأنما هو يقول «ها « تصوري من أكون ! » . وفي هذه الأثناء كان الفقيه القانوني يُحَيّ ظهور إحدى الحناويات عن يحمل نفس اسم عشيقته « البنايو » وشخصيتها الفريدة ، بتلاوة بعض أبيات من شعر غارسيلاسو* :

« لقد نشدت الطبيعة

خلق صورة واحدة فريدة من هذا الجمال

لذلك ، بعد أن خلقتك - حطمت سريعاً القالب الذي صبتك فيه » .

وكان الخدم يروحون ويفدون حاملين صحافاً عليها كؤوس الشمبانيا ، وفطائر صغيرة ، ولوز مملح ، وحلوى ، وسجائر . وأوقدت الشمبانيا النار التي لم تكن بعد موقدة في هذه الحفلة الرسمية ، فبدأ كل شيء ، كما يفعل السحر ، حقيقةً إذ ينعكس في المرايا الهادئة ، وخيالاً في الصالون ، وكذلك الصوت الورقي لآلة موسيقية بدائية مصنوعة من جرة فخارية أضيفت عليها سمة حضارية بتعليق آلات صغيرة من حولها .

ورن صوت الرئيس قائلاً : أيها الجنرال ، خذ السادة خارجاً ، فإنني أود أن

* شاعر إسباني قديم (١٥٠١ - ١٥٣٦) مشهور بقصائده الغنائية الرومانسية .

أتناول العشاء وحدي مع السيدات

وأخذ الرجال يخرجون من الأبواب التي تطل على الليل البارق في جماعة واحدة ، ودوما كلمة ، وبعضهم متلهف إلى تنفيذ رغبة سيده ، والبعض الآخر يحاول إخفاء غضبه بالأسراع في الخروج . وتطلعت السيدات إلى بعضهن البعض ، ولم يجزؤن حتى على إخفاء أقدامهن تحت مقاعدهن .

والمح الرئيس قائلا : بإمكان الشاعر أن يبقى . . .

وأغلق الضباط جميع الأبواب . وأحس الشاعر بالخرج من وجوده وسط هذا الحشد من السيدات .

وأمر الرئيس قائلا : أنشد أيها الشاعر ، شيئا لطيفا ، نشيد الأنشاد مثلا . . .

وراح الشاعر يتلو ما كان عالفا بذهنه من ذلك السفر من شعر سليمان :

« نشيد الأنشاد الذي لسليمان . . .

آه ، ليقبلني بقبلات من فمه !

أنا سوداء يا بنات أورشليم ولكني جميلة

كخيام سليمان .

لا تنظرن إلي لكوني سوداء

فإن الشمس قد لَوَّحتني . . .

حبيبي بالنسبة لي

فَنَّا من المر

بيبت بين ثديي . . .

تحت ظل حبيبي جلست

وكانت ثمرته حلوة في فمي .

أدخلني إلى بيت الخمر

وعلمه فوق عجة . . .

استحلفكن يا بنات أورشليم

ألا توفظن الحبيب ولا بالهدات

إلى أن يشاء

إلى أن يشاء . . .

ها أنت جميلة يا حبيبي

ها أنت جميلة . .

عينك حامتان من تحت نقابك ؛

شعرك كقطيع ماعز ؛

أسنانك كقطيع نعاج

صادرة من المغسل

كل واحدة تحمل توائم

وليست فيهن عقيم . . .

لهن ستون ملكة وثمانون سُرّة . . .

ونفض الرئيس وعلى وجهه نذر شؤم . وترددت وقع أقدامه كخطوات فهد
يفر على صخور قاع نهر جاف ، واختفى عبر الباب بعد أن إرتدت إلى ظهره
الستائر التي جذبها عند خروجه .

وبقي الشاعر وجهرة السيدات في ذهول ، يحسون بالضالة والحواء ، عاطلين
بجو من القلق كالجو الذي تخلفه الشمس بعد أن تغرب . وأعلن أحد الماعدين
أن العشاء جاهز . وانفتحت الأبواب ؛ وبينما كان الرجال الذين كانوا ينتظرون في
الممر يعودون مرتعدين من البرد ، توجه الشاعر إلى كميلة وطلب منها أن تتناول
العشاء معه . ونهضت ، وكانت على وشك أن تتناول ذراعها حين أوقفتها يد
امتدت من خلفها . وكادت تصرخ من المفاجأة . لقد كان ذو الوجه الملائكي
مختفيا طوال الوقت وراء إحدى الستائر بالقرب من زوجته ، ورآه الجميع يخرج من
مخبئه .

وبدأت طبول « الماريما » تدق وتتصاعد نغماتها في الهواء ، بينما اهتزت
الجلاليل الصغيرة المعلقة تحتها كأنها الأكفان .

الثورة

لم يكن ثمة شيء يُرى على البعد . وكان الرجال يخلفون وراءهم خطاً بأثار أقدامهم كأنه شعبان صامت طويل يسطّ تعاريجُه اللدنة المرنة المتجمدة . كان يمكن عد أضلاع الأرض في النذر اليسير من المستنقعات الجھافة التي لم يمّسها الشتاء بسوء . ورفعت الأشجار نفسها إلى أعلى فروعها الكثيفة المترعة بالعصارة كيما تستطيع التنفس . وكانت النار التي يعملونها معهم تبهر عيون الجياد المتعبة . وأدار جندي ظهره لينبّول . لم تكن ترى ساقاه . كان الوقت قد حان كيما يعرف الرفاق حقيقة الموقف ، بيد أنهم كانوا مشغولين بتنظيف بنادقهم بالشحم وخرق فساتين لا تزال تعبق برائحة النساء . كان الموت بمحصدهم ويختطفهم من مضاجعهم واحداً واحداً ، دون أن يخلفوا وراءهم ذكراً لأولادهم ولا لأي شخص آخر . كان الأنفل لهم أن يخاطروا بحياتهم ويروا أي شيء ينجم عن ذلك . إن الرصاصات لا تحس بشيء وهي تخترق جسد الإنسان . فاللحم بالنسبة لها يماثل الهواء الدافئ العذب ، هواء ذو كثافة معينة . وهي تصفر كالطيور . لقد حان الوقت لتدبر موقفهم ، بيد أنهم كانوا مشغولين بشحم المذّيات التي ابتاعها قادة الثورة من أحد تجار الحديد أتت النار على حانوته . وكان النصل المشحوذ يماثل ابتسامة على وجه زنجي .

وصاح صوت : أنشد يا رفيق . لقد سمعتك تغني منذ برهة ! » .

« لماذا عشقتني يا فاسي القلب

وأنت لك فتاتك ؟

كان يحسن بك أن تتركني

وحدي كالشجرة الذابلة » .

- إنشء يا رفيق ، أنشد .

« ذهبنا إلى البحيرة
وهرعنا إلى مكان الاحتفال
ولكن لم يطلع القمر هذه المرة
ولم يكن هناك من أحد » .

- أنشد يا رفيق ، أنشد .

« إن اليوم الذي ولدت فيه
كان هو يوم مولدي
وعم الفرح في السماء
وإنتهجت الملائكة وصدحت » .

انشء يا رفيق انشد . كان نور القمر القلوي ينشر فوق الأشجار وكانت الأوراق ترتجف في أعاليها . كانوا ينتظرون عبثا الأمر بالهجوم . كانت الشمس تشرق . وشعرت القوات إذ هي تنتظر في استعداد ساكن للهجوم على أول حصن للحكومة ، هذه الليلة نفسها ، كان ثمة قوة غريبة خفية تسرق منها قدرتها على الحركة وتحملها إلى حجارة . وأحالت الأمطار الصباح الذي لم تشرق شمسها بعد إلى حساء ، وإنسال فوق وجوه الجنود وظهورهم . وترددت أصداء الكلام بصوت أكثر ارتفاعاً عن طريق دموع الإله المنهالة . وكانت الأنبياء الأولى التي وصلتهم مقتضية ومتضاربة ، كأنما تنقلها أصوات صغيرة تخاف ان تصرخ بكل ما تعرف . وبدأ الجنود يشعرون كأن ثمة قضيباً من حديد أو قطعة عظم تستقر في أعماق أفئدتهم . وكان المعسكر يكاد يدمى كأنما من جرح واحد . لقد مات الجنرال « كاناليس » . وتجسدت الأنبياء في مقاطع وعبارات . مقاطع من كتاب ألف باء ، وعبارات من الخدمات الجنائزية . وأصطبغ مذاق السجائر والبراندلي بالغضب وصيحات الحزن . كان مستحيلاً تصديق الكلمات التي تقال ، بيد أنها لا بد أن تكون هي الحقيقة . وصمت السنون فيهم ، ينتظرون في نقاد صبر سماع الحقيقة العارية ، بعضهم واقف ، وآخرون ممددون أو مقعون على الأرض ، ونزعوا قبعات القش من على رؤوسهم وألقوا بها إلى جوارهم وهم يرشون رأسهم في غضب . وهرع الشبان منهم إلى الوادي بحثاً عن مزيد من الأنبياء . وأعمتهم

ملقى عبر المائدة ميتا ، وخذته مستقر على نسخة من صحيفة « النابليونال » ،
وعيناه نصف مغلفتين ، زجاجيتين ، تحديقان في شيء غير موجود .

وعاد الرجال في تردد إلى مهامهم اليومية . كانوا قد تعبوا من العيش
كالحيوانات المستأنسة ، فانضموا إلى ثورة « تشاماريتا » - وكان هذا هو اللقب
المفضل الذي خلعهوا على الجنرال كنانليس - لإحداث تغيير في طريقة حياتهم ،
ولأن « تشاماريتا » قد وعد بإعادة حقول الكروم إليهم ، وكانت قد اغتصبت منهم
بحجة إلغاء التجمعات ، ووعد بتوزيع حصص المياه بينهم بالعدل ، وإلغاء
التعليب ، وفرض الخدمة الإجبارية لمدة سنتين ، وإنشاء تعاونيات زراعية
لاستيراد الآلات الحديثة وتوفير البذور الجيدة والحيوانات والأسمدة والفنيين ،
وتسهيل وسائل الانتقال وتخفيض أسعارها ، وتسهيل التصدير وبيع المنتجات ،
وقصر السلطة على من ينتخبه الشعب ويكون مسؤولا أمام الشعب فقط ، وإلغاء
المدارس الخاصة ، وفرض الضرائب التصاعدية ، وتخفيض أسعار العلاج وتوفير
خدمات الأطباء والمحامين للمجتمع ، والعمل بحرية العقيدة ، حتى يتمكن المهتود من
عبادة آلهتهم وإعادة بناء معابدهم في أمان من الاضطهاد .

وعلمت كميلة بموت والدتها بعد عدة أيام ؛ فقد نقل إليها صوتٌ مجهول النبا
على الهاتف .

- « لقد مات أبوك حين قرأ في الجريدة أن رئيس الجمهورية كان شاهدا على
عقد زواجك » . فصاحت : هذا غير صحيح !

فقال الصوت المجهول وهو يضحك بصورة كريمة : ما هو غير الصحيح ؟

- هذا غير صحيح ؛ إنه لم يكن شاهدا . ألو ألو

بيد أن المتحدث المجهول كان قد وضع سماعة الهاتف في بطنه شديد
كشخص يتسلل خارجا خفية .

وغاصت كميلة في مقعد من الخيزران . كانت تشعر بصدمة . وبدأ لها بعد
لحظة أن الغرفة قد فقدت مظهرها السابق وأصبحت مختلفة ، ذات لون مختلف ،
وجو مختلف . مات ! مات ! مات ! ولوت كميلة يدها كأنها تكسر شيئا ، ثم

انفجرت في ضحكة هستيرية وفكّاهها مضمومان بينما عيناها مفعمتان بدموع لا تجد لها منفذا .

وكانت عربة رشح المياه تمر عبر الطريق ، وصنبروها يبيكي بينما خزاناتها المعدنية تضحك .

رقصة « توهيل »*

- ماذا نطلبون أيها السادة ؟
- بيرة
- ليس لي ، أنا سأأخذ « ويسكي » .
- إذن واحد . . .
- واحد بيرة وواحد ويسكي وواحد براندي
- وبعض المأكولات الخفيفة !
- إذن واحد بيرة وواحد وويسكي وواحد براندي وبعض المأكولات الخفيفة .
- وترامى صوت نبي الوجه الملائكي عائدا من المرحاض يقول وهو يغلق أزرار بنطاله في شيء من العجلة : هاللو !
- ماذا نطلب ؟
- أي شيء ، احضر لي بعض المياه المعدنية .
- آه ، إذن واحد بيرة وواحد ويسكي وواحد براندي وواحد مياه معدنية .
- وجذب ذو الوجه الملائكي مقعدا وجلس إلى جوار رجل يبلغ الستة أقدام طولا ، له مظهر الزنوج وحركاتهم رغم أنه أبيض البشرة ، وظهره سوي كالقصب الحديدية ، ويداه كالسندان المزدوج ، وثمة ندبة بين حاجبيه الشقراوين .

* توهيل : إله المطر في أساطير المايا ، بفراتيمالا .

قال له ذو الوجه الملائكي : إنسح لي مكانا يا مستر جنكيز ، فإنني أود أن
أجلس إلى جوارك . - بكل سرور أيها السيد . . .

- سوف أتناول شرابي وأذهب لأن الرئيس في انتظاري . فقال مستر جنكيز :
أوه ، إذا كنت ذاهبا للقاء الرئيس فلا بد أن تكف عن حماقتك وتبلغه بأن
الشائعات التي تتردد عنك غير صحيحة ، غير صحيحة على الإطلاق .

فقال واحد من الأربعة ، وهو الشخص الذي طلب البراندي :

- هذا لا شك فيه .

فتدخل ذو الوجه الملائكي قائلاً للمستر جنكيز : وهل أنا الذي نقول له
ذلك ؟

فقال الأمريكي وهو يضرب رخام المائدة براحته يديه : وأقول للجميع
بالطبع ! لكنني كنت هناك تلك الليلة وسمعت بأذني المدعي العسكري العام يقول
إنك تعارض انتخاب رئيس الجمهورية ، وإنك نصير « للثورة مثل المرحوم الجنرال
كاناليس » .

وحاول ذو الوجه الملائكي عبثاً أن يخفي القلق الذي يحس به . ذلك أن
الذهاب لمقابلة الرئيس في ظل هذه الظروف شيء يثير الخوف .

وجاء التادل بطلباتهم . كان يرتدي سترة بيضاء عليها اسم المحل
« غامبريتوس » مطرزاً عليها بخيوط حمراء .

- واحد ويسكي ، واحد بيرة . . .

وابتلع مستر جنكيز « الويسكي دفعة واحدة دون أن تطرف له عين ،
كشخص يشرب مطهراً معوياً ، ثم أخرج الغليون وحشاه بالتفغ .

- أجل يا صديقي ، إن هذه الأشياء تصل إلى سمع الرئيس بطريقة أو
بأخرى ، وهي ليست بالأمر المحبب لديك . والآن حان دورك كيما تقول له
بصراحة حقيقة الأمور : إن الموقف دقيق جداً .

- شكرا على نصيحتك يا مستر « جنكيز » ، وسلاما ، سوف اذهب للبحث عن عربة للذهاب سريعا . شكرا ، هه ؟ ومع السلامة للجميع .

واشعل « مستر جنكيز » غليونيه .

وتسامل أحد الرجال اللتفين حول المائدة : كم كأساً من الويسكي شربت يا مستر جنكيز ؟

فرد الأمريكي وغليونيه في فمه وإحدى عينيه نصف مغلقة ، والآخرى ، زرقاء ناصعة ، تحرق في شعلة الكبريت الصفراء الصغيرة : ثمانية عشر .

- وإنك تحق تماماً في ذلك ، فالويسكي مشروب رائع ، اليس كذلك ؟

- لا علم لي ! عليك أن توجه هذا السؤال إلى الناس الذين لا يشربونه إنطلاقاً من بأسهم الكامل مثلي .

- لا تقل هذا يا مستر جنكيز .

- لماذا لا أقول ذلك ما دمت أعتقدُه حقاً ؟ في بلادي ، كل شخص يقول ما يراه حقاً . تماماً . - إن هذا ميزة رائعة .

- أوه كلا ، إني أفضل ما تسيرون عليه هنا . إنكم تقولون ما لا تعتقدون ، ما دام أنه جميل جداً .

- إذن ففي بلادك لا تتداولون الحكايات ؟

- أوه كلا ، على الإطلاق ، ما عدا حكايات الإنجيل !

- كأس آخر يا مستر جنكيز ؟

- أجل ، أظن أنني سأأخذ كأساً آخر من الويسكي !

- برافوا ! إني أحب ذلك ، إنك رجل على استعداد لأن تموت من أجل مبادئك .

- كيف هذا ؟

- لقد قال صديقي إنك رجل على استعداد للموت .

- أجل ، لقد فهمت ما قال عن الموت في سبيل المبادئ . كلا ، إنني رجل يعيش في سبيل مبادئه . إن الحياة تضطرم في عروقي . أما الموت فلا أهمية له عندي ، فسوف أموت حين يشاء الله .
- إن السبتر جنكيز يريد أن تمطر السماء ويسكى !

- « كلا ، كلا ، لماذا ؟ حينئذ لن يبيع أحد مظلات بل سيبيمون أقمصا ! » . ثم أضاف بعد فترة جذب فيها أنفاس غليونه وتنفس في رقة بينما ضحك الآخرون : « إن ذا الوجه الملائكي شاب طيب ، ولكنه إذا لم يفعل ما قلْتُ له فلن يغفر له ، بل سيُفَضَّى عليه بدلا من ذلك » .
وفيجأة ، دخلت البار جماعة من الرجال في صمت . كانوا مجموعة كبيرة لدرجة تعذر معها دخولهم جميعا من الباب مرة واحدة . وبقي معظمهم واقفا لدى الباب أو بين المتناضد أو بالقرب من حافة البار . لن يطول مقامهم في البار لذلك فالامر لا يستحق الجلوس . وصاح رجل قصير نوعا ما ، مسن نوعا ما ، أصلع نوعا ما ، عليه دلائل الصحة نوعا ما ، مجنون نوعا ما ، غليظ الصوت نوعا ما ، قذر نوعا ما : « صمتا ! » ، ثم بسط إعلانا مطبوعا كبيرا ، وعاونته إنسان آخران من تشيته على إحدى المرايا بالشمع الأسود . أيها المواطنون :

إن مجرد النطق باسم السيد رئيس الجمهورية هو بمثابة إلقاء نور مشاعل السلام على المصالح المقدسة للامة التي غزت تحت حكمه الحكيم - وستظل تنزو - أوجه التقدم في جميع المجالات ، والنظام في كل شكل من أشكال التقدم !!!!
وبوصفتنا مواطنين أحراراً ، واعين بالتزامنا بالسهر على مصيرنا (الذي هو مصير الامة أيضا) ، وبوصفتنا رجالا نقف في صف الخير ونعادي الفوضوية ، فلننا نعلن : إن خير الامة هو في إعادة انتخاب رئيسنا العظيم ولا شيء غير إعادة انتخابه . إذ لماذا تخاطر بسفينة الحكم في بحار مجهولة ، حين يكون قائما على دفتها أكمل رجل دولة في عصرنا ، ذلك الذي سيضعه التاريخ عظيما بين العظماء ، حكيماً بين الحكماء ، حرا ، مفكرا ، ديمقراطيا ؟؟ إن مجرد تصور وجود شخص غير هذا النصب الخطير يصل إلى حد التعرض لمصير الامة (الذي هو مصيرنا نحن أيضا) ، وإن من مجرؤ على ذلك بافترض وجوده - يستحق عزله بوصفه مجنوناً خطيراً ، فإذا لم يكن مجنوناً ، فهو يستحق أن يقدم للمحاكمة بوصفه خائناً لوطنه طبقا للقانون !!! أيها الاخوة المواطنون : إن صناديق الانتخاب تنتظركم .

انتخبوا !!! مرشحنا !!!! الذي !!!! سيعيد الشعب !!! انتخابه !!!

وأثارت قراءة هذا المنشور بصوت عالٍ كثيرا من الحماس العام في البار ،
وانبعثت صيحات وتصفيق . وبناء على طلب الجمهور ، نهض رجل لا أثر للعناية
في ملابسه ، طويل الشعر أسود ، جامد العينين ، لإلقاء كلمة :

- « أيها المواطنون : إنني أفكر كشاعر ولكني أتحدث كمواطنٍ وطني ! الشاعر
هو رجل اخترع ساء ، ولذلك يجب عليكم الاستماع إلى خطبة لا نظام فيها من
الرجل الذي اخترع ذلك الشيء الجميل الذي لا نفع فيه والذي نسميه « ساء » .
حين كتب ذلك الألماني الذي لم يفهمه الألمان ، كلا إني لا أعني بذلك « جيته » ولا
« كانط » ولا « شوبنهاور » ، عن الرجل الخارق (السوبرمان) فإنه كان يتنبأ بلا
شك بأنه سيولد في أمريكا ، من الأب الكون ومن الطبيعة الأم أول « سوبرمان »
حقيقي على الأرض . إنني أتحدث أيها السادة عنه ، عمن فوق الفجر اشراقاً ،
عن الذي خلغ الوطن عليه لقب « صاحب الجدارة والإستحقاق » ، عن رئيس
الحزب وحامي هم الشباب المجتهد . إن من أتكلم عنه أيها السادة ، كما لا شك
قد أدركتم ، هو رئيس الجمهورية الدستوري ، الذي أشير إليه بوصفه
« سوبرمان » ، المخلوق الخارق الذي كتب عنه « نيتشه » ... إني أقول وأردد
ذلك من على هذه المنصة . وحين قال هذه العبارة ، دق على نضد البار بقبضة
يده . ولهذا أيها المواطنون ، فرغم أنني لست ممن اتخذ السياسة معاشاً ، فإنني
أؤمن بإيمان موضوعياً تاماً مخلصاً بأنه نظراً لعدم وجود « سوبرمان » أو « سوبر
مواطن » آخر يبننا ، فإننا نكون مجانين أو عمياناً ، عمياناً أو مجانين على نحو
إجرامي ، إذا نحن سمعنا بأن تنتقل أعتة الحكم من يد ذلك « السوبر قائد »
الذي يفرد وطننا الحبيب الآن وإلى الأبد ، إلى يد مواطن آخر ، مواطن عادي ،
إلى مواطن ، أيها الأخوة المواطنون ، حتى لو كان يتمتع بكل الحصا الحميدة على
الأرض ، فلا بد أنه لا يزال مجرد إنسان . وهناك في قارة أوروبا العتيقة
المستنفدة ، قضت الديمقراطية على كثير من الأباطرة والملوك ، ولكن علينا أن
ندرك - وإننا لندرك - أنه وقد انتقلت الديمقراطية إلى قارة أمريكا - فهي قد حُفنت
بطعم « السوبرمان » الذي يكاد يكون إلهياً ، وأنها تبني شكلاً جديداً للحكومة هو
« السوبر ديمقراطية » . والآن ، أيها السادة ، سأتشرف بأن أنشد لكم ... » .

وصاح صوت : أنشد أيها الشاعر ، ولكن شيئا غير القصيدة ! .

- ... ليلية « من « سي مايو » موجهة إلى « السور فريد » .

وتبع قطعة الشاعر الرائعة خطب أخرى أكثر حماسة منها ، تهدف إلى الهجوم على الحزب الآخر « الشائن » الذي يساند أمية « سان خوان » ونظام التعاويذ والسحر وغيرهما من الملطافات الدينية . وأخذ أنف أحد الخطباء ينزف ، وصاح عاليا بين الكلمات كيا يحضر له أحدهم « قالب آجر » منقوع في الماء حتى يشمه ويوقف المزيف بذلك .

قال « مستر جنكيز » : الآن يكون ذو الوجه الملائكي بين الحائط والرئيس . إني أحب الطريقة التي يتحدث بها هذا الشاعر ، غير أني أعتقد أن كون المرء شاعرا هو أمر محزن للغاية ؛ أما أن يكون المرء محاميا فهو أشد الأمور بعثا للحزن في الدنيا . والآن ، سأطلب كأسا آخر من الويسكي . وصاح : « ويسكي آخر لهذا « السورمان » !

وحين كان ذو الوجه الملائكي يغادر مقهى « غامبريناس » قابل وزير الحربية .

- إلى أين أنت ذاهب يا جنرال ؟

- لمقابلة السيد الرئيس ...

- إذن فلنذهب معا .

- أنت ذاهب إلى هناك أيضا ؟ إذن فلنتنظر عربي فلن يطول غيابها . بيني

وبينك ، لقد كنت الآن لدى إحدى الأرامل .

- إني أعرف أنك مغرم بالأرامل الطروبيات يا جنرال .

- هيه ، هيا ، دعك من مداعباتك تلك .

- لم أكن مداعبا ، بل هي ملاحظة بسيطة .

- إنها ليست بالبسيطة ، بل هي جديرة بالملوك ! - حقا ؟

وسارت العربة في سكون كسا لو كانت مصنوعة من ورق النشاف . كان

الخراس مزروعين في أركان الطرقات ، وسمعاهم ينقلون الإشارة فيما بينهم :

« وزير الحربية ، وزير الحربية » .

كان الرئيس يذرع حجرة مكتبه بخطوات قصيرة ، مرتدبا قبعة نغطي
جبهته ، وياقة سترته مرفوعة إلى أعلى فوق لقاع رقيق ، وأزرار صدره مفكوكه .
حلة سوداء ، قبعة سوداء ، حذاء أسود .

- كيف حال الجوبا جنرال؟

- بارد يا سيدي الرئيس . وهاك ميغيل بدون معطف !

- سيدي الرئيس ..

- كلام فارغ . إنك ترعّف ، وستقول لي إنك لا تشعر بالبرد . إنك غير
حكيم بالمرّة . يا جنرال ، أرسل أحدهم إلى منزل ميغيل ليحضر له معطفا على
الفور .

وخرج وزير الحربية مؤديا التحية العسكرية ، وكاد يتمتر في سيفه المنطلي على
جانبيه ، في حين جلس السيد الرئيس على أريكة من الخيزران وقدم لذي الوجه
الملائكي مقعدا مجاورا له .

وقال وهو يجلس : « كما ترى يا ميغيل ، عليّ أن أقوم بكل شيء بنفسي
وأشرف على كل شيء ، لاني أحكم أمة من « أصحاب النوايا » . وحين لا أباشر
الأمور بنفسي ، لا بد أن أعتمد على أصدقائي » . وصمت برهة ثم استطرد
قائلا : « إني أعني بتعبير « أصحاب النوايا » أولئك الذين ينوون القيام بشيء أو
عدم القيام بشيء ، ثم لا ينفذون هذا ولا ذاك نتيجة لافتقارهم إلى قوة الإرادة .
وهم بهذا لا في العبر ولا في النفي . فمثلا ، يمضي أصحاب الصناعة عندنا
حياتهم مرددين مرارا وتكرارا : إني أنوي بناء مصنع ، إني أنوي تركيب
آلات جديدة ، إني أنوي هذا ، إني أنوي ذاك ، وهكذا إلى ما لا نهاية .
وأصحاب الزراعة يقولون : إني أنوي تجربة وسائل جديدة ، إني أنوي تصدير
منتجاتي ، ويقول الكاتب : إني أنوي تأليف كتاب ، والأستاذ : إني أنوي تأسيس
مدرسة ، وأصحاب الأعمال : إني أنوي القيام بهذه الصفقة أو تلك ؛
والصحفيون - أولئك الخنازير ذوو كتل الدهن التي تغرق فيها أرواحهم - إني أنوي
تحسين حالة المجتمع . ولكن ، كما قلت لك ، لا أحد ينفذ شيئا ، ولهذا فمن

الطبيعي أنه يجب عليّ أنا - رئيس الجمهورية - أن أقوم بكل شيء ، وأنعمل كل
لوم إلى جانب ذلك . ولك حتى أن تقول إنه لولاى لما كان هناك حفظ ونصيب ، إذ
إن عليّ أن أقوم بدور إله الحظ في سحب الأرقام الفائزة في اليانصيب . . . » .

ومرّ على شاربه بأطراف أصابعه الشفافة الرقيقة النحيلة البنية اللون .
واستطرد قائلا في نبرة صوت مختلفة :

- « وكل هذا يقضي بي إلى القول بأن الظروف تضطري إلى الاستفادة من
خدمات رجال مثلك ، من النافع وجودهم إلى جوارى ، ولكنهم أشد نفعاً خارج
الجمهورية ، حيث مخططات أعدائي ومؤامراتهم وكناباتهم الدينية تهدد حلة إعادة
إنتخابي بالخطر . . . » .

وخفض عينيه كأنها يعوضتان محتقتان بالدماء ، واستطرد يقول :

- « إنني لا أتحدث عن « كاناليس » وأتباعه ، فالموت دائما كان أصدق
حلفائي يا ميجيل ! إنني أتحدث عن الناس التي تحاول التأثير على الرأي العام في
أمريكا الشمالية ، أملا في إثارة الشبهات حول صورتي في « واشنطن » . وحين
يبدأ حيوان متوحش سجين في فقص في تبديل شعره ، فإن ذلك لا يعني أنه يريد
من الآخرين نزع ما تبقى له من شعر بالقوة ، أليس كذلك ؟ حسنا ، إذن ؛ هل
أنا إنسان عجوز ذو عقل مخمور وقلب كالابنوس في صلابته ، كما يشيعون عني ؟
دع السفلة يقولون ما يشاؤون ! أما أن يقوم الشعب نفسه ، لأسباب سياسية ،
بإستغلال ما قمعت به كيميا انقذ وطني من مذابح هؤلاء الكلاب ، فهذا شيء لا
يمكن قبوله ! إن إعادة انتخابي في كفة الميزان ، وهذا هو السبب الذي أرسلت
إليك من أجله يا ميجيل . عليك أن تذهب إلى « واشنطن » وتُحضر في من هناك
تقريراً مفصلاً عن سُحب الكراهية والشكوك تلك ، وعن المراسم الجنائزية التي
تدور هناك والتي ليس فيها من دور محترم إلا دور الجثمان نفسه ، كما يحدث في كل
الجنائزات » .

فقال ذو الوجه الملائكي متلعثما ، وهو مشطور بين رغبته في اتباع نصيحة
« المستر جنكينز » بالقاء أوراقه على المائدة ، وبين خوفه من أن يفقد - نتيجة أي زلة
لسان - فرصة قيامه بسفرة أدرك منذ البداية أنه قد يكون فيها خلاصه :

- « سيدي الرئيس ، إنكم تعلمون أنني تحت أمركم دون قيد ولا شرط لأي

غرضي كان : ومع ذلك ، أرجو أن تسمحوا لي بأن أقول كلمتين نظرا لأنني أردت دائما أن أكون أشد خدمكم إخلاصا وتكريسا . ذلك أنني أردت - قبل أن اضطلع بهذه المهمة الدقيقة - أن أطلب من السيد الرئيس أن يتعطف - إذا لم ير مانعا - ويامر بإجراء تحقيق في الاتهامات الباطلة التي ترميني بأنني عدو للسيد الرئيس ، والموجهة لي من جانب المدعي العسكري العام من ناحية . . . »

- ولكن ، من ذا الذي يُلقي بالا إلى هذه الترهات ؟

- إن السيد الرئيس لا يمكن أن يشك في ولائي المطلق لشخصه وحكومته ، بيد أنني لا أريده أن يوليبي ثقته الكاملة قبل أن يكتشف ما إذا كانت اتهامات المدعي العسكري العام صحيحة أم باطلة .

- « إنني لم أطلب منك النصيحة فيما يجب أن أفعل يا ميفيل ! كفاك هذا ! إنني أعلم كل شيء ، عن هذا الموضوع ، بل سامضي قدما وأخبرك أن في مكتبي هذا الاتهام الذي صاغه المدعي العسكري العام ضدك وقت فرار الجنرال « كاناليس » : بل وأكثر من ذلك : بوسعي أن أقول لك إن عداوة المدعي العام لك ناتجة عن ظُرف ربما تجهله تماما . لقد وضع المدعي العسكري العام ، بالاتفاق مع الشرطة ، خطة لختطف السيدة التي هي الآن زوجتك لبيعها إلى صاحبة بيت للدعارة ، كان قد تلقى منها عشرة آلاف بيزو مقدما ثمنا للتنازل لها عنها . وقد اضطر إلى الاستعاضة عنها بامرأة مسكينة هي الآن على وشك الجنون من جراء ما تعانیه في ذلك البيت » .

وجلس ذو الوجه اللاتكي ساكنا تماما ، محاذرا أن يُظهر أمام سيده أقل تغيير في ملامحه ، دافعا مشاعره في أعماق قوّاده وراء حاجز عينيه القطيفيتين السوداوين . كان يجاكي كرسيه الخيزراني في شحوبه وبرودته .

« إذا سمح لي السيد الرئيس ، فإني أفضل البقاء إلى جواره أدافع عنه بدمي » .

- أتعني أنك لا تقبل ما أعرضه عليك ؟

- كلا ، إنني أقبله قبولا مطلقا يا سيدي الرئيس .

- حسنا جدا إذن . كل هذا لا لزوم له أبدا ، مجرد كلمات . ستنشر صحف

الغد خبر رحيلك الوشيك ، ولا يمكنك أن تخذلي . ولدى وزارة الحربية أوامر بإعطائك اليوم ما تحتاج إليه من نقود للاستعداد . وسأرسل إليك نفقات الرحلة والتعليمات في محطة القطار .

وبدا ذو الوجه الملائكي يشعر بدقات ساعة في باطن الأرض تشير إلى مرور الوقت المحتوم . ومن خلال نافذة مفتوحة على مصراعها ، مدت عينه ، تحت حاجبيه السوداوين ، نظرها ورأنا ركية نيران تنوقد إلى جوار دغل من أشجار السور الخضراء الداكنة وجدراننا من الدخان الأبيض ، في وسط فناء شبه مطموس المظهر وسط الظلمة المطبقة . وكانت ثمة مجموعات من الحراس واقفة هناك تحت النجوم البازغة . ووقف أربعة أطراف لقس في جوانب الفناء ، الأربعة يردون طحالب كالعرافين الباطنيين ، والأربعة ذوو أباد مغطاة بجلد الضفادع الأخضر الصفراوي ، والأربعة عيونهم مغلقة في الجانب المشرق من وجوههم ، ومفتوحة في جانبه المظلم . وفجأة ، دوى قرع طويل : طم ططم ، طم ططم ، طم ططم ، وظهر عدد كبير جدا من الرجال متخفين في صورة حيوانات ، يتقاذفون في صف يسير الواحد منهم فيه خلف الآخر . ومن وسط عصا الطبول النابضة الملطخة بالدماء ، هبطت سرطانات البحر من الهواء الساقط وجرت الديدان من النيران الساقطة . ورقص الرجال ، حتى لا يظلوا مزروعين في الرياح ، على إيقاع الطبول ، وهم يغذون ركية النار بزبوت و الترتينا ، الساقطة من جباههم . ومن وسط الظلال التي هالون الروث ، بزغ رجل ضئيل الحجم ذو وجه يماثل الفاكهة المجففة ، ولسانه مدلى بين فكبيه ، والأشواك على جبهته ، وليس له أذان ، يرندي حول سُرته جبلا من الصوف تندل منه رؤوس محاربين وأوراق القرع العسلي .

وذهب يتفخ في النيران المتجمعة ، وبعث بهجة عمياء في نفوس الرجال الحيوانات إذ تناول بعض النار في فمه ولاكها بين أسنانه كما لو كانت قطعة من اللادن دون أن يحترق . وصدرت صيحة من الظلمة التي تلف الأشجار ، وارتفعت من هنا ومن هناك أصوات الخداد من القبائل التي كان رجالهم يتحاربون ويتقاتلون فيما بينهم منذ الميلاد : بأحباشهم ، فقد كانوا رجالا حيوانات ؛ ويجلودهم ، فقد كانوا طيور العطش ؛ ويخوفهم ، وبقيتهم ، وبحاجاتهم الجسمانية ، ضارعين إلى « توهيل » - واهب النار - أن يرد عليهم شعلة النار الموقدة . ووصل - نوهيل ، متطليا نيرا من صدور الحماصات بفيض كاللبن . وهرعت الغزلان إليه حتى لا ينوقف سيل المياه ، وكانت قرونها في رقة الأمطار ، وسقطت حوافرها الصغيرة على

الرمال البهيجة في خفة الهواء . وهرعت الطيور إليه حتى لا يتوقف خياها السابح
على صفحة المياه - طيور عظامها أرق من الريش الذي يغطيها . وترددت وقع
أقدام من أعماق الأرض : راتيلان . . . راتيلان . . . راتيلان !

وطلب « توهيل » فرايين بشرية . وعرضت القبائل أمهر صيادها في محضره ،
وسهامهم مشرعة في الهواء ومقاليهم معبأة .

وسأل « توهيل » : وهل يصطاد هؤلاء الرجال رجالا آخرين ؟

وترددت وقع الأقدام من أعماق الأرض : راتيلان . . . راتيلان . . .
راتيلان !

وردت الضائيل : « سننفذ ما تطلب على شرط أن تقوم يا واهب النار بإعادة النار
إلينا ، حتى لا يتجمد بعد الآن لحمنا ، ولا الهواء ، ولا أظافرنا ، ولا ألسنتنا ،
ولا شعرنا ! على شرط ألا تمضي في تدمير حيواننا وإخضاعنا إلى حياة هي الموت
ذاته » وقال « توهيل » « إي زاض ! »

ومكردد وقع الأقدام من أعماق الأرض : راتيلان . . . راتيلان . . .
راتيلان !

- « إي زاض ! إي أستطيع أن أسودّ الرجال الذين يصيدون رجالا .
ولذلك فلن يكون هناك لا موت حقيقي ولا حياة حقيقية . والآن ، ارقصوا رقصة
الأبراق من أجلي ! » .

وتناول كل محارب صياد بوفه ونفخ فيه نفخا متواصلا دون أن يتوقف لالتقاط
أنفاسه ، على إيقاع الطبول والصدى ونغمات الهواء ، مما جعل عيني « توهيل »
ترقصان .

وبعد هذه الرؤيا العجيبة التي ليس لها ما يفسرها ، استأذن ذو الوجه الملائكي
من الرئيس . وعند خروجه ، ناداه وزير الحربية وتاوله رزمة أوراق مبالغة
ومعطفه . قال بصعوبة : أأست خارجا يا جنرال ؟

- وددت لو استطعت . ولكن ربما لحقت بك هناك ، وإلا فستقابل يوما
آخر ، عليّ أن أكون هنا الآن ، كما ترى ، ولوى رأسه فوق كتفه الأيمن « أستمع
إلى صوت سيدي » .

الرحلة

وذلك النهر الذي كان يتدفق فوق السطح حينما كانت هي تحزم الأمتعة لم يصب في داخل المنزل ، بل بعيدا جدا ، في الفضاء الواسع المفضي إلى الريف ، أوريا إلى البحر . وهبت ريح قوية فتحت النافذة ، وانهل المطر كما لو كان الزجاج قد انصدع نارا ، وتطايرت السنائر والأوراق ، وانصفت الأبواب ، ولكن كميلة مضت في مهمتها ، معزولة وسط الحجاب التي كانت غملاها . ورغم أنها أحست بالبرد حتى نخاع عظامها ، فلم يبدُ شيء في عينيها لا مكتملاً ولا غتلفاً ، فكل شيء بدا لها خاوياً ، منقطعاً ، لا وزن له ، هلامياً ، لا روح فيه ، تماماً مثلها هي نفسها .

قال ذو الوجه الملائكي وهو يغلق النافذة : أمن الأفضل البقاء هنا ، أم في مكان آخر بعيداً عن متناول ذلك الوحش ؟ ما رأيك ؟ لقد أردت ذلك تماماً ، ولكني ربما أكون أهرب بعيداً !

- ولكن ... بعد الذي رويته لي عن أولئك السحرة الأطباء المتوحشين الذين يرقصون في بيته ...

فرد بينما تعقعة الرعد تغطي على صوته : هذا لا يستحق أن يكون مدعاة للقلق . ومع ذلك ، فما الذي يمكن أن يكتشفوه عني بسحرهم وتنجيمهم ؟ فعل كل حال ، إنه هو نفسه الذي يبعث بي إلى واشنطن ، وهو الذي يتكفل بنفقات رحلتي . آه يا إلهي ! قد يبدو كل شيء غتلفاً تماماً حين أكون بعيداً . كل شيء محتمل . إنك سوف تلحقين بي ، بحجة أنك مريضة ، أو أنني أنا نفسي مريض ؟ وبعد ذلك ، بوسعنا أن يبحث عنا كيفما شاء !

- ولكن ، افترض أنه منبني من السفر إليك ؟
- حسنا ، حينئذ سوف أعود أدراجي وأبقي لمي مغلقا ، ولن يكون الوضع أسوأ حالا ! ذاك عما هو عليه الآن ، أليس كذلك ؟ إننا لا نخاطر بشيء ...
- إنك دانتها نظن كل شيء سهلا ! .

- إن لدينا ما يكفينا للعيش في أي مكان نخناره ، وأعني العيش ، العيش بحق وليس مجرد القيام طوال اليوم بترديد : أنا أفكر بعقل السيد الرئيس إذن فأنا موجود ، إنني أفكر بعقل السيد الرئيس إذن فأنا موجود ...
وحدثت كميلة فيه يعينين مليتين بالدموع . كان فمها كأنها قد أقعمت بالشعر وأذناها بالمطر .

- ولكن ... لماذا تيكين ؟ ... لا تيكين ...
- وماذا تريدني أن أفعل ؟
- إن النساء جميعا سواء !
- دعني ...
- سوف تعتل صحتك إذا واصلت البكاء هكذا ، بحق النساء !
- كلا ، دعني ...
- كأننا أنا ذاهب إلى حفلي أو أنهم سيدفنونني حيا .
- دعني !

وأخذها ذو الوجه الملائكي بين أحضانها . وعلى خديه الجامدين الرجولين ، اللذين لم يألفا البكاء ، جرت دمعتان متعرجتان حارقتان ، كأنهما مسماران لم يسهل اقتلاعهما .
ومست كميلة : ولكنتك ستكتب لي ...
- بالطبع ...

- وكثيرا أرجوك . إنك ترى أننا لم نفرق أبدا قبل الآن . لا تتركني دون خطابات ، سيكون عذابا لي أن تمر الأيام دون أن أتلقى أنباء عنك . وإعني بنفسك ! لا تلق بأحد ، أسمعني ؟ لا تلق بالآلما يقوله أي شخص ، خاصة من

أبناء بلدك ، فهم في غاية السوء . وفوق كل شيء ، أرجوك (وهنا قاطعتها قبيلات زوجها) ... أرجوك ... أن ... أرجوك ... أن تكتب ... لي ... دائما .

وأغلق ذو الوجه الملائكي الحجاب دون أن يرفع عينيه عن عيني زوجته الحنونتين المشائقتين . كان المطر يهطل بشدة . وتدفقت المياه عبر الميازيب كالسلاسل الثقيلة . كانت فكرة أصيل الغد - وقد اقترب جداً - تخفقها ، وحين أصبح كل شيء جاهزا ، خلعا ملابسها في صمت ، ودلفا إلى الفراش ، بين دقات الساعة التي كانت تفتت الساعات الباقية ... نك ... ناك ... ناك ... ناك ... ناك ... ناك ، وطنين البعوض الذي لم يدعها بنامان .

- لقد خطر لي الآن أنني قد نسيت أن أقول لهم أن يغلقوا الأبواب حتى لا يدخل البعوض . يا إلهي ، يا لي من بلهاء ! .

وكان رد ذي الوجه الملائكي الوحيد هو أن احتضنها بشدة أكثر ، كانت كالحمل الصغير الذي لا يقدر بعد على التغاير .

ولم يجرؤ على إطفاء النور ، ولا على إغلاق عينيه ، ولا على أن ينس بينت شفة . كانا أشد التصاقا ، الواحد منها بالآخر - تحت الضوء ، كما أن الصوت الإنساني يخلق مسافة تفصل بين المتكلمين ، والجفنان المغلفان ما هما إلا حاجز منبع ، والبقاء في الظلمة شكل من أشكال الفراق . وكان هناك الكثير مما يريدان قوله لأحدهما الآخر في هذه الليلة الأخيرة ، حتى أن أطول حديث بينهما كان سيبدو كالبرقية الخاطفة .

وملأت الفناء ضجة الخدم بطاردون دجاجة وسط أحواض النباتات . كان المطر قد توقف ، والمياه تنقطر في الميازيب كأنها ساعة مائبة . وجرت الدجاجة ، وهفت ورفقت ، ساعة إلى الهرب من الموت الذي ينتظرها . وهمس ذو الوجه الملائكي في أذن كمييلة وهو يسوي بطنها المستدير بيده : يا طاحونتي الصغيرة ... وقالت وهي تضغط بجسدها على جسده : يا حبيبي ...

وتحركات سافاها تحت الغطاء كأنها مجدافان يضربان المياه المترققة في بحر لا قاع له .

كان الخدم لا يزالون يجرون ويصيحون . كانت الدجاجة قد هربت منهم ،
نايضةً فرعة ، وعيناها تكادان تقفزان من محجريها ، فاعرة المنقار ، ناشرة جناحيها
كأنها الصليب ، وقد تقطعت أنفاسها .
وتلاطفًا ، إذ هما متعانقان ، بأصابع مرخفة - أصابع نصف ميتة ونصف
ناائمة ، هلامية .

قالت له : « يا حبيبي » . وقال لها : « يا جنتي » . وقالت له : « يا
جنتي » ...

واصطدمت الدجاجة بأخايط أو اصطدم الخايط بها ، فهي قد شعرت
بالأمرين يحدثن في وقت واحد . وقطعوا رقبتها . ورفرت بجناحيها كأن بوسعها
أن تطير حتى وهي ميتة . وصاحت الطباخة وهي تنفض عنها الريش الذي لطخ
مبدعتها : « لقد لطحنت نفسها ، الدجاجة المسكينة ! » وذهبت لتغسل يديها في
النافورة التي إمتلأت بجياه الأمطار .

وأغلقت كميعة عينيها . ثقل زوجها . رفرفة الأجنحة ... اللطخة ...
ومضت الساعة في دقائقها ، بسرعة أبطأ الآن ... تك ... تك ... تك ...
تك ... تك ... تك ... تك ... تك ... تك ...

نظر ذو الوجه الملائكي بسرعة في الأوراق التي سلمها له أحد الضباط في
المحطة . وبدت المدينة له ، وهو يخلفها وراءه ، تغمش صفحة السماء بأظافر
أسطحها القذرة . وكان للوثائق التي نسلمها أثر ملطف في نفسه . لقد حالفه
الحظ إذ هو يسافر الآن بعيدا عن ذلك الرجل ، في عربة قطار من الدرجة الأولى ،
محاطا بالعناية والرعاية ، دونما جاسوس يتعقبه ، وجيه ملان بالشيكاك النقدية .
وأرخص جفنيه كيما يركز أفكاره على نحر أفضل . واكتسبت الحقول حركة من عبور
القطار وسطها ، وأخذت تجري هي أيضا كالأولاد الصغار ، واحد وراء الآخر ،
واحدا وراء الآخر ، واحدا وراء الآخر : أشجار ، بيوت ، جسور ...

... يا لحسن حظي أن ابتعدت عن ذلك الرجل في عربة من الدرجة
الأولى ! ...

... واحدا وراء الآخر ، واحدا وراء الآخر ، واحدا وراء الآخر ... كان
البيت يطارد الشجرة ، والشجرة تطارد السياج ، والسياج يطارد الجسر ، والجسر
يطارد الطريق ، والطريق يطارد النهر ، والنهر يطارد الجبل ، والجبل يطارد
السحاب ، والسحاب يطارد حقل الذرة ، وحقل الذرة يطارد الفلاح ، والفلاح
يطارد حيواناته ...

... محاطا بالعناية والرعاية دونما جاسوس يتعقبني ... والحيوانات تطارد
البيت ، والبيت يطارد الشجرة ، والشجرة تطارد السياج ، والسياج يطارد
الجسر ، والجسر يطارد الطريق ، والطريق يطارد النهر ، والنهر يطارد الجبل ،
والجبل يطارد السحاب ...

وسرت الصورة المنعكسة لقرية على طول سطح غدير شفاف مظلم كقناع
الجرة الضخمة .

... والسحاب يطارد حقول الذرة ، وحقول الذرة تطارد الفلاح ، والفلاح
يطارد حيواناته ...

... دوما جاسوس يتعقبني ، والشيكاك النقدية في جيبي ...
... والحيوانات تطارد البيت ، والبيت يطارد الشجرة ، والشجرة تطارد
السياج ، والسياج ...

وشيكاك نقدية كثيرة في جيبي !

وومض جسر عبر النافذة كأنه مسند عصا بلياردو ... ضوء وظل ، سلام ،
جافة من الصلب ، أجنحة عصافير ...

... السياج يطارد الجسر ، والجسر يطارد الطريق ، والطريق يطارد النهر ،
والنهر يطارد الجبل ، والجبل ...

وترك ذو الوجه الملاتكي رأسه يسقط على ظهر المعقد المبطن بالقش . وتابع
عيناه الغافيتان الشريط الساحلي الخفيض المنبسط ، الحار ، الرتيب ، بشعور
مضطرب بوجوده في القطار ، وعدم وجوده في القطار ، وتخلّف وراء القطار ، ومع
كل لحظة يزداد تخلّفه عن القطار ، يزداد تخلّفا ، يزداد ، يزداد ، يزداد ،
يزداد ...

وفجأة فتح عينيه . كان قد استغرق في النوم ، النوم القلق لشخص هارب ، قلق شخص يعرف أن الخطر قد يكون سابحا في الهواء ذاته الذي ينتفسه ؛ وبدا له أنه قد قفز لتوه في مقعده بالقطار من خلال ثقب خفي . كان عنقه يؤله ، والعرق ينفسد من وجهه ، وثمة سحابة من ذباب تحوم حول جبهته .

وفوق الحضرة العابرة أمامه ، كانت سحب ساكنة تتجمع ، متفتحة بالمياه التي امتصتها من البحر ، وعروق البرق تنبجس كالمخالب من وراء مراكرها الرمادية القطيفية .

وتراءت قرية ثم اختفت ، قرية يبدو أنها مهجورة ، مجموعة من المنازل محاطة بأوراق الذرة الجافة ، متجمعة ما بين الكنيسة والمقبرة . وجال في خاطري الوجه الملائكي : « كم أود أن يكون عندي الإيمان الذي شيد هذه الكنيسة في هذا المكان . الكنيسة والمقبرة ، لم يكن باقيا حيا من القرية الآن سوى الإيمان والموت ! » . وغشيت عينيه سعادة الهروب . بيد أن هذا البلد بريعه المتثاقل هو بلده ، هو حنانه ، هو أمه ، ومهما كانت الحياة الجديدة التي يبعثها فيه تركه هذه القرى وراءه ، فإنه حين سيكون وسط أناس من بلدان أخرى ، فيكون دائما ميتا وسط أحياء ، يتوالى خلف الحضور الخفي لهذه الأشجار وشواهد القبور .

وتتابعت محطة وراء أخرى . وجرى القطار بلا توقف ، بصلصل فوق القضبان المتخلخلة . صفارة هنا ، وصرير مكابح هناك ، وراء ذلك تل ترصعه حلقة من الدخان القدر . وأخذ الركاب يروحون بالقبعات والصحف والمناديل ، محتفنين في الهواء الساخن الذي ترويه آلاف القطرات من غرقهم ؛ كانوا يشعرون بالضيق من خشونة مقاعدهم ، ومن الضجيج ، ومن الطريقة التي تنخرهم بها ملائمتهم كأنما ثمة حشرات تقفز بأقدامها على جلودهم ، ورؤوسهم محرقهم كأنما لهم شعر حي ؛ وكانوا عطشى كأنما هم تناولوا مطهرا للامعاء ، وحزنا كأنما كانت ذاتهم .

وأن الغسق في اعقاب ضوء النهار ، واعتصرت السحب رذاذا من المطر ، وبدا الأفق الآن يتسبخ ؛ ويعيدا - يعيدا جدا - التمتع علبة سردين صفيحية يجبط بها زيت أزرق .

ودخل أحد موظفي القطارات ليضيء مصابيح المقصورة . وسوى ذو الوجه

الملائكي بشفقة وربطة عنقه ونظر في ساعته . كان من المتوقع أن يصلوا إلى الميناء في بحر عشرين دقيقة ، بدت له قرناً على ضوء نفاد صبره وشوقه لأن يجد نفسه سليماً معافى على ظهر السفينة . والصق وجهه في زجاج النافذة محاولاً أن يميز شيئاً في الظلمة . كان ثمة رائحة خضروات . وسمع نهراً يجري . وسمع نفس الخربير بعد مسافة أخرى ، ربما هو نفس النهر .

وأبطأ القطار من سيره وسط طرقات قرية صغيرة ، معلقة كشبكات النوم في الظلام ، ثم توقف شيئاً فشيئاً ؛ وبعد أن هبط ركاب الدرجة الثانية يعملون رزمهم ، مضى في سيره بخطى أبطأ تجاه أرصفة الميناء . بوسعه الآن أن يسمع تكسر الموجات ويميز الشكل الشاحب الطامس لمكتب الجمرك تعبق منه رائحة القار ، وبوسعه أن يسمع الزفير النعسان لملايين المخلوقات العذبة المملوكة .

ولوح ذو الوجه الملائكي عجباً من بعيد للرجل الذي كان في انتظاره على المحطة ، لقد كان الميجور « فارغان » . وشعر بالسرور إذ يلتقي في هذه اللحظة الحاسمة من حياته بصديق سبق له هو أن أنقذ حياته . وصاح به : « ميجور فارغان ! » .

وحياه « فارغان » من على مبعدة ، ثم اقترب من النافذة وأخبره ألا يشغل نفسه بامتعة ، ذلك أن بعض الجنود سيحضرون لحملها إلى السفينة . وحين توقف القطار ، صعد وصافح ذا الوجه الملائكي بحرارة . وغادر الركاب الآخرون القطار مسرعين .

- حسناً ، ما هي أحوالكم ؟

- وأحوالك يا عزيزي الميجور ؟ ولكن لا داعي للسؤال ، فلنأري من وجهك . . .

- لقد أرفق لي السيد الرئيس بأن أعطني بكم وأن أرى ألا ينقصكم شيء .

- هذا كرم منك يا ميجور .

ولم يستغرق خروج الركاب من المقصورة سوى دقائق معدودات ، وأطل « فارغان » برأسه من إحدى النوافذ وصاح :

- أين هم القادمون لحمل الحفائب أيها اللفتانت؟ ما معنى هذا التأخير؟ .

ومع كلامه ، ظهرت مجموعة من الجنود المسلحين عند الباب . ولم يدرك ذو الوجه الملائكي الشرك إلا بعد فوات الأوان .

قال « فارغان » ومدسه في يده : إني أقبض عليك بأمر من السيد الرئيس .

- ولكن أيها الميجور . . . إذا كان الرئيس . . . هذا مستحيل ! تعال معي ، تعال معي من فضلك ودعني أرسل برفقة ! .

- إن الأوامر التي لدي صريحة يا سيد ميفيل ، وأفضل لك أن تأتي معي في هدوء !

- كما تشاء . ولكن يجب ألا تنفوتي السفينة . إني في مهمة .

لا أستطيع . . .

- اسكت من فضلك ، وسلمني كل ما تحمل معك على الفور .

- « فارغان ! » .

- أقول لك سلمني ما معك .

- كلا ، استمع إلي يا ميجور !

- هيا ، نفذ ما أقوله لك ، نفذ ما أقوله لك .

- من الأفضل أن تستمع أنت لي يا ميجور .

- فلتكف عن وعيدك هذا !

- إني أحمل معي تعليمات سرية من السيد الرئيس . . . وأنت ستكون المسؤول . . .

- فتشه أيها العريف إسيري حالا من هو السيد هنا ! .

وظهر في الظلام شخص معصوب الوجه . كان في نفس طول قامة ذي الوجه الملائكي ، وفي نفس شحوبه ، وله نفس لون شعره البني الفاتح . وأخذ كل من كان العريف يستولي عليه من جيوب ذي الوجه الملائكي الحقيقي وما يرتديه (جواز السفر ، الشيكات النقدية ، خاتم الزواج المحفور عليه اسم زوجته - وقد

انتزع منه هذا الخاتم بعد أن بلل الإصبع برضاب فمه ، أزرار القميص ،
المناديل (واجتنب على الفور .

وبعد ذلك بفترة ، رنت في الفضاء صفارة السفينة . وغطى السجين أذنيه
ببيديه . كانت الدموع تغطي عينيه . كان يود لو أمكنه أن يكسر الباب ويهرب ،
يجري ، يطير ، يعبر البحر ، يتوقف عن أن يكون الرجل الذي كانه - يا للبحر
الهائج الذي يهدر تحت جلده ، ويا للندبة التي تحترق في لحيه ، وأن يصبح ذلك
الرجل الآخر الذي يرحل الآن إلى نيويورك حاملا أمتعته ومنتحلا اسمه في القصة
رقم ١٧ .

الميناء

كان كل شيء هادئا وسط السكون الذي يسبق تغيير المد . ما عدا أصوات الجنداجد (الرطبية من رذاذ البحر والنجوم تتوهج على أغلفة أجنحتها) ، وصورة النارة منعكسة على صفحة المياه كدبوس المشبك في وسط الظلمة ، والسجين يذرع مقصورة القطار جيئة وذهابا وقد غطى شعره جبهته وتبدلت ملابسه ، كما لو كان قد اشترك لنوه في أعمال شغب . لم يكن يستطيع الجلوس ؛ وطفق يصدر إيماءات وحركات تمثال أفعال نائم يدفع عن نفسه - بالأهات والشكايات - يد الإله التي تجذبه نحو المصير المحتوم : إما أن تشخه الجراح ، أو يموت موتا مفاجئا ، أو يكون ضحية من ضحايا الجرائم ، أو يُفتر بظنه .

وطفق يردد : « إن « فارغان » هو أملي الوحيد . لو لم يكن الكولونيل فارغان هنا ، من يعرف ماذا كان يحدث ! إنه على الأقل سوف يخطر زوجتي إذا هم قتلوني ودفنوني » .

وانبعث صوت ضربات ثقيلة ، كما لو أن هناك قديمين تركلان عربة القطار ، التي وقفت ساكنة على القضبان تحيط بها ثلة من الحرس المسلحين . بيد أن ذا الوجه الملائكي كان يطير بفكره بعيدا هناك ، بين القرى الصغيرة التي مر عليها القطار لنوه ، غارقة في حمة الظلمة أو في غبار الأيام المشمسة الذي يعمى الأبصار ، والتي تتغذى على الخوف من الكنيسة والمقبرة . لم يكن هناك من حي سوى الإيمان والموت .

ودقت ساعة الثكنة العسكرية الواحدة صباحا . واهتزت شبكات العنكبوت . لقد أتم عقرب الساعة الكبير دورة منتصف الليل . ودفع الميجور

« فارغان » ذراعه اليمنى أولاً في كسل في سترته ، ثم الذراع اليسرى ، وبدأ بفك أزرارها ببطء مماثل ، بادناً بالزر الذي فوق السرة ، لم يكن يرى شيئاً مما أمامه على الجدار : خريطة للجمهورية على صورة قم يتناوب ، ومشفة يغطيها غطاء جاف وذباب نعلان ، وسرج ، وبنديقة ، وجربندية* . ومضى بفك زرّاً زرّاً حتى وصل إلى البنيقة . وحين وصل إلى البنيقة ألقى برأسه إلى الوراء ، فوَقعت عيناه على شيء لا يستطيع أن يراه دون أن يؤدي التحية العسكرية : صورة السيد الرئيس .

وفرغ من فك أزرار السترة ، وأطلق ربحاً ، وأشعل سيجارة من المصباح ، وتناول سوط الركوب وخرج . ولم يشعر به الجنود وهو خارج ، فقد كانوا نياماً على الأرض ، متدثرين بعباءاتهم الصوفية كالموميات ؛ أما الحراس فقد حيّوه ببنادقهم ؛ ونفض الضابط المناوب وهو ييصن بعض الرماد هو كل ما تبقى من سيجارته التي نام وهو يدخنها ، ولم يكذب يجد متسعاً من الوقت إلا كي يسمح شفّيته بظهر يده وهو يحكي الميجور قاتلاً :

- كل شيء على ما يرام ، يا سيدي .

كانت الأنهار تنصب في البحر ، كشوارب القفط وهي تنصب في وعاء اللبن . وكان ظل الأشجار السَّال ، وثقل السحالي في نزوها ، والماء في المستنقعات التي تحوم الملاريا فوقها ، والدموع المتعبّة ، كل ذلك كان يتحرك كيبا يصب في البحر .

وانضم رجل يعمل قنديلاً إلى « فارغان » حين دخل إلى عربة القطار مرة أخرى . وتبعها جنديان بإسمان انهمكا في حل العُقد من الحبل الذي سيقيدان به السجين . وأمرهما « فارغان » أن يقيدا ذا الوجه الملائكي ، ومضيا به تجاه القرية ، يتبعهم الحراس الذين كانوا يجرسون عربة القطار . ولم يبد ذو الوجه الملائكي أي مقاومة . لقد ظن أنه قد اكتشف في طريقة الميجور وصونه والعنف الذي طلب به تنفيذ الأوامر إلى الجنود ، وهم الذين كانوا سيعاملونه معاملة خشنة على كل حال دون تحريض منه ، ظن أنه اكتشف في كل هذا خطة يدبرها صديقه كيبا يساعده بعد ذلك حين يذهبون إلى مقر الحراسة دون أن يورط نفسه أمام الجنود . وحين غادروا المحطة ، اتجهوا إلى أقصى نقطة في خط الككة الجديد ، حيث أرغموه

* حافية عسكرية تحمل عل الظهر .

بالضربات على الصعود إلى عربة قطار بضاعة غطيت ارضيتها بروث السماد .
كانوا يضربونه دوماً سبب ، كأننا لديهم أوامر بذلك . وصاح ذو الوجه الملائكي
بالميجور الذي كان يتبعهم متمكناً في حديث مع حامل القنديل : ولكن ... لماذا
يضربوني يا « فارفان » ؟

وكان الرد الوحيد على سؤاله ضربة بكعب البندقية ، ولكن بدلاً من أن تُسد
الضربة إلى ظهره ، وجهوا الضربات إلى رأسه ، مما جعل إحدى أذنيه تدمى ،
وألقت به أرضاً على السماد .

وانتقط أنفاسه ، ثم بصق الروث الذي التصق بقمه من وقع السقطة . كانت
الدماء تقطر على ملابسه . وحاول الاحتجاج ، فصاح به « فارفان » وهو يرفع
صوته في الهواء : إخرس ! إخرس ! .

فصاح ذو الوجه الملائكي دون أن يسقط : « ميجور فارفان ! » . كان
مهتاجاً . وغبَّ الهواء برائحة الدم .

وكان « فارفان » خائفاً مما قد يقوله ذو الوجه الملائكي ، فضربه بالسوط .
ونزك السوط علامة على خذ الرجل التعس ، وناضل مرتكزاً بإحدى ركبتيه على
الأرض كئيباً يمرر يديه من الأغلال .

وقال في صوت يرتجف بالمرارة الجاحمة . لقد فهمت . لقد فهمت . إن هذا
العمل قد يجعلك تفوز بترقية ، بنجمة أخرى ...

فقاطعه « فارفان » وهو يرفع سوطه مرة أخرى : إخرس ، إلا إذا كنت
تريد ...

وأمسك الرجل الذي يحمل القنديل بذراع الميجور مهدداً إياه .
- هيا ، إضربني ، لا تتوقف ، لا تخف . إني رجل ، والحصيان وحدهم هم
الذين يستخدمون السياط .

وسقط السوط على وجه الضحية مرتين ، ثلاث ، أربع ، خمس مرات في أقل
من ثانية .

وتدخل الرجل الذي يحمل القنديل قائلاً : إهدأ يا ميجور ، إهدأ !

- كلا ، كلا . سوف أجعل ابن الكلب هذا بعض التراب . لن يذهب ما
قاله في حق الجيش هكذا دون عقاب الحيوان ... القدر !

وانكسر السوط من الضربات ، فواصل الميجور ضرباته على ذي الوجه
الملائكي بكعب مدسه عما انتزع قطعاً من الشعر والجلد واللحم من وجه السجين
ورأسه . وكان يردد مع كل ضربة : « الجيش ... النظام ... أيها الحيوان
القدر ، خذ هذه ... » .

وسحبوا جسد ضحيتهم الساجي من وسط الروث الذي سقط فيه ، وحملوه
من طرف خط السكة الحديد القصي إلى طرفه الآخر ، إلى أن اصطفت عربات
قطار البضاعة ، الذي سيحملة مرة أخرى خفية إلى العاصمة ، في أماكنها .

وصعد الرجل الذي يحمل القنديل إلى إحدى العربات بصحبه « فارفان » .
كنا قد أمضينا الوقت يتحادثان ويشربان في مقر الحراسة إلى أن حان وقت
الرحيل .

كان رجل القنديل يقول : أول مرة حاولت فيها الالتحاق بالشرطة السرية ،
كان بها أحد أعز أصدقائي ويدعى « لوسوفاسكيز » - الملقب بالقטיפه ...
فقال الميجور : أظن أنني سمعت عنه .

- لم يقبلوني آنذاك ؛ وكان صديقي ذاك رجلاً داهية - لذلك سَمَّوه
بالقטיפه ؛ وبدلاً من ذلك ، وقعتُ في مصيبة وفقدت كذلك ما كنت أنا وزوجتي -
فقد كنت متزوجاً آنذاك - قد وضعناه من أموالنا في تجارة صغيرة . بل إنهم قد
أخذوا زوجتي إلى دار « النشوة اللذيذة » ، تلك المسكنة ...

ونسبه « فرعان » عند ذكر اسم « النشوة اللذيذة » ، بيد أن ذكرى
« الخنزيرة » - رمز جنسها الذي يحمل رائحة المراحيض - والتي أثارَت غريزته
يوماً ما ، لم تَبْعَثْ فيه الآن إلا الفشعريرة . كان كرجل يسبح تحت الماء ، يصارع
طوائف الوقت « ذا الوجه الملائكي » خيالياً يردد على الدوام : « نجمة أخرى ،
نجمة أخرى ! » .

- وما هو اسم زوجتك السابقة ؟ إنني أكاد أعرف كل الفتيات في دار « النشوة
اللذيذة » .

- لن يفيد معرفة اسمها ، فهي قد رحلت عن تلك الدار في نفس يوم التحاقها بها . كان لدينا وليد مات هناك وكاد ذلك يسلبها عقلها . لم يكن المكان المناسب لها . إنها الآن في مغسل المستشفى مع الراهبات . لم تكن لتصبح عامرة أبداً ! .

- ولكنني أعتقد أنني أعرفها . لأنني كنت الشخص الذي حصل على تصريح الشرطة للجناز الذي أقامته السيدة « تشون » للطفل الوليد ، ولكن لم يكن عندي فكرة أنه ابنك الصغير ! .

- أما أنا فقد أصبحت معدما مفلسا . كلا ، شكرا . . . إذا بدأ المرء يفكر في كل ما مر به ، فإن كل ما يورده هو أن يطلق ساقه للريح وينجو بجلده .

- أما أنا فإني كنت سادرا في جهلي إلى أن حاولت إحدى العاهرات أن تنشي بي لدى السيد الرئيس .

- وقد كان ذلك الشاب ، ذو الوجه الملائكي ، متورطا مع الجنرال «كاناليس» . كان غارقاً حتى ناصيته في حب ابنة الجنرال ، التي تزوج منها فيما بعد . ولم يتخذ أوامر السيد الرئيس ، كما يقولون . إني أعرف كل هذا لأن « لوسيو فاسكيز » - الفطيفة - قابله في حانة تدعى «الخطوتين» قبل ساعات قليلة من فرار الجنرال .

فرد الميجور وهو يفتش في ذاكرته : « الخطوتان ؟ » .

- « إنها حانة في ناصية الشارع . وصدق أولاً تصديق : كان مرسوما على واجهتها رجل وامرأة ، كل منهما على أحد جانبي الباب . كانت المرأة تقول - وأنا لا أزال أذكر الكلمات - « تعال ارقص في حانة «الخطوتان» ، أما الرجل فقد كان يحمل زجاجة في يده ويقول : « كلا شكرا ، إني أفضل رقصة الزجاجة ! » .

ومضى الفطار في طريقه ببطء . كانت ثمة رقعة صغيرة من نور الفجر تطفو على البحر الأزرق . وبالتدرج ، من وسط الظلمة ، بدأت تظهر أكواخ القش في القرى ، والجبال القصية ، وسفن البضاعة الصغيرة البائسة ؛ ومقار التكنات كعلب ثقاب مليئة بجداجد ترتدي الملابس العسكرية .

دجاجة عمياء

- « لقد مضت ساعات كثيرة على رحيله » .

في يوم الرحيل ، يبدأ الشخص الآخر بحسب كل ساعة إلى أن يمر ما يكفي كي يقول : لقد مضت أيام كثيرة على رحيله ! . ولكن بعد أسبوعين ينقضي حساب الأيام ويصبح الأمر : لقد مضت أسابيع كثيرة على رحيله ! . ثم شهر كامل . ثم ينقضي حساب الشهور . ثم عام كامل . ثم ينقضي حساب السنين

كانت كميلة تنتظر ظهور ساعي البريد عند إحدى نوافذ غرفة الاستقبال ، وهي تخنئ ، وراء الستائر بحيث لا يراها أحد من الطريق ؛ كانت حلى وتخبط ثياب المولود .

وأعلن ساعي البريد عن مقدمه بالدق كالمجنون على جميع الأبواب الخارجية . ودقة فدقة ، وصل إلى مستوى النافذة التي تفف وراءها كميلة . وتركت كميلة ما تخطط لتنصت وتنتظر ، وقلبها بكاد يقفز من صدرها من فرط الإضطراب والسرور . « أخيرا سأتسلم الخطاب الذي أشتاق إليه ! » حبيبي كميلة « بالخط العريض . . . »

ولكن ساعي البريد لم يدق بابها . ربما كان السبب هو . . . ربما فيما بعد . . . وتاولت ما تخطط ثانية وهي تهمهم أغنية تطرد بها أفكارها الحزينة .

وعاد ساعي البريد مرة أخرى في الأصل . وكان من المستحيل عليها أن تخطط غرزة واحدة في الزمن الذي استغرقته في الانتقال من النافذة إلى الباب . ووقفت تنتظر دقته ، مفرورة ، لاهثة الأنفاس ، غارقة في دموعها ؛ وحين ادركت أخيرا

أن صمت المنزل لم تقطعه أي دفة على الباب ، أغلقت عينها في هلع ، وأخذت تنفض بالبيكاه والقيء المفاجيء والنهبات . لماذا لا أخرج إلى عتبة المنزل ؟ ربما ... بكون ساعي البريد قد نسي - إنه رجل لطيف - وسيحضر الخطاب غدا كأنا لم يحدث شيء .

وفي اليوم التالي ، كادت تخلع الباب من مفصلات وهي تفتحها على مصراعها . وجرت تنتظر ساعي البريد حتى لا ينساها هذه المرة ، وكذلك كيها تحلب الحظ السعيد . ولكنه كان ماضيا في طريقه كالعتاد ، منحاشيا أسلحتها ، يرتدي ملابس خضراء زاهية (لون الأمل) بعينه الصغيرتين الضفدعيتين ، وأسنانها عارية كأنتان الدمية العظمية في كليات التشريح .

شهر ، شهران ، ثلاثة ، أربعة ...

ولم تعد تذهب إلى الحجرات التي تطل على الطريق ، بل جذبها حزنها العميق إلى القسم الخلفي من المنزل . وشعرت بنفسها كأنها هي إحدى أدوات المطبخ ، أو قطعة لحم أو خشب ، أو جرة فخارية ، مجرد شيء لا قيمة له .

قالت إحدى جاراتها من العارفات بأمور الولادة ، حين استشارتها الخادومات في شأن حالة كميلة : « إن هذا ليس بمجرد نزوات بل هو « وخم » « الحمل » . وقد قالت ذلك لمجرد المتعة في الحديث أكثر منه بحثا عن علاج للحالة . ذلك أنه كانت هناك علاجات كثيرة أمام الخادومات : فقد أضأن شموعا للقديسين ، وخففن من حدة فاقتهن بما أخذن يحمله من أشياء غالية خفيفة من المنزل .

وفي أحد الأيام المباركة ، خرجت المريضة من المنزل ، ذلك أن الجثث تطفو إلى السطح أيضا . وجلست مقعبة في عربة أجرة ، تتحاشى عين أي شخص تعرفه ؛ وقد أشاح هؤلاء بوجوههم بعيدا عنها بدلا من أن يجوهها ، وانطلقت وكلها تصميم على مقابلة الرئيس بأي ثمن . وكان إفطارها وغداءها وعشاءها منديل ملبل بالدموع . وكانت لا تزال تعض عليه بتواجدها حين كانت تجلس في غرفة الانتظار . يا لكثرة الشقاء والمشكلات ، إذا حكم المرء على ذلك بالحدس الذي كان ينتظر مقابلة الرئيس ! أهل الريف يجلسون على حافة المقاعد المذهبة ، وأهل المدينة يغوصون فيها ويستندون إلى ظهورها . وكانوا يشيرون للسيدات إلى الكراسي ذات المرفقين في صوت خفيض . وكان ثمة شخص يتكلم في البرمة

الخارجية . السيد الرئيس ! بتقلصت أعصابها بمجرد التفكير فيه ، وركلها طفلها في أحشائها كأنما يقول : فلنخرج من هنا ! .

وانبعثت مهمة أناس يغيرون من جلستهم . تناؤبات . مهمة ملاحظات . خطوات أفدام ضباط أركان الحرب . حركات جندي يحاول تنظيف إحدى النوافذ . ذباب . ركلات الطفل الصغير في أحشائها . لا تكن عنيقا هكذا ! لماذا تنصرف بمثل هذه الحشونة ؟ إننا سنقابل الرئيس لنسأله ماذا حدث لشخص لا يعرف أنك موجود ، ولكنه سيحك حيا عارما حين يعود إلى المنزل ! آه ، إذن أنت تتعطل الخروج كيها تشارك في ما يدعوه الناس بالحياة ! إنني لا أعارض في هذا ، ولكنك أفضل حالا وأمنا حيث أنت الآن ! » .

ولم يقابلها الرئيس . قال لها أحدهم إنه يحسن بها أن تطلب مقابلة رسمية . بريقات ، خطابات ، محادثات رسمية ، بلا جدوى ! لم تكن تتلقى أي رد عليها .

ومرت ليال ، وجاءت أيام ، وغارت عيناها من الأرق أو طفتا في بحيرات من دموع . فناء رحيب . وهي نرفذ على سرير معلق ، تنلهى بحلوى من ألف ليلة وليلة وتلعب بكرة في يدها . وأخذت تنقل قطعة الحلوى من خدها إلى خدها الآخر ، فسقطت الكرة الصغيرة من يدها وتنافزت على أرض الممر الذي يقع تحت السرير المعلق وتدحرجت إلى الفناء بعيدا ، بعيدا ، وأخذت تصغر إلى أن تلاشت تماما ، في حين نما حجم قطعة الحلوى في فمها . لم تكن نائمة كلية . وكان جسدها يرتعش للممس الشراشف . كان حلما تضيئه أنوار الحلم والأنوار الكهربائية على السواء . وأفلتت قطعة الصابون من بين يديها عدة مرات كالكرة المطاطية الصغيرة ، وبدت فطيرة إفطارها . وكانت تأكلها من فرط ما حل بها من جوع . كأنما تنضم في فمها كقطعة الحلوى .

كانت الشوارع كلها خالية والناس كلهم في القداس ، حين تتوجه هي إلى اوين الحكومة ، واحدا إثر الآخر ، في انتظار وصول الوزراء . ولم تكن تعرف كيف تكسب عطف الحراس المعجزة الشكسين ، الذين لم يكونوا يردون عليها حين تكلمهم ، ويطردونها بلا رحمة . أولئك الكتل الشائنة من اللحم البشري - حين تلج في طلبها .

ولكنها الآن تتذكر بقية حلمها . لقد جرى زوجها والتفت الكرة الصغيرة .
الفناء الرحيب . الكرة السوداء الصغيرة . وزوجها يتضاءل حجمه شيئاً فشيئاً ،
ويتبعد عنها رويداً رويداً كأنما هو يبتدى في الطرف المصغر للتلسكوب ، إلى أن
يختفي خارج الفناء وراء الكرة ، في حين تضخمت قطعة الحلوى في فمها ، ولم
تعد تفكر في طفلها المنتظر .

وكتبت إلى قنصل بلدها في نيويورك ، وإلى الوزير المفوض بالسفارة في
واشنطن ، وإلى صديقة إحدى صديقاتها ، وإلى صهر أحد أصدقائها ، تطلب
أبناءً عن زوجها . ولكنها كانت كأنما تلفى خطاباتها في سلة المهملات وليس في
صناديق البريد . وسمعت من بقال يهودي أن السكرتير المحترم للمفوضية
الأمريكية - وهو مخبر سري إلى جانب عمله كدبلوماسي - لديه أبناء مؤكدة عن
وصول ذي الوجه الملائكي إلى نيويورك . ولم يقتصر الأمر على وجود سجلات
رسمية في الميناء والفنادق وملفات الشرطة تثبت وصوله إلى نيويورك ، بل إن
الصحف قد نشرت أبناء وصوله ، وأكد ذلك الناس الذين عادوا مؤخراً من
هناك .

وقال لها اليهودي : « إنهم يبحثون عنه الآن ، ولا بد أن يعثروا عليه ، حيا
أو ميتا ، رغم أنه قد استقل فيما يبدو سفينة أخرى من نيويورك إلى سنغافورة » .

وسألت : وأين تقع هذه السنغافورة ؟

فأجاب اليهودي ، بتكة من أسنانه الصناعية : « أين تظن أنها تقع ؟ إنها في
أهند الصينية » .

فاستطردت تلح قائلة : وكم يستغرق الخطاب في الوصول من هناك إلى هنا ؟

- لا أعرف بالضبط ، ولكن لا أكثر من ثلاثة شهور .

وأحصت على أصابعها . لقد رحل ذو الوجه الملائكي منذ أربعة شهور .

إنه في نيويورك أو في سنغافورة . لقد انزاح حل ثقيل من على ذعناتها - يا لها
من راحة كبرى أن تفكر فيه بعيداً ، وأن تعرف أنه لم يقتل في الميناء كما أشاع
البعث ، وأنه رغم كونه بعيداً عنها في نيويورك أو في سنغافورة فإنه يفكر فيها طول
الوقت !

وأمسكت بالخافية في حانوت اليهودي حتى لا يغمى عليها . كان فرحها قد جعلها تشعر بالدوار . وخرجت كأنها تمشي على الهواء ، أو كأنها بين ذراعي زوجها في بلد جديد ، مخلقة وراءها حُم فخذ خنزير ملفوفة في الورق المقضض ، والزجاجات وسط القشر الإيطالي ، وعلب المربى ، والشيكولاته ، والتفاح ، والرنحة ، والزيتون ، والسماك المجفف ، والعنب الموسكاتي ، مع خروجها من محل البقال . « كم كنت بلهاء أن أعذب نفسي على هذا النحو ! إني أفهم الآن السر في عدم كتابته لي ، ويجب عليّ أن أمضي في تمثيل دور المرأة التي هجرها زوجها والتي أغمتها الغيرة وتسعى إلى العثور على الرجل الذي تركها ، أو دور الزوجة التي تريد زوجها إلى جوارها خلال لحظة الولادة النصعة » .

وحجزت قمرة في إحدى السفن وحزمت حقائبها . وكان كل شيء جاهز لسفرها حين رفضوا إعطاءها جواز سفر . ثمة فتحة مملثة بالأسنان المطلخة بالنيكوتين عاطة بإطار من اللحم المنتفخ تحركت من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، لتخبرها أن أوامر قد صدرت بعدم إعطائها جواز سفر . وحركت هي شفتيها من أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى ، في محاولة لتكرار العبارة كأنها هي قد سمعت خطأ .

وأنفقت مالا وفيراً على بريقات بعثتها إلى الرئيس . ولم يصل رد . ولم يقدم لها المسؤولون الحكوميون أية معونة . ونصحها وكيل وزارة الخربية ، وهو رجل سيحط طبعه مع النساء ، بأنها تلح في هذا الموضوع ، فليس هناك من جهد يمكن أن يسفر عن إعطائها جواز سفر ، وقال إن زوجها قد حاول اللعب على السيد الرئيس ، وأن الأمر ميؤوس منه .

ونصحوها بالذهاب لمقابلة قس ضئيل الحجم ذي نفوذ ، أو إحدى عشيقات الرجل الذي يزود الرئيس بجياده . ولما ترددت الشائعات حينئذ بأن ذا الوجه الملائكي قد مات بالحمى الصفراء في « بناما » ، فقد وجدت كميلة كثيرين على استعداد لاصطحابها إلى جلسات تحضير الأرواح كيما تحسم الشك باليقين . وهناك ، ! ينتظروا حتى تكرر سؤالها هم . ولكن الوسيطة الروحانية بدت مترددة ، إذ قالت وسافها الضافران تهزان تحت ثيابها الجامدة : إني لا أحب أن أغل في جسدي روح شخص كان من أعداء السيد الرئيس . ولكن الضراعة ، مشرونة بالمال ، تهز الجبال ، فوافقت الوسيطة بعد أن افعموا جيها بالنقد .

واطففت الأنوار . وارتفعت كميّلة حين سمعتهم يسندعون روح ذي الوجه
اللاتكي ، واضطروا أن يكرّوها خارج الحجرة وهي تكاد تكون غالبة عن وعيها .
وقالوا لها بعد ذلك إنها سمعت صوت زوجها ، الذي مات في أعالي البحار ، وهو
الآن في برزخ لا يمكن الوصول إليه ، راقد في سرير مترق مرقه ، على جشبة من
الماء ، محاط بجداول مليئة بالأسماك ، علاوة على أفضل وسادة : إنعدام
الوجود .

كانت قد أصبحت نحيفة مخضنة كالقطة المعجوز وهي لم تتعد العشرين من
عمرها ، ولا شيء يبين في وجهها سوى عينيها . عينان خضراوان تحببهما هالات
سوداء في حجم أذنيها الشفافتين ، وذلك حين وضعت طفلا صغيرا . وبناء على
نصيحة طبيبها ، فإنها حالما نهضت من الفراش ، سافرت إلى الريف لتتمكث هناك
بعض الوقت . وتعلقت بالحياة من أستار وأهبة . إذ كانت مهددة بالاصابة
باللنيميا الخبيثة ، والسل ، والجئون ، وهي تنلمس طريقها وطفلها بين ذراعيها
بلا أنباء عن زوجها ، باحثة عنه في المرأة : المكان الوحيد الذي يعود فيه الناس
الذين غرقوا ، وفي عيني طفلها . وفي نفسها حين تنام وتحلم به في نيويورك أو في
ستغافورة .

وأخيرا ، جاء يوم ألقى ضوءاً على ليل حزنها المدهم ، حين كانت تتجول
كالطيف بين أشجار الصنوبر وبساتين الفاكهة والأشجار السامقة في الحقول . كان
يوم « الأحد الأبيض » ، حين مسحوا طفلها بالملح والزيت والماء ورضاب القس ،
وخلعوا عليه اسم « ميغيل » . كانت العصفير تنلطف بمناقيرها - أوقيشان من
الريش تغرد إلى ما لا نهاية . وكانت الأغنام منهكة في لعق صغارها . يا له من
إحساس كامل بالخير والرفاه خلفته حركات لسان الأم في الحمل الرضيع ، الذي
أخذ يرفرف بأهدابه الطويلة تحت وقع ملاحظتها له ! وتسابقت الأمهات جريا وراء
الفرسات ذوات العيون الرطبية . وثغت العجول الصغيرة ببهجة واللعباب يبرق
بين فكّيهما وهي تحكهما بالضرع المترعة باللبن . ويدون أن تدرك سببا لذلك ،
ضمت كميّلة طفلها إلى صدرها حين إنتهت موسيقى النعميد ، كما لو أن الحياة قد
عادت إليها من جديد .

ونشأ « ميغيل » الصغير في الريف وأصبح مزارعا . ولم تظأ كميّلة « المدينة
بقدمها بعد ذلك أبدا .

كل شيء على ما يرام

مرة كل اثنين وعشرين ساعة ، ينفذ الضوء ما بين خيوط العنكبوت وأعمدة النافذة الحجرية إلى السرداب الأرضي ؛ ومرة كل اثنين وعشرين ساعة تتدلى إلى أسفل صفيحة غاز قديمة صدئة من حبل معقود نثن بالطعام للسجناء في الزنانات السردابية . وعند مرأى الصفيحة مليئة بمرق الدهن وبها مِرْقٌ من اللحم الدهني وقطع العجين ، كان السجين رقم ١٧ يشيح بوجهه عنها . كان يفضل أن يموت على أن يأكل ولو ملعقة واحدة منها . ويوما بعد يوم ، تثلث الصفيحة ثم ذهبت دون أن تمسها يد السجين . ولكن الحاجة كانت تلتهم عزمه تدريجيا ، فقد تركه الجوع بلا إرادة ولا تصميم ، وانتفخت عيناه وغطت بؤبؤيه مسحة زجاجية ، وطفق يتكلم بصوت عالٍ حديثا مشوشا إذ هو يذرع زنارته الضيقة جينة وذهابا ، ويحك أسنانه بأصابعه ، ويلوي أذنيه الباردتين . وجاء أخيرا يوم إندفع فيه إلى الصفيحة المدلاة كما لو كان يخاف أن تُرفع عنه في أية لحظة وغمس فيها فمه وأنفه ووجهه وشعره . وهو يكاد يغرق من الجهد الذي يبذله في البلع والمضغ في أن واحد . وأنهى الحصة المخصصة له ، وحين جُذِبَ الحبل إلى أعلى راقب الصفيحة الفارغة ترتفع بسرور الحيوان الذي أشبع نهمه . ولم يستطع أن يمنع نفسه من مص أصابعه ولعن شفنيه . بيد أن شبعه كان قصير الأمد ، إذ سرعان ما تقيا كل ما أكله وسط لعناته وآهاته . والتصق اللحم والعجين بمعدته ورفض أن يتزحزح ، ولكن كل تشنج معوي كان يضطره إلى الانحناء على الجدار فاغر الفم كشخص ينحني فوق حوة عميقة . وأخيرا انتظمت أنفاسه ، ولكن رأسه كان لا يزال يدور . ومشط شعره الرطب بأصابعه ، وهبط بها فيها وراء أذنيه كيما ينظف لحينه من القيء . كانت أذناه تُصفيران ، ووجهه غارقا في عرق بارد لزج حريف ، كمياه البطارية الكهربية . وكان الضوء قد أخذ ينحسر بالفعل - إذ هو ما يكاد يأتي حتى

ينحسر . وعهد إلى التثبيت بما بقي له من قوة جسدية ، كأنما هو يصارع نفسه ، فنجح في الجلوس القرفصاء ، ثم مد ساقيه وأراح رأسه على الجدار ، واستسلم لثقل جسده كأنما هو قد تعاطى غدرا قويا . بيد أنه لم يسترح في نومه ، ذلك أن صراعه كئيبا يتنفس رغم عدم كفاية الهواء تبعته حركات يديه المقلقة على جسده ، وقيامه بسحب إحدى ساقيه ثم الأخرى ، ثم مدّها ثانية في حركة لا إرادية ، وجهوده المحموسة كي يقتلع الفحم الحبي الذي بدا كما لو كان يحرق حلقة ، بخوذات أظافره الصغيرة . وحالما أصبح نصب مستيقظ بدأ يفتح فمه ويغلقه كالسمكة خارج الماء ، كئيبا يتذوق الهواء المتلجج بلسانه الجاف ؛ وحالما اكتمل استيقاظه أخذ يصيح في هذيان محموم ، واقفا على أطراف أصابعه وجاذبا قامته إلى أقصى حد لها ، حتى يستطيع كل شخص أن يسمعه . وأخذت صيحاته تضعف شيئا فشيئا إذ يتردد صداها وسط أقبية السرايب . وقرع بقبضته على الجدران ، ودق بقدميه على الأرض ، وصاح عاليا مرة أخرى وأخرى ، إلى أن تحولت صيحاته إلى صراخ ... « ماء ، مرق ، ملح ، دهن ، أي شيء ، ماء ، مرق ... » .

وسقط على يده خيط من الدماء ... دماء عقرب مهروس ... أو عقارب ... ذلك أن الدماء استمرت تسيل ... دماء كل العقارب المهروسة في الساء وقد تحولت إلى أمطار ... وأطفأ عطشه دون أن يعرف من أين تنهل عليه تلك الهبة السائلة ، التي أصبحت بعد ذلك مصدر عذاب له . ذلك أنه أمضى ساعات وساعات مقعيا على الحجر الذي اتخذته وسادة ، حتى بقي قدميه من بركة المياه التي تكونت في زنزانته حين حل الشتاء ، ساعات وساعات ، مبتلا حتى فمة رأسه ، بفطر بالمياه ، مبتلا حتى نخاعه ، بثناءب ويرنجف ، يعاني عذابات الجوع كلما تأخرت الصفيحة الصغيرة في المجيء . وكان يأكل بنهم النحيفين من الرجال كئيبا بغذي أحلامه ، ثم يستغرق في النوم واقفا بعد آخر قضمة . وبعد ذلك ، كانت تُدلى إليه صفيحة أخرى يقضي السجناء الانفراديون حاجاتهم البدنية فيها . وفي أول مرة سمع السجن رقم ١٧ تلك الصفيحة تُدلى إليه ، ظن أنها وجبة غذاء أخرى ، وذلك في الوقت الذي دأب فيه على رفض الطعام ، فكان بتركها تصعد إلى أعلى دون أن يحظر بخياله أنها تحتوي على سراز ، ذلك أن رائحتها الكريهة كانت هي نفس رائحة المرق . وكانت هذه الصفيحة تنتقل من زنزانية إلى أخرى ، وحين تصل إلى رقم ١٧ ، تكون نصف ملانة . ويا لقسوة مشاعره حين يسمعه

تدلى إليه حين لا يحتاج إليها ، ثم لا تأتي حين تمس حاجته إليها ويصم أذنيه بقرعه على الخائط كلسان الجرس المصمت ! وأحيانا يشتد به العذاب فتموت رغبته بمجرد التفكير في الصفيحة : متسائلا هل ياترى تأتي أم لا تأتي ، أو تتأخر أو ينسونها كلية (وهو ما كان يحدث أحيانا) أو ينقطع حبها (وكان ذلك يكاد يحدث كل يوم) فتعنى أحد السجناء دشا ثقيلًا . لقد كان مجرد التفكير في الأبخرة التي تنصاعد منها ، والدفء البشري ، والأطراف الحادة للصفحة المستديرة ، والجهد المتضروب ، كافيا كيما يقطع رغبته ، لم يكون عليه إذن أن ينتظر المرة القادمة ، وأن يتملئ إثنين وعشرين ساعة من المص ، وعسر التبول ، والسدموع ، والنفثات ، والشئانم ، وطعم النحاس في رضابه ، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يقضي حاجته على الأرض ، مفرغا المحتويات الثنتي لمعدته كالكلاب أو الأطفال ، وخذة مع الموت .

ساعتان من الضوء ، واثنان وعشرون ساعة من الظلام الخالك ؛ صفيحة مرق ، وصفيحة براز ؛ عطش في الصيف ، وقيضان في الشتاء : هذه هي الحياة في الزنانات السردابية .

وقال السجن رقم ١٧ لنفسه بصوت لم يكده يتعرف عليه : « إن وزنك يتناقص كل يوم ، وسرعان ما تستطيع الريح أن تحملك إلى حيث كميعة تنتظر عودتك إلى المنزل ! لا بد أنها قد نعتت من طول الانتظار ، لا بد أن الحزن قد جعلها نحيلة كعمود الخيزران ! ماذا بهم لو نحلت يداك ؟ أنها سوف نعيد اليها الدفء ، نضمها إلى صدرها . قدرتان ؟ إنها سوف تغسلها بدموعها ! عيناها الخضراوان ! أجل ، مثل صور الحفول الخضراء في التيرول السماوي التي تظهر في مجلة « السناسيون » ، أو في خضرة أعواد القصب المبرقشة بالأصفر الفاقع واللون البلي . ومذاق كنداتها ، ومذاق شفتيها ، ومذاق أسنانها . . . ومذاق مذاقها . . . وجسدها . كرقم ثمانية يخضرها النجيل ، أو سحابة الدخان على شكل القيثارة التي تخلفها الصواريخ النارية حين تنطلق وتفقد قوة دفعها . لقد خطفتها من برائن الموت في ليلة كانت الصواريخ النارية تنطلق إلى السماء . . كانت الملائكة تنهادي ، والسحب تنهادي ، والأسطع تنهادي ، بخطوات قصيرة تشبه خطوات الحارس الليلي ، والبيوت ، والأشجار ، كل شيء كان ينهادي في الهواء معها ومعها . »

وكان يشعر بكميلة إلى جواره ، كالبيودة الحريرية الملمس ، في كل نسمة يتنفسها ، في أذنيه ، بين أصابعه ، تجاه ضلوعه التي تهز عيني أحشائه العمياء كالأهداف الراجعة . . .

وكان يمتلكها . .

كانت الرعشة تأتي في رفق ، دون أذن تقلص ؛ تمر رجفة خفيفة على طول أشواك عموده الفقري المتوترة ، ثم تنقبض فتحة الخبال الصوتية في سرعة ، ثم تسقط ذراعاه على الأرض كأنها قد بُترا . . .

وكان التنقز الذي يسببه له إرضاء حاجته في الصفيحة ، مضاعفاً للآلم الذي يفرضه من جراء إرضاء حاجاته الغريزية بهذه الطريقة العقيمة بذكرى زوجته ، يتركه دون أية قدرة على الحركة .

وبالأداة المعدنية الوحيدة التي كانت في متناوله ، وهي قطعة صغيرة جدا من النحاس الأصفر انتزعها من أحد شريطي حدائه ، قام بحفر إسم كمييلة واسمه متشابكين على الجدار ، واستغل وجود الضوء الذي يزور زنايته كل النتين وعشرين ساعة فأضاف إلى الرسم قلبا . وخنجرا ، وتاجا من الشوك ، وعلبا ، وصليبا ، وقاربا صغيرا ، ونجبا ، وعصنودين صغيرين كالشرطة التي على حرف النون بالإسبانية ، وقطارا للسكة الحديد يخرج منه شريط حلزوني من الدخان .

ولحسن الحظ ، أعفاه ضعفه من عذابات الجسد . فقد فكّر في كمييلة وفد عات الدمار في بدنه ، كما يشم المرء زهرة أو يسمع قصيدة . كان يفكر فيها كالوردة التي كانت تزهر كل أبريل ومايو في شرفة غرفة الطعام التي كان يتناول فيها الافطار كل صباح مع والدته أيام طفولته : فرع صغير غريب من فروع شجرة الورد . وتخلّفت سلسلة من الصياحات الصيانية حائرا . كان النور يخفت يخفت . . . كان النور يخفت ، حالما يجي وابتلعت الظلمة الجدران السمكة كأنها قطع من البسكويت . وسرعان ما ستصل بعد ذلك صفيحة البراز . أم لتلك الوردة ! صوت الجبل الخشن ، والصفيحة معلقة في خيل بين جدران الأفيئة المنعرجة . وارتجف من ذكر النتاة التي تصاحب هذا الزائر الهام . ذوّاهاً لوردته ، ناصعة البياض كالجليب في طبق إفطاره !

وعلى مر السنين ، أصاب السجين رقم ١٧ المحرم ، من المعاناة أكثر منه من

مرور الزمن . وحفرت غصون عميقة لا حصر لها أحاديث في وجهه ، ونبت له شعر أبيض كما نبت للنمل أجنحة في الشتاء . ولم يبق شيء من هيئته . . . ولم يبق شيء من جسده . . . دونما هواء ، دونما شمس ، دونما حركة ، يعاني من الدوسنطاريا والروماتزم والخور العصبي ، يكاد لا يرى ، لم يعد حيا فيه سوى الأمل في أن يرى زوجته مرة ثانية ، ذلك الحب الذي يدعم القلب في مواجهة الآلام والشقاء .

*

أزاح رئيس الشرطة السرية مقعده إلى الخلف ، وعقد قدميه تحتة ، واستند برفقيه على المضدة السوداء السطح ، وأدنى قلعه من الضوء . وشدّ على أسنانه إذ مد فجأة إصبعين في حركة قارصة نجح بها في استخلاص شعرة من من القلم كانت تختلج على الحروف التي يكتبها شوارب كشوارب الجمبري . ثم مضى يكتب :

« . . . وبناء على التعليمات الواردة » وثنى القلم طريقه على سطح السورقة من ضربة لأخرى « عمل المدعو » فيش » على كسب صداقة السجين نزبل الزنزانة رقم ١٧ ، بعد أن أودع الحبس معه لمدة شهرين ، وتظاهر بالبكاء طوال النهار والليل ، صائحا على الدوام ومحاو لا الانتحار بين وقت وآخر . وتطورت صداقتها إلى تبادل الكلام ، فسأله السجين رقم ١٧ عن الجريمة التي ارتكبها في حق السيد الرئيس حتى يرسل به إلى هذا المكان الذي ينقطع فيه كل رجاء . ولم يجب المدعو « فيش » ، بل اكتفى بدق رأسه على الأرض وإطلاق سيل من السباب الضيق . ولكن السجين رقم ١٧ أصر على سؤاله إلى أن أطلق لسان « فيش » من عقاله فحكى له قصته : لقد ولد في بلد يتقن كل أهله الحرفة التي أصبح يعتاش منها ، لذلك فقد سافر إلى البلد الذي هما فيه الآن والذي يعاني نقصا في أهل حرفته . الرحلة . الوصول . بلد مثالي للأجانب . عمل هنا ، أصدقاء هناك ، مال ، كل شيء . ثم رأى فجأة امرأة في الطريق ؛ تتبعها مترددا ، ضد رغبته . متزوجة ؟ عزباء ؟ أملة ؟ . لم يتر إلا شيئا واحدا ، هو أن عليه أن يتبعها . يا لهاتين العينين الخضراوين الساحرتين ! فم كالوردة . وهي تمشي كالغزال الرشيق . ويصمم على الإتصال بها ، ويسير قبالة منزلها ، وينجح في الدخول ، ولكن عندما حاول التحدث إليها لم يرها بعد ذلك أبدا ، وأخذ رجل مجهول ينتهج خطواته بعد

ذلك كظله اينها ذهب . ما معنى ذلك يا اصدقائي ؟ ويدير أصدقاؤه وجوههم . ما معنى ذلك يا أحجار الطريق ؟ وترتجف الجدران من سماع سؤاله . والشئ الوحيد الذي يصبح واضحا جليا هو أنه قد اندفع وتحراً إلى حد أنه قد أراد أن يحب عشيقه السيد الرئيس . وهي ابنة أحد الجنرالات ، استسلمت للرئيس انتقاما ، لأن زوجها قد هجرها ، كما قالوا له قبل أن يقبضوا عليه ويلقوا به في السجن بتهمة الفوضى .

« ويذكر المدعو « فيش » أنه عند هذا الحد من القصة سمع صوتا يشبه صوت فحيح الثعابين وسط الظلام ، وأن السجين رقم ١٧ الذي يشاركه الزنزانة توجه إليه ورجاء في صوت ضعيف ضعف زعنفه السمك أن يخبره باسم تلك السيدة ، وكرر المدعو « فيش » أسمها له مرتين : كميلة كاناليس ، كميلة كاناليس . ومن هذه اللحظة ، بدأ السجين يغمس نفسه كأنما جسده كله مصاب بالحكة الجلدية ، رغم أنه لم يعد يحس بأي شيء فيه ؛ ومزق وجهه كئيبا يحس دموعه التي سالت حيث لم يعد فيه سوى جلد جاف ، ورفع يده إلى صدره ولكنه لم يستطع أن يعثر عليه ، وكان كسبيج عنكبوتي من التراب الرطب وقد سقط على الأرض . . .

« ووفقاً للتعليمات ، قمت بتفمي بسلم المدعو « فيش » ، الذي حاولت أن أنقل شهادته حرفيا في هذا التقرير ، « سبعة وثمانين دولارا ، تعويضا عن الفترة التي قضتها في الحبس ، وحلّة مستعملة من الكشمير ، وتذكيرة سفر إلى « فلاديفوستوك » . وقد حررت شهادة وفاة السجين رقم ١٧ على النحو التالي :

وفاة نبيجة زحار أي اسهال مُعْدٍ .

« هذا هو كل ما أتشرف بإبلاغه إلى السيد الرئيس . . . »

خاتمة

ظل الطالب واقفا مشدوها على حافة الطوار كما لو أنه لم ير في حياته رجلا في مسوح القسس من قبل . ومع ذلك ، لم يكن ثوب القس هو الذي أدهشه ، بقدر ما أدهشه ما همس به مساعد القس في أذنه إذ هما يحتضن أحدهما الآخر ببهجة حين يلتقيا بعد أن أفرج عنها :

- « لقد تلقيت أوامر بأن أرندي هذا الثوب ! » وكان سيني كلامه عن ذلك ، ما لم ير في هذه اللحظة صقاً من السجناء يمرّون وسط صفين من الجنود في وسط الطريق . وغنم مساعد القس في حين صعد الطالب إلى الطوار :

- « يا للنعساء الساكنين ، هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعوه لقاء هدم « رواق الرب » ! ثمة أشياء يجب رؤيتها عياناً كيما يصدقها المرء » .

وهنف الطالب متعجباً : « إننا نراها ، ونلمسها ، ثم لا نصدقها ! انني أتحدث عن « البلدية » » .

- ظننتك نعي ثياب القس التي أرنديها . .

- إنهم لم يكتفوا بإرغام الأتراك على دفع نفقة تحديد طلاء الرواق ، بل إمتد غضبهم من اغتيال « الرجل ذي البغل الصغير » إلى هدم البناء نفسه » .

- إحتذر أن يسميك أحد أبها الشرثار . إصمت بحق الله ! هذا ليس مؤكداً . . .

وكان لدى مساعد القس المزيد من القول ، بيد أن رجلا ضئيل الحجم كان يجري وسط الميدان عاري الرأس ، توجه نحوهما وزرع نفسه فيما بينهما وأخذ يغني

بأعلى صوته :

أيتها الدمية الصغيرة
أيّ نحات ماهر صنعك ؟
هذا الوجه اللطيف ؟

وصاحت امرأة تجري وزاءه وهي تُرى على وشك الانفجار في البكاء في أية
لحظة : « بنيامين ! بنيامين ! » .

« إنه ليس « بنيامين » الأراجوز
لا ، ليس هو
الذي جعل منك شرطيا
ودمية لطيفة !

وصاحت به المرأة وهي تكاد تبكي الآن : بنيامين ! بنيامين ! أرجوكما ، لا
تهما به ، لا تلقيا بالا إليه : لقد جرتُ تماما ؛ إنه لا يستطيع أن يفهم أن « رواق
الرب » لم يعد له وجود الآن !

وبينما كانت زوجة الأراجوز تقدم الاعتذارات عنه لمساعد القس والطالب ،
هرع السيد « بنيامين » بعيدا كيما يغني أغنيته لشرطي منحرف المزاج :

أيتها الدمية الصغيرة
أي نحات ماهر صنعك ؟
أي صانع أعطاك
هذا الوجه اللطيف
أنه ليس بنيامين الأراجوز
لا ، ليس هو
الذي جعل منك شرطيا
ودمية لطيفة !

وتضرعت زوجة السيد بنيامين الأراجوز وهي تقف بينه وبين الشرطي :
أرجوك ألا تقبض عليه ، إنه لا يقصد شرا ؛ إلا ترى أنه مجنون ؟ إنه مجنون أقول
لك ، لا تقبض عليه ، كلا ، أرجوك ألا تضربه . لقد بلغ به جنونه أنه يقول إنه

يرى المدينة كلها ترقد حطاما كالرواق المهدوم !

وكان السجناء لا يزالون سائرين . كيف يكون الحال لو أن المرء كان واحدا منهم وليس مجرد شخص ينظر إليهم وهم يعبرون ؟

ووراء مركب الرجال الذين يدفعون عربات يد صغيرة ، جاء رجال يحملون معاول ثقيلة فوق اكتافهم كأنها الصليب ، ووراءهم أيضا صفان من الرجال يجرون قيودهم بحبل رنين كالجلال .

وتغلس السيد « بنيامين » من يدي الشرطي الذي كان يجادل زوجته بحدة متزايدة ، وجرى يرحب بالسجناء بأية عبارات بلهاء وردت على ذهنه ساعته :

- « انظر ماذا صنع الدهر بك يا « بانشو نونانشو » ، وسكينك تلك التي تأكل الجلد وتحب صنع الخروق في حجرة النوم القلبيبة ! انظر ماذا حلّ بك الآن يا « لولو كوشولو » ، بمنجلك ذي الذيل المروحي ! انظر كيف تمشي الآن يا « مكسنو ملندريس » ، بينما أنت معتاد على ركوب الحصان ، مياه جديدة لتنجرك ، أيها اللوطي الخائن ! من رأك ومعك مدسك حين كان اسمك « دومغو » ، ومن يراك الآن بدونه حزينا كيوم من أيام الأسبوع . لقد نقلت إليهم القمل ، فعلينا هي أن نقلّهم . إن المبار المغطى بالأسماك لا يمكن أن يصنع بخنة للجنود ! أي شخص لا يملك قفلا لاغلاق قفمه يحسن به أن يضع في يديه القيود ! » .

كان صبية الحوانيت عائدين إلى بيوتهم ، وعربات الترام مكتظة إلى آخرها . وثمة عربة أجرة ، أو عربة ، أو دراجة . . دفقة من الحياة لبرهة قصيرة ، دامت الوقت الذي استغرقه مساعد القس والطالب في عبور ميدان الكتدرائية ، ملجأ الشحاذين ومستودع الملحدين ، وتوديع الواحد منها للآخر أمام باب قصر كبير الأساقفة .

ونظر الطالب باحتقار إلى أطلال الرواق من على جسر من الألواح الخشبية التي نصبت على الحطام . وكانت ثمة نفحة ريح ثلجية قد أثارت سحابة كثيفة من الغبار ، كالدهان بلا نار أو بقايا انفجار قصي . وهبت نفحة ريح أخرى فأنارت وابلا من قطع أوراق رسمية ، لم تعد لها فائدة الآن ، تمطر على الموضع الذي كان يوما ما غرفة الاجتماعات في البلدية . وتماوجت بقايا اللوحات القماشية المعلقة على الجدران الساقطة ، كالرايات في مهب الريح . وفجأة ، ظهر ظل الأراجوز

يركب مكتسة ، منعكسا على صفحة خلفية زرقاء مليئة بالنجوم ، وخمسة براكين
صغيرة من الخصى والحجارة عند قدميه « طش ! » وفقرت الدقات التي تعلن تمام
الثامنة مساءً في وسط الصمت - « طش ! طش ! » .

ووصل الطالب إلى بيته في نهاية شارع مسدود ، وحين فتح الباب ، سمع
صوت أمه (يقطعه سعال الخدامة إذ هما يستعدان لثلاوة صلاة المساء) تتلو على
مبعتها :

« ... للمحتضرين وللمسافرين ؛ كنيا محل السلام بين الحكام المسيحيين ؛
لمن يقاسي من اضطهاد العدالة ؛ لأعداء الدين الكاثوليكي ؛ لاحتياجات الكنيسة
المقدسة المسيحية ، ولاحتياجاتنا ؛ للأرواح المباركة في المطر القدسي ... إرحمنا
يا رب » .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٠٨٣ .

